عبد الكريم جويطي

المغاربة

رواية



المركز الثقافي العربي

عبد الكريم جويطي

المغاربة

رواية

إلى محمد الأشعري

انتهى كل شيء. وصار بإمكاني أن أتعامل مع ما يجري بحياد تام. هو الآن ممدَّد بجانبي شبه جثة هامدة، ونحن مرميان في سيارة إسعاف لا تتحرك بالعجلة المعتادة، بل إنها لم تشغِّل منبهاً وبدل ذلك شغَّل سائقها شريط أغنية صاخبة كأنه يسير في موكب عرس. الحالة بحسب تقديره ميؤوس منها، ولا حاجة للاستعجال فيها. حرَّكت يدي ببطء وحذر حتى لامست يده وصعقت. لولا الشعر لخلتُ أنني لامست قطعة ثلج، يده باردة، باردة، باردة. أنا الآن برأس مهشم وبقوى خائرة تماماً، بل بجسد ميت، رجل يهجر نفسه ويتملاها في سكينتها وتسليمها الأبدي. نفسي الوثابة، الهصورة، المضطرمة، الهادرة، المقدمة، المدبرة، الضاجة، القلقة، الواهبة، المانعة، الهينة، القادرة، المتنطعة، الحارة، الباردة، نفسي التي كلما كبَّلتها بقيد كسرته أو أمسكتُها بلجام قطعَتْه ومضت في طريق مترعٍ بالشهوات والآفات والمخاطر، تبدو الآن طيِّعة منقادة هامدة. أنا ولستُ أنا، ماتت الحواس، ماتت اللهفة والكبرياء. أطفو فوق جسدي بلا ألم ولا حمى وبقفزات تتصاعد في السماء الرحبة وأتملاها بشماتة حادة وببسمة غريبة أيضاً، كأنني غيمة بيضاء صافية

صار بإمكانها وهي تراقص الريح في الأعالي أن تهزأ من قطرة الماء المعفّرة بالوحل ومن خيط البخار التي كانتهما.

نستلقي جنباً إلى جنب في هذه النهاية البئيسة لملحمة عناد وحشي خاضَ فيها كل واحد منا، وبكل الأسلحة الممكنة، حربه الطويلة الصامتة ضدّ صلابة وتماسك الآخر بدون رحمة وبدون التفكير في أي تنازل. وحّدتنا عُزلة العمى وبؤسه العميق وفرَّقتنا الأهواء وحب النفس، بل إنّ الهول القاسي لحبّ الذات ضرب الواحد منا بالآخر وتركنا نغرز الأظافر في رقاب بعضنا البعض، ولو لم ألتقِ به لكانت حياتي وحياته تصريفاً هادئاً. لقدر جعل من زماننا ليلاً أبدياً.

حين وصلنا المستشفى سمعتهم يقولون: واحد مات، والآخر في نزعه الأخير. لم أجزَع، أحسّ بما يفعلونه بجسدي وهم ينقلونه من مكان إلى مكان آخرِ. أحسّ بهم يجردونني من ثيابي ويتركونني كالدودة. أحسّ بهم وهم يجسّون بأيديهم جهة ما من رأسي ولا يُثير في ذلك أيّ مشاعر خاصة كأنّ ما يجري لي يحدث لشخص آخر كان يسكُنني وتحرّرت منه، بل صار بإمكاني أن أرى آلامه ببرودة لئيمة. كانت روحي، أو ما تبقّى منها، والتي بإمكانها أن تئنّ، وتتعذب، وتتفجع، غارقة في مرارات انتصارها ويأسه. ما قيمة نصرٍ استوى فوق كلّ هذا الخراب؟ ما قيمته؟ والخاسر ليس سوى حيِّز من إنسانيتنا، كما قال أحد الذين ألهموا حياتي المنقضية.

أسير نحو العدم بروحٍ قانعة، لم تعُد تجد بداخلها تلك الطاقة

على انتزاع نفس واحدٍ من الحياة. لم تسفح دمائي فقط، بل تسرَّبت معها حياتي كلها. وكما تبتعد الماغما عن فوهة البركان ببطء وتحرق، وتخفي كلّ ما يعترض طريقها، كانت حياتي تبتعد ببطء، هي أيضاً، عني وتتبخر. أراها، وهي خارجة، كتلة واحدة وأندهش، لِأين تركت تعاقُبها البليد؟ وكيف تحرَّرت من عقد السنوات والشهور والأيام والساعات الذي كان يقسمها ويضبطها في مسار متسلسل؟ أرى أحداثاً عشتها بفرق سنوات متجاورة مع بعضها البعض، بل متداخلة. أرى أحداثاً تافهة تكبُر وتصير هامة، ولا أجدُ بداخلي أيّ أثر لأحداث كنت أعتقد أنها حاسمة في حياتي. أراها مثل حقل ذرة تعرض لصاعقة مدمرة، لم تترك فيه إلّا بعض الأعواد المتناثرة. لم أكن أعيش في الزمن، بل الزمن كان يعيش بداخلي، وها هو يندلق كمصارين كرش مبقورة، ولا أعرف مبتدأه ولا خبره.

من يملك القدرة على تغيير أحداث وقعت؟ الله نفسه، وفي نواميسه التي يجري بمقتضاها الكون، يقدّس الماضي في حياة البشر ويجعله أمراً انقضى ولا سبيل لملامسته، إلّا عبر التذكر. غير أنني، وأنا في النزع الأخير، أرى بأن الذاكرة تتلاعب بالماضي وتعمل خلاطتها في أحداثه، وتصنع في النهاية شيئاً غريباً، أرى فيه إنساناً يشبهني وتذكّرني حياته بحياتي، وبأشياء عشتها لكنها تفتقد الكثافة أو الخفة التي كانت تنعكس بها في سريرتي.

زونداآكو. زوند آكو. كانت صفية، وهي تستحمّ في حمام سلة القصب تغني لوعود حبيب تبدَّدت مثل الدخان. أبتسم بمرارة،

لا شيء كالدخان إلا الحياة وهي من تتبخر في السماء بعد أن تهزأ بها الريح طويلاً وتنهكها. أنا الذي نصبَت الحياة أمامه جدراناً كثيرة، أنا الذي هفوتُ دائماً إلى ما وراء الجدار، وتصوّرت أنّ مناي رهين بأن أجتاز ما يعترض طريقي ويصدّني. واختزلت الحياة في هذه المسافة التي عليَّ أن أغنمها من الأرض لأصل للآخر البعيد. وتصوَّرت بأنّ الجوهري فيها هو تلك الخطى التي نمضي بها نحو أفق صنعناه من أحلامنا ورغباتنا. والآن، والآن فقط، أرى بأنّ كل ما مشيته ذهب سدى، وأن سيري دخان وأفقي دخان، وأنّ كل حركة نقوم بها تقرِّبنا من قدر لا يدَّخر لنا في النهاية إلّا خطاً عمودياً بين حفرة نطمر فيها وسماء لا مبالية تتبدَّد فيها أرواحنا. لم أفهم ما فهمته الأشجار، منذ أن وجدت، فهي تثبت جذورها في الأرض، وتتسامى لتأخذ حصتها من النور، ولا تنشغل بالأشجار التي من حولها إلا وهي مضطرة للدفاع عن نفسها.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **باب الابتلاء أو درب الفاجعة**، كنا فوق ربوة أنا وجدّي، نرقب من علٍ كتائب الجذابة في البسيط الممتدّ أمامنا، المتَّشحين بالسواد والزبد يتطاير من أفواههم، وهم يدوسون بأرجلهم الحافية أشواك نبات الزريگة الرهيب وبعاج النحل القاتل، رافعين أعينهم إلى السماء ومردّدين: الله حي. الله حي. تطوف الكتائب متتبعة خطاً لا يرى لدائرة تُحيط بقبّة الولي وبرجل كقبس نور سماوي يقتعد هيدورة في عراء الدائرة التي يتركها الجذابة من حوله. يسجد ويركع ويرفع يديه من حين إلى آخر في حركة ولاء شديد للسماء. وبجانبه انتصب رمح غريب.

كنت خائفاً وضائعاً في المشهد القيامي. أحتمي بجسد جدي الواهن الراجف الذي يقتعد معي الربوة، لكن روحه كانت تطوف مع الجذابة وشفتيه ترجفان معهم بـ: الله حي. الله حي. أحاول أن أتبيَّن جدّتي وأمي وسط الحشود الهائجة المصطفة على طول البسيط حيث تتزاحم بشكلٍ تعويضي حشود العاجزين عن السير فوق الأشواك، وتلهب المدى بلا حساب زغردة وتكبيراً وبكاء ودعاء.

ركبنا من بني ملال شاحنة حمراء تتهادى فوقها الأعلام الخضر والبيض. وبعد أمتار من تحرٌكها ترنَّحت بي وصارت الحقول والأشجار والسواقي التي تعبرها تجفل هاربة في الاتجاه المعاكس لاندفاعها. تشظَّت رأسي وصار الطعام القليل الذي ازدردته في حمى الاستعداد للرحلة حمماً جبارة تغلي في بطني، أدافع بقوة تتلاشى رغبتها في الانقذاف خارجاً. وحين خرجت من فمي عصارة صفراء تنبّهت جدتي التي كانت تردِّد مع نساء أخريات أذكاراً حزينة لما يعتمل في رأسي وبطني. حضنتني وأغمضَت عيني بكفّها لكي لا أرى الهول الهارب. وطيلة الطريق الطويل المتعرِّج الصاعد النازل، فرضت عليّ بكفّها عمى كاملاً. فعشتُ لأوّل مرة، ورغم الطمأنينة التي سرَت في ذهني وبطني، وبشكلٍ لا يُنسى، عزلة العمى وألمه. أسمع الأذكار وصرير الشاحنة والآهات، لكن هوّة من ظلام قاهر تفصلني عن كلّ ما يجري من حولي. ولأننا كنّا نسير نحو الولي فإن شيئاً من المهابة والقداسة كان يتلبَّس كلّ ما يصلني، لم تكُن الشاحنة المتداعية ملأى بأشواق الناس وكربهم وآلامهم فقط، بل، وأيضاً، بالأطياف والأشباح والخيالات الأكثر روعاً. نزلنا من الشاحنة، فأزاحت جدّتي عتمة يدها الثقيلة عن عيني، واستعدتُ تدريجياً الألق الساحر للعالم. سِرنا في ممشى ضيِّق متعرّج تحفّ به الأشواك، وسارت وفود القبائل الأخرى في مسارب مخصوصة وضائعة في السهب الحجري الكبير. تتيه المسارب بالقبائل حتى ليبدو أنّ كل واحدة تسير لحال سبيلها في اتجاهات متعاكسة، ثم تتجلى فجأة متجمِّعة ومندفعة نحو نقطة واحدة: قبّة الولي البيضاء حيث تتبادل التحايا والأشواق في فرح لن يكتمل إلّا في الغد، حين سيقوم الإمام ويتجه نحو الرمح وبعينين شبه مغمضتين بعد أن منح أعماقه منذ

الفجر للأبدية، يسير مصوّباً الرمح وهو يقتنص بعينين مطبقتين نقطة ما في الرحم الأزلي، وفي ارتعاشة يد، في نداء داخلي سديد، في لحظة تهصر تباشير ما لا يرى، يضرب الأرض ضربة خاطفة..

أسرَّت لي جدتي في ما يشبه التمتمة: سيقوم جدك بالزيارة من أجل عينيك فقط. فتحسّستهما لأمسك مرة أخرى بهذه الحمرة التي غشتهما من جهة حاروا في تخمينها: أهي العدوى أم الجن أم العين الحسود. حمرة غريبة، مثيرة، تستوقف كلّ مَن يراني وتمتحن قدرته على الاندهاش والتشبيه: جمرتان، عينا ذئب، بقعتا دم، شقائق نعمان.. ولا أعرف كيف أخبئ عيني عن أعين الناس، ولا أعرف كيف أخفف ألمهما الفظيع، كأني أغريت حبيبات رمل ساخنة بالنوم تحت جفوني.

منذ أن خانَ جسد جدي روحه ولم يعُد يقدِر أنْ يدوس الأشواك، ويزبد، ويتطاير، ويتدافع بالمناكب، ويهبّ مع الجارين لخطف الإمام وتمريغ الوجه في الوحل المقدس، صارت تبدو عليه أمارات القلق قبل أسابيع من موعد الموسم، قلق سرعان ما يتحوَّل إلى صمت ثقيل شارد وإعراض كليّ عن الناس ينتهي بخلع ثيابه ولبس مرقعة فاضحة، والسير في الدروب هائماً على وجهه، ومتمتماً بكلام غامض، ثم يحبس نفسه في كوخ مبني بالقصب، والغيس المخلوط بالتبن بحقله. يشرب من عين داي القريبة، يخرج إليها في أوقات لا يراه فيها أحد. لا يطلب أكلاً، ولا يقربه، إنْ وُضع أمامه، ولا يعود إلى الدار إلّا بعد أيام من انقضاء الموسم. الجميع يهاب عزلته ويراها مليئة بالأسرار الكبيرة، والإشارات الغامضة. سرتُ وراء أمي ذات صباح. بكت، وتوسلت إليه، ودعته بحرقة

للعودة إلى الدار، قالت له بأن البعض يدّعي بأنهم رموه كالجيفة. قابَلَ هياجها بوجه هادئ ومنهكٍ وخالٍ من أي تعبير، وقال لها: لا تهتمي بالناس. بكت حتى الإجهاد وهو مُعرِض عنها تماماً، وسحبتني من يدي وعادت إلى الدار. هو ذا جدي، جدول مرح وحدب على الآخرين، وكرم حين يكون رائقاً، وصخرة صمّاء حين تعتريه الأحوال وينقبض عن الناس. جدي حكّاء السِّيَر الذي يتلقى الصباح الأغبر والمصاعب، والرزايا وآفات الحقل وخيبات غلاله، ببسمة هازئة تعبُر الأهوال كما يعبُر الغيم شدير الحقول، والذي يحمل مدراته وتوثبه وجسارته ليذود عن ماء حقله في الليالي الحالكة أو لوقف أيدٍ عابثة. وحين يردّ عليه الوارد يصير مغتمّاً منكسراً، لا نعنيه لا نحن، ولا الحقل، ولا العالم. وإذا كانت الأسرة برمّتها تعيش انكفاء جدي الغريب على نفسه، كاختلال عابرٍ يثير حزناً وبكاء عابرين أيضاً، فإنني عشته في تلك المرة الأولى والأخيرة كقيامة صغيرة حدثت في دارنا فقط، فلأسباب عديدة، منها حَمْلي لاسمه محمد، ومَرَضي المبكر، وهزالي، وعجزي البيِّن عن مجاراة الأقران، ومنها على الخصوص حدسه لعذاب مرير قادم يتربَّص بي، كان يُبدي نحوي حدباً عارماً وخاصاً، يحملني معه إلى الحقل فوق الحمارة الشهباء، يقتنص لي الفراش الملون الماكر، ويضع بين يدي جراء عمياء تتداعى عليّ وهي تحسبني أمها، أو كلب ماء أخرجه الغرق من متاهة غيرانه في مجاري الماء. يُريني كيف تدسّ البذرة في باطن الأرض، وكيف يشقّ التراب الندي أياماً بعد ذلك، ويُخرج جذعاً رفيعاً مهيضاً، سيتشربُ النور والماء ليتسامى، وليهب بعد أسابيع باذنجاناً وطماطماً وقرعاً سلاوياً وفلفلاً باذخاً. يحكي لي عن ذي يزن، والسلطان الأكحل، والبرتقيز بناة العجائب، ورحلات

الصيد، وشهد العسل المعلّق في الأجراف المنيعة، والجنيات، وبغلات القبور، والجزر البعيدة، وأولياء صالحين يمشون فوق الماء، وينهرون الأسد ويكلّمون الأحجار. وحين ينشغل عني بأمر ما يأمرني بأن أحدق في الماء أو في خضرة الشدير مردِّداً: «ثلاثة يحفظن النظر: النظر في الماء، والنظر في الخضرة، والنظر في الوجه الحسن». سنوات بعد ذلك كنت أختبر بداخلي بركة هذا التحديق الاستشفائي الطويل الذي شكَّل بداخلي صوراً مستميتة لطبيعة لا تشيخ: جداول تهرب بريقاً اختلس من الشمس بمهارة، وتراب متلهِّف بشقوق غائرة لعناق الماء، يمام حزين، طير قباج القاتل الذي يطنّ فوق نعناع يتضوَّع عبقاً حالماً، نمل لا يكلّ ولا يضجر من مدافعة تفاهات نحو غيرانه، نحل راقص. ذات ظهيرة قائظة سرتُ وراء جدي، كان يقتلع بعض الحشائش من مجرى الماء، وكنت منشغلاً بأنثى دوري تسرَّعت في إخراج فرخ وجل مترنِّح من العش إلى غصن شجرة زيتون وتُقيم جلبة لتثني يد القدر عن كتابة واقعة مأساة وشيكة، حين صرخ عالياً وبحزم وحشي: «قِف مكانك. قِف مكانك..» كانت هناك، على بُعد مترين تقريباً من جدي، أفعى كوبرا سوداء منتصبة ونافخة أوداجها ومتحفِّزة للقتل الفوري. وقفت مجمداً، مشدوهاً، مروعاً، بين جبارين: جدّي بقامته المهيبة ومدراته وتاريخه الشخصي كصياد بلغ صيته وسطوته قبائل نائية، وحية تتلوى بلا مبالاة خادعة متحيِّنة ومض ضربتها الماحقة. جباران يصران بلا غضب ولا ضغائن ماضية، وقد قادتهما الحياة للمواجهة، على أن يدفع الواحد منهما الآخر للانسحاب الذليل أو الموت. وكان هناك صمت رصاصي كأن الحقل بطيوره وفراشاته وهوامه شخص ببصره هو أيضاً، مبهوراً وكاتماً الأنفاس،

إلى ما سيقع وشيكاً. وتحرك جدّي، لا بل تحركت مدراته وانقضَّت الحية عليها وفي لمح البصر انكبّ عليها، وقام وهو يعتصر رأسها بأصابعه. عرضها عليّ وهو يبتسم بزهو واضح ثم أمرني بجلب كيس من الكوخ، وضعها فيه وأحكَمَ إغلاقه ثم وضعه في عين الشواري وأردفني جنبه فوق الحمارة وسِرنا صامتين. اجتزنا الجنان واحداً واحداً، والسواقي واحدة واحدة، وانتقلنا من مسربٍ إلى آخر، ومن تضاريس إلى أخرى، وتركنا وراءنا آخر آدمي وآخر بهيمة وآخر شجرة، وأثخنا في عراء سهب مترامٍ، تطرِّزه صخور هائلة، ودوم، وكلخ، وصبار، وعليق، وطخشن، وسدر، وزقوم، وصمت لا قرار له. وقرب بركة خلفها مطر البارحة، توقَّف. تركني فوق الحمارة، أخذ الكيس وابتعد كثيراً، ثم أخرج الحية وتركها برفق تنساب بخفة في ثنايا تعريشة زقوم. افترقا كما يفترق صديقان ينبغي أن تمضي حياة أحدهما بعيداً عن الآخر بإذعان تسليمي للقدر. في طريق العودة تنحنح وقال لي، وكأنه يُنهي كلاماً صامتاً كان يوجِّهه لي: أطلقتها بعيداً عن الناس لكي لا تؤذيهم. وكان عليه أن يعطيني أول درس في مواجهة الأفاعي. قال لي بأنّ الحية لا ترى وإنما تحسّ، لذلك هاجمَت المدراة فسهلت عليه قبضها. بلبلتني هذه الحقيقة فقلت له: لا ترى رغم أنّ لها عينين. فردَّ بصوت خفيض واثق: نعم. تساءلت بهمس حائر: ولماذا وضع الله في وجهها عينين ولا حاجة لها بهما؟ انكتَمَ، وبدا من عصبيته في سَوْق الحمارة بأنه يبحث سدى عن جوابٍ شافٍ، وأنهى حيرته بأن تمتم بتأفُّف واضح: هكذا. هكذا. لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون.

عدنا إلى صمتِنا. بعد أيام، وبعد ما لم يكن بالإمكان أن

أحدسه آنذاك من تفكيره العميق في الأمر، ومن قلقه، ومن سؤاله لبعض العارفين، ذكّرني، بلا مناسبة، وهو يحكّ أرنبة أنفه بمواجهته للحية، ليعبِّد الطريق للحديث مُجدّداً في امتحان جدوى العين التي لا تَرى، الذي خسره. قال: الله جميل، وهو يحبّ الجمال، وحين خلق وجوه الكائنات خلقها على صورته بفم وأنف وعينين وأذنين. كل الكائنات في أعماق البحار، والغابات، وكثبان الصحراء، وقمم الجبال أخذت نصيبها من الجمال الإلهي. وابتعد كأنه بذلك يُنهي نقاشاً طال أكثر ممّا يجب. كان عليّ أن أبذل وطيلة أعوام جهداً كبيراً لأقتنع بوجود عين كاملة لا ترى، وبتصالح الجمال الإلهي، والسمّ القاتل في وجه أفعى متهيِّجة. لكنني عجزتُ، وحتى الآن، عن طردها من مخبأ معتم في ذاتي، تتخايل لي منتصبة، وأنا أمدّ يدي باحثاً عن العكاز ومتحسِّساً الأشياء، وأنا أخطو خطوة متردِّدة، وأنا أتقلب في فراش الأرق، وأنا أبذُر عماي في الطرق والجهات، متلهفة إلى إنهاء مجابهة مؤجلة باستمرار ورثها الحفيد عن الجد.
بقدر ما كان الجذابة يحتدون في العجلة والصخب، والتوق إلى الأمام، والبكاء من غبن شمس ضارية تفتك بحبات شَعيرهم، وشياههم في كلّ عام، وحكّام ظلمة، وشحّ في كلّ شيء، بقدرِ ما كنت ألتصق بجسد جدي الراجف، أمسك بكمّه، وأخاف أن يتركني وحدي وسط هذا الهذيان الجماعي الغريب. أخرج فتية ثوراً أسود من خيمة معصوب العينين مخضباً بحنّاء طازجة، وتناوبوا على شبك وشاح أخضر بين قرنيه وعلى دفعه وسط الساحة. حدس الثور، بدون شكّ، ما يُراد به، فقاومهم بعنادٍ وثبات. انضاف إليهم آخرون فتمكّنوا من سحبه بلهاث وصياح وبالشراسة البدائية لمَن يريد أن ينتفع من دمِ كائن آخر. تراءت إحدى قوائمه في الهواء ثم اختفت

وسط الجمهرة. وبعد حين انفضّوا من حوله، تحامل على نفسه استقوى على الموت بخوار حادّ ووحشي، ثم جرى مترنحاً ومجرجِراً جدول دم رفيع وراءه. وتداعى الجذابة من كلّ صوب يحثون دمه مخلوطاً بالتراب والأشواك ويزدردونه أو يمرِّغون فيه وجوههم. رأيتُ جدي يسبِّل عينيه إلى الأرض كأنه يتحاشى رؤية هذا الاشتهاء المريع للدم، سقطت الهدية الدامية على بُعد أقدام من الإمام الذي كان مستغرقاً في ابتهالاته وصلواته وغير عابئ بالدماء التي يتنازعها الناس بالقرب منه.

ثم قام وقام جدي أيضاً، واستلّ الرمح من الأرض، فاستل جدي يدي من حجره واعتصرها في يده اليابسة والمرتعشة. أكان يحتمي بيدي من هول ما سيقع؟ امّحى صخب الجموع، وسكنت حركات أجساد لم تعرف من الوجد كيف تلتئم على نفسها، وتسمَّرت الحوافر في الأرض، وفضَّلت أسراب الطيور التي تمرّ فوق رؤوسنا بأقصى سرعة ممكنة أن تختار لها مساراً آخر، وصمتَت الكلاب، وشلَّت أيدي كثيرة كانت تلوح، تتطاير، وغاض التكبير والاشتياق، واللوعة والآهات، وحين استعرض الصمت، وبخيلاء إمبراطور روماني، سطوته ملياً فوق الجموع، لا نأمة، ولا خفقة جناح، ولا هسيس، فقط عيون مشدوهة إلى نقطة في تضاعيف الأرض الجرداء القاحلة، الأرض الرمادية المتفسخة التي يتحاشاها المطر، ويعافها النسيم ولا يرقص فيها النحل أبداً، وتئنّ فيها البغال الصبورة، أرض السحالي والضباب، والعقارب السوداء والأفاعي الفتاكة، وغل الكائنات على بعضها الأعمى والمقطر، توقف الإمام، اتجه ببصره نحو الجموع كأنّه يشهدهم، ثم، وبِيَدٍ واثقة ومصمّمة، رفع الرمح

وهوى به على الأرض، فتعالى بعد برهة قاتلة ومروعة ألقٌ فضي لماع غمر الرمح، وبلَّل ثياب الإمام وصاحت الحشود: «ماء. ماء.. الله أكبر. ماء»، ثم اندفعت راكضة، بعنف وجلجلة، نحو الإمام والماء، عمائم تتطاير، وهدير، وأجساد تسقط وتُداس، وغبار، وزغاريد تعلو وتنكسر، وزبد فائض يتدلى من الأفواه.

اختطف الإمام أول الواصلين، وجَروا به نحو خيمة قبيلتهم، ومرَّغ الباقون، الأقل قوة وحظاً، أجسادهم في البركة الصغيرة التي خلَّفتها ضربة الإمام، وتنازعوا الغيس المقدَّس بفرح فطري. مأخوذاً بالمشهد الفاتن الغريب، كنت قد ذهلت عن جدي تماماً. وعندما التفتُّ نحوه كان كمَن يخرج من غيبوبة عميقة، منصعقاً ومتجمِّداً، تنهمر من محجريه الغائرين دموع صامتة، وينزّ جسده عرقاً بارداً. ورغم ذلك، كانت هناك لمساتُ فرحةٍ خالصة تتجمع وتكتمل في وجهه. مسَّد شعري بيدٍ دبَّت فيها حرارة غريبة، وانحدر بي من الربوة لملاقاة فتى جاء يجري فرحاً وحاملاً بتحوُّط وحدب قطعة من الغيس المقدس. مرغ فيها جدي شفتيه بتأثّر بالغ، ثم قسَمها قسمين، وأمرني بأن أغمِض عيني، فوضعهما كاللبخة فوق جفني. وللتو أحسستُ بنسمة خريفية باردة تنفذ عميقاً حتى بؤبؤ العينين، وبسلام وسكينة تلفّهما. وبعد عدة دقائق أزاح لبخة الغيس وغسل جفني. لم تجد أمي وجدَّتي ما تقولانه أمام فرح جدي ببشائر شفائي التي لم ترياها، رغم أنهما، وكما أسرَّت لي جدتي بعد ذلك، قد لاحظتا بأنّ الحمرة تفاقمت، وتجلَّدتا طويلاً لكي لا تبكيا طيلة طريق العودة. لم تتحسَّن حالتي، بل ساءت قليلاً، لكنني، ولكي لا أخذل مسعى جدي، كنت أتحامل على آلامي، وأقول لهم بأنني شفيت.

بقيتُ أصرّ على ذلك، بتشجيع حماسيّ من جدي، رغم أن نظرات كلّ مَن في الدار الحزينة القلقة كانت تقول بأنّ التمثيلية سيئة جداً، ويجب إسدال الستار في أسرع وقت، لأنها قد تكلّفني بصري تماماً. ذات مساء انتصرت أمي على تردُّدها، وأجبرتني على تعريض عيني لدخان مجمر تحترق فيه قطعة قرع سلاوي يابسة. وباستثناء إحساسي بالاختناق والغثيان، جراء الرائحة الكريهة، فقد كان طقساً عارضاً لا رجاء وراءه سوى طيّ صفحة الذهاب إلى هناك، والعودة إلى طريق تجريب أدوية لا حصر لها.

شذرات النهايات
على خطى بيسوا

حيرة

تعذِّبني الإمكانات المُتاحة أمامي، ويشلّني عذاب التردُّد: وراء كلّ فكرةٍ طريق، ووراء كلّ طريق عذاب.

ليث الفتى حجر

أحسد الأشياء لأنها لا تتعذب بحثاً عن هدف لحياتها: الخنجر يذبح، والبندقية تطلق النار، والكرسي معدّ للجلوس. ليتني شيء يعرف ما هو منذور له في هذه الحياة.

فكرة ميتة

كانت الفكرة خطّ دفاعي الأخير، أتمترس وراءها في الهزات، والنكبات، والخيبات. أقول لنفسي: هناك ما هو أسوأ في هذه الحياة الفسيحة ممّا وقع لي. وحين صارت روحي، وأنا في الثلاثين من العمر تختلج في جسد شاخ في أربعة أشهر حتى جاوز الثمانين.

صرتُ أردِّد، وقد ضاقت الحياة ليس هناك أسوأ في هذه الحياة ممّا وقعَ لي.

خردة

في ركنٍ مهمَل من روحي تتجمَّع كل الدوافع، والشهوات، والأحلام التي فقدتها، كما تتجمع خردة لا طائل من وراءها. هنا ترقد عدة غزو للحياة لن يتم أبداً: سيوف شهوات لن تبرح أغمادها، رماح قوى صدئة تتكئ من الوهن على بعضها، خوذات أحلام مدحورة، ودروع مشاعر بريئة ومتفائلة تجاه الحياة أهيل عليها التراب.

روح خربة

لدي هذا فقط، روح تتحلَّل، وذباب أزرق، فرح ونتانة قادمة. كم يلزمني من ملح، ومن شمس أغسطس لأجفِّف روحي فوق حبل الغسيل.

أنا..

أنا مجرى نهر تعبُره مياه سيول محمَّلة بالطمي، وجثث، وأثاث أناس الأعالي، وجذوع الأشجار، والحشائش والأحجار. لا أمتلك حياة، بل حيوات، لم أتدخَّل في صنعها ولو بلمسة واحدة. ولا أملك مصيراً، بل لوحة دائرية تتعلم فيها الحياة رمي النبال. لا أمتلك لا إرادة الأقوياء، ولا غلّ ومكر الضعفاء، وأفضِّل أن أترك السمكة في البحر على أن أعود بها، وللمباهاة وحدها، هيكلاً عظمياً إلى الميناء.

أنـــا

أنا مدينة مغربية قديمة: خرائب، أكوام تراب وحجر، بقايا فسيفساء باهتة، أعمدة مطمورة، تماثيل بلا رؤوس، ولا أرجل، ولا أيدي، وأسوار شاهقة ومتماسكة، أسوار، أسوار طويلة حدّ البصر.

أنـــا

أنا شاهد فقط على ما جرى لي، حياتي عاشها إنسان آخر غريب عني. حين أتذكر بأني كنت على حافة الانتحار أو الجنون، أستعظم القوة التي جعلتني أفلت من الأمر. تلك القوة غريبةِ عني، ولا أحسّ أنها وجدت في يوم ما لدي. وبما أنّ القوة التي جعلتني أجتاز المحنة غريبة، فلا شك أنّ الضعف الذي أحسّه الآن هو أيضاً غريبٌ عني. أنا حصيلة حالات غير أصيلة، أنا عاصفة وأنواء، أنا ريحٌ مالت حين لا تميل الحياة.

أنـــا

حرمت حتى من هذا: الناس يعرفون ما هم، ويجهلون ما سيصيرون إليه. أنا أعرف، وبكل دقّة ومرارة، سحنة العبد القابع تحت سياط سيده العجز التي ستكون لي، أعرف مشاعر النقمة على الحياة التي ستتملّكني، أعرف الملل والعيون المنطفئة، ونول الأسى الذي سأنسج فيه خيوط عذابي، وأعرف أيضاً هذا: أن الحياة قد لفظتني كما تلفظ المصفاة الحصى التافه، وتُبقي نثار الذهب.

إفراط

ماذا أفعل بكل هذا الحزن؟

فكرة العاجز

كنت كالجالس قبالة نافذة فسيحة، أمتلك ما أراه، الشمس والغيوم، وقطعان الماشية، وأسراب الطيور، والعابرون، والأشجار، والأزهار، والفراشات، والنحل، والهوام. الأشياء تذبل أمامي وتتوارى، وتزهر وتتسامى. أرى النور والظلمة، وأناساً يضحكون ويبكون، يختفون ويظهرون، يولدون ويضجرون، ويحزنون، ويمرضون، ويأملون. ومع كلّ ما أراه تولَد أفكار بداخلي وتموت. وحين أنزلت الحادثة ستارة داكنة على النافذة، صرتُ لا أرى شيئاً، ولا أتطلع لشيء، وبداخلي يتردَّد عويل فظّ. لك يا هذا فقط: انطفاء وانطواء وضجر اليائس. ولك أيضاً أن تجترّ حتى الموت فكرة واحدة: أنت عاجز، عاجز، عاجز.

حرب

داخل روحي تدور رحى حرب طويلة، غبار يتطاير، وصهيل، وكر وفر، وسيوف تلمع، وآهات وأنين، وأقواس نصر لا يعبُرها أحد، وأعلام منكسة. وقتلى وجرحى مرميين، ودخان. وأنا الضربة والجرح، الطلقة والهدف، المنتصر والمهزوم، والقاتل والمقتول..

ويحدثونك عن القدر..

كم من الأيدي تناولتها؟ كم من النزول والصعود بها؟ كم من

الأيام والشهور والسنين وهي تنتظر الرجل التي ستطأها؟ أخرجَتْها يد من القالب في رومانيا متقنة متينة ثم حشتها بالمواد المتفجِّرة وركبت لها زرّ إطلاق حاذق. أخذتها يد أخرى ورصَّتها إلى جانب أخواتها في صندوق ورصَّت الصندوق في مخزن هائل مظلم وبارد مع ما لا يُحصى من الأسلحة الأخرى حتى تعتق غلّها وقسوتها. وبعيداً، وتحت غلالة من دخان سجائر هافانا، كان رجال غامضون يفاوضون بشراسة في أمر شرائها. نقلتها يد إلى باخرة. وبعد أيام من الدوار البحري أخرجتها يد إلى شاحنة سارت تتهادى بها في طريق متعرجة لا نهاية لها، أنزلتها يدٌ في مستودع وسط خلاء سحيق وأرض محترقة لا شيء يختال فيها غير الرياح والشمس. وزرعتها يدٌ عارفة، ثابتة، دقيقة وحرَّرت زر الإطلاق وأهالت عليها قشرة رهيفة من الرمل الحارق. كان عليها أن تنتظر بكلّ حنقها ومللها وبعشقها القاتل الرِّجل الغشيمة التي ستغدر بها، وكانت رجلي أنا. كل غابة الأيدي هذه التي شاركت في الجريمة ويحدِّثك كلّ مَن رآك عن القدر.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **موت الجد أو نذر الجحيم.**

وجدناها واقفة بجانبه تكبّ عليه بحنان وتشمّه بخطمها محاوِلَة أن تساعده ليقف. كان مُلقى على ظهره ممتقع الوجه، يتملّى العالم بدهشة عظيمة، كأنه لم يتصوَّر يوماً بأنّ جسده سيخونه ويتهاوى من فوقها. عينان مفتحتان على مساحات شاسعة من وهن واستغراب وتسليم واستجداء وأنفاس متلاحقة وشساعة نأي حاسمٍ يشي به صمته ونحن نحاول أن نوقفه، ثم ننتبه إلى أنّ جسده المرتخي الذي ينتثني في يدنا لم يعُد ملكاً لإرادته ولا لرغبتنا. كان يقول لنا دوماً بأنّ رجلاً أتاه في الرؤيا وقال له وهو يهذي من فرط الحمى بأنه سيستردّ عافيته رغم نوبات القيء والهزال الذي لا يصدق، لكن مَرضه القادم سيكون الأخير. حملناه إلى الدار بقلوب مُثقلَة بإحساس أننا سنفقده وإلى الأبد. وكنت أنا على الخصوص وأنا أطوّق رأسه بذراعي فريسة لأحاسيس متناقضة لم يكن أبداً بهذا القرب والحميمية والهشاشة والحاجة لي ولكنه لم يكن أيضاً بهذا البُعد والغموض واللامبالاة التامة. وضعناه في الحجرة التي كان يقول دائماً بأنه سيموت فيها. وبدأت جدتي وأمي في البكاء، بكاء بدأ خافتاً ثم أخذ يشتدّ حتى

تحوَّل إلى نواحِ مؤلمِ جَعَلَ جدي يتململ في سباته، بل إنه فتح عينيه قليلاً فيما يُشبه اشتعالاً معجزاً لخفقة حياة في جسدِ ميت، وعبَرَت وجهه الشاحب دكنة حنق طارئ، لملمها الوهن بسرعة ليُعيد للوجه تصلُّب وحياد غيبوبة عميقة، فسَّرَتها على التو، بعض الجارات اللواتي سمعن النواح وهرعن إلى البيت: بأنه غير راضٍ عمّا تفعلان.
هل أقول بأنه فتح عينيه ليراني أنا بالذات وأدّعي بعد هذا بأنه حاول أن يرفع يده ليمسِّد شعري كما كان يفعل دائماً. لكنها وبعد تشنُّج لحظي عادت إلى شللها بجانبه. بقيت طيلة ما بقي من النهار مجمعاً في ركن من البيت أنظر إليه بقلقٍ بالغٍ وبلهفة علّه يصحو فجأة ويمسح جَزَعَ وبكاء وضياع ساعات ببسمةٍ ساخرة كان يعرف دوماً كيف يُبدِعها، حتى في أحلك لحظات حياته. بعد صلاة المغرب جاء فقيه المسجد. قرأ فوق رأسه، وبحماسٍ شديد، ما تيسَّر من آيات ودعا له وقبض باستيحاء وخرج. ودفَعَت جدتي بيدها وإزارها وبكلّ ما يمكن أن يستنفره صدرها من نفس، دخان بخور نحو وجهه، ثم مسحته بمنديل مبلل بماء زمزم، لكنه بقي على حاله قطعة من مرمر شاحبٍ يتردَّد في تجاويفها نَفَسٌ وَهن كحفيف أوراق يابسة. أتأمَّله بشوق وتساؤل وضياع، وأختبر، ولأول مرة صلافة هذا العمى الآخر: أن يتمدَّد بجانبك الكائن العزيز، فتراه ولا يراك، وتحسّ به ولا يحسّ بك، وتهفو لضمِّه، لكن المُحيا المشرق، الطلق، الذي تعوّدته يُذهلك حد الخرس بإبهام حياده ولا مبالاته. جسدٌ مسجى بلا كلام، ولا ضحكة، ولا قلق، ولا صمت، ولا أمل، ولا حنان. يصير شاهداً محايداً وبئيساً على حياة مَضَت، ذكرى شيء كان وانقضى.
بتسوُّل أخرس عشت غيبوبة جدّي التي دامت ثلاثة أيام طويلة كئيبة كنصلٍ يقطع ببطء وقسوَة مؤلمة حياتي إلى قطعتين: ما عشته في ظلّه،

في الجنان خصوصاً، وفي الحكايات، وفوق الحمارة، وفي حجرة نومه، وفي السوق، وقرب المسجد، وهو ينتظر الأذان. وما عليَّ أن أعيشه بعيداً عنه في هذا العالم الذي أفهَمَني مبكراً، وببلاغة بأنه لا يرحم أحداً. حين مات كانت أمي تبكي أباً، وجدّتي تبكي زوجاً، وأخواتي وإخواني يبكون جداً. وكنت أبكي شيئاً أكثر عمقاً من كلّ ذلك. كنت أبكي فكرة عن الحياة، والكرامة، والأرض، والصبر. وداخل هذا الشريط المظلم، والمتلاطم المسمى حياة، وعلى حافة أجرافها ومهاويها، وحفرها كانت حكاياته، ومأثوراته ومواقفه، تومض في ذهني، فتهبني هذا النفس الأوحد الذي يُبقيني واقفاً..

لم يمُت جدي لأنه سقط على رأسه من فوق الحمارة، الرواية الرسمية التي بقيت متداولة في الدار، وبين الأقارب حتى ضاعَت ذكراه بين أرجل الحوادث التافِه منها والجسيم، بل مات لأنه عجِزَ، هو البستاني العتيق، عن ابتكار مهمّة لنفسه منذ أن لم تَجد الدولة في الخلاء الفسيح المحيط بالمدينة غير حقله لتُقيم مكانه تجزئة سكنية. رمَتْه بتعويض تافهٍ أكل معظمه المحامي الذي نصبَه للدفاع عنه ضد شيء غامض أنهى حياته، اسمه المصلحة العامة. وجاءت الدولة بعد حين بآلات القياس والجرافات والدكاكات والصخب والزلط والطوارات، وعصفت بكلّ الأشجار، داسَت أحواض النعناع وشجيرات الطماطم والباذنجان والقرع السلاوي والخس، وطمست السواقي، وطردت الطيور والفراشات والنحل، وطاردت الهوام في الغيران وبين الشقوق. تعاطف مراقب عمّال مع جدي، وهو يرى غيظه المكتوم، وزفراته المكلومة، وأخذه جانباً، وأسرَّ له بأنه سيؤخّر قطع أشجاره حتى تنضج الثمار وتُجنى. ابتسم جدّي بيأس

أسود، وبتلويحة من يده أفهمه بأنه لا فائدة من ذلك، وحين ابتعد المراقب أسرَّ لي كلاماً لم أفهم مغزاه آنذاك: لم يكفِه أنه نحرني، إنه يريد أن يُبقي السكين طويلاً في دمي. رأيته والنار بالقُرب منه تأكل بنهمٍ سياج الشدير، وأشجار التين والزيتون والتوت والبرقوق والمشمش، يجمع ببطء شديد، كأنه يسترحم الزمان ليتوقف، حاجياته الصغيرة في قفّة ثم يأخذها بيد، ويمسك الفأس بيد أخرى، ويسير أمام النار التي تقتفي خطاه وسرب من طيور الدوري يودّعه، يسير بالفأس التي لن تشقّ الأرض بعد اليوم، كما يحمل جندي في نهايات حرب خاسرة بندقية لن يعود بإمكانها إرسال طلقة واحدة. خرجتُ وراءه وأنا ألتفتُ لأرى العظمة البغيضة للنار، وهي تأتي على حياة برمَّتها كانت تسري في الجذور والأوراق والثمار والغلال، وتويجات الزهر، وعروق جدي ودقات قلبه، ونظراته، وأحثّ الخطى لأسبقه ثم أتطلَّع إلى ملامح وجهه القاسية المنطفئة. كنت قادراً آنذاك على تخمين الحرائق المشتعلة بداخله. كان حزنه كبيراً وجليلاً وعزيزاً، حتى أنه فاضَ عن ذاته وشملني، فصرتُ حزيناً لحزنه ومنكسِراً لانكساره. لم يلتفِت، سارَ بحزم، وثبات، وصمت. وفي الصباح الباكر، عادَ إلى هناك، وجريتُ وراءه. رأيته يقف رابط الجأش أمام بساطٍ ساكن من الرماد، تصعد من بعض جذوعه بقايا دخان، كأنّ الليل كان كافياً لجعله يطفئ حرائقه الداخلية. أخذ حفنة من الرماد، وذراها في الريح، ثم أخرى وضعَها في منديل أخرَجَه من شكارته، وسارَ إلى حيث جذع شجرة التين الكبيرة المتفحّم، والتي كان يحلو له شرب الشاي والتمدُّد في ظلّها السخي. وأخَذَ حفنة أخرى من رماد وفعلَ الشيء نفسه في مكان الساقية وأحواض النعناع. عقد أطراف المنديل في هيئة صرة وألقى بها في الشكارة

وعاد إلى الدار. وصرتُ أراه في بعض لحظات ضيقة، أو هو ينتظر الأذان، أو إحضار الطعام، أو في قلب محادثة أو جدال، يُخرج حقله المخبّأ في صرّته ويشمّه بتلذُّذ وانخطاف، حتى أن ملامحه الصلبة المتجهِّمة تصير أكثر رقة وهدوءاً. انتهت كلّ الملاحم الصغيرة التي شهدها المكان قروناً من الزمن، تطويع الأرض، غرس الأشجار ورعايتها، رائحة الأزهار، التخلق البطيء للخضار والثمار، نسيج الأعشاش المذهل، متاهة الغيران إلى ذرات رمادية متلاحمة تشعّ بالحنين والأشواق الملتاعة.

ولأنّ كبرياءه، كفلاح وراءه إرثٌ مقدّس في تبجيل العمل، لم يسمح له بأن يعيش بطالته المتأخرة في ظلال الحيطان. وكما لو أنه قرَّر أن يعاقب نفسه، كان يقوم بطواف طويل على ظهر الحمارة منذ طلوع الشمس حتى أذان العصر وقت عودته من الجنان. يتيهُ في المسارب، يحادِثُ فلاحين منهمكين في إنجاز أعمالهم، يتآخى مع مجاري الماء وهو يشيِّعها حتى تربتها، يقدِّم نصيحة، يساعد في حمل ثقل أو إنجاز مهمة صغيرة، يتدفَّق مع النسيم، ويحصي غُصص مدينة قتلت الدوالي واللوايات وحبق البيوت، ويردِّد رَجْع ضياعه. قدَّم جدي قفاه لضربة شمس قاتلة، لأنه لم يعرف كيف يروِّض الفراغ المهول المحيط به، وأورثني الفراغ نفسه حين رحل. كنا نخرج من المكان، وقد خسِرَت المدينة حقلاً آخر، وهو يجرجر خطاه نحو حتفه، وأسير خلفه مودِّعاً طفولتي ومودِّعاً نظرة للعالم والأشياء والأحداث، منذئذٍ عرفتُ أنّ الأشياء والأماكن والأشخاص، ومهما تعلَّقنا بهم، ومهما ربطنا مصائرنا بهم، زائلون زوالاً رهيباً.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **عسكرة العمى أو عمى الحياة.**

بعد شهور من وفاة الجد. عاد أخي الأكبر من الصحراء ملتحفاً سلهاماً وحاجباً عينيه وراء نظارات سوداء، يتكئ على عكاز ويجرجر وراءه رجله اليمنى لأنّ ركبته ثبِّتت ببراغي وقطع بلاتين. عاد بوجهٍ خرَّبته شظايا لغم أرضي فبدا كأنه تعافى لتوّه من داء الجُدَري. وكما يعود الجنود المعطوبون من جبهات القتال كان ذاهلاً صامتاً، لا يكاد يصدِّق بأنه حي. لقد نُقل من مستشفى مراكش ومن هناك إلى المستشفى العسكري بالرباط، وفي المستشفيات الثلاثة أجريت له عمليات جراحية وتناوبَ عليه أطباء وممرضون، وغيّرت وصفات دواء كان يتناولها، وأعيدت تحاليل طبية وصور وأشعة، واكتشفت شظايا أخرى تمّ إهمالها في الكشوفات السابقة، وخرج من غيبوبة إلى أخرى، ومن ألمٍ كبير إلى ألم أقسى، وزارَه ملاك الموت، ولأمرٍ ما، استنكف عن قبض روحه، وخانه جسده وهو على بُعد شبر من إلقاء نفسه من نافذة تبعُد عن الأرض بأربعين متراً في المستشفى الأول، وأبعَد عنه الممرضون الدواء، بعد أن كشفه أحدهم، وهو يهمّ بإفراغ كمية كبيرة من مهدئ في جوفه في

المستشفى الثاني. وصاحبته منذئذٍ إجراءات احترازية في طوافه بين المرافق، لأن التقارير الطبية كلها كانت تُذيَّل بالتحذير من ميولاته الانتحارية، لكن عناء مراقبته ما لبثَ أن صار بلا فائدة حين عاش تجربة روحية غريبة صالحته قليلاً مع ما وقع له، أو جعلته يتجرَّع ببطء وسكينة وصبر ظاهريّ مرارة العجز. بعد عودته، سيوزّع أخي وقته بين رعايتي والإصرار على تجنيبي آفة العمى وكتابة سيل من التظلُّمات والطلبات للقيادة العليا للجيش، والرسائل المفتوحة للجرائد للحصول على ما يراها على أنها حقوقه المغتصبة. كان يعود مزهواً كلما ألقى برسالة في صندوق البريد، لكن الشك واليأس والخذلان سرعان ما يرفسون أمله العابر. يشك في وصول الرسالة، ويَدفع ذلك بأن يكتب نسخاً عديدة منها، ويلقيها في صناديق بريد مختلفة، ويشكّ في الأسلوب الذي كتبت به، ويتبيَّن بعد أن يفلتها من يده بأنّ كلمة ما غير دقيقة، وجملة لا تصل إلى درجة الإفحام الماحق التام، وهناك خلل ما في التركيب، فيُعيد صياغتها من جديد باندفاع جدّي، أصيل وصارم. كان يطاردُ معنى تتكثّف فيه كلّ ظلال الألم والظلم الذي يحسّ به، ويعيش السعادة المؤقّتة والزائلة لنحتِ جملة باهرة، سرعان ما تتبدى خيانتها لما يعتمل في الروح. بدأ يذهب إلى السوق ويشتري كتباً أدبية، خواطر وقصصاً وروايات، وكذا كتباً تعلّم كتابة الرسائل، وطفق يأخذ منها استشهادات، ويستعير منها كلمات وتعابير يستقوي بها على قلوب متحجِّرة لا تهزّها ريح. غير أنّ سحر الأدب، قذف به في دوامة من الحزن اليائس. مهما حاول فلن يتمكّن من الكتابة بمثل قوة وتأثير وإتقان كاتب. كان يخرج من كتاب إلى كتاب، ومن رسالة إلى رسالة قلقاً حزيناً، يبتسم لنا ببرود، ثم يدير لنا ظهره، ويتمدَّد متأمّلاً السقف،

وأمواج أفكار تتلاطم بداخله. قال لي بعد شهور: كُتُب الأدب مليئة بالآلام والدموع، غير أنّ كلّ ذلك لا يرقى للحظة ألمٍ حقيقي واحدة، عظمة الأدب تكمُن في لا جدواه التامة، إنه زهرة برية نبتَت على قارعة طريق تعبُرها فيلة غاضبة. لأمرٍ ما، توقف نهائياً عن كتابة الرسائل، ولم يعُد ينتظر شيئاً. حرتُ في سبب ذلك، ولم أجرُؤ على أن أسأله. ربما فتحت قراءته للأدب عينيه على صلافة العالم وملأته يأساً من إمكانية تقويم مظالمه ومفاسده. بدا من الأيام الأولى لعودته عاجزاً عن مصالحة روحه مع البطالة المديدة التي فُرضت عليه، وعن قبول قدرِ جسده الذي لن يُسعفه للقيام بأيّ شيء، لذا اعتبَر إنقاذي من العمى القادم قضية حياته. أخذني إلى طبيب المستوصف مراراً، وتكفَّل بتقطير وصفاته في عيني، وتتبّع مفعولها بدقة شديدة، حتى إنّه كان يصحيني في عزّ الليل ليتبيَّن مفعول الدواء، وحين يرى العينين على حالهما يصرّ على أسنانه بجسارة مَن يتصدى للقدر نفسه: عليك أن تشفى، يكفي هذه الدار معوّق واحد. وبالعزم نفسه، يتردَّد مراراً على المدرسة ليسأل عن النقط التي أحصل عليها في مختلف المواد. يترجى المعلمين أن يعيروني اهتماماً خاصاً، لأنني مهدَّد بآفة، ويوصيني بأنْ أقتعد الصفوف الأولى، وأن أحدِّق بقوة في السبورة: لا وقت لديك، يكرِّر مراراً، حدِّق، فأحدِّق، وأحدِّق، وتتبدى لي الحروف والأرقام سكرى مترنِّحة، والسطور تهذي. أذكر ضياعي وصمتي الحكيم الغامض، وعزلتي، وتردُّدي، وارتجافي، وعينيّ الفائضتين بالدمع دوماً، وحاجتي العنيفة العارمة للحظة، لحظة واحدة فقط، مع جدي في الحقل. ولا أذكر كيف كنتُ أنجح في نهاية كلّ سنة، ولا كيف كانت أشياء بعينها تتمكَّن من أن تغوص عميقاً في دواخلي: مقاطع من أناشيد وأشعار، صور تنضح بالحنين

لطيور جذلى، وأزهار لا تموت، وفراشات راقصة، بينما تمرّ الأشياء الأخرى بذهني كما تمرّ ظلال الغيوم. أذكر يوم جريتُ خلف أبناء الدرب، وهم يطاردون كلباً صغيراً، وكيف تسلَّلوا من بين أسلاك شائكة، وارتطمت بها أنا، فانغرست رؤوسها بقوة في صدري وشدَّتني إليها طويلاً في عناق دام. ما زال صُراخي الوحشي من الألم، وهي تلغ في دمي يتردَّد في أعماقي إلى الآن. أذكر سقوطي المتكرر في سواقٍ وحفرٍ يجتازها أقراني بيُسر، لأنني أسيء تقدير المسافة، وخطوط كتاباتي الزائغة عن السطر أبداً، وليالي أرقي وأحلامي الهائمة عن قصور ذهبية، وأنهار خضراء، وجنيات رحيمات، وأشجار تين ورمان، ولا أذكر كيف صارت لي نظارات مشدودة إلى قفاي بخيط، ويزداد سُمْك زجاجها سنة بعد سنة، ولا كيف تمكَّن سحر الحلاقي في السوق المجاور لحينا مني، وما أنْ يضرب جرس الخروج في المساء حتى أجري لألحق بمواكب الويل والثبور، وعظائم الأمور، وسيف بن ذي يزن يغادر جزيرة الهوام، أو هو في رحلته لجلب كتاب النيل من مدينة قيمر، أو هو يتفرج على برنوخ الساحر في حربه مع السحرة، يلقي عليهم باب الرعشة فيُبطلوه، ويلقون عليه باب الدهشة، يبطله ويرمي عليهم باب السكتة، وهكذا يأخذ منهم ويعطيهم، ويأخذون منه ويعطونه.. أجري لملاقاة طفولة العالم، حيث لا يموت الأبطال، ولا يُهزمون، وتمشي الخوارق على أرجل، ويمسخ الناس في هيئة غربان، وقردة، وخنازير، وأحجار. وتكفي الجسارة وحدها لتطويع قوى الشر، وفتح الكنوز الموصدة والفوز بالحبيبات المنيعات.

بعد أن يئسَ أخي من طبيب المستوصف، أخذني ذات صباح

إلى طبيبِ عيون روماني اسمه بازوف، فتحَ للتو عيادته في الحي الإداري، ولا تعرف أيّ ريح قادته إلى هنا. كان قصيراً ومكتنزاً يتكلم عربية مضحكة، يتأمَّلك بعينين صغيرتين، عميقتين، ونفاذتين، ويُمسكك بيدٍ يابسة قاسية كيَدِ حفار قبور. فحصني طويلاً ثم أخذ ورقة وشرَحَ لأخي طبيعة مرضى بحيادٍ وبرودة جلّاد. وبشاعرية موجِعَة، ودون أن يكترث لفداحة ما سيقوله على قلب صغير غضّ، رسم دائرة وقال له: هذه بحيرة. ورسم خطوطاً عديدة خارجة منها كأشعة الشمس وقال: وهذه روافد تغذّيها. وتساءل: ماذا سيحدث إنّ جفت هذه الروافد؟ ردّ أخي ببطء، وهو يقطر الحروف تقطيراً مريراً، وقد فطن لسماجة بيداغوجيا الخسارة هذه: ستجفّ البحيرة. بدا بازوف سعيداً بنباهته وأضاف: الولد مُصاب بارتفاعٍ حادّ في ضغطْ الشرايين الدقيقة التي تصل شبكة العين بالدماغ، ارتفاع يعرِّضها لتلفٍ تدريجي، عليه أن يواجه بعد سنوات حقيقة فقدانه البصر. توتَّرَت ملامح أخي، وقال بصوتٍ خفيض كأنه يناجي نفسه: وما العمل؟ ردَّ بازوف بحسمٍ قاتل: لا شيء. الصلاة والدعاء. ونحن نهمّ بالانسحاب المُحزن من مكتبه، أضاف بوقاحة وهو يثبت عينيه على عكاز أخي لكي لا يترك لدينا انطباع قساوة فجّة: هذا العالم وحضارته صنعه المرضى والعاجزون والمجانين، الأقوياء الأسوياء صنعوا الحروب فقط. سحَبَني أخي بعنفٍ تعويضي لم يجِد من غيظه الفرصة لافتراس بازوف اللعين، وسارَ مرتعشاً من الغضب والقرف، وهو يكيلُ له اللعنات. لكنه ومنذ الفجر الموالي، بدأ في التطبيق الحرفي لوصيته: الصلاة والدعاء. لكَزَني بعنفٍ وأمرني أن أتوضأ، وبعد أن صليتُ وراءه، أخرجَ دليل الخيرات، وبدأ يقرأ بحماسٍ وأنا أردِّد وراءه بمثابرة خادعة، إذ لم أكن أعي ما أردِّده،

وأستعجل انتهاءه من القراءة لأعود للنوم، بل إنني لم أكن أفهم كيف ستثني قراءة ورد يدَ القدر عن أنْ تبطش بي. دام هذا العذاب الصباحي عدة شهور، حفظتُ دليل الخيرات، وبضعة سور، وأدعية تُذيب الحجر، وتجعله يهبُ ماء زلالاً وحليباً وتمراً، لكن الخير الذي كنا، أخي وأنا، نتشوَّف إليه، خير شفائي أو على الأقل إيقاف انحداري نحو العمى لم يأتِ. كان حزن شديد يُخرِس أخي حين يفحص عيني، ويرى أنّ حالتهما تسُوء باستمرار، فيبدأ كثورٍ هائج في دكّ كلّ التقوى والورع والابتهال الموله الذي حرثناه معاً طيلة شهور، وزرعنا فيه أملنا. بعد صمتٍ طويل، قال لي مستشهداً بقول أحدهم، لم أعُد أذكر اسمه: لم ينجح الإيمان بعد في تحويل جبال حقيقية من مكانها، ولو أنّ البعض يدَّعي ذلك، لكنه يعرف كيف يضع جبالاً هناك حيث لا توجد. استغفَرَ الله ثم خرج. في الفجر الموالي صحّاني كالعادة، أدينا الصلاة وعدتُ إلى الفراش، ناداني لنتلو دليل الخيرات، فلم أجِبْهُ ولم يلحّ. سمعتُ عكازه ينقرُ الأرض وهو يبتعد، وكان ذلك إيذاناً بنهاية ملحمة استشفائي الروحي الفاشلة. لأزْيَدَ من شهر حافَظَ على مسافة بيني وبينه. لم يكلِّمني، وكان يتحاشى أيضاً النظر إلي، وحين تجمَعُنا جلسة في الدار، يرفع دفتّي الكتاب عالياً كأنه ينصب جداراً منيعاً من ورق ليحُول بيني وبينه. هل خيَّبت ظنّه إلى هذا الحدّ؟

شذرات الموتى أحياء

لففت ملاءة السرير في رتاج الباب، وهممتُ بخنق نفسي، لكن صوتاً ملائكياً واهناً بالكاد يصلُ الأذن تسلَّل إلى قيامتي الصغيرة: يا واسع الرحمة والمغفرة، يا جابر القلوب المنكسرة، يا رحيم الدنيا والآخرة، اعفُ عنا، واغفِر لنا وارحمنا. تسمَّرت يدي على طرف الملاءة الملفوفة، وأصخيتُ السمع بكلّ كياني. لم يكُن نداء مشاعاً يأتي من مئذنة قريبة، سمعته، بأصوات مختلفة، طيلة حياتي، بل رسالة خاصّة صاعقة موجَّهة لي أنا بالأساس، قادمة من قفار بعيدة إلى قفار قلب يحترق. جلستُ على طرف السرير مرتجفاً، وبدأتُ أغوص وأتلاشى. هل سمعت بصوتٍ يتحوّل إلى مكنسة تنفض كلّ ما حولك، تغيضُ الأرض تحت قدميك، وينسحب السرير من تحتك، وتختفي الملاءة والجدران ورائحة الدواء وفكرة الانتحار، والألم نفسه وضربات المشرط والغرز؟ ما بين الحياة والموت، الليل والنهار، في الأزرق الشفاف المتواري، والنور الصاعد بقوة، في لجّة الانخطاف، بل لجحه، قال لي الصوت الواهن: «لستَ وحدك، لستَ وحدك..» ثم صعَدَت منه حشود من الثكالى، والمعذبين، والأرقين، والضائعين، حشودٌ من الذين انكسرت قلوبهم بالهجر

والعجز والحرمان، وتهدَّمت حياتهم تماماً، ولا أمل، ولا رحمة، ولا خلاص، ظلام في ظلام، وهاوية مفتوحة ينزلون فيها رويداً رويداً حتى القاع. رميتُ نفسي على السرير كأنّ يداً مصمّمة دفعتني لذلك. لا لا يمكن التعبير عن ذلك بكلمات، لا يمكن وصف صوت يُنقذك من نفسك، ويبذر في قفارك سَكينة وتسليماً لم تعرفهما منذ أنْ لمَعَ البرق أمام عينيك، وصعقت، وغبت وأفقت، فكان بصرهما غائماً مشوّشاً ورأسك تعتصره كمّاشة رهيبة، وأطرافك تنوْء تحت كثبان رصاصية هائلة. لم يسعفك صوتك بالصراخ، فعدت لغيبوبتك الرحيمة، بضع ثوان كانت كافية لتصنع الرجل العاجز المشوّه الذي يهذي فوق بياض هذه الصفحات، وبضع ثوان كانت كافية أيضاً، لتقبل عمى الحياة وهمجيَّتها، ولتسائل نفسك: ما الأفضل لك، قبر منسي في الصحراء أمْ حياة معطوبة؟ إننا لا ندين ببقائنا أحياء في بعض الأحيان إلا لتواطؤات غير منتظرة، من أشخاص، أو أحداث، أو أفكار، في تلك اللحظات الحاسمة، القاسية، المرعبة يكفي أحياناً هسيس نملة، أو رفرفة جناح فراشة، أو صوت رجل واهن يشدّ انتباهنا ويدفعنا بعيداً عن الهوة الفاغرة فمها أمامنا. هل شفيت يومها؟ لا، أبداً، جراحٌ بمثل ذلك العمق والألم لا تُشفى في لمح بصر. ولكنني توقفت في نقطة ما عن الانحدار التدريجي في الهوة. كان الكومندار العربي يهيئنا بطريقة رائعة لتقبُّل فداحات الواقع. قال لنا، نحن الضباط، في أوّل لقاء لنا معه هناك في اليباب القاتل: انسوا أمهاتكم وحبيباتكم وقراكم، انسوا الأشواق والحنين وأحاسيس الغربة، دعوا كلّ شيء للزمن فهو يُذيب الحديد، ويفتِّت الحجر وبالأحرى العواطف، وأنا أداته، ستتيبَّس قلوبكم حتى تصير كقرب الماء المهجورة، يومها ستضحكون

من اللحظات التي كنتم تنزوون فيها بعيداً وتبكون. هل شفيت؟ لا إنك تنتهي بقبول جسدك مهما كان عطبه، تنتهي بقبول تحوّلك إلى نداء أبدي للمساعدة في أعين الآخرين، لكن عطب الروح سيستمر في الصراخ وضرب جدران الخزّان بداخلك إلى ما لا نهاية.

دحرجت مرارات النهار والليل في انتظار سماعه. صرتُ أعيش لأسمعه فقط. الأطباء والممرضون يتعهّدون جسدي، أو ما تبقّى منه، وهو يتعهَّد روحي، يخفِّف من غلواء هواجسها السوداء، ويخنق القوى الشريرة التي تعمَل بداخلها، ويزرع وسط الحثاث والأوراق الميتة، والجذوع اليابسة، لأقلها الآن، رغم أنني حين أحسستُ بها تتفتَّق بداخلي بكيت من المفارقة: زهرة حياة جديدة. كنت كالحية العالقة بين صخرتين مسنَّنتين، بقدرِ ما تتقدَّم بينهما تترك جلدها الميت وراءها. فبقدر ما أغنم نهاراً آخر، كنت أرى الروح التي حملتها لثلاثين سنة تموت ببطء، وقد انتهت صلاحيتها كبضاعة فاسدة. الروح التي كانت تضحك بجلجلة وصفاء، وتمتطي الحياة كما يمتطي الواحد دابّة مطيعة بأمان ويقين صلد، لن تركله ولن تلقي به في أقرب أخدود، وأرى روحاً أخرى تولَد تحت رمادها، روحاً بئيسة، قنوعة، روحاً لن تنتظر هدية من الحياة، ولن تعذِّب نفسها أبداً بالتساؤل: ما هو مبرِّر وجودها؟ لقد خلفت كل شيء وراءها: المرأة، الحب، الأولاد، الجيش ونياشينه، روحاً ستمتشق سلاحاً وحيداً، وترفع شعاراً وحيداً، وتتكئ على نعمة واحدة: العيش بلا أمل ولا رجاء ولا انتظار.

بعد شهر صرتُ قادراً على المشي، ولو بشكلٍ متعثِّر في الغرفة.

جاؤوا بهيكل معدني مربع، وكانوا يدفعونني للسير، وأنا مستندٌ إليه، وسمّوا هذا ترويضاً. أسير برجلين غريبتين تنثنيان وتتقصّفان، وهم يبتسمون تلك الابتسامات البلهاء المصطَنَعة والباردة. أتعرَّق من الخجل والأسى، وأنا أكتشف الجسد الجديد الذي عليّ أن أعيش بداخله، وأختبر في الأعين تلك الهبة السامة: الشفقة. صار السرير لأيام كعبتي الخاصة أطوف حوله بابتهال، ورجاء واحد: هو أن أخرج من المكان، أبتعد عن الرائحة، والبسمات المشجِّعة، والتطمينات، وبياض الجدران، والملاءات، والكراسي، والوجوه، وكيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وذات صباح أخفوا الهيكل المربع وجاءوا بعكاز. وقال لي كبير الأطباء باستعلاء من بيده الأسباب والمصائر: نجحت في اختبار الترويض. وقدّم لي العكاز: ينبغي أن تكون سعيداً بما أنتَ عليه الآن، بدَّلنا المستحيل لنجعلك تقف على رجليك، ثم أشار للعكاز: سيكون رفيقك الدائم. أخذته ووضعته في حجري، وطفقت أتأمّل بعزاء بئيس وبائس الجسد الذي عليّ أن أكون سعيداً بما آل إليه. ولم أنبس بكلمة. اعتبر كبير الأطباء، لا شكّ في ذلك، سهوي عن الامتنان لجهوده ضرباً من الجحود، ونكران الجميل، فخرج، وتبعوه، وصفق أحدهم الباب وراءه دلالة الامتعاض. وبعد قليل، جاؤوني بقرار الخروج. أعطوني حوائجي وقالوا لي: غداً. بحثت عن فندق قريب من المستشفى استأجرت غرفة، ومن شرفتها، رصدت المئذنة القريبة منه، ونمت نوم القطا وأنا أنتظر الفجر. توضّأت وسرتُ نحو المسجد. كنا بضعة مصلِّين، مبتهل، وقارئ للقرآن، وراكع، وساجد، ونائم، تكوَّمتُ على نفسي بينهم متأملاً ومنتظراً. ثم نقر المكرفون نقرات خفيفة وسريعة كان وقعها كهزيم الرّعد المجلجل في عروقي. واندلق صوتٌ فتيّ جبار،

هادر، يرجّ النائمين ويدعوهم للصحو لأداء حقّ الله على العباد. صلّيتُ صلاة مسرنم، اختلط فيها القرآن بالهذيان، وحين خرجنا سألت أحدهم عن المؤذن العجوز صاحب الصوت الوهن، فهزّ كتفه ورمقني باستغراب، ما لبثَ أن خفّ حين تبيَّن عاهاتي وقال لي: منذ عدة سنوات والمؤذن الذي سمعته هو مَن يقوم بالأذان هنا. عدتُ إلى الفندق مختنقاً بخيبة سوداء. كنت أريد أن أمنح شكلاً لِما لا شكل له، أن أمنح تجسيداً ونهاية لشيء هائم ولا نهائي، أن أرى الجسد المتستر وراء الهبة الملائكية. قُبيل صلاة الظهر. ذهبت إلى المستشفى. اتكأتُ على حائط قريب من نافذة الغرفة التي كنت فيها حتى ارتفع الأذان، الصوت القوي المروع نفسه. عدتُ إلى الفندق مخذولاً، حيرانَ.

أخذتُ حوائجي وذهبتُ نحو محطّة الحافلات. كنتُ سأكبّ على يديه أقبّلهما وأنا أقول له: لقد أنقذتني، يا أخي، من نفسي. في الطريق دفَعت حيرتي وحزني القاتل، لعلّ ريحاً حانية ساقت لي الصوت من مكان بعيد، لعلّ الرجل كذب عليّ حين نفى أن يكون للجامع مؤذن آخر، لعلّ شيئاً ما في بناء المستشفى يغيِّر الصوت فيوْصله رقيقاً مهيضاً. ولكن حين كانت الحافلة تنحدر من هضبة الفوسفات، وأرى جبال بني ملال المكلَّلة بالثلوج والغمام قلت لنفسي: لا هذا ولا ذاك الصوت كان ينبعث من أعماقي، من أعماقي أنا

لا شيء

حين عدتُ لم أكن حتى رماداً يمكن أن ينبعث منه شيء، ولا

خراباً يمكن أن تولَد بين حثائه زهور وحشائش، كنت لا شيء، لا شيء، عدم خالص.

حديقة البوگمازي

كنت أراه منزوياً حزيناً، ينكث الرمل بعود، ولا يرفع رأسه إلا نادراً. وحين يفعل ذلك ترى وجهاً ملائكياً يدافع رغبة في البكاء. قال لي ذات ليلة بأنّ هذا الخلاء المحيط بنا يُذهله ويُعذبه، هو القادم من جنة وادي آيت بوگماز، وأضاف بأنه يتجلَّد، ويتحامل على نفسه لكي لا يجنّ. قلتُ له ضاحكاً: كلّنا ذاك الرجل. حين ذهب لقضاء عطلته الأولى، عاد حاملاً معه علب كرتون بها شجيرات صبار ولوز وخروب، وكاليبتوس وصنوبر حلبي، وشتائل أزير. اختطّ قرب المرقد مربعاً. أزاحَ الرمل حتى عثر على نسيج ترابي صالح، غرس الشجيرات، وأحاطها بشتائل أزير، وبدأ من ذلك اليوم محنة تدبير الماء لحديقته، والتي بدت لنا مزحة وشغباً طفولياً في وجه العراء الكبير. كنا نهزأ منه، وهو يستجدي الماء، وهو يكنِس كلّ صباح الرمل الذي أوشك في الليل على طمر حديقته. قال لي: هذه الحديقة الصغيرة هي الحقيقة الوحيدة التي تُشعرني بأنني لا أعيش كابوساً في حياة أخرى غريبة عني. كان يخوض حربه اليومية ضدّ الرمل الزاحف بهمّة تعادل تلك التي يظهرها حين يوكَل له أمر ما في الجبهة. قلت له وأنا أشير إلى الجبهة التي يأتي منها العدو:

- أتكرههم؟

تردَّد طويلاً ثم قال:

- لا أعرف لم أرَ وجوههم بعد، وأنت؟

ردَّدت:

- أنا أيضاً لا أعرف. بسببهم نحن هنا

ماتت ثلاثة أرباع حديقته نجا الصبار وأزير وشجيرة الكاليبتوس وحدهم. لم ييأس فالصحراء الماكرة عوَّضته بسحلية استسلَمَت على ما يبدو لغواية الخضرة الشحيحة التي انتصبَت كسبة في وجه العراء الكبير، وأصرَّت بفدائية على أن تسكُن هناك وتواجه كلّ الأخطار المحدقة بها بأن تتخفّى بشكلٍ فاضح بين السيقان الهزيلة للشجيرات. كان البوگمازي يلاعبها في أوقات فراغه، لعبة كروفر ودودة حول ملكية مربع صغير ترهقها، ولكنها لا تتخلى أبداً عن حماها.

وجاؤوا كدأبهم في الليل. أمطرونا بوابل من القذائف والرصاص ورَدَدْنا عليهم. استمرّ القتال حتى سمعنا هدير الطائرات، وصوت انفجارات مريعة، ورأينا النار، والشظايا، والدخان والقتلى والدماء. وفي مطلع النهار، رأيناه هناك قرب الستار الترابي بلا ملامح تقريباً. كان غارقاً في بركة من دم ويحدق في المدى بعينين رماديتين فارغتين. لم تحزن كتيبتنا على أحد مثلما حزنت عليه. بقيت أنا، على الخصوص، ذاهلاً مشلولاً لساعات. رأيتهم يلفونه في ملاءة ويأخذونه ليدفنوه بلباسه وحذائه بلا مراسيم في قبر منسيّ في الصحراء. لن يبكي أو يترحَّم أو يدعو فوقه أحد. بعد موته بأيام، تمكَّن الرمل من وأد حديقة البوگمازي وطمرها نهائياً. هجرت السحلية المكان، ولم يكلّف أحد منا نفسه، ولو وفاء لذكراه، بمهمة رعاية الحديقة وصد الرمل عنها.

موت .. موت

مَن منا لم يمُت، وأمام عينيه، شيء ما فيه: يد، رجل، عين، حاسة، فرح، شهوة جنسية، أحلام، حب، وطن، إيمان بقضية، أوهام، صداقة. مَن منا لا يسري الموت في عروقه كالسم. الحياة مقبرة فسيحة بلا حدود ولا شواهد لكلّ ما ينطفئ فينا، ولكل ما هو منذور فينا للانطفاء، فلا شيء يدوم سوى المرارات.

بازوف

كنت سأقول لبازوف اللعين: هذا العالم صنعه العاجزون والمرضى لذلك جاء فظاً قاسياً مثل دواخلهم السوداء.

البوگمازي

كان أنبل وأشرس محارب عرفته، لا بالطلقات التي سدَّدها ولا بدمائه المُراقة، وإنما بالخضرة اليافعة التي استنبتها في مكان لا يلد إلا الهباء والثعابين، والعقارب، والسحالي، والريح، المدمرة.

طه حسين والشيخ

«عليك أن تختار: إما ستسير في طريق طه حسين أو طريق سيدي الصاحب؟» قالها لي بكلمات سريعة، شبه غاضبة، وألقى في حجري كتاباً كبيراً كما يُلقي الواحد حجراً، وانسحب يجرجِر رجليه بتثاقلٍ شديد. قلبتُ الكتاب، فألفيته سيرة طه حسين الذاتية: **الأيام**. كان مشهداً شبه ختامي لمحاولات حثيثة قام بها لتجنيبي الآفة. وحين ابتعدَ ببطء عني، كان ينأى أيضاً عن إيمانه بإمكانية شفائي، لذا بكيتُ يومها بحرقة، واختناق، وأنا أضع يدي على الكتاب البارد، كأنني أضعها على صكّ إعدام. كانت جملته حاسمة، قاطعة، لا تستدعي أيّ لبس. أنا على وشك دخول نادي الشقاء الذي يتزعَّمه طه حسين هذا، قاهر الظلام على ما يقولون، عميد الأدب العربي الذي رفع منديل التحدي عالياً جداً في وجه العميان البسطاء الذين لم يدرسوا في السوربون، ولم يلتقوا بفرنسية تكاد تكون رسالة سماوية، ولم يعيّنوا عمداء لكلية، ومن بعدها وزراء للثقافة، ولم يكتبوا، ما لا يُحصى من كتب في النقد الأدبي والتاريخ والسيرة والرواية، ولم يخوضوا عشرات المعارك الأدبية والسياسية، وحازوا شهرة تكاد تكون عالمية. كانت قراءتي لـ **الأيام** مضنية،

متعثِّرة، ومقلِّبة للمواجع، ولم أنجح أبداً في جعلها طبيعية متّسقة. كنت أبدأ القراءة، وأضطرّ لقفز عشرات الصفحات للتخفيف من الحزن الذي يمسك بتلابيبي ويخنقني، ومراوغته. تتجمّع السطور بأساها كغيوم تدفعها ريح عاتية لتلد برقاً ورعداً ووابل المطر. «ليس من السهل أن تكون أعمى» قالت لي **الأيام**، ستُعيَّر وتُزدَرى وتنقص بعاهتك، وعليك أن تشقّ بالأظافر الأحجار الصلدة لتُدرك نورك الخاص. وعدا أنها حرَّكت فيّ فضيلة تحدّي العجز وانتزاع الاعتراف من الآخرين، فإني عرفتُ بأنّ علي أن أكون ماكراً، وعدوانياً أحياناً، ومتحفِّزاً في كلّ الأحوال للدفاع عن النفس. والأهم من كل هذا أن أتلفَّع بكبرياء جسور، وأن تكون لي تلك الوقاحة النبيلة: وقاحة تحدي «الكاملين»، لكن هل ما حكاه طه حسين هو ما عاشه بالضبط؟ وهل ما عشناه هو ما نتذكّره؟ أم أنه لا سبيل أبداً لاسترجاع ما عشناه إلّا عبر مصفاة للذاكرة تنحلّ فيها الأحداث، ويُعاد نسجها وفق سياقات التذكر والنسيان؟ «على الأعمى أن يكون حالماً كبيراً». قالت لي **الأيام** أيضاً، وبحلمه هذا يمكنه أن يعنِّف العالم القبيح الذي أساء إليه. فهذا العالم في كلّ الأحوال عابر، ومتقلب ينفلت من النظر والأصابع. لا شيء يبقى على حاله، لا الشروق، ولا تفتّح وردة، ولا قطرة ماء رقراقة تنزلق من فوق حصاة، ولا بسمة طفل أو يد إيخاء تمتد في لحظة ضيق، وحدهم العميان لديهم القدرة، هم الذين يحتاجون إلى مرتكزات ثابتة من حولهم، على إنقاذ العالم من سعار الزوال الذي يفتكُ به، لأنهم يعيشونه حاضراً كثيفاً، بلا أطلال، ولا دمن، ولا معالم دارسة. كتاب **الأيام** تركيبٌ تجريدي لجزئيات حياة تكلَّلت بانتصار أو بتوهّم انتصار. إنها استعراض إنشائي لشخصية صارت مرموقة،

وإفراغ لحياة الأعمى من حسّها التراجيدي، إذ إن مشكلته الأساس، لا تكمن في أشخاص يزدرونه، أو مؤسسات تتحامل عليه أو تقاليد بالية تخنقه، بل في الحياة نفسها بوصفها عاهرة لعوب، لا تهبُ نفسها إلّا للقوي الشديد. كلّ صفحات كتاب **الأيام** لا تتّسع لكثافة التقاط دقيق وعميق للحظة واحدة من حياة أعمى قلق وضائع ومرتبك. كتب طه حسين أيامه، وهو يقارب الأربعين من العمر (الجزآن الأول والثاني) بعنفوان وإقدام وبراءة نبيّ تنقصه الخبرة بالزمن والناس، وما يمكِن أن يفعله بالنوايا، والأحلام، والانتصارات، تراه لو كتبها في غسق العمر بعد استيلاء العسكر على الحكم في مصر والنكبة المشينة والصعود المظفر للأصوليات، لو كتبها وهو يحسّ اندحار قواه، وتحلّل ملكاته وحواسه، وخيانة بعض ممَّن حوله، وادِّعائهم بأنهم كانوا يشاركونه كتابة أعماله، لو كتبها وهو يسمعُ الشكوك تحُوم كالذباب حول معتقده الديني وصدق رسالته ونواياه التحديثية، ومواقفه السياسية. ليس هناك أكثر فجاجة من حياة تُقدَّم على أنها ناجحة وممتلئة.

ولو أنني عرفت مبكراً بأنّ السير - بما فيها هاته - مليئة بالثرثرة والعشوائية والتعمية على بؤس الوجود وعبثيته، كأنّ ليل العمى ليس كافياً، فإنني انشغلت كثيراً بسيرة طه حسين وقرأتُ بدموع في العينين كتباً كثيرة له وعنه. إنّ الكتابة عن حياة عشناها باسترجاعات مختلطة ومختلقة تشبه الكتابة عن بيت سكنّاه لمدة طويلة، وهجرناه في النهاية بغصَّة في الحلق، قد نتذكَّر بدقة الأبعاد الهندسية، ومساحة كلّ حيز، وألوان الجدران والأثاث، وكل ما كان يحيط بنا، لكن ما السبيل لتذكُّر الأحاسيس التي شكَّلتنا، وعبرتنا وما لا قدرة لنا للإمساك به

أبداً ولو عبر كلمات بئيسة: نزواتنا وشهواتنا وأحلامنا، ولحظات جزعنا ومسرّاتنا وضيقنا. لم أعرف يومها هل سيكون بالنسبة لي ملهماً، شريعة ونبياً، أم مسيحاً دجالاً، لكن ما هو هذا الطريق الذي مشى فيه طه حسين؟ هل هو عدم تقديم أية تنازلات لمجتمع يحتقر ذوي العاهات؟ أم هي الشهرة وتسلُّق المراتب الاجتماعية والوصول إلى مناصب عليا؟ أم هو طريق العرق والجهد والدموع وبناء الذات من الصفر والانتصار عليها في كل مرة؟ ولكن ما سرّ الكآبة التي كانت تعتصر قلبه في أواخر أيام عمره. ما سرّ قلقه، وتدخينه، المفرط، وليال الأرق التي كان يعيشها هو الذي حقق كلّ هذا، بل ما سرّ تلك الجملة السوداء الساخرة والمدمرة لكلّ هذه الحياة المتوجة، والتي قالها لسوزان وهو يحتضر: «أية حماقة؟ هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة؟» أخيراً، وهو ممدَّد في فراش الموت، وقد تخلَّص من أعشاب الحياة الطفيلية: المباهاة، الكبرياء، الاعتداد الزائد بالنفس، صار بإمكانه أن يقتل بداخله الحاجة لأتباع ومريدين ومعجبين، وأن يستعيد ماضيه بطريقة ساخرة ويرى، وهو في المنحدر الأخير، قمة الجبل التي صعدها بضيق في التنفس، وتنمُّل في الأرجل، وزهوّ كبير، ولما استوى فوقها عرف بأنّ الرحلة كانت أجمل من الهدف، وأن الغنيمة بخسة وباهتة، فالسفينة جنحت، وهي الآن عالقة بين الصخور بعد أن مزّقت أشرعتها وهجرتها الجرذان، لكن هل قاد الأعمى حقاً السفينة؟ أم أنه يتحدث عن عميان عتاة غِلاظ بأجهزة دعاية ضخمة، وأجهزة أمنية سرية وعلنية رهيبة، وحشود تُساق لعبادتهم، والهتاف لهم، القادة الضرورة، الملهمون، الخالدون؟ لكنهم، يا للحماقة! عميان يسوقون سفن شعوبهم إلى حتفها. فتح طه أبواباً، وحرَّك موجاً،

وتجاوز بكثير تخوم ما هو مُتاح لرجل مثله. وقدَّم حياته، ودمه قرباناً ليصل للآخرين. تحدَّث وأملى وخطب طويلاً، وفي كلّ شيء تقريباً، مخافة أن ينسى مَن هذا الآخر الذي وصل إليه. لم يكُن يكتفي بالطلبة في الجامعة وبقرّاء كتبه ومقالاته، كان يريد أن يُسحر الحشود ويقودهم، وأن تكون له الكلمة الفصل في كلّ شيء. لم يغفر للمجتمع تخلُّفه الذي أفقده نور عينه وعاش، هو الذي بحثَ عن نور خارج بلده، يطلب الثأر بعناد صعيدي من المنيا، ويطالب بدفع الثمن. لقد أراد، وخصوصاً في شبابه، أن يكون شريراً ومقوّضاً، وحَفَرَ الدعائم ليسقط البنيان على مَن فيه، وخسر، وعاود الكَرَّة من جديد وخسر، واستجمع قواه، وهجم من جديد وخسر، وخسر. لم يحمد ربه على نعمة العمى مثلما فعل بشار - ادِّعاء - لأنه أراحه من كلّ الوجوه القبيحة التي كان سينظر إليها، بل عاش معذباً بهذه العاهة التي لم يفهَم كيف أصابته هو بالذات. كانت حياته مرثيّة طويلة، ونقمة على الأسباب التي قادته إليها، والتي لو كانت رجلاً لقتله. رأى أنّ فخر بشار بالعمى وحمده الله عليه خدعة، والأصح - كما في حالته - هو أنه: «ليس من الهيِّن على رجل كبشّار، قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى راضياً بها، مطمئناً إليها، وإنما المعقول أن يُحدث ذلك في نفسه سخطاً شديداً على الحياة، والأحياء لما يجر عليه من حرمان» عاش طه معذباً بالزمن، بالصيرورة (لذا سمّى سيرته **الأيام**)، بهذه الأشياء التي تتبرعم، وتشتدّ، وتُزهر، وتُثمر، وتنضج، ثم تذوي، وتموت، لكن بعيداً عنه. لم يملك غير نفسه لمُلاحظة تحولاتها، وهنا مصدر عذابه. نفس لا تهدأ ولا تستكين، تجد راحتها في المنافسة والتحدي، وفي النسف، والتخريب، والتسفيه تحديداً، وغبار المعارك، والمداد

المراق في الخصومات (ربما سمى **الأيام** لمعناها الجاهلي أي الحروب المُخاضة). كان عنيفاً مع الآخرين، ومع نفسه، متقلِّباً، تتعاقب بداخله أحاسيس متناقضة. ولأنه لم يرد أن يقف وجهاً لوجه مع الخالق الذي يقف خلف القدر الظالم الذي أصابه هو بالذات، فإنه خاض وطيلة حياته حرباً تنكرية ضده. لم يغفر له أبداً كونه أسكنَ روحه الحرّة الهائمة في جسد معطوب تحت رحمة الآخرين. كان طه مكتئباً كبيراً. تعتصر قلبه، بشكل دوريّ، أحزان عاصفة. تجعله يعتزل الناس تماماً، ورغم انتصاراته العابرة، وأمجاده المشهودة، فإنّ عقدة نقص مزمنة كانت تحفر عميقاً بداخله «ما أكثر ما أعجب من نفسي، وما أسرع ما يستحيل هذا العجب إلى سخرية منها أول الأمر ثم إلى رثاء وعطف عليها». ذكرت سوزان بأنّ طه كان يحب كثيراً الوقوف بجانب البحيرات، الماء الهادئ، الطيِّع، السجين الذي لا يجري، ويمكنك أن تستحمّ فيه مرتين وأكثر، الماء الذي لا يلدُ موجاً وعواصف وأنواء، ولا يرحل مع الريح والغيم، أحبَّ في البحيرات ما كان يفتقده في نفسه.

بعد قرابة ستة أشهر قال لي: «عرفتَ مَن هو طه حسين، هيا معي لتعرف مَن هو سيدي الصاحب». خرجنا من الدار فأشارَ لسيارة أجرة، وأمره أن يأخذنا إلى المقبرة. روعت، وفطن لذلك، فطفق طيلة الطريق يربت على كتفي، ويقول لي ببسمة ساخرة: لا تخف. ترجَّلنا وسحبني من يدي، اجتزنا البوابة الكبيرة، فأشار إلى شيخ بلحية بيضاء مشعثة، يتفيأ ظلال شجرة كاليبتوس، ويبدو من نحافته الشديدة، وأسماله المرقعة تجميعاً وتكثيفاً لسطوة الموت في المكان. كان نشازاً في الضراعة الملتهبة من حوله، لا يتطلع لأحد،

ولا يستجدي أحداً. يشدّ على عكازه بكلتَي يديه كأنه يحتمي به، ويطرق غير مكترث لا بالموت المسجى من حوله، ولا بمَن يقتعدون الظلال، ويستثمرون حُزن وخوف الزوار. اقتربنا منه، فذهلت لضموره ويبوسته كأنّ ما يجري في عروقه ليس دماً، وإنما انتظاراً ويأساً. بادره أخي بعد تردُّد:

- السلام عليكم سيدي. كيف الحال؟

بقي صامتاً، لم يدر رأسه نحونا حتى. ثم ردّ بصوت واهن، كأنه يصعد من جوف بئر:

- كما ترى.

- لا أرى شيئاً.

- لن ترى بعينيك طبعاً. انظُر بقلبك. وأعرِض عنّا.

كرّر أخي كأنه مصمِّم على أن يغيظه:

- لا أرى شيئاً

- يا بني لا يحتاج الذل والانكسار والضّعة إلى عينين، بل إلى قلب يحسّ ويأسى. أترى القبور أمامك؟ هذا، وأشار بيده إلى صدره، هذا قبر آخر.

وعاد لوجومه الصخري. انتبهت لعينيه المنطفئتين فبهت. وكما يفعل دائماً سحبني بفظاظة وخرجنا انتظرنا سيارة أجرة أعادتنا إلى الدار. بعد ذلك سيحكي لي بأنّ هذا اللاشيء تقريباً له تاريخ عظيم، فمنذ عشرين سنة فتن الناس، وقادَ الجموع، وكان هناك مَن هو مستعدّ للموت من أجله، بل إن قول الناس: «كلّ ذي عاهة جبّار»، تبدو وكأنها قيلت فيه بالضبط. بدأ من الصفر، لم يكن يمتلك إلّا معرفة دقيقة بخريطة الأولياء الصالحين، ومواقيت مواسمهم. كان

يسير من موسمٍ إلى آخر، ومن وليٍّ إلى آخر. وهنا وهناك، عرف بكائه والزبد المتطاير من فمه، وبسبحته الخشبية الهائلة المتدلية حتى أسفل بطنه، والعصابة الخضراء التي تشدّ رأسه، وتترك شعره الأسود الفاحم ينسدل على كتفيه. يقتسم خبزه مع الجميع، ويقوم بتأوّهات وحركات استعراضية تثير الانتباه. يُزاحم الفقهاء ومردِّدي الأذكار والأوراد، ويُبدي حماسة في أداء شعائر الزيارة أكثر من الآخرين. وأينما حلّ ادّعى بأن الراقد شيخه وحافظه وملهمه. كاد أن يقتل نفسه وهو يعبُر حجرة مولاي بوعزة، ونطحه ثور تعرقيبة مولاي عبد الله أمغار، وكادَ أن يغرق وهو يغتسل في وادي أم الربيع قرب سيدي محمد مع الله، وشجّ رأسه في سيدي علي بوحمدوش، وكسرت يده في جبل العلم، وكاد يموت تحت الأرجل في موسم بوعبيد الشرقي حين انفجر برميل بارود بين خيام الفرسان. ولا يجد نفسه حقاً إلّا حين يغشى عليه، فتتعهدّه أيدي النساء البضّة المخضَّبة بالحناء، وترشه بماء الزهر. تفقَّه في آداب زيارة الأولياء، وأخلاق المريد. وما زال يترقى، ومن المنن الربانية والنفحات الزكية يتلقى، كما كان يردِّد، حتى صار معروفاً جداً، يأتيه الناس للسؤال عن موعد موسم ويطلب منه بعضهم، وبعضهن أن يسيروا في ركابه. بدأ برَكب صغير لا يتعدّى أصابع اليد يحمل علمه الأبيض بيده، ويتدبَّر أمر المركوب والهدية. كبر ركبه شيئاً فشيئاً حتى صار له مكلّف بشؤونه الخاصة وحامل العلم وصاحبة الصندوق وصاحب المؤونة ومكلفة بأخبار أتباعه. كان يقصّ على أتباعه مناماته ورؤاه، وكيف وقف عليه هذا وذاك الولي، ودعوه لزيارته أو أخبروه بحادث ما سيقع، وحملوا له بشارة تخصّ أحد أتباعه. وانتبه، وهو في بدايات مساره، لأهمية وجود مخلصين من حوله يأتمرون بأمره، ويُظهرون أمام الناس ولاءً

مطلقاً له. فالناس يخضعون بالتبعية، ويركنون للقطيع. اختار ثلاثة رجال سماهم أصحاب السرّ، وثمانية نساء سمّاهن أهل الدار. وكان يعتبر عصاه التي سماها: المباركة، هبة ربانية وضعت بجانبه حين كان نائماً قرب ضريح مولاي بوعزة. يتعامل معها كعنصر من المقربين منه، ويحدث أتباعه عن كراماتها فهي تشعّ نوراً في الظلمة الحالكة وتتضوع مسكاً وسط الرائحة الكريهة، وتقدر على تمييز الطيب من الخبيث، ولا تطيعه حين يهمّ بالسير في طريق محفوف بالمهالك والمخاطر. جملة، أودع الله في المباركة أسراراً لا يعلمها إلّا هو، لعلّ أهمها هو أنْ لا أحد من العارفين بالأشجار اهتدى إلى نوع الشجرة التي اقتطعت منها، ولو أنّ أصحاب السرّ كانوا يهمسون بأنها من أشجار الجنة. كَثُر أتباعه، وصار بعضهم يشفى على يديه، وتقضى بعض حوائجهم، لأنه مُسهم أو تفل في أفواههم أو دعا لهم. وتحدّث أصحاب السر عن كرامات عظيمة يتستر عليها، ولا يريد ذكرها مَخافة أن تحدث فتنة بين الناس. اشترى داراً كبيرة، وفتحها لمريديه يأكلون، ويشربون، ويُقيمون حلقات الذكر، ويعتكفون. وخصَّص يوم الأحد لشفاء الناس من كلّ عللهم البدنية والروحية، فتداعى عليه الناس من كلّ المدن والقرى المجاورة. سمى ما يهبه الزوار فتوحاً. يقبض باستحياء، ويدسّ ما قبضه تحت الهيدورة التي يقتعدها، ورغم أنه تسبَّب في موت عديدين، لأنه أمرهم بالإقلاع عن أخذ الدواء، وبرَّر ذلك بأنه اختار لهم شفاء الآخرة، وفاقم أمراض آخرين، واتّهمهم بفساد الطوية ووهن التوكّل، وتسبَّب في بتر رجل أحد أتباعه، وقال له بأنّ الله إذا أحب عبداً ابتلاه، فإنّ المتشوقين للشفاء على يده كانوا يتزايدون، وصيته ينتشر، والهالة النورانية التي يرونها في وجهه تشعّ وتبهر. ولأنّ ربك يضع أحياناً أسراره في أتفه

أشياء هذا العالم فقد أنهى، بقهقهة مجلجلة، أسطورة مَن كان يقول بأنّ بصنيرته أقوى من بصر تابعيه، بفضيحة كبرى، وأخرجه من يومها من زاويته الكبيرة العامرة إلى المقبرة. كان قد تزوّج بنت تاجر مواد بناء التمس البركة من الشيخ، فازدهرَت تجارته، وكبُر اسمه في السوق. ولعطاياه الكثيرة كان الشيخ يُمازحه أمام المريدين قائلاً: «أنت عثمان بن عفان الزاوية». قوية عزيزة النفس، تعتصر تقاسيم وجهها كآبة مَن يوجد في المكان الخطأ، عصبية تسبقها يدها في كلّ خصومة أو شنآن بسيط. تمكّنت خلال أيام، من السيطرة على الرجل فتخلى أمامها عن وقاره وهيبته، وخضع لقانون سنته الطبيعة يقضي بأن لا عظمة لأحد في اليومي المبتذل حين يكون الإنسان غدداً وأمعاء وعظاماً وغرائز. داخل الدور تتبدّى فاضحة هشاشة وحدود وتفاهة الكائن. كان يتعذّر لها بدعوات مريدين مخلصين للعشاء ويسير إلى إحدى خِليلاته، ويعود متأخراً أحياناً حتى صلاة الفجر. حتى اليوم الذي تحسَّس فيه السرير كالعادة وخلع جلبابه وتشاميره، لأمرٍ ما صحت وأشعلت النور فرأته يلبس تباناً أحمر مشبكاً فعَوَت من الذهول والغضب، وغرَسَت أظافرها في عنقه وجشَّت رأسه بالمباركة، ونادت الناس، فتداعى بعض المريدين الذين كانوا يتهجَّدون تحت. دهشوا لرؤيته عارياً ومجمعاً على نفسه، فحاولوا ستره لكنها منعتهم بقوة. سابقت الفضيحة سعَة ونفاذ نور الشمس إلى المدينة. قال الشيخ لمُريد أراد أن يهوّن عليه: «كيف لمن لا يعرف بماذا ستر عورته أن يهديكم، انتهى الأمر يا بني» وانتهى الأمر فعلاً، كما قال. طلَّق البنت، وتذكَّر ما فعلته لالة رقية تحدياً للباشا بوزكري وسار إلى المقبرة.

فكرتُ في الرجلين كثيراً. وجدتُ أن كليهما (ولو أنّ طه سيُعتبر مقارنته بنكرة إهانة كبيرة)، وفوق أنه كتب عليه أنْ يواجه ظلامه الخاصّ أخذ على عاتقه أيضاً مواجهة ظلام الآخرين. تصدّى طه حسين لحَجْب التخلف والجهل، وأراد هو المحتاج دوماً إلى يدٍ تهديه سواء السبيل، أن يأخذ بيدِ أمّة نحو نور العصر. وتصدّى الشريف لحجب الغيب، وأراد أن يشارك الله في تدبيره لأمور الناس، وكلاهما عاش تمزقات، ومرارات، وشكوك الاضطلاع بمهمة قيادة الناس. آمَنَ طه بالعقل، جعله سيداً وقائداً وملهماً، وآمَن الشريف بالقلب، ورأى بأنه إنْ مُلئ بالتسليم المُطلق للشيخ، فإنّ صاحبه سيعيش طمأنينة لا يعرف حلاوتها إلّا الفائزون، غير أن الشريف وبوازعٍ من حياء الذات (شرحه طه حسين نفسه، وبدقة، في روايته أديب..) تمكَّن من أن ينقلب على نفسه. ويتخلى عن كلّ شيء، بل إنه قتل نفسه رمزياً وسارَ برجله إلى المقبرة. فضَّل أن يعيش بين أناس تحت التراب لن تُزحزح صمتهم الثقيل غوايات العالم التي يتفنَّن في بناء شركها الخطباء، والقادة والساسة. قام بما من شأنه إنهاء كلّ صرح ديني، حطَّم صنمه واختار بشطحة سخرية ملهمة الاحتماء بالأموات. بعد اليوم لن يتدخل في حياة الآخرين، لن يستثمر مآسيهم لبناء فزاعة قداسة فارغة، ولن يتلذّذ بسمّ التبرُّك والمديح والرجاء الذي يلوّثون به حياته. سيعيش، بعيداً عن المواسم والأضرحة والبخور والأدعية والغبار، نقاء العزلة والصمت والاكتفاء من العالم بإطراقة متأمِّلة. ربما وهو يهترئ في هذه النهاية الطويلة التي اختارها لنفسه، أدرك المادة الأصلية للقداسة: خرقُ العادة، تحدّي الناس، واجتراح ما يُذهلهم ويُبلبلهم. وسيجد حتماً مَن يعظّمه ويتبَّرك به بعد موته.

الحرب

حرب لا تشبه الحرب. وجبهة مفتوحة على الخلاء لا تشبه جبهات القتال، تتوسَّد الأفق وترقُب الهباء. يأتون في غبش الفجر، في أيام الأعياد، مع آذان المغرب في رمضان. يتسلَّلون في جماعات صغيرة، يفرغون رصاصهم ويرحلون تطاردهم الطائرات. يعرفون بأنهم لن يحسموا شيئاً، ولن يزحزحونا متراً واحداً عن مواقعنا. ومع ذلك، يأتون في فترات متباعدة ليقولوا للآخرين بأنهم هنا. ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات على الأكثر هذا ما يطلب منهم حتى يتمكَّن المرفّهون من إدارة حربهم السياسية في العواصم البعيدة. كل هذا الدم، والآهات، والقبور المجهولة، والغبار، والعاهات، والفواجع من أجل ميكروفون وعدسات مصورين.

ماذا أنتجت هذه الحرب الطويلة من أفكار جديدة في البلد؟ لا شيء. كم حطمت من بنيات وقناعات وأصنام، وهيأت الظروف كما في عدّة بلدان للثورة، أو على الأقل لتحولات عميقة؟ لا شيء. هل عاشها المغاربة كمأساة وجرح؟ لا أبداً. لم يعِش المغاربة أبداً مفهوم جبهة الحرب كما عاشته شعوب أخرى: مشاهد الوداع

المؤلمة في محطات القطار، العناق والبكاء والأيدي الملوحة، والرسائل الغرامية، والشبان المقدمين عليها بذهول، النعوش والمعطوبون، وصفارات الإنذار، والملاجئ، واقتصاد الحرب. من حين إلى آخر، كان مقدّم الأخبار الأبدي يتحدث عن مواجهات، ويذكر أرقاماً لشهداء، وقتلى ويظهر صوراً، وغنائم ويطوى كل شيء. وبعد النشرة سهرات الأقاليم الفرحة ببؤسها.

هل هذا شعب خاضَ حرباً؟!

لم تتلقَّ عاهاتي التي أحملها نظرات إعجاب أو فخرٍ من طرف كلّ مَن عرفوا بأن سببها حرب من المفروض أنني خضتها من أجلهم ونيابة عنهم. عدا نظرات شفقة يُعبَّر عنها دوماً بشكل بليد أو نظرات لا مبالاة رديئة، كأنني أصبتُ في حادثة سير تافهة بجمعة رياح أو زحيليگة.

هل هذا شعب خاض حرباً؟!

كلنا كنّا ككمريخ المحارب في رواية: **كلّ شيء هادئ في الميدان الغربي**، لإريك ريماك. يستلقي في سرير بالمستشفى وهو لا يعرف بأنّ ساقه بُترت. ورغم ألمه ووهنه المتفاقم، كان يحرَص على إبقاء حذائه الإنجليزي معه، بيقين أنه سيلبسه حين يعود إلى البيت، هكذا نحن في الجبهة، نشتهي حياة ما بعد الحرب، ونرسم تفاصيلها ونحن نجهل بأننا فقدنا ساقَ المشي فيها.

بعد المعركة، أنظر إلى الحُفَر بحس تضامني أصيل، هذه قذائف تلقَّتها الأرض خطأً بدل صدورنا.

أتأمل طيلة النهار هذه الأرض القاسية بأحجارها السوداء المشوية والمتفسِّخة ورمالها الكئيبة وريحها الممقوتة، وأقول لنفسي: أتستحقّ كل هذا الدم؟! بعد شهور أو سنوات، ستنتهي الحرب، ونذهب ويذهب عدوّنا إلى حال سبيله، ويبقى المالكون الحقيقيون للمكان: الأفاعي والجرابيع والسحالي والعقارب والضباب.

أذكر أن الشاحنات أنزلتنا في الجبهة مبتهجين، أغراراً، متحمِّسين، نُقهقه بصخب، معرفتنا بالصحراء ضئيلة ومتعجرفة، شكّلناها فقط من خلال ساحة تدريب قرب الثكنة. كنّا نمتلك كلّ صفات مَن اصطادتهم الحياة طيلة قرون لتوفّر حطب حروبها الضروس، لكن وبعد أيام فقط، صرنا ننزوي ونبكي. وصارت الكوابيس تمزِّق نومنا، وكثيراً ما نصحو مذعورين ونحن نُنادي أمهاتنا، وملأ رمل المرارة بصرنا وصدورنا وحلوقنا. وحين فاجأتنا القنابل الأولى، ورأينا الدم والبطون المبقورة والأطراف البشرية المتناثرة، وسمعنا الصراخ المروّع والأنين، ورأينا ما يفعله بأس الحديد والنار بالبشر، نبت إلى جانب الزغب الفرح والمتطاول في ذقوننا ذهول وصمت ورعب سيتردّد دوي دماره بدواخلنا إلى الأبد.

رأى أنطوان دي سانت - أكزوبيري -، كما حكى بابتهاج، يعسوبين فوق كُثيب رمل، وأنذراه للتوّ بتوجّه عاصفة نحو المكان الذي يوجد فيه. قرأ الغضب القادم في جناحي اليعسوبين الضئيلين. هذا ما حرَمنا منه، نحن الجنود، اللقاء الحميم بالصحراء، قراءة ما يتخفّى، والتنبُّه الدائم لتلقي الإشارات. السلاح حجاب، يكفيك أن تمتشق آلة في يدك، آلة مسكونة ومنذورة لقتل الآخر، ليجلِّل الظلام

كلّ شيء عدا هدفك. لا وقت لديك لتتأمل أهوال نملة في نقل حبة قمح، أو رقصة نحلة، أو حنين طائر، أو حتى انزلاق قطرة ندى من فوق ورقة شجيرة معذبة.

كما يحدث دائماً، يتوارى مَن يخوضون الحرب، يتوارى مَن يزحفون على بطونهم فوق الحصى المدبّب، ويعضّون شفاههم، وأرواحهم تطفو فوق حناجرهم المتيبِّسة، ويصرّون أسنانهم وهم يرون الدماء تُسفك والأشلاء تتطاير. يأتي القادة الذين كانوا في أماكن آمنة إلى أرض المعركة في طائرة هليكوبتر تتبعهم طائرة أخرى مليئة بالصحافيين، ونكون قد نظّفنا الساحة من الدماء والجثث والمعطوبين والخسائر. يقدّمون لهم شروحاتهم، ويعرضون، بمباهاة، ما غنموه من العدو، ثم يرحلون جميعاً، ويعود مَن هم حطب الحرب لمتاريسهم وصمتهم وانتظارهم.

رجلان في عِراك دامٍ، يوشك أحدهما بأن يجهَز على الآخر بضربة هراوة. أحدهما سيقتل في النهاية، يظهر ذلك من شراستهما، والعصف الكامن في جسديهما المندفعين والمتوثِّبين، ثم ليس هناك مَن يفضّ الخصام الضاري بينهما. هراوتان في الهواء تأخذان نفساً عميقاً وقاتلاً من الجاذبية لتهويان بقوة وحسم. هناك جلالٌ ما في هذا العراك الخرافي. بعد حين سيسفح دم، وسيخرّ جسد إلى الأرض، لكن ماذا سيفعل المنتصر بنصره؟ فالأرض من حولهما هضاب جرداء، متفحِّمة، وغاضبة، وأرجلهما تغوص تدريجياً في الرمال. يتعاركان وهما لا يدركان بأنّ العدو الحقيقي يتمثّل في الرمل الذي يستدرجهما إلى حتفها. أيّ عمى أصابهما؟ ألا يحتاج

أحدهما إلى الآخر في هذه الأرض الجحيمية التي تتَّسع بفداحة لهما ولسلالتهما من بعدهما؟! في حمى الهجوم المتبادَل بينهما، والعاطفة العنيفة التي تزيِّن لأحدهما فكرة أنّ العالم سيكون أفضل من دون أحدهما، وفي اللحظة التي كان فيها كل شيء ممكناً: يقتل أحدهما، يُقتلان معاً، يخرّان جريحين نازفين بدون إمكانية إسعاف. كان هناك شيء واحد يقف رابط الجأش بينهما محترساً من إشراقة تعقل تنبثق بداخلهما فيتوقفان: إنها الجريمة في كمال وحشيتها وقداستها منذ أن دفع رُهاب المزاحمة قابيل لقتل أخيه هابيل. في خلفية لوحة غويا: «عراك بالهراوات» تتجمّع نذر عاصفة، ستقتلع كلّ شيء من جذوره وتطوح به بعيداً. ما أغبى الإنسان! ما أغبى الإنسان!

حديد يئنّ من الحرارة ومطّاط يشتكي، وانتظار يعذّب كل شيء، واشتباك دموي من سنة لسنة، اشتباك خاطف يتخيّر من النهار أرحم ساعاته. يُلعلع الرصاص مع الصبح، وبقدر ما تتعالى الشمس القاهرة في السماء، يخفّ حتى يصمت نهائياً قبيل الظهيرة. يتبخَّر المهاجمون كما يتبخّر الغيم الشارد في هذا الجحيم. لو بقوا قليلاً لو أعانونا على هزم هذا الملل الذي يفتك بنا.

في شساعة البراءة المذهلة هذه، في هذا النقاء الجارح الذي كلّ شيء فيه صارخ بحدّته وقسوته: الحرّ حرّ، والسماء سماء، والرمل رمل، لا التباس، ولا غموض، ولا قناع. وكل ما يحيا هنا سام وماكر وسريع. صحراء لا تحتاج إلى براهين أخرى على قساوة الحياة، صحراء نقية، صارخة، متبرِّجة. أما تكفيها حروبها الأبدية

مع الريح ولهيب الحزّ وسماء معرّضة لكي نأتيها، نحن وأعداؤنا، بدمائنا ودخاننا وأسلحتنا؟!.

حين أشاهد بعض الأشرطة الوثائقية عن الحروب في العالم، وحين أقرأ لكتّاب الحرب الكبار: تولتسوي، شولوكوف، هيمنيغواي، جيونو، ريماك. أُذهَل للسخاء الكبير في الحشود المتقاتلة والنيران والحركة والدماء، بذخ في الجنون، وفي هذه القدرة البشرية اللامحدودة على إنتاج الشر، وترسيخه في العالم، وابتكار أدوات لإتقان فظاعاته، ووفرة في النزوع الشيطاني لتخريب كلّ ما بنته البشرية وفي شاعرية تسوية كلّ شيء بالأرض والسماح له بأن يصعد فقط خيوط دخان شامت نحو السماء الصماء. ورغم كلّ هذا، يجد الناس متّسعاً للحب، والحلم، واختبار إرادتهم في الانتصار على الدمار وشقّ مسارات بداخله. أقارن كلّ هذا مع فقر الحرب المسترخية التي خضتها، حرب متثائبة بلا أفكار ولا أحلام، حرب خلقتها أحقاد الجوار وجراح التاريخ والرغبة في تصفية حسابات متراكمة، حرب لم تدُم كل هذه السنوات الطويلة إلا لأنها وزعت طلقاتها على ضربات خاطفة ومتباعدة.

حين كنت أعود إلى الداخل في العطل يتملّكني الذهول وأنا أرى بلداً يهرب من توالي حرب الجفاف وحرب أقاليمنا الجنوبية، وحرب التقويم الهيكلي إلى فرح سهرات الأقاليم البئيس وشغب المعارضة التي تعرف حدودها جيداً. بلد زرعت فيه القبضة الحديدية، من طنجة إلى الگويرة، إجماعاً قسرياً على كلّ شيء، حتى الصغار.

«في ذلك الدوي العاصف
كانت فرصة الاختيار محدودة
وكانت العودة بكمٍّ خاو
أفضل من العودة بروح خاوية».

ميخائيل لوكونين

المراسلات الدولية للوالد

لم أكن أرى والدي إلّا عائداً من سفر أو متأهباً لآخر. كان يطارد لقمتنا في مبيعات الزرابي، ويصل إلى أسواق لا تخطر على البال. يأتي يوم الأحد ليلاً ويقضي يوم الاثنين نائماً ويخرج إلى سوق الثلاثاء ليبيع الزرابي التي جمعها من جبال زيان وواحات دادس وغريس والأودية العليا للأطلس الكبير، ويسافر يوم الأربعاء صباحاً. ونظراً إلى مكانته في رحبة الزرابي كتاجر هادئ بلا مشاكل تُذكر، وله تجربة كبيرة تؤهله لمعرفة، بنظرة واحدة، نوعية الزربية وعمرها وأين نسجت، وليتبيَّن بلمسة واحدة هل هي من صوف أصيل أو مغشوش، فقد عيَّنته السلطة أميناً على رحبة الزرابي لفضّ الخلافات بين التجّار والزبائن ولحضور الخطابات الملكية في العمالة وتنظيم مساهمة بائعي الزرابي في عيد العرش.

في صباح يوم الاثنين جاء مقدّم الحومة وطلب من الوالد أن يلتحق على عجل بالعمالة، وبعد أربع ساعات عصيبة من الانتظار أوقفت فيها أمي كلّ شيء في البيت فلم تتحرّك ملعقة واحدة ولم يرفع كأس واحد، وبقيت تذرع الدار جيئة وذهاباً فوق أنفاسنا

المكتومة وتتلوى من القلق، جاء الوالد مُتعباً يخفي بصعوبة زهواً كبيراً فقد أرسل لتوّه برقية احتجاج لرئيس وزراء الهند نيابة عن كلّ بائعي الزرابي لاعترافه الظالم بالجمهورية الصحراوية، وأشهر في وجوهنا نصّ البرقية بالإنجليزية التي وزعها عليهم العامل شخصياً وساقوهم هو وباقي أمناء التجار والحرف إلى مصلحة البريد وأدّوا مائة وخمسين درهماً لكلّ برقية. قالت له الوالدة: هل أعطوكم المبلغ؟ فاستشاط غضباً: وهل أرضى ذلك؟ يكفي أنّ العامل قال لنا بأنّ إرسالنا لهذه البرقية سيُكتب بمداد الفخر في الصفحات الخالدة لوطنية كلّ واحد منّا وكان يوماً مشهوداً في دارنا، فقد أصبح الوالد يخاطب رؤساء الدول ويرسل لهم البرقيات الاحتجاجية الغاضبة بلغاتهم، وصرنا كلما رأينا ساعي البريد تهتزّ قلوبنا، ربما يكون حاملاً معه جواب راجيف غاندي للوالد. غير أنّ انتظارنا للأسف، لم يدُم طويلاً فقد اغتيل الرجل، ولم يعُد لأبي مَن يكاتبه. توقّفت المراسلات الدولية للوالد إلى أن حلّت فتنة كتاب «صديقنا الملك»، حين جاء المقدَّم ليلاً وطلب من الوالد أن يكون في الغد الباكر في العمالة. لم يكن الوالد على علم لا بالكتاب ولا بغضب الملك الشديد، ولم يسمع صواعق مصطفى العلوي في التلفزيون، بل إنه ذهب ولم يكن في جيبه إلّا أجرة التاكسي، فاضطرّ للاستدانة لإرسال برقية غاضبة مرة أخرى للرئيس الفرنسي. وعاد سعيداً مرة أخرى يُشهر في يده النص الفرنسي للبرقية. قال لنا بأنه بعثها لفرنسوا تيميرو. فضحكنا وقلنا له: ميتران، وحكى لنا بأنّ العامل شرح لهم طويلاً كيف أن الاستعمار يريد العودة إلى البلد من بوابة شتم الملك. وسألناه (كنا قد كبرنا وبدأنا نفهم بعض الشيء العبث الوطني): ماذا في الكتاب؟ فردّ: لا أعرف. هم الذين قرأوه ونحن

نتبعهم فقط. ومن باب الاحتياط ولكي يعفي نفسه من حرج الحاجة له في أمر دولي، ولأنّه صار مخاطب الرؤساء، وليس من اللائق ألّا يجد في جيبه ما يسدِّد به كلفة برقية كما وقع له مع برقية الرئيس الفرنسي، فقد أعطى الحاج لأمي مبلغ خمسمائة درهم وطلب منها أن تدَّخرها لمراسلاته الدولية، ربما يحدث شيء مع ملكة بريطانيا أو رئيس روسيا أو إمبراطور اليابان، مَن يعرف؟

حين تذكّرت ذلك أنا والعسكري فقال لي ضاحكاً: كانت ذروة هذا الجنون الكامل في أنّ الذي كتب برقية فرنسوا تيميرو في الرباط ارتكب خطأ إملائياً وجرّ وراءه الوطن برمَّته من طنجة إلى الگويرة ممرّغاً الأنف الطويل للفرنكفونية بالبلد في التراب. أتتذكّر تنافس عمالات الإقليم في مَن أرسلت أكبر عدد من البرقيات؟ يا لتلك الأيام المجيدة. لتلك الأيام.

عودة الباشا

رأى الناس الذين مروا في الصباح قريباً من البوابة الكبيرة لقصر الباشا أعلاماً وطنية تعلَّق ومصابيح خضراء وحمراء وعمال البلدية منهمكين في صباغة الطوار وتنظيف الساحة المقابلة. ولم ينتصف النهار حتى كانت المدينة كلها تتحدث عن عودة وشيكة للباشا من منفاه الاختياري أو غيبته الطويلة جداً أو سفره الذي تحوّل إلى إقامة دائمة هناك، لا أحد كان يملك الوصف الدقيق لهذا البُعد الذي دام أزيد من أربعين سنة كاملة. ورغم تلك المظاهر، فالناس لم يصدِّقوا أنه سيعود حقاً، فطيلة هذه المدّة الطويلة، كانت الأعلام الوطنية والمصابيح الخضراء والحمراء تعلّق في البوابة الكبيرة ويصبغ الطوار وتنظف الساحة المقابلة ما لا يحصى من المرات، ثم يأتي الخبر بأنّ العودة أجّلت وهناك طارئ ما حال دونها في آخر لحظة، أو أن ظروف العودة لم تنضج بعد. كلّ ما يمكن أن يُقال هو أنّ حكاية الباشا غامضة وملغّزة ولا أحد يملك فيها الكلمة الفصل إلّا هو والحاشية الملتصقة به. حكاية مليئة بالأسرار مثل البوابة الكبيرة الموصَدَة التي عبَرَ منها التاريخ عقوداً في هيئة ملوك ووزراء وموظفين ساميين ووفود ولجن وضيوف كبار. البوابة التي لم تكُن تفتح إلّا

لحدث كبير أو لخروج ودخول تشكيلة حرس أو سيارات أهل الدار. تفتح وتغلق بسرعة ويسترقُ الناس نظرة خاطفة للساحة الكبيرة المبلطة ببجماط[1] أبيض وأزرق، وفي وسطها نافورة أندلسية تصعد ماءها ورذاذه للسماء، وفي جوانبها أشجار ذات خضرة باهرة، وورود لا تذبل أبداً. البوابة التي كانت مصدر خوف ورجاء وتعلُّق حميم وحقد دفين أيضاً، تفتح كما تفتح الدنيا ذراعيها لمحظوظ، وتغلق وتصدّ كما تدير الدنيا ظهرها لتعيس. كانت صخرة عذاب تحطَّمت أمامها آمال ومصائر أفراد وعائلات وجماعات، وكانت نبعاً زُلالاً اغترف منه أناس وراكموا الثروات والوجاهة. كم انتظر الناس أمام تلك البوابة في القيظ والبرد الشديد، كم تكوَّموا على أنفسهم وهم يحدِّقون فيها، لعلّ أحد بابيها يفتح وينادي باسمهم، كم تسوّلوا إشارة وبسمة حانية، كم تفسّخوا في انتظارهم، كم قاموا بحركات مسرحية وبهلوانيات لإثارة انتباه الباشا حين يمر. كم رموا من رسائل وتظلمات ونسجوا خيالات فسيحة عن مآلاتها. صنعت البوابة تاريخاً من الأوهام والانكسارات والأساطير. كانت لها مهابة جليلة يمتقع الداخلون وهم يعبرونها، وتخفق قلوبهم وجلاً فقد لا يخرجون منها، وحتى الذين كانوا يمرون بعيداً عنها كانوا يسرعون الخطى فقد تمتدّ لهم أيدٍ غلاظ، وتُرسلهم للسخرة في ضيعات الباشا. لا خير إلّا الخير الذي يخرج منها، ولا رجاء إلّا إن تعلَّق بها، هناك الرحمة وهناك العذاب. بكت النساء بحرقة أمامها للإفراج عن أسير أو مختفٍ. واصطففنَ بالقرب منها بالطعاريج والدفوف والأعلام، وملأن المدى بزغاريدهن وهن يستقبلن ضيفاً كبيراً جاء لزيارة

---

(1) نوع من الزليج يدخل في تركيب الفسيفساء.

الباشا، أو لتحية الباشا نفسه بمناسبة عيد أو ذكرى وطنية. كانت بوابة تختصر الحياة هنا، تبكي وتفرح، تنزع وتعطي، تقرب وتبعد، تعلي وتحط. كم أكل الناس أمامها في المسغبات والمناسبات من قصاع وجفان كبيرة، يتناوب على حملها من خرصها الحديدية عبيد شِدَاد، وكم أكلوا من ضرب وتعنيف، وكم ألقي بهم، كما تُرمى جيفة أمامها، مَن كان يجلّه ويخافه الناس للحظوة التي له بالداخل، وكم من خامل وضيع عبَرَها وصار له شأن وقوة ومكانة رفيعة. البوابة غضبات مدمِّرة عصفت بأشخاص، وجعلت الناس يتحاشون حتى النظر إليهم، ورضى عن أشخاص فتح لهم باب النعيم. إنها تاريخ مسرح عرائس خطير، تدبر فيه يد لا ترى مصائر الناس، وتتحكم في رقابهم، ولا تسأل عن مبرِّرات غضبها ولا رضاها، إنها السيل حين يجرف أشجار الوادي، إنها القوة حين تنحدر في شكل جلاميد صخر من علٍ، وتسحق كلّ ما تحتها، وكلّ ما يعترض طريقها. تريد القوة مرآة مجلوة ترى فيها نفسها، المرآة هي النزوة، والبوابة تاريخ نزوات لا تنتهي مع السلطة والمال والنساء. ويا ويل مَن وقف في وجه نزوة، أو حاول أن يعترضها أو يرشدها حتى.

انتصرت البوابة، وأذلّت وجرفت كلّ شيء إلا الزمن، لقد بقي هناك يرى جبروتها، فيبتسم. يرى لهوها، فيبتسم. يرى عزّتها بنفسها، فيبتسم. ولم يرمِها إلّا بسهم العطب الذي يطوف على الكائنات والأشياء، وينهرها قائلاً: أنت غير دائمة. مات الباشا الجدّ والمؤسس، وبعد خمسة وعشرين سنة مات الباشا الابن، وفضَّل الباشا الحفيد البقاء في مصر، فتفكَّك كلّ شيء تدريجياً. انفضّ المتحلّقون، واندثرت طقوس وأعراف، وتركت أشياء تموت

على مهل، وتكفل الناس والإهمال بأخرى، فسرّعوا هلاكها. وبدأ قصر الباشا يذوي، ويتوارى في أذهان الناس. وفقدت البوابة هالتها ودورها، حتى أنك كنت ترى أحد السكارى في الليل يتبوّل على أعمدتها الرخامية، أو أحد المتسكعين ينام تحت إحدى سقيفتي البابين الجانبين. سرى العطب في كلّ شيء، بهت العلم الذي كان يرفرف فوقها، وتكفَّلت يد ما بإزاحته، وبدت شقوق كبرى في الجدران، وفقد نحاس خشب البوابة لمعانه، وماتت ورود وأشجار الحديقة، وتفسخ العشب. استولت الخطاطيف على القصر أسراباً، أسراباً، كانت تلعب في ساحته مساء ثملة بفرح امتلاك مكان فسيح لا ينغّصها فيه منغص، وشنّت القطط غارات على بعضها، وتعاركت بلا توقف، فالقصر صار بالنسبة لها مثل غنيمة حرب ينبغي الاستئثار بها. تفطَّرت قلوب، وهي ترى ما يفعله الزمن بالمجد والسلطة والقوة، وشمتت قلوب أخرى، وهي تكتشف أنّ جبروت تلك البناية كان يقتات على ضعف، وتخاذل، وطمع الناس. النصر عابر، القوة عابرة، لا شيء يبقى سوى العطب.

فُتحت البوابة لأول مرة منذ عقود، ورأى الناس عشرات العمال يصبغون ويرمّمون، وينكسون، ويغرسون وروداً وأشجاراً، وظهرت وجوه كانت توارت في زحمة غياب الباشا الصغير الطويل، بدت عليها آثار الزمن، لكن سطوتها في إعطاء الأوامر والحرص على أنّ تنجز الأشياء بدقّة وجودة كانا باديين. ظهرت جلابيب المخزن من جديد، والشاشيات الحمراء وكلام وطقوس الدور الكبيرة، وجاءت شاحنات من الدار البيضاء حاملة أثاثاً وصل إلى الميناء من فرنسا وإنجلترا، ووصلت لوحات فنية تحت مراقبة شديدة، وآلات

للرياضة، وجياد عربية أصيلة، ونمور وببغاوات وطيور استوائية أخرى، وظهر الحراس من جديد في البوابة وفوق أبراج المراقبة، ولم يعُد هناك من شك تماماً، الباشا عائد إلى المدينة وبصفة نهائية. طافت لجنة في حواري المدينة، وسجّلت كلّ مَن يريد أن يستقبله في المطار، فهناك عدة حافلات ستقل المهنئين. تسجل الوالد وطلب من العسكري أن يفعل، لكنه رفض وبشكل قاطع، فنهره قائلاً: «لقد كبرنا في ظِلّ الباشا وأولاده، ولا تعلو العين على الحاجب أبداً». هزّ العسكري كتفيه ومضى مغمغماً. وفي يوم أربعاء مشهود، عاد الباشا متقدّماً عشرات الحافلات، ومئات السيارات مملوءة بالأقارب والأصهار وأفراد القبيلة، وقدّم له الحليب والتمر في البوابة، ودخل على أنغام فرق شعبية إلى داره الكبيرة الذي نصبت في ساحاتها خيام كثيرة. ولأيام كان يستقبل بعد العصر، وحتى آذان المغرب المهنئين. كان يقف بالقرب منه الحاج فرح هامساً في أذنه باسم مَن يسلم عليه، فيكرر: «الله يبارك فيك. مرحباً. مرحباً». بشكل آلي وعلى وجهه، ارتسمت كآبة وضِيْق تحمُّل الناس ومجاملتهم. سِرتُ مع والدي، سلمنا على الباشا، ودخلنا إحدى الخيم الكبيرة، وشربنا الشاي والعصائر، وأكلنا حلوى نبيلة تذوب في الفم. ومن هناك كنت أتأمله، كان يشبه تماماً الملك فاروق في تلك الصورة الحزينة التي يودِّع فيها مصر ليركب باخرة المحروسة تاركاً مصر لحكم العسكر. الصلع الوقور نفسه، النظارات ذات العدسات المستديرة نفسها، الوجه الأبيض الممتلئ نفسه، الشارب المعقوف قليلاً من الجانبين نفسه، النظرة الساهمة والفارغة نفسها والتي تنتظر بنفاد صبر الانتهاء من المشهد القاتل. كان هناك علي ماهر رئيس الحكومة، واللواء محمد نجيب، والسفير الأميركي، وبعض الوزراء، والحرس

الملكي، والموسيقى وأبهة الملك، لكن فاروق، يوم 26 يونيو 1952 وهو يغادر قصر رأس التين، كان يعرف أنّ كل شيء انتهى، فلا يرى إلّا انهياره الداخلي، لكن ما الذي يُحزن الباشا إلى حدّ أنه يجعله على حافة البكاء؟ وأيّ ملك خلّفه وراءه؟ أراه بجسده الممتلئ الرخو، جسد الدعة والوفرة، أراه في وقفة المضطر، يمدّ يده للناس بشكلٍ يُبقي المسلّمين عليه بعيدين عنه، مستعجلاً العودة إلى الداخل. فقدَت أسرته السلطة ظاهرياً، لكنها لم تفقد النفوذ والمال، والعلاقات المحلية والدولية، وتلك الهالة التي تكون لمن صنعوا التاريخ ومصائر الناس في حقب معينة. كيف سيتحمل الحياة في هذه المدينة الصغيرة الصامتة الكئيبة هو القادم من حياة كاملة في القاهرة التي لا تنام؟ علقت في الجدار صورتا الباشا بوزكري في اليمين والباشا عبد السلام في اليسار بشكل يراهما المهنّئون بوضوح. الجدّ والأب، في إشارة إلّا أن وقفة الباشا الصغير تندرج في إطار استمرارية عائلة كتب عليها أن تعيش كلّ شيء تقريباً: الصعود الظافر، والانحدار المدوي، قصص الحب العجيبة، وقصص الخيانات المُفجعة، الأفراح الخرافية والبكاء والعويل، العزلة المحروسة والذوبان التام في الجماعة، الألم الممضّ واللذات المتهتكة. أسرة عاشت مثلما يعيش الناس، ومثلما لا يعيش الناس، وكان لها صبر حجر وإقدام نار ومكر ابن آوى، وراكمت السلطة والنفوذ والمال والفضائل وحتى الجرائم والعقد، ووصلتها آخر الابتكارات التكنولوجية، وأول نماذج أزياء الموضة، وكان شبّانها وشاباتها في لهيب الشباب مثالاً يُقتدى به في كلّ شيء: في تسريحة شعر، في منديل يشبك في العنق، في مشية، في ضحكة، في تلويحة يد، وحتى في طقطقة علكة في الفم.

عاد الباشا الصغير شهوراً قُبيل وفاة الملك. قِيل بأنّ جهات عُليا أمرته بالعودة فقد تحتاج المرحلة الانتقالية إلى العائلات الكبيرة والأعيان المحليين الذين يضبطون ويتحكمون جيداً في مدن كاملة. وقيل أنه وعد بمهمة سامية، وقيل بأن مصر على حافة الانفجار المدمر، وقد استشعر الباشا ذلك وفضَّل العودة النهائية إلى المغرب لكي لا يعرِّض نفسه للخطر. وقيل بأنه أحسّ بذلك التعب الذي يحسّ به المنفيون حين يخفت اللهب بدواخلهم ويومض تراب البدء، وقيل هو أيضاً مريض وفضل أن يقضي سنواته الأخيرة في مسقط رأسه. قيل وقيل، لكن، وكما حدث طيلة قرن كامل، كانت أسباب عودة الباشا الحقيقية، مثل أسرار محطات كثيرة، في يده هو وبطانته القريبة. ومهما يكُن سبب عودته، فإنّ ما كان يجري يختال فيه مشرط ألم ممض، وأن شعائر الاستقبال، ومهما أتقن إخراجها لتؤدي دلالات القوة والنفوذ والعظمة، فإنها لم تُخْفِ كلية جرح أنّ الزمن لم يعُد هو الزمن، وأنّ مياهاً كثيرة جرت تحت جسر الأسرة والمدينة. ومن حرص، بتعنُّت وضيق أفق، على أن يبعث طقوس الاستقبال كما كانت تجري أيام سلطة الباشا بوزكري التي لم يكن يحدّها شيء، فإنه كان يضع إخراجاً رديئاً لملهاة مُحزنة. ها هو الطمع بادٍ في أغلب مَن يتحلقون حول الباشا كالذباب، لكن ذلك الخوف الذي يجعل نفوس كلّ مَن حوله قلقة، مرعوبة، متشوّفة، والذي يجعل المراسيم تدور على حافة الهلاك إنْ فرَّط في شيء، قد ولى بلا رجعة.

علينا أن نرجع بعيداً في تاريخ مليء بالمقالب، والصدف، والانعطافات لنرى كيف أن حكاية بدأت بقتل قائد عيّنه السلطان

سيدي محمد بن عبد الله على قبيلة مسفيوة والتمثيل بجثته ستنتهي مائة وتسعة وثلاثين سنة بعد ذلك بتعيين أحد أبناء القبيلة باشا على المدينة. غضب السلطان وأسرها في نفسه، فقد كان منشغلاً باضطرابات في الشمال. وحين عاد ظافراً إلى مراكش، حدس أعيان مسفيوة بما يعتمل في صدره، وأنه لن يتأخر في البطش بهم، فأرسلوا له نادمين تائبين يقبِّلون تراب الرجلين الكريمتين، ويلتمسون بأن يأذن لهم بأن يأتوه في قصره بولائهم وهداياهم حتى يصفح عنهم. وافق السلطان على استقبالهم، وضرب لهم موعداً في مشور القصر بعد صلاة العصر. كانوا مائة وخمسين من أعيان وشيوخ وفقهاء القبيلة. صلى السلطان العصر، وخرج إليهم ممتطياً فرسه، وحين اقترب من أولهم أخذَ حربة من أحد العبيد المحيطين به وغرسها في صدره. أغلقت أبواب القصر، وأبيد المائة والخمسون عن آخرهم، إلا قاضياً رافقهم، كما حكى ذلك جورج هوست، القنصل الدانماركي، الذي حضر الحدث في كتابه عن السلطان. ندم السلطان عن فعلته تلك، وأنَّب نفسه لياليَ أرق كاملة على هذا الغضب الوحشي الذي يتملّكه، ويعجز عن السيطرة عليه أحياناً. أمر بأن يقرأ القرآن بدون انقطاع في مساجد، وزوايا مراكش أربعين يوماً، وأمرَ بأن ينقل أبناء القتلى لدار المخزن ليصيروا أبناءه. وهكذا انتقل إبراهيم بن موسى الفقيه وهو في سن العاشرة إلى القصر الملكي، وعاش بين العبيد حتى اشتدّ عوده فدخلَ الجندية، وشارك لما يزيد عن ثلاثين سنة في حروب الملك بين الإخوة وحملات تطويع والانتقام من القبائل، وإخماد فتن المتطلِّعين للحكم، وأفلتَ من موت محقَّق في موقعة حين أصابته رصاصة في كتفه الأيسر سنة 1818 في موقعة آيت آمالو التي هزم فيها السلطان المولى سليمان،

وأسر لمدة ثلاثة أيام ثم أعيد إلى مكناس. خلّف إبراهيم بن موسى من أمة وهبها له المولى سليمان بعد القضاء على ثورتي أخويه المولى هشام والمولى مسلمة، يحيى الذي شبّ بين رائحة البارود، وصهيل الخيل، وقعقعة السلاح، وعاش وهو صبي تلك الحياة العاصفة لعائلة كتب عليها أن تعيش في ظلّ سلطان مكتئبٍ يردّد لكلّ من ينبهه لانفلات زمام الأمور بين يديه بأنّ العطب قديم، حياة قلقة مضطربة بين أحمال المحلات، ونقع الخيل، ونفير استئناف السير أو التوقف، والغارات الليلية الغادرة التي تنهب أطراف جيش السلطان، وتمكّن من أن يصير أحد أبرز قواد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، وعاش مرارة هزيمة معركة إيسلي ضد الفرنسيين سنة 1844 حين تفرَّق الجيش شذر مذر، وفتك بالهاربين أمام هول النار التي رأوها، العطش والجوع، وجرّدوا من بنادقهم، وحتى من لباسهم من طرف القبائل النّهّابة التي كانوا يمرون بالقرب منها. غضب المولى عبد الرحمان وحلق لحى قواد الجيش، ومن بينهم لحية يحيى بن إبراهيم بن موسى تأنيباً وتحقيراً لهم لِما وقع في إيسلي وطنجة والصويرة. اعتكف يحيى في داره شهراً كاملاً حتى نبتَت له لحية أخرى، لكن الشعر الذي نمى وأخفى ندوب الوجه لم يكن قادراً على إخفاء ندوب العار الذي كان يحسّ به، فعاش ما بقي من عمره مصوّباً عينيه للأرض متحاشياً الناس، لذا أبعَد ابنه موسى الصغير إلى الصويرة حتى يجنِّبه ويلات، وخزي جندية في بلد يتهاوى، وتكثُر هزائمه، واتَّسع فيه الخرق على الراتق. عمل موسى الصغير في الصويرة مساعداً للمحتسب، وعاش في ظلّ حكم السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان حياة بلا مخاطر حقيقية. كان مزواجاً يحضر ليالي الحضرة الگناوية، وينظم شعر الملحون، ويخرج للصيد في

أراضي الشياظمة وحاحة. خلف موسى الصغير من أم مالية من غاو تسمى سامبا بوزكري (سمي بذلك تودداً للمحتسب) الذي سيصير تسع وثلاثين سنة بعد ذلك باشا مدينة بني ملال، بوزكريبن موسى الصغير بن يحيى بن إبراهيم بن موسى الفقيه الذي ولد في شتاء 1880، وعاش في حجر أمٍّ محتقرة وشبه منبوذة، أمّ لم تتطلع يوماً لحقوق تسويها بالرحمانية والسرغينية والعبديّة، زوجات موسى الصغير الأخريات، كانت غريبة تبكي بلا انقطاع، وتنقلها أغانٍ تردّدها في أوقات عزلتها لأرض بعيدة، أم منكسرة ليس لها من العالم إلّا الأشغال التي تقوم بها وابنها الذي يشدّها إلى هذا العالم الذي عذّبها وأذلّها كثيراً. غير أنّ هذه الأم، وحين صار بوزكري ما هو عليه، لم تعُد تلك المالية من غاو التي جاءت في ركاب قافلة كانت تنقل عبيداً لفائدة وكالة تجارية اتّخذت من الصويرة مقرّاً لها، ومنها ترسل العبيد إلى أميركا اللاتينية ليشتغلوا في حقول الكاكاو، بل إن الجغرافية زحزحت قليلاً، ولا ضير في ذلك، وصارت من بيت علم وشرف من الساقية الحمراء وجاءتها شجرة نسب مكتوبة في جلد ضبي تشهد بذلك. وتحدّث مؤرخ فرنسي يدعى شارل ڤيكور، جمع ثروة بكتاب وضيعٍ صدَرَ في جزأين عن «أعيان المغرب»، عن أن «الشريفة أمّ الباشا كانت فقيهة وشاعرة كبيرة محبّة لأعمال الخير، وذات خصال لا تبلغ شأوها إلّا مَن كانت من محتد كريم». ورثَ الابن عن الأم لوناً أمغر، وقامة فارعة، وتقاسيم وجه فيها إفراط في كلّ شيء، وحاجبين كثيفين، وعينين كبيرتين فاحمتَي السواد، وأنفاً أفطس يفيض على الوجنتين، وشفتين مكتنزتين ونهمتين جداً. وورث خصوصاً قِصر رقبتها، حتى أنّ الرأس يبدو موضوعاً بين الكتفين بلا سند يُذكر. ولأنّ بوزكري كبر بين المسجد، حيث كان يحفظ بشكلٍ

متعثّر القرآن، وأواني الطبيخ، فسرعان ما صار له وهو صبي جسد هرقلي مثير. انتبه مبكراً بأنه سلاحه الأوحد، فصار يُلزِمه بأشغالٍ شاقة لا تناسبه. كان موسى الصغير يأنف من هذا الابن الذي خرج لا يشبهه في أيّ شيء، وكلّما رآه استعاذ بالله كأنّ شواظ نار لفحه. وحين جاء القائد عيسى بن عمر الشهير إلى الصويرة انتبه بعينيه الصقريتين للفتى ذي البُنية الجسدية المثيرة، وعرض على موسى الصغير بأن يتركه له، وأهداه سكراً وشاياً، وأثواباً، وبعض اللويزيات الذهبية، وسار بالولد في ركابه. هناك في قصبة القايد المنيعة بالثمرة، وسط تراب قبيلة البحاثرة سيأخذ بوزكري أول دروسه، وسنّه لم يتجاوز بعد السادسة عشر سنة، في شؤون الحكم. سيرى الجبروت الذي يمكن أن يقتل من أجل نوى تمر، وسيعرف أنّ ما يهم ليس هو حب الناس، بل خوفهم الشديد الذي ينبغي رعايته داخلهم من حين إلى حين، وذلك بارتكاب فظاعات مُذهلة، وسيرى أبهة السلطة في إذلال الناس، وفي إبهارهم باللباس، والحرس وتفاصيل صغيرة، وإكرامهم الناس حتى السفاهة، إذ كان القايد يذبح يومياً ثوراً وعشرين خروفاً لإطعام الناس، وسيرى مرابض الخيل الأصيلة، وسيرى الصقور المدرَّبة على الصيد والكلاب السلوقية، سيرى تلك القوة القاهرة التي وسعت نفوذها حتى دكالة والرحامنة، وسيرى تلك الهشاشة القصوى التي تجعل كلّ ذلك مصطنعاً، مهدَّداً، ولا يرتكز إلّا على تفويضٍ يُمكن أن ينزع منه في كلّ لحظة، فتنهب داره ويستصفى ماله، فكلما قيل للقايد بأنّ رقاصاً جاء برسالة من السلطان، امتقع لونه، وتلاحقت أنفاسه، وشلَّه الرعب حتى تُقرأ له. وكان بوزكري الذي عمل مشاورياً لدى القايد، وترقّى في بضعة شهور حتى صار حارسه الشخصي الذي لا يفارقه إلّا حين يخلو إلى

حريمه (هناك تقوّلات في أمر علاقتهما) يَحار في فهم أشياء أكبر من سنه، وعقله، وتعذِّبه التناقضات التي يراها: قرآن يُتلى في كل حين، وأذكار وصدقات، ويدٌ تذبح بدمٍ بارد، وتبطش برؤساء فخدة أولاد زيد في جلسة صُلح في ما عُرِف بموقعة الرفسة. نُبل في إكرام الضيوف والمساكين وعابري السبيل، ووضاعة في إجبار قبيلة لم تحرِث أراضيها لأنه يستولي على معظم المحصول، على حصد الشوك الذي نبت مكان الزرع، ودرسه ووضعه في أكياس ونقله إلى القصبة، وإجبار أخرى فضّلت أن تربي الدجاج فقط لأنه يأخذ أجود خرافها على أن يسوق له شيوخها نصيبه من الديكة والدجاج مشياً على الأقدام، وقطيعهم أمامهم في رحلة غريبة، قيِّد لها أن تراوح مكانها شهوراً. فكلّما قطع الموكب المعذب أمتاراً، يتطاير الدجاج، هنا وهناك، ويعود من حيث أتى. رأى بوزكري القايد عيسى يضحك حتى تدمع عيناه، ورأى الشرر يتطاير منهما. رآه واثقاً من نفسه ومنتشياً، ورآه خائفاً وحائراً وموسوساً. وفي كلّ لحظة، كان يعطيه الانطباع بأنه ضدّ نفسه، وضدّ الآخرين، ولا يخدع نفسه بإذعان خصومه له. إنه في حالة حرب دائمة، فالرغبة في الانتقام لدى مَن هزمهم وأذلَّهم قائمة كنارٍ تحت رماد، تنتظر ساعة غفلة منه فقط. «لكلّ شيء ثمن»، كان يردِّد، عيسى بن عمر دوماً. شارك بوزكري مع القايد وفرسانه الألف في عدة حركات للسلطان، وقتل أول شخص، بلا عذاب ضمير، في حياته قرب أزمور، وسار معه إلى مراكش وفاس والرباط، ورأى الصدر الأعظم باحماد، ورأى السلطان المولى عبد العزيز نفسه، ورأى بدهشة عظيمة أنّ القايد الذي يكون كلّ شيء في قصبته، يصير لا شيء في قصر السلطان، ينهره العبيد ويدفعونه بالمناكب، وأنه هو أيضاً يعذب بالانتظار،

ويقبّل اليد، ويركع مع الراكعين لمن هو أقوى منه. رأى إله صباه يتهاوى أمامه ويأفل، وقال لنفسه «لا أحبّ الآفلين». أثناء زيارة لبعض أبناء عمومته في مراكش، وجد شيخاً أسود مبجّلاً من طرف الجميع، قِيلَ له بأنه من كبار قواد الجيش. كان عبارة عن جلد فوق عظم، بعينين كليلتين يتلألأ فيهما بريق سطوة منقضية. يتحدّث وهو يهزّ بتثاقل يدين محطمتين، ويتكلم من فم أدرد فتخرج الكلمات وهنة مهشّمة لا تتبين إلّا بجهد. قبّل يده فأدناه العجوز منه، وسأله أسئلة لا حصر لها، وحين عرف أنه بن موسى الصغير بن يحيى بن إبراهيم انتفض في جلسته ومدّ له يده قائلاً: «ماذا تفعل عند ذلك الظالم الخبيث، وجدّك كان من أكبر قواد جيش السلطان»، وحكى له كيف أنه في مثل سنه تماماً كان ضمن الجنود الذين تحت إمرة جدّه. وبعد أيام، وحين عادَ إلى قصبة القايد جاء رقاص على عجل من مراكش يحمِل رسالة من باحماد الصدر الأعظم تأمر عيسى بن عمر: «بإرسال المشاوري بوزكري بن موسى الصغير بن يحيى، وبدون إبطاء للحضرة الشريفة، معززاً مكرماً» تحقّق القايد من خاتم الوزير، ولم يفهم سبب الدعوة الغريبة من الصدر الأعظم نفسه لجندي نكرة مثل قشور بيضة، وعجز بوزكري عن تقديم أيّ تفسير لما وقع. وبعد ساعات، كان في الطريق إلى مراكش رفقة عدة جنود مرفوقاً بهدية عظيمة «للسدّة العالية بالله»، بعد أن بالغ القايد في إكرامه هو أيضاً، فمنحه ثياباً فاخرة وبندقية جديدة، وحصاناً عربياً أصيلاً، ونقوداً وتودّد له قائلاً: «اذكرني بخير هناك». ابتعد بوزكري عن القصبة بحزن غامر. ها هي مرحلة أخرى في حياته تطوى مثلما طويت صفحة الصويرة. كان قلقاً، لا يعرف لماذا دُعي إلى هناك، وماذا يريد به الصدر الأعظم، وكيف سيعيش في حضرة كلّ شيء فيها كبير

ومعقّد وغامض. حين وصل إلى مراكش، لم يجد أحداً في انتظاره أُخِذَت الهدايا إلى قصر الباهيا، وتُرِك هو لحاله كأنّ الرسالة كانت كذبة كبيرة. جاءه صبي بعد نصف نهار من الضياع التام، وأخذه عند العجوز الذي أخبره بأنه كلّم الصدر الأعظم في شأنه، وأنه ومن الآن صار جندياً في جيش السلطان، وعليه أن يكون جديراً باسم جدّه يحيى بن إبراهيم. قبّل يده وخرج إلى مكان حدده له. بعد شهور من التعوُّد الصعب على تلك الحياة المرتجلة جداً في ركاب السلطان، لمع فيها بوزكري بحَزْمه وبتفانيه في العمل، وبكونه لا يترك شيئاً للصّدفة كما تعلم لدى عيسى بن عمر، فالدجاج الذي سيُؤخذ ليباع في السوق ينبغي أن يبيت مربوطاً، كما كان يردِّد دوماً. فوجئ ذات صباح، بتعيينه قائداً على جنود حامية قصبة تادلا لم يفهم شيئاً وفزع للعجوز الذي ربَت على يديه، وقال بأنه أوصى بتعيينه هناك وقال له: «اسمع يا بني، البلد يتداعى، وستقع أحداث جسام، ومن الأفضل لك أن تبقى بعيداً. رُحْ لتادلا بدون تردّد، ولا تنظر إلى الوراء» ثم وهو يبتعد أشار إليه أن يقترب منه من جديد، وقال له فيما يشبه الهمس: «سيكون عليك أن تختار بين شيئين، افعل كما فعلتُ أنا دائماً، اختر الأقل سوءاً، للأسف لم يعُد هذا البلد يقدم لنا إلّا القضايا والأشخاص السيئين لنختار من بينهم. هادِنْ ما استطعت موحى أو سعيد قائد آيت ويرا وشرفاء أبي الجعد..».

في سن الخامسة والعشرين سيصل القائد بوزكري إلى قصبة تادلا، وسيتلقاه جنودها الخمسمائة الذين تهيؤوا أياماً لاستقباله بدهشة ممتعِضَة. كان الفرسان في طليعة المستقبلين وبعدهم الرماة،

ثم باقي الجنود والخدم. مرّ أمامهم، وأمّه خلفه، بوجهٍ جامد، لكن بقلب تفتك به خيبة قاتلة. عليه وقبل تمثيل المخزن هنا، وقبل أن يحرس القنطرة البرتغالية المحاذية للقصبة والتي بناها المولى إسماعيل ليُيسِّر عبور وادي أم الربيع في وجه المسافرين بين فاس ومراكش، وقبل مراقبة القبائل وإجبارها على أداء الضرائب، عليه أولاً أن يسيطر على جيشه الصغير. وأن يثبت لهم بأن «الأسود الصغير» كما تهامسوا بذلك جدير بمنصبه. والأمر لن يحتاج إلّا إلى فظاعة يقوم بها أمامهم. جيء بقاطع طريق مسكين، وبعد استنطاق بسيط حملَ سيفه وشطَرَه نصفين، وبعدها بالَ في فم جندي حراسة وجده نائماً بفم مفتوح، ثم هشَّم وجهه، وكسر يد آخر لم تحيِّه، وكاد أن يفقأ بأصبعه عين فارس اشتبه في أنه نظر إليه بوقاحة، وبعد ذلك صار بإمكانه أن ينام طيلة النهار، فالرعب الذي زرعه في قصبته سيتكفَّل بالباقي. بعد تطويع القصبة، بطش بقبائل ضعيفة، ورمى أعيانها في سجنه المظلم حتى أدّوا ما عليهم من ضرائب. وأخَّر المواجهة مع القبائل حتى يتقوى بالرجال والعتاد والمال، وعمل فقط على زرع الفرقة بينها. وكان يضع نصب عينيه ما سمع دوماً عيسى بن عمر يردِّده: القبائل كفرخ النسر ينبغي دوماً نزع ريشه وتقليم أظافره، وريش القبائل هو الخيل وأظافرها هي السلاح، لذا ينبغي تجريدها دورياً منهما. نسج علاقات ودية مع القائد موحى أوسعيد، وتجنب الاصطدام به، ومع شرفاء أبي الجعد، وكان لا يتوانى في بعث الهدايا لهما. بنى بأناة شبكة من العيون في إيالته، فصار يحسّ بالزفرة صاعدة من الصدر البعيد، ويشمّ الخبز الخارج من إينور، ويرى الدجاجة الحاضنة، وكم من بيضة تحتها، وما كان هناك اثنان إلّا وهو ثالثهما ولا ثلاثة إلّا وهو رابعهما وكان يقول

لمساعديه: لا نحكم الناس بالسلاح نحكمهم بالخبر، الأخبار هي عدة الحكم، شريطة معرفة قراءتها واستعمالها. وبعد ثلاث سنوات في مهمة صغيرة، تمكَّن بدهائه من أن يجعلها كبيرة، وأن ينحت له مكانة مميزة حتى أنه صار يُذكر إلى جانب عبد الله بن جابر وموحى أوسعيد كثالث قواد منطقة تادلا الأقوياء، كان عليه، كما أخبره العجوز، بأن يختار في الصراع الذي نشب بين السلطان المولى عبد العزيز وأخيه المولى عبد الحفيظ الذي كان مسنوداً ببعض العلماء والفقهاء وأعيان القبائل، ويقدِّم نفسه على أنه سلطان الجهاد في مقابل سلطان لاهٍ مستهتر متخاذل، تُقضم أطراف من البلد ولا يحرك ساكناً لم يتسرَّع، دسّ رأسه كما يفعل مالك الحزين بين جناحيه، واستقبل الريح البغيضة، وانتظر أن يتخذ أولاً القواد الكبار موقفاً: المدني الگلاوي، والرحماني، والمتوگي، وعيسى بن عمر وحيدة ولد ميس، وأن تميل الكفة بشكل بيّن لأحد الطرفين. كان مبعوثو الطرفين إليه يُستقبلون بتعظيم وإجلال، ويعودون بهدايا قيمة، وبكلام ملغز يمكنهم أن يؤولوه على هواهم. كان يصغِّر نفسه عن قصد، ويقلِّل من شأن نفسه كثيراً، فهو مجرد خادم أمين لأسياده (هكذا بالجمع)، وجندي مخلص في جيشهم، ولا ينبغي أن يتطاول على أمور بعيدة عنه بُعد السماء عن الأرض. وكما فعل طيلة الاختبارات الكثيرة التي مرّ منها، كان يضع رجلاً هنا ورجلاً هناك، ولا يبدي أبداً موقفه بوضوح، ويترك دوماً باباً للرّجعة، ويتعهَّد شعرة معاوية مع الجميع، ويربي بداخله ملكة الصبر وحدس الآتي، فهو يعرف جيداً أنّ بقاءه ليس في القيادة فقط، بل وفي الحياة نفسها، يتوقف على تفاصيل صغيرة، لا ينبغي له أن يغفل عنها. ومنذ عام 1907 ونزول الجنرال درود في الدار البيضاء، فتح مفاوضات سرية عن

طريق تجّار يهود، وشرفاء أبي الجعد مع الفرنسيين، وفي الآن نفسه، أمدّ موحى أوسعيد بالسلاح والفرسان لنصرة قبائل امزاب وأولاد حريز في حربهم الضروس معه. أرسل مبعوثاً إلى أحمد الهيبة مؤيداً له في حركته للذود عن استقلال البلد، وحرض سراً عليه. كان يُمسك خيوطاً كثيرة متشابكة في يده، ويضطرّ لفعل الشيء ونقيضه، واللوم في ذلك ليس عليه، كما كان يرى، بل على مرحلة متعفّنة ورديئة جعلت حتى السلطان الذي خلع أخاه بدعوى الجهاد ومُقارعة المحتل هو مَن سيوقع وثيقة استعمار البلاد مقابل 500 ألف فرنك قبضها ورحل عن البلاد. كان يقول لابنه عبد السلام ضاحكاً في لحظات صفائه النادرة «لم ينجُ من تلك المرحلة إلّا مَن كان لا يمتلك فقط حنكة سياسي، بل وأساساً حنكة أولاد حماد أوموسى في ألعابهم البهلوانية»، وهكذا. بإمكان مَن اهتموا بحياته الحافلة أن يقرأوا في الكتابات الكثيرة عنه والتي رعى معظمها وأمدّها بما شاء من معلومات بأنه قاد مقاومة المحتل في تادلا رغم أنه لم يطلق، لا هو ولا جنوده، طلقة واحدة، وسلّم قصبة تادلا مثل إسفنجة مغموسة في عسل للمستعمر، وأنه كان يمدّ عبد الله بن جابر وموحى أوسعيد بالسلاح، لا أحد أنكر هذا حتى أشدّ مناوئيه، لكنه سلاح مختار بعناية فائقة، قد يؤخِّر الهزيمة ولكنه لا يمنعها أبداً. كان القائدان أوبير ومونجان يعرفان هذا، فيغضّان عنه الطّرف ويسهّلانه، ففي النهاية لا بد من إجراء مفاوضات مع القواد المعادين، ولن يجدا أفضل منه للقيام بذلك. أجمعَت كلّ الوثائق التاريخية على أنه كان وراء مفاوضات استسلام كل قبائل تادلا، بل كان وراء دخول الاحتلال في 16 يوليو 1916 إلى قصبة بني ملال بدون قتال. وفي 21 منه، أقيم استعراض عسكري ووشّح القائد

بوزكري من لدنليوطي نفسه بوسام اعترافاً له بجهوده في استسلام مواطنيه، وتلطَّف وسماه في كلمته «تهدئتهم لما فيه خير للجميع». وحين كانت قوات الاحتلال مُقبلة على حرب الجيل الطويلة والقاسية، عين القائد بوزكري في مارس 1919 باشا على مدينة بني ملال، وكان عليه أن يشكِّل كتائب عسكرية من القبائل الخاضعة لتسير في مقدمة جيش الاحتلال لتلقّي جلاميد الصخر والطلقات الأولى، ولتسقط في الكمائن المعدَّة بعناية في الفجاج العميقة، ولم يتردَّد أبداً في تقديم أرواح ذويه من أجل مجد فرنسا. في سنة 1923 وبعد خمس بنات، سيزدان فراش الباشا بعبد السلام من أمّ سخمانية، فأقام أفراحاً أسبوعاً كاملاً قدمت فيه ألعاب الفروسية، وجاءت فرق العيطة وعبيدات الرمى وأحيدوس وأحواش من أصقاع نائية، ونحرت العجول والخراف بلا حساب، وأكل الجميع. لكنه وبعد شهر، وفي غمرة سعادته، سيُصاب بطلق ناري قرب واويزغت في إحدى المعارك الصغيرة ضدّ أتباع المقاوم الحسن أوتامگا. ومن يومها، وقد قدّم عربون وفاء لفرنسا من دمه، وبعد أن قدَّر أنّ دَيْنه على فرنسا كبير وثقيل، فقد امتنع عن المشاركة في حروب الجبل، وانصرف لبناء ثروة هائلة والاستمتاع بسلطة لا مثيل لها، فبنى داره الكبيرة، واستولى بالقوة والمناورة على أراضٍ لا حصر لها، وصار ينال نصيبه من كلّ ما يتحرك في إيالته من التجار والحرفيين والفلاحين والرعاة وحتى البغايا. صار له ديوان يرأسه عالِم تخرّج من القرويين اسمه محمد الزوين، ومكلف بإعداد الشواء، وفقيه يلازمه، ويبرِّر له كلّ شيء، ومهرج يُدعى موحى أوجكلا يجوز له ما لا يجوز لغيره. كان يخصِّص نصف ساعة في الصباح لشؤون الحكم، يعرض عليه فيها محمد الزوين ما توصَّل به الباشا، وما أمرَ

به. يقول له الباشا: «ماذا قالوا لنا؟» فيقرأ عليه الكاتب الرسائل. ثم يسأله: «وبماذا أجبتهم؟» فيقرأ عليه جوابه عنها، يوافق، أو يعدِّل الجواب بتأفّف واضح، فهو لا يهتم كثيراً بالأوراق والملفات والسجلات، يسخر من كل ذلك، ويقول بأنّ الحُكم هو الشجاعة والحيلة والبارود فقط، الباقي خواء في خواء. لذا ينصرف مباشرة بعد ذلك لمكائده وللاستماع لما تنقله عيونه له من أخبار، الغثّ منها والسمين. بنى سجناً في قصره ومكاناً للتعذيب لانتزاع الاعترافات، وصار عتاته يأتون بمعارضيه في أكياس ويلقونهم هناك. حارب من أجل كلّ شيء: الأراضي الصالحة للفلاحة، المراعي، الماء، مقالع الحجر والتراب، أشجار الغابة، تصرّف غير لائق في حقه، كلمة طائشة، شاة سرقت من قطيعه الهائل، شيخة جميلة أرادَ قائد آخر الاستئثار بها. ووسط كلّ هذا، كان أنين المعذَّبين المجهد الحزين يتصاعد من كوات سجنه الرهيب، ويطغى عليه الإلقاء المسرحي لشعراء رديئين يشيدون بكرمه وسماحته ورقته، فهذا بن عثمان يحيّيه قائلاً:

قيل لنا لما تنزلنا ربوعكم
وتوسموا سمة الغريب الهائم
سيروا إلى الباشا الكريم بداره
يلقاكم بطلاقة ومكارم

وهذا صالح الكردودي ينشد:

أيها النفس لا تحزني ولا تمتري
ففي الدنيا الباشا بوزكري

وتصدح موسيقى أجواق عصرية تركية ومصرية، يرسلها له صديقه الباشا التهامي لگلاوي، وتقام حفلات رقص باذخة وماجنة.

ينظم رحلات صيد تدوم أياماً، يتهافت عليها كبار موظفي الحماية، وينظم ليالي تهتُّك، تجري من تحتها وديان أفخر الخمور، وتجري فيها رقّة نهود وأفخاذ الجميلات، وينظم أيضاً حلقات ذكر وتلاوة قرآن تجري فيها دموعه سخية وسط زوابع من اللحى والبخور والتقوى الزائف. كان التكثيف العظيم لمخزن درب نفسه، ومنذ قرون على الإمساك بقرنَي البلد في يده، مهما تباعدا ومهما تناقضا حتى، وكانت صورته المعذَّبة والمجروحة والممزَّقة في لملمة شظايا بلد في يدٍ واحدة. وفي كلّ ما يقوم به هناك، كانت عظمة وابتذال، نُبل ووضاعة، حلم وسفاهة، وهناك خصوصاً ذلك التهريج الذي يفوق قفشات موحى أوجكلا، تهريج أن يكون كل شيء، وأن يفعل دوماً ما لا يتوقّعه الناس، وأن لا يتنازل عن حبة خردل من سلطته وممتلكاته ومشيئته، وأن يقبل بأن تُمسّ الذات الإلهية، ولا يُمسّ هو في ذاته. فقد أمر بحسم شيخة عرَّضت به في إحدى أغانيها بأن تخرج من بلده، ولأنها لم تكن تعرف بلداً غير هذا، ولا تستطيع أن تتنفس هواء آخر، فقد حملت أمتعتها وسارت إلى المقبرة وسكنت كهفاً هناك، وبعثت للباشا من خلال مخزني رسالة شفوية مقتضبة: «قل له الشيخة رقية ماتت». كانت قلوب من يأتون لدفن أو زيارة ميت تتفطر لرؤيتها في المكان الموحش، الغريب، يأتون بالميّت باكين ويخرجون أشدّ بكاء لرؤيتها هي وسط أسمال وقذارة وعزلة فادحة، لا يكسرها إلا كلب مقعيّ قربها. تشفَّع فيها كل من رأى الباشا، وكان يجيب بأنها اختارت ذلك، ولا دخلَ له هو في الأمر. كان صراعُ إرادةٍ صامت بينهما، فرُقية، وبحدس وذكاء المرأة، تعرف بأنها بفعلها ذاك تُسقط ورقة التوت عن سلطة صارت تهذي، وأن وجودها هناك فضيحة ستلاحقه في كلّ مكان. وكان هو في جنون

إحساسه بالقوة، يتذكَّر ما فعله عيسى بن عمر بالشيخة خربوشة «فعلها عمر فلماذا لا يفعلها بوزكري». ويقول لخاصَّته اتركوا الكلبة تتعفّن هناك حتى تخرج من تلقاء نفسها. لكنها لم تفعل، وذهب الباشا إلى الحج وانكسرت رجله قبل أداء الشعائر، وعاد محطماً بوجهٍ يأكله الرماد وبألم لا يُطاق. فقد أسيء تجبير كسره في جدّة واضطر لمعاودة العملية في الدار البيضاء. وتحدّث الناس عن لعنة رقية المرميَّة في المقبرة، وأن الله رفض أن يغسل ذنوبه في الحج لأنها كثيرة وفادحة. وانتظر الجميع حين عاد من استشفائه الطويل في الدار البيضاء أن يفرج عنها، حتى مهرّجه ألحّ عليه في ذلك، لكنه تجاهل الأمر، وقال بأنّ المخزن لا يحب الإخراجات الرديئة لمشاهد القسوة التي يلتذّ بها الناس. وأن النهايات السعيدة تكون في الخرافات، وليس في واقع لن يقبل المخزن أبداً فيه بأن تُلوى يده، ولو بهرطقة غيبية كهذه. ومثلما يفعل دائماً، ترك تدبير تلك القضية للزمن، سينتظر الناس أعياداً دينية ووطنية ليفرج عنها، وسينتظرون أحداثاً سعيدة في قصره، وسينتهون بنسيانها تماماً كما فعلوا مع ما لا يُحصى من قضايا. غير أنّ حساباته في هذا كانت خاطئة تماماً. فوسط الوهج الذي كان ينفق أموالاً طائلة على بنائه من حول ذاته بالمداحين والشعراء وبشهادات الأجانب الرديئين وبتقريض الفقهاء والمغنيين الطماعين، كانت قمامة ما اقترفه في نوبات جنونه تنتصب متبرِّجة وباسمة كإكليل براز ذهبي يتلألأ في جبهته.

ترك الباشا رقية تتعفن في كهفها، وانصرف إلى بناء عصبية قبلية لها ولاء مطلق له. بدأ شيئاً فشيئاً، يوطِّن عائلات كاملة من قبيلته مسفيوة في المنطقة. كلما وجد أرضاً زرع بعضهم فيها، وكلّما دقّوا

وتداً في مكان صار لهم، وكلّما رعوا شاة في مكان تملّكوه، وكلما تناوشت قبيلتان على حدود مراعي أقنعهما بضرورة الفصل بينهما ونبتت مسفيوة في الحدود بينهما، للقيام بذلك، وكلما ضعف قائد في إيالته أشارَ عليه بضرورة الاستعانة ببأس غرباء، ولن يكونوا إلا مسفيوة، وكلما عصفت مجاعة أو وباء بدوار وأقفر ملأته مسفيوة، وكلّما بيعت دار قرب قصر الباشا كان المُشتري من مسفيوة. تكاثروا من حول القصر حتى أنّ غير المسفيوي كان يرى نفسه غريباً محقَّراً، ولا سكن له هناك، فيبيع هو أيضاً ويرحل إلى مكان آخر. وفي غضون ستة أعوام صارت دار الباشا ترفل وسط مسفيوة بزغاريدهم وأعلامهم وهتافهم وتعلُّقهم الجنوني به. كان وليّ نعمتهم، فقد انتشلهم من بين الصخور والزقوم، ومنحهم ماء زلالاً، وأراضي تذوب كفصّ ملح تحت الحوافر، وصار بالنسبة لهم الشمس والمطر والريح الكريمة. كان يقول لابنه عبد السلام بأنه يرسي دعائم حكم الأسرة للمنطقة خمسمائة سنة قادمة، ورغم حرصه على أن يعطيه تعليماً عصرياً في المدرسة المختلطة لليهود والنصارى أولاً، ثم في ثانوية الضيعة ثانية، فإنه كان يُجبره على تلقّي دروس تقوية في العربية والشؤون الدينية، ويُجلسه إلى جانبه ليأخذ أهم الدروس التي سيحتاج لها حين يرثه، دروس القسوة والمَكر والمناورة والمداراة وإمساك العواصف بيدٍ ثابتة ومصمّمة. كان عبد السلام بطبعه الوديع وشخصيته الترابية الهادئة والواثقة، لا يشبه أباه ذا الطبع الناري القلق الذي يبدو دوماً كمرجل نحاسٍ يغلي. يُداريه ما أمكن ويتجنَّبه ما استطاع، وتكون أجمل أوقاته هي حين يبتعد عنه. وقد أخذ على عاتقه يوماً، بأن يتسلَّل إلى المقبرة متنكراً في جلباب حقير رفقة أحد خدّامه لكي يُخرج رقية من هناك، رغم غضب الباشا المدمّر الذي

يتهدَّده إنْ انكشف أمره. استمعَت له وقالت: «فات الأوان يا بني وقضي الأمر روحي فقط هي من ستَخرج من هذا الكهف عندما يحين أجلها». توسَّل إليها ووعدها بأن يشتري لها داراً ويُنفق عليها، فابتسمَت وقالت له: «لم تعُد الدنيا تهمّني يا بني، أنا أعيش الآن في سلام بفضل والدك» وهو يبتعد قالت له: «أنا الآن في قبري. أتمنى أن يجد الباشا قبراً يأويه». صارت رقية، بالمهابة الآسرة التي تحيط بها، بقرارها واستماتتها الجنونية في تنفيذه، تجعَل أشدّ الرجال يقف وجلاً أمامها ومطأطئاً رأسه، وبتلك القداسة التي يضفيها الناس على كلّ فادح غريب، يحارون في تفسيره، تحوّلت قبلة لنساء معذّبات يطلبن بركتها، ولرجال ضائعين يتلَّمسون دعواتها، ولأطفال كبروا بين الوهن والنشيج يطلبون حمايتها. «طردها وهي شيخة من إيالته، وأعادها الرعاع إليه في هيئة رابعة عدوية جديدة»، يقول الباشا وهو يضرب كفاً بكفّ. هناك تاريخ كامل يمكن أن يحكيه خدم الدار لمواجهات مريرة وقعت بين الباشا وابنه المدلل حول أشياء تافهة في الغالب، لكنها تتستر في تفاهتها على الأهم الذي يؤجِّج الاصطدام الدائم بينهما. أراد الباشا أن يكون ابنه صورة طبق الأصل عنه في كلّ شيء، وأبت الطبيعة والتاريخ، وما فطر عليه كلّ واحد منهما ذلك. كان الباشا يرى في وداعته المتأصلة بوادر خطر على مشروع بناه بالحديد والنار، وكان الابن يرى في والده مزيجاً من بربرية القرون الوسطى ممزوجة بمكر حديث وقدرة على إسفاف مذهل في القول والفعل. ذكر له مرة قولة لجان جاك روسو «لكي تعرف الناس يجب أن تنظر لهم وهم يعملون»، ضحك الباشا كثيراً ويقول له: «هذا ما علموك، إيوا أسيدي لتعرف الناس يجب أن تنظر لهم وهم خائفون أو طامعون، الضعف هو ما يريك الإنسان على حقيقته».

كان يذله ويُتفِّهه دوماً، ويريده أن يبقى صامتاً مبهوراً في ظلّه. ويخاف خصوصاً من ذلك العذاب وتلك الشفقة التي يُبديها حين يكون عتاته بصددِ تعذيب عاصٍ أو متنطّع أو إساءة معاملة شخص أساء التصرف.

في صيف 1934 سيسافر الباشا لأول مرة إلى فرنسا، وسيقضي هناك شهرين كاملين. عاد منبهراً بكلّ ما رآه، عاد وكأنّ شيئاً انكسر بداخله، عادَ بثلمة ما في ذلك اليقين الذي كان يزين له كلّ ما يقوم به. ومنذئذٍ، وقد عرف بأنّ إيالته صغيرة جداً والعالم كبير، صارَ له مرجع يحيل عليه دوماً في النظام والنظافة والأناقة واللباس والمأكل، وصارت له ساعة فضية يخرجها دائماً ليرى الوقت، ونظارات يضعها كلما كان يستمع لمحمد الزوين، ومسدّس لا يفارقه، وغراموفون يسمع فيه أغاني لا تروق له، بل إنه اشترى سيارتين واحدة له وأخرى لعبد السلام، كانتا فتنة للناظرين حيثما ذهبتا. ألهت الولائم التي لا تنتهي، وحياة بلا لهاث، ولا نصب الباشا عن جسده حتى ترهل، وبدأت عللٌ كثيرة تتَّخذ لها مكاناً في بعض أعضائه. وظهرت الأوجاع والأنين وظهر الأطباء في الدار بأدواتهم للفحص ووصفاتهم، وظهر العشابون بأوراق الأشجار النادرة والنباتات الغريبة، والجذور الملغزة، وشرب منقوع هذا وذاك، وتبخَّر وأكل أقراصاً، وأخذ حقناً، وقام بحميات قاسية، وعاش الفرح القصير للخلاص من وجع، وعاش العذاب الطويل لوخز ينهشه بلا رحمة، وعرف الأنين لأول مرة، وعرف الحاجة إلى يدٍ تواسي وتطمئن، واستولت عليه تلك الكآبة العميقة التي تسكن الأرواح الكبيرة حين تعرف أن أفتك عدوّ ليس هو ما حاربته طيلة حياتها ومن تنتظر مجيئه

من الخارج، بل هو من يولد بداخلك، ويبدأ في مهاجمتك مع كلّ نفس وخفقة قلب ورفّة جفن. صار له ذلك الحزن المستسلم لحيَّة جُرحت وترى نملاً وضيعاً يأكلها بلا رحمة وليس لها من الأمر شيء. وكان عليه، هو الذي طوى بين جناحيه المدينة والقبائل المجاورة لها، ولم يعُد أحد يُنازعه في سلطته، وطوى أيضاً رضى المخزن والموظفين الكبار للحماية الذين ما فتئوا يتملَّقونه بالأوسمة، وصار ضباط الشؤون الأهلية والمراقبون المدنيون شبه خدم له، أن يواجه آخر معاركه حين أغرم عبد السلام بـ«روز ماري»، وهي فتاة فرنسية جاءت في رحلة صيد رفقة أبويها الأرستقراطيين. استضافهم الباشا بتوصية من الرباط ورافقهم عبد السلام طيلة الأسبوع الذي قضوه بالمنطقة، وأبهرهم بفرنسيته المتأنقة ولباقته. ومن اليوم الأول لهم، بدأ عبد السلام يتبادل مع الفتاة الهمس واللمسات الخاطفة، والإشارات الحانية، وصارا يبتعدان في الغابة عن الأبوين فيقطف لها أجمل الأزهار. وفي اليوم الثالث، كتب فيها شعراً وأعطاه لها مطوياً في ورقة، وطلب منها أن تقرأ ما فيها قبل أن تخلد للنوم. وفي اليوم الخامس تقريباً اتفقا على كلّ شيء، نالت روز ماري الأمير الشرقي الأسمر الذي حلمت به يحضنها وسط غلالة من العطور المهيجة، والبخور ووسط ديكور من جلود الأسود والنمور، وأواني النحاس والعبيد الذين يلوّحون بمراوح من ريش النعام لتلطيف الجو، ونال هو الفتاة المستحيلة القادمة من صفاء ورقَّة بعيدة حلم بها. وتركا للباشا غيظَ وضعه، وبعد فوات الأوان، البارود بجانب النار وانتظار الانفجار الكارثي. وحين طلب منه عبد السلام أن يخطبها له من أبويها قبل أن يغادرا، أزاحَ رزّته وخبط بها الأرض، وكاد أن يغمى عليه، وازدحم السباب والزبد في فمه، ولم يخرج أياً منهما، لأنّ

أزمة كحّة رجت جسد الباشا، وأبقته مشدوداً للحياة بحرفٍ هزيل. انسحب عبد السلام مدركاً بأنّ إبرام الأمر في اليومين المتبقيين يكاد يكون مستحيلاً، وأنه إنْ أصرّ على إدخالها إلى الدار بأيّ ثمن، فسيُخرج أباه حتماً إلى المقبرة، ووعدها بأن يأتي بوالده ليخطبها في مونبولیي. دامت القطيعة التامة بين الباشا وابنه شهراً كاملاً، طلب فيها من الحراس أن يفرضوا عليه إقامة جبرية في جناحه. وذات ليلة، أمرَهم أن يأتوه به. كان مستلقياً في سريره ودون أن ينظر له قال بصوتٍ مجهد ولكنه حانق: «أبناء العائلات المخزنية لا يتزوّجون مثلما يتزوّج العوام وعيونهم مشدودة لفرج يريدون الاستئثار به. نحن حين نتزوج ننظر إلى البعيد، الزواج بالنسبة لنا ينبغي أن يكون نصرة وسلماً نرتقيه وأداة. لقد تزوّجت أمك من قبيلة آيت سخمان لأتقي شرّهم ولأستعملهم عند الحاجة»، ورفع اللحاف فوق وجهه دلالة انتهاء المقابلة. صادر الباشا رسائل روز ماري، لكنه لم يمنع رسائل عبد السلام من الوصول إليها، فقد كان يُرسلها مع خادم يدسّها في جيب سائق الحافلة التي تربط بين بني ملال والدار البيضاء والذي يضعها في مكتب بريد هناك. أمر الباشا عريفة القصر بأنْ تحيطه بخادمات القصر الصغيرات لعله يتعزّى بإحداهن، لكن ذلك كان بدون فائدة، فروح الولد كانت في مونبولیي. لم يعد يمس الأكل، ولم يعُد يرغب في رؤية أحد، وبكَت أمه حين رأت عذابه وهزاله، وتوسَّلت للباشا بأن يرحمه فنهرها بشدّة، وشخَّص طبيب فرنسي حالته قائلاً بأنه يعاني من اكتئاب حادّ، ولا بد من إخراجه منه. ضرب الباشا كفاً بكف، ورفع رأسه للسماء: «من أين نزلت عليه هذه الركاكة الفاضحة». لكنه لم يتزحزح، وصدّ بقساوة ضربات عاطفة الأبوة فيه. خرجت الأزمة من أروقة الدار، واستطالت في

تقارير موظفي الحماية، وألسنة الناس، وكان المراقب المدني يكلِّم بالهاتف رؤساءه ملخصاً الوضع في «Il y a un bras de fer entre le père et le fils»، وصلت الأخبار للباشا، وعرف بأنّ الأزمة لم تعُد عائلية، بل صارت شأناً عاماً يخوض فيه الجميع، والعائلات المخزنية قد تقبَل كلّ شيء إلّا أن ترى تصدّعاتها في أعين الناس. وسار إلى مراكش، وطلب عون ومشورة صديقه الباشا لگلاوي، وهما يسيران في ملعب الغولف. ابتسم لگلاوي وقال له بأنه أعطى الأمر أكثر مما يستحق: «زوِّجه بها، يا سيدي، واجعل الفرنسيين أخوال أحفادك. أليسوا هم مَن يحكم البلد الآن؟! اسمع يا بوزكري، حفيد تختلط في دمه فرنسا والمغرب أفضل من حفيد تختلط فيه دماء مسفيوة وگلاوة أو حاحة أو الشياظمة». وليمازحه أضاف: «أليس من حقك أن ترى في سلالتك الشعر الأشقر والعيون الزرق، والبشرات البضة عوض (أشار إلى وجهه وإلى وجه بوزكري) السحنات اليابسة التي دبغتها الشمس، ولوَّنها التراب والحرمان والقساوة؟». عاد الباشا وطيلة الطريق كان يقلب نصيحة الگلاوي تقليباً. وأقرَّ بأنه أعطى للأمر أكثر ممّا يستحق حقاً. فالزواج زواج والحياة أوسع منه، وحتى إذا كان زواجاً فاشلاً وبلا معنى، فهناك الطلاق أو اتخاذ زوجة أخرى أو زوجات كما فعل هو. لم يصل إلى مدينة بن ملال حتى كان قراره جاهزاً، ولكن بشرطين أولهما أن تُسلِم وتُسمّى باسم مغربي، وثانيهما أن لا يكون تراجعه هذا إلا نتيجة توسُّط لا مردّ له. فكَّر في توظيف أمير وأميرة لهذه الغاية، وصرف النظر عن الأمر، فالأمر أهون من استعمال مدفعية ثقيلة كتلك، وقنع بتوسيط حفدة الولي الصالح سيدي أحمد الصومعي، الذين جاؤوا بذبيحة وجلّهم لا يعرف لماذا يفعلون ذلك، وبكوا

وتمرَّغوا أمام رجليه في مشهد استشفاع يتقنونه، فوعدهم خيراً وأجزل لهم العطاء. وبعد شهرين سافر إلى فرنسا، وخطب البنت من والدها، لكن الحرب التي نشبت واحتلال باريس أفسدت ترتيبات إقامة عرسين واحد هنا وآخر هناك. وبعد أخذٍ وردّ وزيارات متبادلة في ظروف صعبة، أقيم عرسٌ خرافي في أغسطس 1942 حضره بعض الأمراء والمقيم العام، وقادة الجيش، ومعظم باشوات المغرب وكبار القواد، وأمطرت السماء على العروسين ذهباً وجواهر، وهدايا نفيسة وأمطرت على العروسة اسماً جديداً «كنزة»، وصيتاً ورِعاً، يجعلها تحافظ على الصلوات وتتصدَّق بما في يدها. وسافرا لقضاء شهر عسل بدعوة من الباشا لگلاوي الذي استضافهما في فندق المامونية، وحين عادا أهداهما الباشا فيلا صغيرة بناها في إحدى ضيعاته، وعيَّن عبد السلام نائباً له، وصار يوكل له معظم مهامه، ويراقبه من بعيد. وحين أخبره أحدهم بأنه رآه يصفع موظفاً، ابتسم بانشراح واضح، وهنّأ نفسه على أن تربيته لم تذهب سدى. بعد شهور قليلة، اكتشف عبد السلام وكنزة بأنّ الحياة المشتركة ليست هي زهور البراري وقصائد الليل وآهات ما بعد الظهيرة، ورسائل الحب الكربلائية. وأحسّا بتلك النثرية القاسية ليومي حقود يغتال رويداً رويداً كل المشاعر الجميلة، وأحسَّت هي على الخصوص بأنها تختنق وسط جبال من التقاليد، لم تكن تسمع طيلة النهار إلا «On ne fait pas ça»، وأن إيالة الباشا وعلى اتّساعها صارت بضيق خُرم إبرة، ولم تكن تجد عزاء لا في النزهات، ولا في السهرات التي صار عبد السلام ينظمها، ويدعو لها موظفين كباراً، وزوجاتهم، ولا في النوم، ولا في قراءة الروايات، ولا في التشكي، وتحريك بركة الندم. صارا يتخاصمان لأتفه الأسباب،

ويقاطعان بعضهما، ويتواصلان عبر الخدم فقط، وحين أحسَّت كنزة بأنها حامل بكَت بحرقة مريرة ونتفت شعرها فرح الباشا كثيراً، وفرح عبد السلام، ووجدَ في الوحم سبباً معقولاً لتقبُّل كلّ حماقاتها وعدوانيتها، وحين ولدت في 13 مارس 1944 ولداً، ولكن بعينين مطموستين كان فرحاً أشبه بعزاء مأتم اختلطت فيه التهنئة بالمواساة. استشار الباشا أطباء، وكان مستعداً للسير به إلى آخر الدنيا من أجل جعله يُبصر، لكن لا أحد منهم منحه أملاً أو دلّه على طريق، كلهم أجمعوا بأنّ العيب خلقي رباني، ولا يستطيع الطب أن يفعل شيئاً. سمى الباشا وهو يدافع إحساساً بالسقوط حفيده طه، باقتراح من كاتبه محمد الزوين، لعلّه يصير نابغة مثل طه حسين. كانت كفارة عظيمة عن كلّ خطاياه، وطعنة غائرة جعلت القلب الصلد يتشقّق، ويخرج زهور حنان، لم يكن الباشا يعتقد أنه يمتلكها. صارَ لا يفارق الرضيع يهدهده ويبكي وهو يحضنه، ويصحو في الليل ويهرع لرؤيته، ولو كان بإمكانه لتنازل له عن عينيه. استدعى في يوم عدلاً، وكتب له معظم ثروته سراً، وأودع نسخاً في أيدٍ وأماكن أمينة. لم يعُد يَحيا حقاً إلّا من أجل الطفل، كان يعتذر عن مهام رسمية ليبقى جنبه، وما أن تُرضعه أمه حتى ينتزعه الخدم منها ويأتون به له. ماتت بداخله شيئاً فشيئاً دودة التسلُّط وإخضاع الآخرين، ونأى ذلك الحرص الذي أجج ناراً مضطرمة بداخله من زمن بعيد، حرص ألّا يفلت شيء من بين أصابعه، بعيداً عنه وصار يؤدّي مهامه، وكأنها منقوعة في رماد، ويفضّل أن يأخذه السائق، وهو في المقعد الخلفي مستنداً إلى وسادتين في جولة طويلة، على مباشرة شؤون الباشوية، كانت السيارة تمضي وئيدة والباشا يتأمّل بحزن الحقول والفلاحين المنهكين في أشغالهم، ويتأمّل حياته المنقضية التي هيّأت له كتتويج

لكلّ المرارات التي عاشها أن يرى مأساة حقيقية في عائلته، أن يرى الضعف والحاجة والعطب في فلذة كبده. حياة وهبته من خلال عمى حفيده بأنْ يبصرها، ولأول مرة، كما هي، متقلِّبة ومخزية. لم يكن الباشا في حاجة إلى مسيح ليقول له: حياتك تافهة أيها الباشا، فقد كان يرى تلك الحقيقة المرة في ماضيه وفي كلّ ما يحيط به. وفي يوم الاثنين 7 أكتوبر 1947 ركب الباشا كعادته السيارة في تمام السابعة صباحاً، وسار به السائق الذي كان يمنع عليه أن يتحدّث إليه أو يلتفت نحوه أو يتوقف إلّا بإذن منه. قام السائق بجولته المعتادة، لكن الباشا لم يأمره بشيء، فقام بجولة أخرى، ولم يسمع منه شيء، وذهب إلى محطة البنزين وتزوّد بالوقود، وسارت السيارة بلا هدى، تدخل طريقاً وتخرج منها إلى أخرى، والسائق يقاوم الإغماء من التعب والجوع والعطش. ونجح قرابة أذان المغرب في أن يقول بصوت متضرِّع يحاذر ألا يوقظ بركاناً خامداً: «سيدي هل أواصل..» لكنه لم يسمع جواباً، وتشجَّع بعد فترة من التردُّد الفتاك في أن يلتفت فرأى لسان الباشا متدلياً وبقايا زبد عالقة به، ووجهه مربد، وعيناه منطفئتان. خرج وفتح الباب الخلفي، وحركه، لكن جسده انثنى في يده وسقط. كانت ليلة مشهودة بكى فيها الكلّ رجلاً لم يعرفوا غيره، ملأ حياتهم خوفاً ورجاء، وأذلّهم ونكَّل بهم وحماهم، ودافع عنهم أيضاً، رجلاً لم يكن أحد يستطيع أن يقول له: لا كان كلّ شيء، وكانت حياتهم تمضي وهي مشدودة له كما القوس للوتر، رجلاً أحبوه وكرهوه، وكان بينه وبينهم دوماً توهّج واهتياج وكبرياء جريحة. سار في جنازته كبار رجال البلد، تتبعهم أعداد غفيرة من البسطاء. لقد تقرَّر دفنه أمام استغراب الناس بالزاوية الدرقاوية، وحين وضع الصندوق الخشبي وكان الحفارون بصدد

وضع صفائح الإسمنت فوقه وتسوية التراب سُمِعَ دوي وقرقرة غريبة لشيء يسقط وسط ماء ثقيل، وفهم الكلّ أن الصندوق تهاوى في أحد الكهوف التي تحوَّلت إلى مجاري المياه العادمة بعد أن لم يعُد الناس يستخدمونها كملاجئ لتخزين التبن والمواد الغذائية، ولاتّقاء موجات البرد أو الحر. سوّى الحفارون التراب فوق الصفائح كأنّ شيئاً لم يحدث، وخرج بعض المشيعين وهم يتهامسون، بشماتة، بأنّ صندوق جثة الباشا يسبح الآن وسط الخراء والبول. بعد ثلاثة أيام عيِّن عبد السلام بن بوزكري بن موسى الصغير بن يحيى بن إبراهيم بن موسى المسفيوي باشا على مدينة بني ملال، وكان للناس متَّسع من الوقت ليقولوا بأنّ كل تراب إيالة الباشا بوزكري تبرأ منه، وابتهل لله بأنْ لا تُقبض روحه فيه، لذا ماتَ في سيارة متحرِّكة، وقالوا بأنّ الله استجاب لدعاء رقية وحرمه من قبر يأويه مثل كلّ الناس، وستظلّ المجاري تتقاذف صندوقه حتى يتحطَّم فتأكل بقاياه الجرذان. راهَن الناس على وداعة الباشا عبد السلام الظاهرة، وتوقعوا منه أن لا يشبه والده في جبروته وجشعه وعنفه، وتمنى بعض مَن ظلموا، وانتُزِعَت منهم أراضيهم بأن ينصفهم، لكنهم انتظروا بشائر ذلك طويلاً، ولم يظهر شيء. وقع تجديد شكلي في كلّ شيء تقريباً، بما في ذلك هيئة الباشا الجديد الذي يلبس البذلة بربطة العنق، ويدخن وهو يكلم الناس، ويقوم بالرياضة وهو يلبس سروالاً قصيراً، ويخلط في كلامه الفرنسية بالعربية. أزاح وبالتدريج رجالات والده، واحداً واحداً، وأحاط نفسه بذئاب صغار متعطّشين للسلطة وللمال، ذئاب تركت تتضور جوعاً وفراغاً مدة طويلة، لكن الأمور في العمق بقيت على حالها. اتسعت الهوّة بين الباشا عبد السلام وزوجته كنزة، وخصوصاً حين اكتشف أنّ والدها مفلس ومطارد

بالديون، وأنّ كل ما رآه من بذخ لم يكن سوى شباكٍ لصيد المغفلين أمثاله. وكثُرت الخصومات بينهما، ولم تعُد تراه إلّا في الهزيع الأخير من الليل، متسللاً بخفّة قط لكي لا يوقظها، وما أن يضع رأسه بجانبها حتى يبدأ في الشخير. وتبقى هي أرقة تتفرَّس في قدرها التعيس. كان لديها كلّ شيء إلا الأهم: حياة طبيعية مثل الناس. وكثيراً ما كانت تصيح وهي تتلظى في جحيم عزلتها ومللها: ماذا أفعل هنا؟ تبكي بحرقة وتقول لنفسها، وهي تنظر نحو الطفل بغيظ، بأنّ حياة كحياتها لا يمكن أن يتمخَّض عنها إلّا مسخ. لو كانت تعيش حياة عادية مثل باقي الناس، لما خرج طفلها أعمى يلزمه خادم لكي لا يؤذي نفسه في مشيته المترنِّحة وفي شغبه الطفولي. كانت تتعذّب لرؤيته يرتطم بالعالم، ولرؤية نفسها تتعفَّن وتضمحل في هذا السجن الذهبي، مُحاطة بخدم بُلَهاء، وبطقوس أشدّ بلاهة، وللمرة الألف كانت تحسّ بأن شيئاً فيها سينفجر لا محالة. وحاول الباشا من جهته، إنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الزواج المتعثّر، وكثير المصائب. وعلى غير قصد منه، منحه ما كسره وأنهاه، فقد نظم حفلاً لبعض موظفي الكتابة العامة للحماية، اختال فيه أحدهم كطاووس ونشر ريش معرفته ومغامراته، وكان يرقب مفعول ذلك على كنزة بنظرات مغناجة وخاطفة. كان في منتهى الكمال بجسد رياضي وأناقة لافتة في اللباس. أجبر العياء الباشا على الاعتذار والانسحاب وقُضِيَ كلّ شيء في غيابه، وصارت كنزة تفتعل الأسباب لتُسافر إلى الرباط. وتجرّأ أحدهم وقال للباشا: هناك رائحة كريهة تفوح من زيارات حرمكم للرباط. مساء ذلك اليوم، انتهى كلّ شيء، صفعها، ودون أن تنبس بكلمة جمعَت حاجياتها. وفي الصباح الباكر، سافرت إلى الدار البيضاء، ومن هناك إلى

فرنسا. دامت إجراءات الطلاق ستة أشهر، تنازلت له فيها عن حضانة طه، وأخذت بالمقابل ثروة صغيرة. وبعد سنة، سمع بأنها تزوجت الطاووس. وبتصميم لا يترك شيئاً للصدف، قرَّر الباشا بأن يفصل ابنه طه عن كلّ ما هو فرنسي، لن يتعلم لغة الأم المشؤومة. ولن تطأ رجله بلدها ما بقي حياً. ولن يسمح لها أبداً بأن تراه أو تكلمه، لقد ماتت في حياته هو، وعليه أن يهيل التراب عليها في حياة ابنه أيضاً. جاء له بمعلمين من مصر والعراق ولبنان، وكان يصله يومياً تقرير عن الدروس التي أعطيت له. أراده أن يتضلع في كل شيء: النحو، الفلسفة، التاريخ، الفقه، والأدب. وأن تكون له ثقافة واسعة ومتينة تعوِّضه فَقْد البصر. بعد الفراغ من الدروس، كان طه يجد يدي جدّته مفتوحتين لاحتضانه واللعب معه، وتنويمه بحكايات هينة والأقزام والأميرة النائمة والجلد الناطق. هي مَن سمَّته بشكل تعويضي بالباشا الصغير، ونشرها الخدم بعد ذلك في الناس. تزوج الباشا عبد السلام من إحدى قريبات الصدر الأعظم المقري، بذل في ذلك مالاً ومجهوداً كبيراً، ووظّف معارف شتى. لقد فهم أخيراً ما كان يردِّده الباشا والده دوماً: «الركون للصدف والارتباطات المجانية والبلهاء ديدن العامة. أما العائلات المخزنية فلا تترك شيئاً للصدف والأهواء. كل شي مخطط له ومحسوب. من الأفضل لك أن تجد في أزمة أو حاجة أو نقمة من طرف السلطان مَن يذود عنك، ويمدحك ويعتذر عنك، أو يقترحك لأمر، أو يقول عنك كلاماً طيباً، ومَن ينذرك بخطر قادم، ومن يعطيك معلومة ثمينة، ومن يقول لك كيف هو مزاج مَن في يدهم الأمور، مَن يدفعك إلى الأمام حين تحتاج لذلك، أم مَن يلتصق بك كالقراد وينتظر منك أن تحلّ له كلّ مشاكله ومشاكل سلالته لأنه صار

صهرك؟! العائلات المخزنية، يا عبد السلام، تاريخ من المصالح المشتركة والخدمات المتبادلة والتضامن الكبير في وجه الأجلاف والهجيج، والمخزن دائرة مغلقة بإحكام، وسورها عالٍ ومنيع، لا بد أن تحُوم حوله بصبر كبير حتى ترى كوة نور عن طريق زواج أو خدمة كبيرة أو حظّ كريم، فاغنمها وادخُل. وحين تصير بالداخل عليك أن تعرف الأصول والقواعد وإلّا طارت عنقك. إنْ عرفك المخزن قضي أمرك، لا رجوع، لا رجوع، وعليك أن تفعل ما يريده هو لا ما تريده أنت». وبعد صمت طويل، قال الباشا بوزكري وكأنه يكلم نفسه «. لولا القائد العجوز وَصِلَته بجدي في دار المخزن، لكنت الآن كسالاً في حمام أو بياعاً للنعناع بسويقة في مراكش. أين هو عيسى بن عمر؟! لقد نفق في سلا، وهو لا يكاد يجد قوت يومه. أتعرف لماذا؟ لن تعرف. لأنه ليس ابن الدار، كان رجل مرحلة ونال حظوة عابرة ومجداً زائلاً، وحين انتهت الحاجة له عاد من حيث بدأ: لا شيء. ما عدا أبناء الدار. الكلّ أدوات وأدوار ومهام ينتهون بانتهائها».

عيّن عبد السلام باشا في السنة التي أُسِّس فيها فرع لحزب الاستقلال بالمدينة، لم يجزع ولم يعطِ للأمر أكثر ممّا يستحق، وكان يطمئن المراقب المدني قائلاً بأنّ الوضع تحت السيطرة التامة وأن معلومات ما يقع في التنظيم تصله أول بأول. وكان في ذلك بعض الادّعاء طبعاً. يقول للمراقب بأنهم لا يتجاوزون أصابع اليد فيطرق المراقب وهو يقول لنفسه: وماذا لو كانت تلك الأصابع هي الرأس الطافي من جبل الجليد. وتمكّن بكلّ الطرق من أن يخلق له صلة مع أعضاء التنظيم إلّا أحدهم يدعى عمر الخياط فقد صدّ

بتصميم كلّ محاولاته للتقرُّب منه ورفض كلّ هداياه وتودّداته. ولأن المخزن لا يهتمّ بما في يده، بل ينشغل أساساً بردّ الشاة الشاردة إلى القطيع باللين أولاً ثم بالقسوة الكبيرة ثانياً، فقد انصرف كلّ همّه إلى إنهاء تنطّع الخياط. ذات صباح لم يفتح الدكان ووجد الناس داره مغلقة، وحار أصدقاؤه في تفسير ما جرى، فهو لم يردّ للناس ما في ذمته من ثياب ولم يودّعهم هم، ولم يسبق له أن حدّثهم بنيته في الرحيل. فتحوا الدكان ووجدوا كل شيء على حاله، وثياب الناس مرتبة، وفتحوا الدار ووجدوا بعض الأواني المكسرة، لكنه لم يحمل معه أي شيء من متاعها. سألوا عنه في كلّ المدن التي يمكن أن يرحل إليها ولم يجدوا له أثراً. لقد تبخر هو وزوجته وابنه وبنته الصغيران في بئر تاريخ مظلم بلا قرار.

بعد سنة من توليته، أنهى الباشا عبد السلام، أو خيِّل له ذلك، موضوع لالة رقية. فقد استجاب - كما قال للناس - لطلب، لم يتقدَّم به أحد في الواقع، يقضي بنقل قبرها من المقبرة فقد كثُرَ زوارها المتزاحمون أمام باب الكهف حيث دفنت، يتبركون بها وينتهكون حرمة القبور الأخرى التي يطأونها بأرجلهم ويجلسون فوقها، وقد يتبوَّلون ويتبرزون أيضاً. نقل جثمانها ليلاً إلى بقعة أرضية أهداها لروحها، وبنى فوق القبر ضريحاً باذخاً، وسدّ الكهف بالخرسانة، وطمس كلّ معالم وجودها هناك. واعتقد أنه بذلك قد أنجزَ تصالحاً تاريخياً بينها وبين والده، وأنه محا إلى غير رجعة سوء تفاهم بسيط حوَّله المغرضون إلى قضية لمهاجمتهم والتنديد بظلمهم، لكن الناس، وبشكلٍ حيَّره وأطار النوم من عينيه، أبوا أن يتبعوها إلى مرقدها الجديد رغم كلّ محاولاته، كأنها لم تعُد لالة رقية، وكأنّ

بركتها بقيت هناك. وأخذ هو الرمة فقط، فاللئام يريدون أن تبقى حيث هي المرأة المظلومة التي دفنت حية في مقبرة، المرأة التي ردّت بجنون أكبر على جنون والده.

لم يكن يُغضب الباشا عبد السلام شيء أكثر من المقارنة الظالمة بوالده. كان يراها في عينيّ كلّ من يصافحه أو يحادثه، فتزرع فيه خيبة قاتلة، وتشوهاً داخلياً يستطيل حتى يدفع كلّ أعضائه لتصريف نفاد صبر غريب. يكلم الناس بعينين زائغتين كأن المحادثة تجري فوق زجاج مكسور، تُقال فيها جمل غير مكتملة وأفكار غير متسلسلة، لأنه يُعدِي بقلقه مَن يكلِّمه. وحين يخلو لنفسه يستعيد هدوءه، ويقول لنفسه، وماذا لو كان ذلك الإحساس مجرّد وهم من أوهامه!؟ ألا يردِّد المغاربة دوماً: «الله ينصر من أصبح»؟! فهم لا يكترثون بترهات الماضي، ولا يؤمنون ويخافون إلّا القوة التي يرونها، واليد الذي يترجّون نوالها. قلة قليلة منهم فقط هي من تعمَد إلى تلك المقارنات الظالمة لإضعافه وتشكيكه في نفسه حتى يتسنّى لها السيطرة عليه. ماذا كان الباشا بوزكري، حتى لو كان والده؟! لا شيء، شبه أمي رغم الجُمل المنمَّقة التي يحفظها، ويبهر بها الجهال من حوله، وكتلة من الغضب والدسائس والأحقاد، وتاريخ من عقد النقص. رأوه هم وهو في مهام رسمية فقط، أما هو فقد رآه بلا شعائر تُحيط به، ولا حراس، ولا هيلمان الحكم، رآه موسوساً وضعيفاً وحائراً ومتقلِّباً، بل رآه وضيعاً يتآمر على أناس، كان يحضنهم ويشيد بهم قبيل لحظات. رآه جشعاً يأسر رجلاً وحماته في غرفة واحدة وبلا مرحاض لكي يدفعه للتنازل له عن أرض. وقيل له بأنّ الرجل يجلّ حماته، ولن يجرؤ على التبُّول أمامها أو التبرُّز حتى

ولو انفجرت مثانته، أو مصارينه. بكى الرجل وطلب من الحراس أن يأتوه بالعدل ليتنازل له. هذا هو الباشا بوزكري الذي لم يروه ورآه هو، الباشا الذي لم يعرفوه وعرفه هو، مكرُ بدوي في حِقد جمل في سم كوبرا. حتى لو كان والده، فهو لا شيء، استفاد من الظروف وصنعته فرنسا كما صنعت كل شيء في هذا البلد، وتنازلت له عن بعض السلط لينكِّل بالأهالي كما يجب حتى يبدو موظفوها أكثر رحمة وتفهُّماً. نعم، هو الاشمئزاز، نعم، ما كان يحسّ به كان اشمئزازاً، حين يراه يتصرف بنبل وكرم كبير عندما يحسّ بأن أعين الناس مسلطة عليه، لكنه وبعد أن ينصرفوا يضرب بيده عبداً حتى الموت كسر كأس شاي بلار، أو دلق زيتاً، أو ترك فرساً بدون أكل، أو يترك علماء أجلاء ينتظرونه لساعات، وهو مستلقٍ وسط حريمه يقيس عن بُعد طفح المرارة في صدورهم، أو حين يخبر أحد القواد في إيالته بأنّه سيزوره، فينحر القائد الخراف، ويُعد الخيمة المخزنية ويجيش الفرسان والناس للاستقبال، فتصله يوم الحدث جملة مقتضبة من الباشا: «سأرجئ المجيء إلى وقت آخر». كبير في الكبائر، وصغير في الصغائر، ولا يحسّ بسلطته إلا حين يستسلم لنزواته ويلتذّ بقهر الناس. ماذا تنتظر من رجل يحقد على مغنية؟! لكن الباشا عبد السلام، ومهما احتد ضدّ صورة والده الكاسحة بداخله، فإنه كان في حاجة لما كان ينصحه به، فحين أراد الباشا الگلاوي وبإيعاز من سلطات الحماية عزل محمد الخامس، وتولية فردٍ آخر من الأسرة الحاكمة مكانه. تذكر ما قيل له، لم يتسرَّع، ولم يُبدِ موقفه بوضوح، ووضع كما فعل والده دوماً رِجلاً هنا ورِجلاً هناك. فالسياسة ليست علماً دقيقاً، ولا أحد يعرف مَن ستؤول له الأمور. لم يكن يفكر في إغضاب الگلاوي الذي كان يعتبره مثل ابنه، فحين

يتحدثان في التلفون يعطيه الانطباع بأنه أكثر استعجالاً منه للأمر، لكنه يتلافى حضور الاجتماعات الحاسمة التي كان ينظِّمها لترتيب الانقلاب لكي لا يكون موقفه موثقاً في محاضر وشهادات حضور. يتذرَّع بمرض، وبحادث أخَّره في الطريق، كما وقع في اجتماع وادي زم، فقد وصل متأخراً، لأنه كان على علم بأن للگلاوي موعد اجتماع في برشيد. ومن جهة أخرى، كان يرسل الهدايا وبرقيات التهنئة للسلطان. ولا يدَّخر ثناء عليه، حين يلتقي ببعض أبناء دار المخزن. ونجح طيلة الشهور التي اشتدت فيها الأزمة في أن يكون في قائمة الفريقين، وكلّما خلا إلى فريق قال لهم: أنا معكم. وحين نفي محمد الخامس بايع بن عرفة، وقبَّل يده بتضاؤل مقيت وقدَّم له ستة خيول بيضاء هدية. لكنه كان يعرف، ومما يراه ويسمعه في إيالته بأن فترة عصيبة قادمة. أبدى حزماً ظاهرياً إزاء المقاومين، وأرسل كثيراً منهم إلى السجن، لكنه كان يرسل النقود سراً وقُفف المؤونة إلى دُورِهِم. كان السمّ والترياق معاً، الظالم والنصير، وحين يوحي له المراقب المدني بأنهم على علم بمناوراته ولعبه على الحبلين، كان يفلسف الأمر بخبث، ويقول للمراقب: مهما حاولتم لن تفهموننا، لن تفهموا منطق القبيلة. نحن نتحابّ ونتباغض في الآن نفسه، نقسُو على بعضنا ونتراحم، ندفع الواحد منا إلى الهوّة السحيقة ونمدّ له يد الخلاص التي يتشبَّث بها في آخر لحظة لينجو. نحن نرقص بين النقائض وأطراف الأشياء، لا حبنا حباً، ولا بغضنا بغضاً. نفجر في الخصام، ونرعوي، ونصفح حين نتمكَّن من خصومنا. ولا نسير في شيء أبداً إلى منتهاه. ورغم أنّ الباشا عبد السلام كان من أوائل المهنئين والمجدِّدين لبيعة محمد الخامس في فرنسا، وقبل التهاوي الذليل للباشا الگلاوي أمام رجلي السلطان

إقراراً بالهزيمة. ورغم أنه ثبت بعد الاستقلال في منصبه، ولم يكن في قائمة ثرثرة حزب الاستقلال المضحكة عن الخونة، فإنه كان يعرف أن زمناً انتهى إلى غير رجعة، وأن أناساً، نكرات حقيرين، لم يكُن يعرف بوجودهم، حتى سيتصدرون الواجهة. انتهى زمن العزّ والنخوة والرِّجل التي تخبط الأرض فتُخرج زبيباً، واليد التي تلوي عنق الغمام نفسه وجاء زمن العوام. في 3 فبراير 1959 سيعين باشا جديد على المدينة بضغط قوي من حكومة عبد الله إبراهيم. لم يجزع الباشا عبد السلام كثيراً، كان يعرف أنّ القادم أسوأ، وأنه خسر منصبه فقط، أما باشوات آخرين فقد خسروا كلّ شيء المنصب والثروة والحياة نفسها. اتخذ إجراءات احترازية، وابتعد إلى إحدى ضيعاته، وكان ينتظر لعلعة الرصاص في البلد، ويتوقع مذابح قادمة. لذا فكَّر في إرسال ابنه الباشا الصغير لمتابعة دراسته في مصر. فكَّر في إبعاده هو خصوصاً عن أيام سوداء تتجمع نذرها في الأفق. وفي يوم 6 مايو 1959، وفي مدينة طنجة ركب الباشا عبدالسلام رفقة ابنه، ومجموعة من الخدم والمرافقين مركباً إنجليزياً تجاه الإسكندرية.

كنت أرى الباشا وهو يُحيّي الناس بتثاقل وملل، وأقول لنفسي، ربما ليس للحكايات التي يتداولها الناس عن عائلته من الصحة إلّا الأسماء والتواريخ، أما الباقي فتلفيق فيه من الخيال وتصفية الحساب المتأخِّر أكثر ممّا فيه من الحقيقة.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **مقامات الغريب**. كنت أمشي بركب سائبة، ونَفَسٍ مختنق ويدٍ متشقِّقة تلقي بالعصا فلا تثبت في الرمل. أرفع بصري فتدميه الشمس الجبارة المتفرِّدة التي صنعت هذا الجحيم، وصارت ترى بغضب نأمة الحياة البسيطة فتنبري لسحقها أسير نحو الموت وأشتهيه. هل كنت عطشانَ؟ هل كنت جوعانَ؟ هل كنت مهدوداً من التعب واليأس؟ لا أدري. ما أعلمه هو أنني كنت أسير بقلبٍ يحترق وروح مضطربة، أخطو الخطوة، وأعجب كيف لا أسقط. أبتهل فيعجز لساني وشفتاي المتيبستان عن لملمة حروف كلمة. تخرج من فمي آهٍ حارة، جافة، متقصِّفة لن تصل السماء البعيدة. لا رجاء، ولا عزاء. كنت مريضاً وضائعاً حتى الأرض الثابتة صارت مترنحة، تميدُ بي؛ ولا تثبت فيها رجلي إلّا بعد حين. أكنتُ أبحث في هذا الخلاء عن كلمة مواسية، أم عن يد إخاء، أم عن رحمة وخلاص؟ أسير لأن عليّ أن أسير بلا توقف، ربما هناك في الطرف الآخر مكان أرحم، فيه ماء وأشجار وغيم وناس، لكنه بعيد. سقطت لأنني لم أعد أحتمل الامتداد القاتل واللامتناهي أمامي، وللتوّ تحركت الريح الحقودة وبدأت تدثِّرني بالرمل، حاولت

النهوض وعجزت، دَفَعت العاصفة بكفَّي الواهنين لكنها كانت كاسحة مِلحاحة لا ترد. كيف لهذا الرمل، الرقيق الناعم المهيض، أن يكون قاتلاً، وأن يتكاثف لوأدي تحته؟ ثم وأنا أدفع بلساني اليابس الرمل الذي أراد أن يملأ جوفي أيضاً، ثم وأنا أشهق وأزفر لكي أؤكِّد لنفسي بأنني ما زلت حياً، ثم وأنا أنتفض كالطير الذبيح، امتدَّت يد نحوي وانتشلتني من غلّ الرمل، وسمعت صوتاً يهمس لي: «عليك بسيدي محمد الغريب، عليك بسيدي محمد الغريب، عليك..»، ثم أفقتُ وأنا أتصبب عرقاً، صدَقَ مَن قال بأنّ الكوابيس خُلقت لتُنذرنا بأهوال جهنّم.

سألت كلّ مَن له معرفة بالمقامات والمزارات والأولياء عن سيدي محمد الغريب، ولم أخرج بطائل. سألت تجاراً ومهرجين جابوا أسواق المغرب ومواسمه. سرتُ لملاقاة رجال ونساء، أهل الله، والمجاذيب، والممسوسين وحتى بعض المجانين السياح، وأكّدوا جميعهم، بعد أن بهتوا، بأنهم لم يسمعوا أبداً بهذا الولي. نبهت نفسي وقلت لها بأنها تبحث عن وهم زرعه فيها الظلام. تبحث عن كتابة بلا مداد في نوم تُرفع فيه الأقلام، لكن هاجس الحلم بقي كالغصة في الحلق، كالفقد في القلب، ملحاحاً، مؤرقاً. قرأت «تشوف» بن الزيات، و«أنس» بن قنفذ، وأعلام العباس بن ابن إبراهيم والزركلي، و«مطرب» التليدي، وكل كتب الأولياء التي طالتها يدي. لم أجد فيها حديثاً عن سيدي محمد الغريب. عثرتُ فقط على إشارة شاردة لقائد فاطمي قتل في معركة ضد القرامطة بالسويس اسمه يوسف بن محمد بن يعقوب. لقب بالغريب، وبُنِيَ له ضريح هناك، وهو من الأولياء الذين ظهرت ولايتهم بعد وفاتهم.

حسمت أمري سريعاً بأنّ بغيتي ليست في السويس. قررت أن أتناسى سيدي الغريب هذا، أن أطوي الصفحة، أن أخنق بداخلي هذه الحاجة إلى خلاص موقوف على وليّ لا يعرفه أحد، لكنني، وبعد أيام، وكمن يرمي نرداً، سألتُ أخي العسكري، فابتسم وقال لي: انتهى زمن الولاية والأولياء الصالحين، الكرامات والمعجزات صارت بيد التكنولوجيا، تطوي الأرض وتقرِّب البعيد، وتيسر حتى السير فوق الماء. قلت أسأله هو الذي صار يقرأ قائماً وقاعداً وعلى جنبه. كلما أخذ أجرته الزهيدة يأتي محملاً بأكياس من الكتب، يكدِّسها بالقرب من سريره، يقرأ هذا وذاك ويدوِّن بعض الأفكار والأقوال والنصوص في جذاذات يحرَص عليها حرصه على شيء تتوقَّف عليه حياته، لعلّه صادف فيما قرأه ذكراً أو إشارة لسيدي الغريب. بادرني بعد نحو ساعة، لماذا تبحث عن سيدك الغريب هذا؟ بهتّ لحين، ثم قلت متلعثماً: أنجز بحثاً عن أولياء منطقة تادلا ابتسم مرة أخرى ومضى يجرجر رجليه منهوكاً، متغطرساً، وغارقاً في كآبة بلا ضفاف. بعد حوالي عشرة أيام فاجأني بالحديث عن غريب عاش بالقرب منا، وهو أحد شيوخ الزاوية الدلائية، وألقى في حجري كتاباً عنوانه: «أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي عالم الزاوية الدلائية وأديبها» لباحث اسمه حسن جلاب وقال لي مبتسماً: «لعله غريبك الذي تبحث عنه»، ومضى يجرجر رجليه. أمسكتُ الكتاب بيدين مرتعشتين من وقع المفاجأة. وبدأتُ للتو في التهام السطور. وجدتُ بالفصل المعنون بالتعريف بالمرابط ما يلي: أما لقبه الثالث (المرابط اللقب الأول، والثاني الصغير)، الغريب، فالثابت أنّ الذي لقبه به هو الشيخ الصالح محمد السوسي. فقد ذكر أحمد بن يعقوب الولالي في: **مباحث الأنوار**، أنّ الشيخ خرج من مراكش

قاصداً الحجّ، فمرَّ بالزاوية الدلائية، ولمّا سبق خبره إليها خرج لملاقاته - أي المرابط - قبل كلّ واحد، فلما لقيه وسلم عليه، قال لأصحابه: المرابط غريب في هذا البلد. فكان الشيخ يفتخر بهذه الكلمة، ويتأولها على معنى أنه ليس هو على ما عليه أهله من الانهماك في الدنيا والفرح بالملك. ولقبه باللقب نفسه في مقام آخر. ذلك أنّ المرابط عندما حجّ عام 1079هـ دخل على الشيخ رضي الله عنه في مرضه، الذي توفي فيه فوجَده قد أعدَّ أكلات كأنه يعلم أنه يدخل عليه للعبادة، فقال له أيضاً: «مرحباً بالغريب في أرض الله تعالى فكان يضيفها إلى الكلمة الأولى ويفتخر بها ويقصّها علينا» ترك الغريب شعراً في مدح الرسول، وخطباً عظيمة وشروحات وكتابات في مسائل نحوية. والأهم من كلّ هذا حياة ملغزة لم يتوفر للباحث إلّا نتفاً متفرقة منها في كتب عديدة أخذ يعتصرها ويستجديها، كمتسوِّل في مفترق الطرق، ليُعيد نسجها. ولكن، أقولها بصيحة دهشة: لماذا لم ينتبه الباحث لتجربة الغريب في كمال غربته؟ أليس الغريب، كما قال التوحيدي: مَن صار غريباً في وطنه، مَن أتت عليه أحكام المصائب والنوائب، وحطَّته بأيدي العواقب عن المراتب.
فلماذا لم يتأمل نكد الزمان عليه وتحوّله، هو ابن دار الملك، والعالم الكبير، والخطيب المفوّه إلى نديم صغير في قصر الرشيد بفاس، وهو الذي حطّم جيش والده، وخرب عاصمة ملكهم وشرّدهم في الآفاق، ومن عليه، ليحرق قلبه يومياً، بأن صيّره أحد جلاسه. في سيرة الغريب، كشف التاريخ عن نفسه، مرة أخرى، شكلاً آخر لقبة ساحر، تغور فيه الممالك، ويرفس فيها المجد، وتتحوّل عصا الملك والخطابة إلى عصا ذلة ومسكنة. كان الغريب في حضرة الرشيد، ونار المرارة والأسى تضطرم بداخله يتعزّى بالتفكير في المعتمد بن عباد

في أغمات، ولسان الدين بن الخطيب محروقاً ومرمياً في مزبلة بفاس، وابن رشد خارجاً من مراكش محمولاً، كنفاية، في خرج حمار. ومتى نسي أو ضحك أو تهلّل وجهه متناسياً آلامه الرهيبة، تصعد في حلقه جثث أهله صارخة معنفة:

من بات بعدك في ملك يسرّ به
فإنما بات في الأحلام مغرورا

ضاع قبر الغريب مثلما ضاعت دولة أهله، فالمغاربة لا يحرسون الذكرى إلّا إذا كانت تتكئ على سلطة قائمة. توفي بالوباء «ودفن بروضة أهله التي بالكغادين، وكان قبره قبل هذا معظماً، فاندثر لهذا العهد كغيره من مقابر أقاربه التي بها» أي معنى عليّ استخلاصه من حياة رجها ملك ضائع، وملأها انقباض استشرافي عن الرياسة، وعن ملذاتها وأهلها تقوى بعد حلول النكبة؟ أي رسالة من حياة رجل يفضّل الانزواء والصمت، والإطراق، رغم أنّ جوفه يتلاطم بالكلام أو بالضغينة؟ وأنا لا أملك حتى نفسي، ولا أريد من الدنيا إلّا أن أراها فقط، وأتعهد بأن لا تمتدّ يدي إلى شيء من أشيائها. يئست سريعاً من غَريبي هذا الذي فضّل (ربما أجبر) حياة منطفئة ومهينة بالقرب من جلّاد دولتهم، ورَكَنَ للصفيح الساخن للسلطة بتقلُّباتها، وزلازلها المدمرة علّه يريه في الرشيد ما فعله بأهله. وصرتُ أستدعيه كلّما كان عليّ في ضيق ما أن أعنف نفسي لعدم قدرتي على تدبير الحاجة إلى غريبٍ في حياتي. حفظت مدحيته للرسول وصرتُ أردِّدها بلا خشوع، ولا حماس، حجر بسيط ألقم به هول الخصاص الشاسع والفادح في حياتي. الحياة أقدار غريبة متشابكة، فالرشيد الذي زار الدلاء، عاصمة الدلائيين، فقيراً إلّا من شرف متستِّر بحرص شديد

على أطماع كبيرة، واقتسم مع أهلها خبزهم وكتبهم وأحلامهم في أن تحوز دولتهم كلّ تراب المغرب، ورأى بغيرة أبهة السلطة وشعائرها: التشريفات والخدم وطقوس إذلال الناس بالانتظار والهبات، وتقبيل الأيدي، والركوع والسجود، وطبخت بداخله، وعلى نار هادئة، شهوة الحكم. عاد إليها جباراً (بعد أن غدر بابن مشعل اليهودي وسلبه ثروته)، بجيش قوي لم ينهِ دولتهم فقط، بل خرب عمرانها، وطمسَ معالمها حتى لا يتذكَّر أحد النكرة التي كانت تذرع أزقتها، وتقتعد الأرض تحت منابر شيوخها، وتمدّ يدها للعطايا الخاصة بالطلبة. وقف فوق ربوة والدلاء تتوجَّع تحت سنابك حصانه. رأى أكوام الحجارة والتراب والدخان الذي ما زال يصعده الخشب المحترق، ورأى الناس يهربون، باكين ومولولين، ما تمكَّنوا من إنقاذه من يد الجند الذي تملكه سعار الفتك بكلّ ما ينتصب واقفاً بما في ذلك المسجد الأعظم. ورأى الكلاب والقطط واجمة تتفرَّس في الآيات العجيبة لهذه القيامة الصغيرة، واللقالق ضائعة في السماء تبحث عن أعشاشها التي ذراها الريح، وكفكف دمعتين تلألأتا في عينيه، فلا رادّ لمنطق الغلبة والتمكين الذي يَفرِض من بين ما يفرضه محوُ المنافس والمزاحم. وفي جهة ما من المشهد الدموي كان بعض جنده يحيطون بعائلة الدلاء الحاكمة، وينتظرون الإشارة وهو لا يراهم بالقدر الذي كان منكفئاً إلى دواخله، يرى دودة السلطة وهي ترتع وتلتهم بشراسة ما تبقّى من مشاعر طيبة ودودة، شيء ما تغيَّر بداخله، يعرفُ أنّ المحيطين لن يروه، لكنه أحسّ به يسري في عروقه. بعد اليوم، لن يكون له القلب نفسه وبريق العينين، والصوت الأجش، والأظافر الوديعة، لن يتبقى فيه شيء لنِ تفترسه السلطة. وحين اكتمل بناء الحاكم بداخله على أنقاض الهائم على وجهه الذي كانه، أشار إليهم

بأن لا يمسّوهم بسوء، سيدّخرهم لانتقام أشدّ وأمضى من القتل، لن يهبهم لحنان التراب وحياده حين يضمّ إليه الأموات، بل سيُبقيهم ليموتوا ألف مرة في اليوم الواحد وهم يرونه يختال في ملك أخذه منهم. لقنت نفسي مراراً بأن الحياة التي نذرت لها صغيرة وفوق ذلك يتهدَّدها عمى سيزيد في ضيقها وبؤسها، ولا تتسع حتماً لغريب زاوية الدلاء ومحنته مع نذالة وغطرسة السلطة. وقلتُ لنفسي بأنّ التاريخ لم يمنحني حتى إمكانية الاقتراب منه، ولو عبر قبره، أحتمي به، أبلِّله بدموعي، أغفو بجانبه وأنتظر رسالة أو رؤيا. فالأيام محت القبر كدأبها مع كلّ مَن لا حاجة للناس في تذكره، وكلّ غريب في هذه الحياة إلّا التراب.

بعد شهور من العذاب وتردّي البصر المتواصل، تكاثفت فيها غشاوة وصارت تحُول بيني وبين الأشياء، زرتُ فيها طبيب عيون عيّن مؤخراً بالمستشفى، تطلّع إليّ بحزن منذِرٍ بكارثة وكتبَ لي دواء وأعطاني الوصفة دون أن يرفع رأسه تجاهي ففهمتُ بأنّ الأمر انتهى. قررتُ، لأحرِّك بركة الحزن الثقيلة، بأن أزور خالتي في أولوو بالجبل. أحبّ أشجار السرو والجوز واللبلاب والصنوبر التي تحيط بدارها، أحبّ زريبتها وكلابها ومعزها وفرنها المبني بالتراب والتبن الذي يُخرج خبزاً يشتهيه حتى الرب. أحبّ شدو الطيور، وغناء الرعاة، وخرير الساقية التي تنزل متمهِّلة قريباً من دارها وبرودة مائها. تتكلم الطبيعة وحدها هنا وأنصت أنا. أخذتُ الحافلة التي ستُنزلني على بعد خمسة كيلومترات، وعليَّ بعدها أن أجد شاحنة صاعدة إلى مقلع الحجر لتأخذني معها إلى هناك. جلسَت جنبي امرأة سمينة لاهثة تعتصر بيديها صرّة وتتطاير خصلات حمراء من تحت ذرتها. افترّ

ثغرها عن بسمة حين تنازلتُ لها عن جزء من مقعدي، تراءت لي أسنان سوداء نخرة وسط وجه شاحب متغضِّن. وما أن استوت في جلستها، وجمعت أنفاسها حتى بدأت تحدِّث نفسها، شاكية متبرِّمة، ومهاجمة الوقت وأصحابه، وقلّة البركة في كلّ شيء: الله يحفظ، إلى أين تسير البلاد!؟ سألتها، كمن يريد أن يوقف شلالاً هادراً بكفّه: إلى أين هي ذاهبة؟ فلم تُجبني، وواصلَت كلاماً عن زوج مات تحت الردم، وأولاد أفسدتهم حياة بلا عصا. وعرّجت على أمراضها الكثيرة، ووصلت إلى الورم الذي اشتبه فيه طبيب بأنه خبيث، ونَذْرِها إنْ تبيَّن بأنه حميد، وهي ذاهبة للوفاء بالنذر بعد أن أجرت عدّة فحوصات طبية وتبيَّن أن الورم حميد، وهي الآن في الطريق إلى ضريح سيدي محمد الغريب. صحتُ كمَن صعق:

- مَن؟

فردت بهدوء:

- سيدي محمد الغريب.

كررتُ مرتجفاً:

- أين هو؟ أين هو؟

اندهشَت لحماسي الزائد، وربتَت على يدي:

- أنت أيضاً من أصحاب الحال، على رِسْلك يا بني، لم يتبقَّ إلا القليل.

نزِلَت وتبِعْتُها كالمسرنم، صعدنا في مسرب نحتته حوافر البغال والنعال رغم أنف الحجر. أتبعها بانخطافِ مريد، ووداعة حمل، تُحشرِج وتلهث، وتُلقي الخطوة بتردُّد وبطء كأنها تسير فوق جمر، وتتحامل على نفسها وتتقدَّم، لِم لا وهي تسير نحو خلاصها

وخلاصي!؟ لو كان بالإمكان، لحملتها على ظهري، وطرتُ نحو سيدي محمد الغريب، أراها كائناً نورانياً بعثته يد العناية الإلهية لتأخذ بيدي نحو بغيتي. كلّ ما وقع، وبالتسلسُل الدقيق لمشيئة حاذقة ترتِّب الأشياء وِفْق تتابع خطي حيناً، وتنثرها حيناً آخر لتتراءى صدفاً تتلألأ في حياة رتيبة كجواهر في الثرى، منذ أنْ قرَّرتُ زيارة خالتي، واخترتُ الحافلة وليس التاكسي، والمكان الذي بقي شاغراً بجانبي، والمرأة التي لحقت بالحافلة وهي تتحرّك، ومجيئها تواً لتجلس بجانبي كأننا على موعد، وثرثرتها التي قادتها لسيدي محمد الغريب، كلّها أفعال يدٍ توضِّب كل شيء من وراء الستار، تشفقُ وتقسو، وتُخرج لي غريباً آخر علَّني أجد فيه خلاصي. توقَّفَت المرأة لتلتقط أنفاسها، توقّفتُ وراءها وقلبي يكاد يقفز من صدري، ويجري إلى الولي، ثم واصلت السير. رأيت عذابها وهي تنتصر على نفسها في كلّ خطوة تخطوها، ورأيت ينابيع العرق التي تفجَّرت في صدغيها، وكان بودّي لو أركبتها فوق ظهري واختصرتُ عليها هذا العذاب. بعد ربوة، تراءى لي شيء أبيض وسط وادٍ تحضنه ذرى جبال جرداء. تهلَّل وجهها وأشارت: إنه هناك. هرولنا نحوه، وعلى بُعد خطوات رأيت قبّة مبهرة البياض تكادُ تتوسَّد الأشجار والحشائش التي تحيط بها: بناية مربّعة بباب أخضر وحوش صغير يتكأ في ظلاله رجل كان يخفي وجهه بقبّ جلبابه، وحين انتبه لمجيئنا بدأ يتمطّى. بكت المرأة بحرقة وارتمَت على قبر الولي المغطّى بوشاح أخضر، وبقيت واقفاً أمام القبة أتملى بذهول هذه الجنة الخضراء، النقية، الطاهرة، المتوحِّشة التي أفلتت من معجزة بيِّنة ممّا حدث لكلّ الأمكنة الجميلة بالبلاد. كيف لم ينتبه لها مغول العقار ومخطِّطو المشاريع السياحية المدمّرة؟ هنا تخثّر الزمن، وبقي هو أيضاً ذاهلاً مسحوراً يراوح

مكانه. تحاذي ساقية القبّة، وتنحدر بصخب لتلقي بنفسها بفدائية من فوق جرف في بحيرة صغيرة. تمتمتُ بداخلي: يا للروعة! يا للروعة! وبشكلٍ لا واعٍ، سرتُ نحو الساقية، توضّأت بتمهُّل وعدتُ نحو القبة. وجدتُ المرأة ما زالت تنتحب وهي مكبّة على اللّحد. صليتُ ركعتين، وجلستُ أبتهل الله. لم يعرف قلبي مثل هذا الانتشاء والوجد، كأن يداً حانية مسحت على صدري وأخذت معها قلقي ومخاوفي. سعلَ الرجل التفتُّ ورأيته واقفاً في باب القبة ينظر إلينا بعينَي بازٍ وبسمة ماكرة تتدلى من لحيته. تحامَلَت المرأة على نفسها وفتحت صرّتها ومدت له قرطاس شمع، وقالب سكر ثم ألقت في كفّه بضعة دراهم، التفتَ نحوي فبحثتُ في جيبي عن ورقة من فئة عشرين درهماً وقدّمتها له. دعا لنا باستعجال، وعاد واتكأ على جدار الحوش. أخرج سبحة وطفق يُلاعب حباتها وهو يرقُبنا بطرف عينه. بعد نوبة أخرى من البكاء، جمعت المرأة أغراضها الصغيرة وآلامها وحرقتها، وانكبَّت على قبر الولي ثم نهضت وقالت لي بأنها ستعود، وانتظرَت أن أهبّ واقفاً وأتبعها، لكنني خيبت ظنها وودّعتها، فسارت بعد أن رمقتني بوجهٍ مستغرب، وغمغمت كلاماً غير مفهوم. لم أفكّر للحظة في أن أعود معها، كنت أسيرَ صفاءٍ لم أعرف له مثيلاً في حياتي. جدران كثيرة انهارت بداخلي، وروحي المتباطئة والثقيلة صارت شفافة، خفيفة، ومندفعة في دفقٍ شبيه بهذا الوادي النهم. خشيتُ إن عدتُ معها أن أخلِفَ موعد حياتي. تغيَّرت ملامح الرجل حين رآها تعود لوحدها. وبدأ يرقُبني بعينين متسائلتين وحانقتين، عينان تقولان لي: «ماذا تنتظر لترحل؟» لم يحرّك في احتداده شيئاً. لقد كنتُ مأخوذاً بالغروب وهو يتحفَّز كذئبٍ جائع لابتلاع الوادي، وبخشخشة وقلق الطيور، وهي تبحثُ عن ملاذٍ وسط أغصان

الأشجار، وبالظلال المفتَّتة وهي تتجمَّع وتتكاثف لتصنع ليلاً، وبالنسيم المترنِّم الذي يتمهَّل مأخوذاً بالوادي، وبهذه الوحشة التي تولدها الخضرة الفرحة للمغيب. لا شكّ أن سيدي الغريب كان شاعراً أو حالماً كبيراً ليختار هذا المكان. اقتربتُ من الرجل فأعرَضَ عني بوجهه، جلستُ جنبه وبصوتٍ هامس ومتضرِّع سألته عن سيدي محمد الغريب: من هو؟ من أين جاء؟ ما هي كراماته؟ لماذا اختار هذا المكان المنعزل؟ ودون أن يلتفتَ نحوي وبطريقة آلية، نافد البصر، حكى عن الرجل حين أتى من حيث لا يعلم أحد. أتى حافياً يلبس مرقعة بالكاد تسترُ جسمه النحيف، واعتكفَ هنا. كان يقضي يومه ومعظم ليله مصلياً ومبتهلاً لله ويفرّ من الناس وعطاياهم كأنهم وباء. يعتاشُ ممّا تجود به الأرض من حشائش، وعلى رأس كلّ شهر يُلقي يده في البحيرة ويلتقط سمكة، ويشويها ولا يزيد عنها شيئاً.
وذات مسغبة وشحّ أمطار، استسقى الناس بكلّ مَن آنسوا فيه فضلاً جرّبوهم واحداً واحداً حتى لم يبقَ غيره من الصلاح، فزعوا له، بكى وطلبَ منهم أن يعفوه، وألحّوا عليه، وقدَّموا صبيانهم بين يديه ولم يرقّ لهم، وهم يعودون رأى الغريب كلباً هزيلاً دامعاً جاء في أثرهم، وحين حاول أن يعود وراءهم لم يقوَ على السير فخرَّ لاهثاً. هرَعَ نحوه الغريب وحضنه وبكى، ثم ألقى عصاه، وصعد إلى رابية وثبَّت عينيه في السماء، وتمتم بكلام غاضب لم يصِلْهم منه شيء، ثم لوَّح بطرف مرقعته فحرَّك ريحاً عاتية هبَّت من طرف ثوبه، واستنفرَت الغمام البعيد، وساقته إلى حيث هم. ارتوى الناس ولم يعرفوا محنة أخرى حتى مات. صلى الفجر، تشهَّد، وأسلم الروح. ولم تطلع الشمس حتى اجتمعَ هنا مئات الأولياء والزهاد الحزانى، أتوا من الساقية الحمراء وسجلماسة وبلاد سوس وتلمسان وفاس ومراكش

وسلا ودكالة وعبدة. لم يعرف أحدٌ مَن أخبرهم، وهل طويت الأرض لهم أم طاروا بأجنحة. غسّلوه وكفنوه ودفنوه في المكان الذي توفي فيه. هبَّ الرجل واقفاً، واختفى في بطن الوادي. وبعد حين رجع يجرّ بغلاً وسار نحو القبة. جذب الباب وأغلقه، ثم امتطى البغلة بيُسر وهو يسألني هل أنا مصمِّم على المبيت هنا، أجبته بحركةٍ من رأسي، أي نعم، فعرضَ عليَّ بسخاء ماكر بأن يردفني جانبه في طريق العودة فشكرته. لكزَ دابته بامتعاض بيّن، وأشارَ بأصبعه: هناك مغارة كان يبيت فيها السيد. إنْ أحسستَ بالبرد سِرْ لها. تتبَّع ذلك المسرب، إنها هناك. وابتعدَ مسرعاً. أحسستُ بثقل ينزاح عني، وبنفسي حرّة، جذلى، طليقة، أمتلك الوادي والقبة والولي، وإن حالَ بيني وبينه باب. قررتُ بأن أسير أولاً نحو المغارة لأتأكَّد من وجودها. ولأضبط جيداً المسرب المؤدي لها، فبعد قليل، سينيخ الليل الذي سيتعاضد مع بصري الكليل ليمنعاني من رؤية ما يوجد أمام رجلي. سرتُ في مسرب هزيل ومهدَّد بالحشائش والأغصان، ووجدتُ أخيراً ثلمة في الجبل عمقها قرابة المترين، جدرانها متفحمة بسخام قرون من الدخان، صليتُ فيها ركعتين فوق تراب ندي، وبقلبٍ يرفّ لفكرة أنّ روح سيدي الغريب تملأ المكان. هنا في هذه العزلة الحكيمة، لم يحترق فقط حطب تدفئة وأطعمة، بل شهوات وغرائز وتعلق بالدنيا. كنت سعيداً، نعم، خفيفاً، مطمئناً وثابتاً مثل جذوع الأشجار المحيطة، ومثل الماء الفرح النازل نحو البحيرة. وكفّ العالم عن أن يكون معادياً، والعمى الذي يتهدَّدني صار شيئاً بعيداً. سيحدث شيء خارق لي هنا: معجزة، كرامة، هبة إلهية، وسأشفى. أرى، أرى حياتي الجديدة تتخلَّق في رحم الليل. أراها تكتملُ بالقرب مني وستتلبَّسني، وكل ما جرى لي من محنٍ سيصير

ذكريات عابرة تحضُر وتغيب بلا ألم. لا ليل إلّا الليل المنبجس من الذات بأغلالها وشهواتها، وكما آخر الطيور الباحثة بعصبية عن ملاذٍ في ما تبقّى من أغصان شاغرة، كنت أنا أيضاً أبحث عن المكان الذي سأنام فيه ملتحفاً الثرى، ومتوسّداً الحشائش وشاخصاً ببصري نحو النجوم. وأنا فيما يشبه غفوة حالمة تناهَت لي أصوات بعيدة، سرعان ما استعادها الصمت الثقيل. وبعد حين سمعتُ ضحكات غريبة، وكلاماً أعجمياً، وضحكات، ورأيت نوراً يظهر ويختفي. خفتُ، فانتحيتُ جذع شجرة تواريتُ وراءه، وبقيتُ أترقّب وصول القادمين. وكان لدهشتي العظيمة سرب عذارى رشيقات، ضاحكات، جسورات دفعنَ الدغل بكائناته المرتبكة إلى أن يتجمَّد في صمت ذاهل. انتحين متسعاً من الأرض، وبدأن ينصبن بجلبة ضاحكة خياماً صغيرة على ضوء كشافات، ووسطهن رجل يوزع الأوامر والنصائح والتشجيعات. فهمتُ للتو بأنه دليل وأن الفتيات سائحات أجنبيات. كنتُ أنا المتردِّد، وكان بصوته الخشن وحركاته العصبية الابتذال الوحيد وسطَ باحة من الرقّة والعذوبة الشفافة. قلت لنفسي لماذا لا أساعدهن في نصب الخيام. تقدَّمتُ نحوهن بتمهُّل شديد لكي لا أروِّعهن، حييتهن بحركةٍ من يدي، وبدا أن مفاجأة حضوري، لم تمنعهن من أن يبتسمن. رمقني الرجل بامتعاضٍ وعدائية ديك، يتطفَّل ديك آخر على حريمه، ونفشَ ريشه وتهيَّأ للنِّزال. عرضتُ عليه بأن أساعدهم، فشكرني بجفاءٍ، وأعرَضَ عني وواصلَ رعاية حريمه. بقيتُ واجماً أتملّى الرجل المسلَّح بالعدة اللازمة لإشعار مَن معه بأنهن حقاً في الشرق: شعرٌ مجعد ينسدل حتى الكتف، ولحية فوضوية، وشال طويل، وأصابع مثقلة بالخواتم وقميص مفتوح على صدرٍ مشعر وسروال جينز مثقوب عند الركبتين، وحذاء رياضي وربما

قطعة حشيش في الجيب وسبسي. بدا له أنني تلكَّأتُ في الانصراف، فعاد ورماني بقذيفة «مع السلامة» جافة، حقودة، وسامة. عدتُ مترنحاً، أتلمَّس الطريق نحو المغارة. وعدم رضى عن النفس، يفتكُ بي. كان انخطافاً ووجداً كاذباً ما عشته حين رأيتُ القبة، فما أنْ سمعتُ أصوات نساء حتى رفستُ كلّ ما كان يتبرعم بداخلي وجريتُ نحوهن، فاقداً زمام نفسي. كانت طمأنينة وصفاء زائفين لأنني كنتُ وحدي، بلا فِتَن ولا غوايات، وحين رمتني الحياة بأوّل اختبار، تبيَّن أنني لم أكُن أعيش حالة أصيلة وعميقة. لم أصل إلى المغارة إلّا وقد تحوَّل تبكيتُ الضمير إلى غضبٍ عاصف، لم أنجح في السيطرة عليه إلا بالصلاة والتخشُّع والبكاء. صحتُ: «يا رب إنْ لم تتداركني برحمتك ضعتُ. يا رب احفظ بصري. . »، تزاحمت الكلمات في فمي، تهاويتُ إلى الأرض الندية الباردة، وتكومتُ على نفسي كدبّ جريح، وبدأتُ ألعق روحي المكلومة. ثم ربتَت على كتفي يد حانية التفتُّ، فرأيتُ فتاة نحيلة جداً بوجه مستدير تكادُ تخفيه نظارات طبية وخصلات شعر متطايرة وهي تضع أمامي خبزاً وجبناً وقنينة ماء وتنسحب لتجلسَ قبالتي على جذع شجرة، وقد أنارت وجهها، القريب من الكشاف الضوئي، ابتسامة رضى مَن يُسدي خدمة خيرة. ثم قالت بنعومة وبعربية فصيحة:

- طابت ليلتك.

دهشتُ وتمتمتُ بشرود وأنا أنكّس رأسي لكي لا أراها:

- طابت ليلتك.

ولأنها حدست ما يعتمل بداخلي فقد سارعت للقول:

- أنا إيزابيل من إسبانيا، تحديداً من إشبيلية، أدرسُ العربية في الجامعة.

رفعتُ بالكاد بصري نحوها وقلت بصوت مجفل غريب:

- محمد.

بعد صمتٍ طويل، كانت فيه تدافع حرجاً ما، نَجَحَت في القول بصوت خفيض:

- أعتذر. لم نتصرف معك بصورة لائقة. انتبهتُ لما جرى.

سري عني قليلاً رفعتُ رأسي نحوها مجدداً التقت نظراتنا فأشاحَ كلّ منا بوجهه بعيداً، هي من حياء رقيق، وأنا لأصدّ مجدداً دودة التهالك على اختبار جديد للحياة. ورغم ذلك نجحتُ في أن أقول لها:

- شكراً لك. ولو أنك تعتذرين عن شيء لم تقترفيه.

بدا أنها لم تفهَم ما قلت لها.

- معذرة على تطفّلي. لماذا كنتَ تبتهل لله بصوتٍ عالٍ وتبكي، وماذا تفعل هنا وجدك؟

كانت تراقبُني إذن. أمسكتُ عوداً صغيراً، وبدأتُ أنكث به ما بين رجلي، وسَرَت بداخلي ومضة خاطفة أسرَّت لي بأنّ الفتاة هبة تلك اليد السماوية التي رتَّبت كل شيء، وعوضَ أن أكون في دار خالتي الآن ها أنا هنا في هذا المكان الغريب.

- أنا مهدَّد بآفة العمى. سأصير أعمى قريباً. وأضفتُ بضحكة سوداء. هذا بإجماع الأطباء الذين فحصوني.

صدرَت عنها: آهٍ، حارَّة كأنة مكروب، ونزل صمت ثقيل ملأ الفجوة القائمة بيننا. وبعد لحظات بدت كأنها الدهر وقد تمطى، نجحَت في أن تقول لي بصوت على حافة البكاء:

- أنا آسفة. أنا آسفة. كان عليَّ أن لا أقلِّب عليك مواجعك.

استجمعتُ قواي وقلتُ بنبرة متعالية وتفلسف فجّ:

- لا عليكِ. هذه هي الحياة.

ثم سمعنا نداءات عصبيّة: إيزابيل، إيزابيل فردَّت بالإسبانية: أنا هنا.

جاء الدليل كالعاصفة، وقال لها وكأنه ينهرها بأنهم اعتقدوا أنها تاهت وحدجني بنظرة حانقة ومهدِّدة، وأعانَها لتقف ثم سحبَها من يدها، التفتَت نحوي، وكمَن يُلقي بنصيحة وهو على درج سفينة مقلعة، قالت:

- اقبَل الأمر. القبول يعبُر بِك نصف طريق التغلب على الإعاقة.

وهي تسير انتبهتُ إلى أنها تعرج من رجلها اليسرى، وأنّ يدها اليسرى شبه مشلولة، توقفَت والتفتَت نحوي.

- تذكَّر دوما ما قالته هيلين كيلر: «علاقة السعادة بالحواس صغيرة جداً».

- مع السلامة.

ثم سحبَت يدها السليمة باحتدادٍ وضيقٍ من يد الدليل، وأخرجَتْ ورقة وقلماً من جيب سروالها، وانحنَت ووضعتها فوق ركبتها، وكتبت ما اعتقدتُ أنه رقم هاتفها أو عنوانها. طوَت جيداً ما كتَبَت ورمت الورقة تجاهي وهي تبتسم. انتظرتُ حتى ابتعَدا، أخذتُ الورقة، وبصعوبة بالغة استطعتُ أن أتبيَّن خطاً أفقياً أسفل الورقة، وفوقه رسمت طائراً شبيهاً بالخطاف، وفوق الطائر كتبت بخطٍّ رديء جداً يصعُب تهجيه: «حتى لو..».

هذيانات مغربية

1- باب المغاربة

«قال: من أي البلاد خرجت، وعن أيّها درجت؟ فقلتُ له من المغرب الأقصى والأمد الذي لا يحصى، ومن البلد الذي لا تصلُ إليه الشمس حتى تكلّ أفلاكها، وتضجّ أملاكها، ولا القمر حتى يتمزَّق سرجه، ويتداعى برجه، ولا الرياح حتى يحجم إقدامها، وتحفى أقدامها. قال: فكيف معرفتك بدهركَ، ومَن تركته وراء ظهرك؟ فقلت له: أمّا البلاد فقد قلبت جنوبها وكشفت عيوبها..».

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله

حين أوقف بحر الظلمات، تطلّع القادمين الأوائل إلى الأفق البعيد، وشهدوا المنظر المرعب للشمس وهي تذوب في الماء كفصّ ملح، وسمّوا في غسق البدايات تلك: مغاربة. لأنّ النور يموت تحت أرجلهم، ولأنهم يدفنون بداخلهم يوتوبيا المكان الآخر، المشتهى والمحلوم به، ويدفنون معها الحياة بوصفها إمكانات مفتوحة. آنذاك ماتَ الشعر بداخلهم وصاروا وثنيين لا يؤمنون إلّا

بما يرونه ويلمسونه، حتى الله نفسه لا يرونه إلّا متَّشحاً بالأخضر تحت قباب وفي أضرحة.

صدّ البحر المغاربة الأوائل، فأداروا له ظهورهم. كلّ هذه الشطآن المديدة، كلّ هذه الأمواج، والزّرقة الهائلة، ولا أثر لها. حضارةٌ بُنيت بين حواجز ثلاثة: بحر وجبل وصحراء. حضارة رأت في هذه التضاريس ما يصدّ وينهي ويخيف لا ما يفتح ويبشِّر.

لأن المغرب كان بعيداً جداً، في طرف سحيق من الإمبراطوريات، حيث تخفّ قبضة الدولة والدين والتاريخ، فقد كان دوماً مُلكاً مشاعاً للمدَّعين والحالمين بالسلطة والكذابين الكبار.

شعب بلا خيال لم يحلم بمجتمع آخر إلّا من خلال متنبئين فاشلين ومدَّعين بئيسين للمهدوية. أينما وليتَ وجهك ترى الشعب وزَّع كل آلامه على القبور، وخصّ كل واحد منها بشفاء مرضٍ وقعدَ على قارعة التاريخ ينتظر الكرامات.

كم ازدهرت الشروح في هذا البلد، وشروح الشروح، والحواشي، والمختصرات ومختصرات المختصرات، والأرجوزات التعليمية، وطمرت، شيئاً فشيئاً، المصادر! كم حفرت من خنادق عميقة بين العقل وأصول المعارف! في تلك الأوساط التعليمية المتحِّجرة والتي صاغت عقلية المغاربة لقرون، كان كل شيء قد قيل والمعاني والمعارف قد استنفدت، ولم تعُد هناك حاجة إلى بذل جهد في الإبداع والابتكار، يكفي الحفظ والقدرة على الاستظهار.

كانت تلك الأوساط تصدَحُ منتفخة الأوداج: تحيي الذاكرة، تسقط المخيلة.

بلد هرب فيه الناس من مدَّع إلى مدَّع آخر أخبث وأدهى.

بلد كطاولة نردٍ حكمه الطاعون والمجاعات أكثر ممّا حكمته الأسر المتعاقبة. بضربةٍ خاطفة كانوا يهزؤون بالجيش والعصبية القبلية ويحوّلون الديار إلى أطلال ودمن.

بلد ببحرين وأنهار جارية وأراضٍ خصبة وغاباتٍ، حَكَمَتْه الصحراء، ومنحته قادَة وزعماء ومنظّرين أشدّاء، محتدّين دوماً، وضائعين بين النقائض، لكنهم بلا خيال ولا طموح.

لا تثق في تقوى معظم المغاربة.

شعب خرج من أفدح ما في التراجيديات اليونانية. قتل والده وهو لا يعرف، تزوّج أمه وهو لا يعرف. وهكذا فكلّ حقارات الإنسان وغرائزه البهيمية، وانقياده لحبّ التسلط والتملك واقترافه لأفظع الجرائم في حقّ أخيه الإنسان لا يعود لدواخله المعتمة، حيث تمتزج وَضاعَة النار بصَفاقة التراب، بل لأقدار ومشيئة بعيدة عنه.. لا أحد يتحمَّل المسؤولية هنا، حتى الذين أضاعوا أجيالاً أو الذين عذبوا وقتلوا وشرّدوا، لا أحد يعترف أو يعتذر. كلّ شيء حدثَ ويحدث بلا علم ولا إرادة منا. شعبٌ من الملائكة يقترف ما يُذهل الشياطين نفسها.

لا شيء يكتمل هنا.

لا شيء يصل إلى منتهاه الطبيعي كلّ شيء يتوقف، يتكسَّر، يعطل. لن يرى المغربي أبداً حلماً من أحلامه يتحقَّق أمام عينيه. بلدٌ جُبِلَ على ولادة الناقص، والمشوّه، والمسخ. سِرْ في الطرق وانظُر للمباني، حتى وهو يبني داره يتوقّف المغربي في لحظة ما، ويترك آجراً بلا ملاط أو ملاطاً بلا صباغة أو أعمدة ممدودة في الهواء لاكتمالٍ لن يتحقق أبداً. هل صار المغاربة، ومنذ أن أوقف بحر الظلمات تيهَهُم، يخافون النهايات إلى هذا الحدّ؟!

كيف يقبل بلد وُلِد بداخله خيال شيطاني تفوَّق على الرب نفسه في ابتكار جحيم اسمه تزمامارت. شعبٌ وصلَ إلى هذا الشموخ في الحقد والقسوة والشرّ أن يأتي شرطي صغير، اشتغلَ في الكاب، ويتفِّه بثرثرته الكبيرة هذا التاريخ العظيم للسادية، والجدير بأن يبقى سراً من أسرار الآلهة؟

مَن لم يلدغه هذا الوطن، ومن قديم، بسمّ ما؟ لذا لا تجد إلّا هارباً عنه في أثر هارب.

لو كان لجدودنا خيال ذكي وخلّاق لما جعلوا العمال يعثرون وهم يضعون لبنات مدينة فاس على فأس إرضاء لجناس لغوي تافه. كان عليهم أن يفكّروا في كتاب أو سراج أو دواة. كيف لمدينة تريد أن تكون عاصمة دينية وعلمية للبلد أن يرقد في أسطورتها التأسيسية فأس لا يرمز إلّا للهدم والحفر والخراب؟!

من كلّ الجوقة الجنائزية المرعبة التي صاغَت تاريخ البلد طيلة قرون: المجاعات، الطاعون، الجراد، الحروب، حملات السلاطين الدموية، التعصُّب الديني، لم يتبقَّ في حلوق المغاربة إلّا التبرُّم والشكوى والبكاء. شعبٌ يعيش في أغانيه ورقصه وأشعاره وكتاباته مناحةً أبدية. أنصِتْ للمغربي جيداً إنه لا يكون متحمِّساً ومفعماً بالحيوية إلّا حين يلعن البلد ويقوِّض ركائزه ويسفِّه كل ما أنجِزَ فيه.

لو حوَّل المغاربة فائضَ طاقة عدم الرضى عن البلد إلى طاقة تغيّره نحو الأفضل، لخلقوا منه جنّة عوض جهنم التي يشتكون منها.

عمل هذا البلد بكدٍّ ومواظبة ومَعين لا ينضب من الجهل والتجاهل على أن يتشفّى في كلّ خدمه بصدق، وكلّ مَن توهم في يوم ما بأنه ضروري. إنه لا يملك لمكافأتهم سوى المرارة، المرارة، المرارة.

لأن المغاربة، ومنذ أن كانوا، تمترسوا في موقف دفاعي ضدّ الغزاة والمخزن والجوائح والصحراء، وضدّ بعضهم البعض، فقد تعلَّموا جيداً كيف يشحذون هممهم ويكونون قساة وناجعين ضدّ كلّ ما يتهدَّدهم. من هنا، تأتَّتْ مُهادنتهم العجيبة لذواتهم ورضاهم المُخزي عنها. لم يعرِف هذا البلد وحتى عند أبرز أوليائه وفقهائه وعلمائه وكتَّابه ومفكريه عملاً عميقاً على الذات وحفراً بداخلها. قساة مع الآخرين ليِّنون مع أنفسهم، هكذا هم. لا ينتشلهم من خِدرهم إلّا ما يتهدَّدهم.

كثيراً ما أغرى هذا الوطن المتثائب، متبلِّد الحواس، والغارق في قدرية مدهشة وفي تشتُّت محزن كل الحالمين باجتياحه والسيطرة عليه. لكنهم يندهشون للشراسة التي تسري في أوصاله وللهمَّة التي يجمع بها قواه، ويستنفرُ بها أشتاته ويقف على رجليه. لو كان أعداؤه أذكياء حقاً لتركوه لنفسه، ذلك هو الخراب العظيم.

شعبٌ لم يكتشف العجلة إلّا في نهاية القرن التاسع عشر.

شعب بقي يزرع ويحصد بالأدوات التي علَّمه إياها الرومان (المحراث الخشبي والمنجل والمدراة والفأس..) حتى الألفية الثالثة.

شعبٌ كانت تعذِّبه وتفنيه موجات الجفاف المتعاقبة وهو بجوارِ أنهار كبيرة، وعيون مدرارة، ولم يفكِّر أبداً في استغلال مائها.

شعبٌ لم يهيئ طرقاً حقيقية بين مُدُنه، وكان ينتظر أشهراً عديدة ليخفّ منسوب مياه الأنهار ليعبُرها.

مَن يمكِنه أن يتحدَّث عن الجهد والعرق والاستحقاق كفضائل في بلدٍ منح كل شيء لقلّة قليلة: عسل المغربة، ضيعات المعمرين، الأراضي المسترجعة، مأذونيات النقل، والصيد في أعالي البحار، احتكار مواد بعينها، مقالع الرمال والحجر والتراب. وطنٌ دلّل وحمى جيوشاً من النهابين في الإدارات، وأودَعَ مدنه في أيدي عصابات من الجهال والفاسدين، وجعلَ من التسوّل والارتزاق فضيلة الفضائل، وقتل داخل الناس كلّ حسٍّ بالكرامة والكبرياء.

الفساد، هنا، ليس نزوة مقيتة لأفراد، إنه نهج وطريقة في التدبير

لضمان الإذعان التام. كيف لمن له ملفّ فادح مفتوح يلاحقه أن يعترض أو يتصرف باستقلالية أو يفتح فمه. ؟

لأنّ المُدن الداخلية لهذا البلد، وطيلة قرون، كانت بالأساس محطّات تجارية في الطريق العابرة للصحراء، ولأنّ مدنه الشاطئية كانت، هي أيضاً، عبارة عن وكالات تجارية، فقد ازدهرت العقلية التجارية وصاغت، بأناة، أرواح المغاربة الذين صاروا لكلٍّ شيء، بالنسبة لهم، ثمن، وأعلوا إلى مقام القول المأثور بأنّ الشيء الذي لا يُباع ولا يُشترى حرام. لا تستغرب أن ترى، إذن، كلّ مَن في البلد يطلب من الوطن مقابلاً المقاوم، والمناضل، والسياسي والمثقف، والرياضي، والفنان، ورجل الدين.

بلد ضاع بين نقائض كثيرة:

الإسلام والوثنية

المخزن والسيبة

القبيلة والوطن

الأندلس والصحراء

البحر والجبل

البدو والحضر

الأمازيغ والعرب

الوفرة والندرة

الشرق والغرب.

أخذَ الاستعمار مفاتيح البلد من المخزن في مستهلّ الحماية، وأعادها له يداً بيدٍ حين قرَّر أن يتوارى خلف ستارة شفافة سميت استقلالاً كان: «الخادم الأول لسيدنا» (ليوتي) «لم يمسّ إلّا بيدٍ خفيفة البنيات لكي لا يصطدم بعنف مع أشياء عتيقة وأفكار بالية» (ليوتي) وترك المغرب في حالة «القرون الوسطى زائد كهرباء» (ليوتي)، وفي المغرب كان شرف الاستعمار يتمثَّل في «المحافظة، بل، أذهب أكثر من ذلك، وأقول الإنقاذ. أردنا المحافظة على الجمال (. .) وكل ما هو محترم وصلب ضمن مؤسسات وتقاليد هذا البلد» (ليوتي).

أليس ما يسمى هنا بالأصالة والتقاليد سوى الاسم الخادع للقرون الوسطى التي حافظ عليها وجمَّلها الاستعمار؟

من فوق سطحنا الذي يرتفع قليلاً عن باقي السطوح رأيت، هنا وهناك، وفيها كلها، أكواماً من الخردة: أواني طبيخ مكسورة، كراسي تنقصها رجل أو رجلين، عجلات سيارات، صناديق مهترئة، قطع حديد، أطرافٌ من أَسِرَّة، أسلاك، قنينات بلاستيكية، ثلاجة بلا باب، باب شاحنة، هيكل تلفاز، سلال من القصب، قلل مكسورة، عصي، نوابض سرير، دراجة بلا عجلة خلفية.

كلّ سطح تستريح فيه بعد إخلاص طويل ومرهق أشياء فقدت شرف الخدمة. ولكن لماذا يحتفظ بها الناس؟ لماذا يكوِّمونها في سطوحهم؟ أيعتقد المغاربة بأنّ قيامة خاصة بالأشياء ستحدث، وآنذاك ستُبعَث جديدة صالحة ومتأهبة للخدمة من جديد؟ أم أنه التقليد الذي يعتصر البلد في قبضته ويجعل المغاربة يخافون من أن يفطموا عن ماضيهم بما فيه من خردة وحثاث وعفر؟ ألا تتكوم

الأفكار البالية والمتجاوزة في أذهانهم كما تتجمَّع الخردة في سطوحهم؟

كم نخاف الحرية
كم نكره النوافذ
ربما كما قال كافافيس
«ربما سيأتي الضوء
بطغيان آخر.
مَن يدري أي أشياء سيكشفها».

تعرض المغرب لقسمة ضيزى وهو يستقبل الهجرات العربية، فالقبائل الشامية والمتاخمة للشام والعراق حيث تأثير الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية عبرت تواً إلى الأندلس، وكان من نصيب المغرب عرب نجد والحجاز واليمن: الرعاة والمحاربون. فلا غرابة أن يزدهر في الأندلس الشعر والغناء وأناقة اللباس والمأكل ورغد العيش، وأن تزهر هنا الخيام وبعر القطعان والشواء والسيف.

لا يريد هذا البلد أن ينفضَ يديه من شيء انتهى، يدفنه وينصرف لبناء شيء جديد كلية. هنا الجثث تخالط الأحياء، وتدلي بدلوها في حاضرهم ومستقبلهم، هنا الجثث تتحرّك وتتكلم وتستدعي لأداء خدمة ما، هنا الجثث ملحاحة ومتطلِّبة وقادرة على المنافسة والمزاحمة: جثث زوايا العصور الوسطى، وجثث أحزاب لم يعُد لها من مبرّر، وجثث مؤسسات لذرّ الرماد في مرحلة ما، جثث طقوس

في الحكم، جثث نظريات وأفكار، جثث عجزة ما زالوا يصرّون على تدبير المستقبل.

لا ننهي ولا ندفن ونوسّع دوماً للماضي مكاناً أكبر في حياتنا.

كانت صحافتنا أيام تبعيتها للأحزاب كلام مقرّات، أمّا وقد صارت في معظمها الآن «مستقلة»، فقد تحوَّلت لثرثرة مقاهي. لا تقدم أخباراً ولا تحليلات وإنما أحكاماً، إنها قضاء الغوغاء الجديد. تسحل هذا وتمرغ في الوحل ذاك. ماذا تفعل صحافة نبتت كالفطر في بلد حياته السياسية ميِّتة، ودورته الاقتصادية مشلولة وأنشطته الثقافية والفنية متثائبة، بلدٌ لن يهبَك ما تملأ به بالكاد صفحة واحدة في الصباح؟ ماذا تفعل إذن بكلّ تلك الصفحات البيضاء المُريعة، لو لم تهتدِ يدها للغَرْف من منجم الحياة الشخصية للناس، وإسعاد الغوغاء بجعل التلصُّص والنميمة والشتيمة وتلفيق الأخبار رياضة وطنية.

متى نعرف أنّ أسوأ وأحسن ما يقع لنا يحدث في علاقتنا باللغة؟! متى نرى أن ابتذال اللغة وسقوطها في أفواهنا، وأقلامنا قاتل؟! لا نتواصل باللغة وإنما نقيم فيها، هي صلتنا ببعضنا وصلتنا بالأشياء وبأنفسنا، لم تكن هذه العقود الأخيرة إلّا سقوطاً في اللغة جرَّ معه كما يقع دوماً خراباً في المدرسة والأحزاب والإدارات ووسائل الإعلام والبرلمان والخطب الرسمية والحياة العامة. اللغة هي الريح المُنذِرة بالعاصفة القادمة. بلد برمته صارَ يخون اللغة ويحوِّلها إلى شعارات فارغة، إلى عته معمّم، كلما لُكنا كلمة قتلناها، كلما اخترنا كلمة عنواناً لمرحلة أو لعملية مرّغناها في

التراب، لا نقصد ما نقول، إننا نخفي، نموِّه، ونحتال. لا نعتبر كلامنا شهادة وتوقيعاً شخصياً يلزمنا إزاء أنفسنا أولاً، لا نراه مسؤولية إزاء الناس والتاريخ. إننا لا نسمي الأشياء، بل نهذي حولها، ولا نُودِع فيها أرواحنا للقاء روحها كتسمية تنتشل الأشياء من غفليتها، بل نودِع فيها سطحيتنا وابتذالنا، لا يفلح شعب يمكر في اللغة وباللغة، شعب بلا كلام مأثور، بلا جُمل ملهمة، تُنير له الطريق، بلا هؤلاء الرجال العظام الذين يكثّفون مخاطر مرحلة في جملة، ويدلّون على أفق بكلمة، ويخرجون من مأزق تاريخي بصياغة لغوية باهرة. متى نقاتل من أجل كلمة، فلا نغفر وضاعة لغوية، ولا زلّة لسان مقيتة. ولا نقبل أبداً، أبداً أن يتكلم الذئب والحمَلُ اللغة ذاتها، ولا أن يرشدنا سواء السبيل قاطع الطريق، ولا أن يستأثر الأبكم فينا بالكلام.

«لأن نفوس أهل المغرب مجبولة على الاستنصار، وقيل الحقد مغربي، وعلى الحقيقة فلا يجب أن يُعاب أحد بشيء وُضع في جبلته، وإنما يُعاب المرء بما يحمله عليه نظره السيئ الفكرة وتخلقه العقربي الكسبي..».

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار
لمؤلف مراكشي مجهول

ذات أحد رأيتُ الناس في إطار حملة نظافة منهمكين في إحياء حديقة قبالة دارنا، نظفوها واقتلعوا النباتات الطفيلية وشذبوا الأشجار، وغرسوا وروداً وشجيرات صغيرة، وصبغوا السياج. وبعد شهر، كنتُ أرى الورود تذبل، والشجيرات الصغيرة تتعذَّب،

والنباتات الطفيلية تنمو فرحة من جديد. أراها وقد أسلمت من جديد لاحتضار بطيء. هكذا نحن، شغفنا بالأمور عابر، تجنُّدنا للقضايا عابر، اهتمامنا، وتعاطفنا، واستنكارنا، وتتبعنا للأمور ظرفي جداً. والمآلات دوماً سيئة وحزينة. كالأطفال سرعان ما ننفض أيدينا من شيء، وننصرف إلى شيء آخر. يعرف المخزن هذا جيداً فهو مَن زرع جبلة العابر فينا، وعبر قرون من حملات التطويع والإلهاء والمواسم وبناء ما ينبغي أن يتذكر وأن ينسى، لذا فهو وكلما استنفر الناس وألّبوا ضد شيء، يدسّ رأسه في الرمل، ويرقب بضحكة ساخرة المرور الأكيد للعاصفة، (أنظر شذرة: أرهقت الضرائب في باب السلاطين).

لكن ماذا فعلت أنا للحديقة؟ ماذا فعلت لحديقة البوگمازي قبلها؟

تقول لنفسك بمرارة: «هذا ما أعطى الله» لا شيء خارق، ولا شيء استثنائي. لم تحسّ أبداً أمام إبداع مغربي ما بذلك الذهول الذي يُصاب به المرء أمام الكمال، ولا بذلك الانتشاء الديني الذي يقول لك بأنَّ ما تراه وما تقرأه فيه يد الله، وفيه قداسة التعالي عن صنع البشر. خيال فقير وركاكة البدايات، وفجاجة انعدام الموهبة، لكن ماذا بوِسع شعب مرتاب في كلّ شيء وقدري، شعب بلا جنون خلاق، لم يعِش التراجيديات الكبرى التي عاشتها شعوب أخرى، عاش تاريخاً وضيعاً ومكروراً وسط طبيعة بلا خيال أو جموح تمنحه شمساً ومطراً وثلجاً ورياحاً على قدر استطاعته، طبيعة بلا غموض ولا سحر ولا أساطير ولا انفلاتات مفاجئة ومدمرة، شعبٌ لم يجهد نفسه أبداً في أن يتسامى ويتميَّز، وترك الخيال والشعر يموتان بداخله

ورعا الرحلة والفقه والنحو والحفظ! (حتى الاستثناءات النادرة، وبما هي تعنيف للتفاهة المُجمَع عليها فالكلّ يتواطأ على وأدها بالصمت والتجاهل والخذلان..).

في أغلب الأوقات، لم تكن مدننا مدناً ولا بوادينا بَوَاديَ. كانت المدن هشَّة معزولة، ومنكفئة داخل أسوارها تنتظر الحصار والغارات، مدنٌ تُستباح وتُخرب وتُبنى من جديد. وكانت البوادي فقيرة تنتظر الغيم الماطر لتلقي على عَجَلٍ شعيراً في أرض حزينة، وتنتظر حصاداً بعيداً. بَوَادٍ ترتع فيها قبائل نهابة تغِير على المدن والقوافل وأطراف جيش السلطان نفسه وعلى بعضها البعض، وتنتقل وراء قطعانها حيثما وجدت الكلأ، قبائل تبطِش بقوادها ولم تنجح فيودالية حقيقية في تنظيمها، وقتل روح الجماعة الفوضوية والفتّاكة بداخلها. وهكذا لم يعرف البلد تراكماً في بواديه ينقلُ فائضه إلى المدن ويطوّرها. لم يعرف ذلك الجدل المنتج ليدين، واحدة تزرع والأخرى تسوق، وتصنع آلات تقليل كلفة الإنتاج. لا شيء، سوى المجاعات والأوبئة والجراد والغارات والرؤوس المعلقة في أبواب المدن كخِراج لهذه العلاقة الدموية والهباء الكبير.

المغاربة مالكيون، لأنّ المذهب أرضى الجميع، لاءم السلاطين أولاً لأنّ مالك بن أنس يأمر بطاعة الخلفاء، ويرى أن «سلطاناً جائراً سبعين سنة خيرٌ من أمة سائبة ساعة نهار»، ولأنه أيضاً أجاز «قتل الثلث لإصلاح الثلثين»، ولأنه صبرَ على إذاية والي جعفر المنصور على المدينة المنورة الذي ضربه بالسياط وطوّفه على بعير وشهَّر به. فالخير لا يكون برفع السيف في وجه السلطة القائمة، بل في المحبة

والنصيحة والإقناع. ووافقَ النّخب الحضرية لأنه أعلى من شأنِ الحضر، ونصح بسكنى المدن كما في وصيته للشافعي، وكذا البرجوازية التجارية لأنّ وحدة المذهب تضمَن لها وحدة المعاملة التجارية في كلّ ربوع البلاد وتؤمِّن لها سوقاً وطنياً متجانساً. وأحبَّه العامة لأنه مذهب بسيط نشأ في المدينة المنورة وهو يقدِّم النقل على العقل، والأثر على الرأي، ولا يُعنَى إلّا بما هو عملي فقط، وأخذ بالعُرف الذي كان سائداً في مناطق كثيرة من المغرب.

لماذا نُقبل على عيد كأننا نُقبل على مجاعة؟! ترى سعاراً أينما ولَّيت وجهك، ترى تخاطُفاً للمواد الغذائية والمشروبات. نجمَع ونرتِّب ونخزن، كأن الأسواق لن تفتَح بعد العيد، وكأنّ المتاجر ستبقى مغلقة، وكأن الدورة الاقتصادية ستتوقف كلية ولن تصلنا خضر ولا معجنات، ولا فواكه، ولا دجاج، ولا سمك، ولا أي شيء. نُقبل على العيد، وبداخلِ كلّ واحد منا ما زالت تتكلم المسغبات الفظيعة والكوارث الماحقة.

أحبَّ المغاربة جميعهم في المذهب المالكي قابليته من خلال المصالح المرسلة والذرائع لاستيعاب ما يستجدّ في الواقع ومرونته وسهولته في استيعاب الجديد وتيسير حياة الناس، ألَمْ يفتي ابن عرضون الشفشاوني، ومنذ قرون، بحقّ المرأة في اقتسام الثروة مع زوجها بالتساوي إن كانت تساعد زوجها؟!

ها أنت ترى فهُم لم يعودوا في حاجة إلى اختطاف صناديق الاقتراع، أو التأثير على الناس وتوجيههم للتصويت لجهة معينة، أو

تركهم يصوتون على هواهم وبعد ذلك يخرجون النتيجة التي يريدونها. فقد عاثوا فساداً في الحياة السياسية، وبنوا أحزاباً كثيرة وقيادات وزعماء يهشّون عليهم ليصطفوا حيثما شاؤوا. فصار المشهد كهذا: من جهة، هناك صناديق ومراقبون ومحاضر لا يشكِّك فيها أحد، ومن جهة أخرى هناك يدٌ حاذقة تُعيد ترتيب ما أفرزته الصناديق وتوجيهه عبر ما يُسمى بالتحالفات حيثما شاءت.

لأن ما لا يحصى من مدّعين للإصلاح مروا أمام هذا الشعب، ورآهم وهم يتحولون إلى مفسدين كبار، فقد صارت هذه الكلمة داعرة، وصار من يزعم أنه مُصلحٌ يبدو للناس، الذين صاروا متشكِّكين في كل شيء، كمهرج جدير بضحكة مُرة وساخرة.

لدينا عبقرية الدقائق الأخيرة المحتسَبة من الوقت المستدرَك، لا ننجزُ ما علينا إنجازه إلى حين تصير ظهورنا للحائط، ولا يعود هناك متَّسع للتماطل والتسويف. لا نتحرك إلّا حين يسلَّط سيف الزمن على رقابنا، لذا لا ترى إلّا المرتجل والمبتسر وكلّ ما فقد ذلك التخمّر البطيء لشيء يأتي في أوانه.

كم يُحزنني هذا الاستهتار بالله في تنظيم صلاة الاستسقاء بعد أن تُخبر توقعات الطقس بأن الأمطار قادمة.

كيف يرضى «أبطال» هذا الشعب في الجري والكرة والملاكمة و«نجومه» في الغناء والتمثيل لأنفسهم، وقد راكموا ثروات هائلة بأنْ يزاحموا الأرامل والأيتام والمساكين في الحصول على الهبات

والأذونات والأجور الشهرية بدون مقابل. لا يفعل ذلك إلّا مَن روحه خاوية ورديئة ووضيعة، ومَن يعيش بؤسَ الفقر حتى وجيوبه مليئة. لذا لا يلهمون هذا الشعب في شيء عدا ذلّ السؤال.

عقودٌ من كذب التلفزيون والساسة والمصلحين والمنظرين، عقودٌ من تدريب الناس على عدم الثقة في أي شيء، عقود من تكسير أي لُحمةِ خلّاقة بينهم ودسّ الأنانية والجشع والارتياب، عقود من تمجيد وإعلاء الإنسان القصبة الذي ينثني عند الحاجة، ولا شيء يَجري بداخله غير صفير الخواء، لكن ماذا ستفعلون بصمتِ القبور، وباندحار المندحرين، وبيأس اليائسين، وبخبل هذا الإذعان المعمم؟ وماذا ستفعلون حين سيُداهم هذا الوطن خطبٌ ما، وتريدون تحريك الجثة فلا تجدون إلا النتانة والدود والذباب الأزرق؟

«كتب كلبٌ إلى كلب: أمّا بعد يا أخي - أدام الله حراستك - فإنّ بني آدم قد تسافلوا إلى حدٍّ ما عليه من مزيد، حتى بقيتُ أنا وأنتَ بالإضافة إليهم كمعن بن زائد وطلحة الطلحات فارتع في المجازر وقم في المزابل وارفع ساقك، وبُلْ على من لقيت منهم والسلام».

الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله

عودة الموتى

كانت بالكاد رؤوسهم تتراءى في الخندق العظيم الذي دأبوا منذ أيام على حفره، وكانوا فرحين لأنهم لم يعودوا يجدون الصعوبة نفسها التي كابدوها في البداية وهم يحاولون النيل من تربة حمراء محجرة، صلدة، ومدكوكة. وها هي الأرض العنيدة نفسها، وبعد صبرهم، تُكافئهم وقد تهاوَت دفاعاتها الأولى بتربة سوداء ندية هارية لا تحتاج الفأس. وجدوا حجارة، وقطع حديد، وبلاستيك، وبقدر ما كانوا ينزلون لم يعودوا يجدون سوى عروق الشجرتين العظيمتين واللتين اقتضى مشروع البناية إعدامهما إنهما فصيلة شجر الصفصاف الهائل الذي غرسه الفرنسيون في جوانب كلّ مجاري الماء بالمدينة لخَلق أماكن ظليلة لفسحات المساء، ولم يعُد للناس من شغل بعد الاستقلال إلّا اجتثاثها. منذ الصباح وهم يتجادلون حول هذه الجذور، وهل تموت بموت الشجرة الأم أم تستمرّ في الحياة، وإن وجدت ظروفاً ملائمة، فستخرج شجرة جديدة. نزلوا قرابة ثلاثة أمتار، حين ضرب أحدهم ضربة ارتطمت بشيء سمع له صرير خافت، عاود الضرب فتطايرت شظايا بيضاء، انحنى، أخذ واحدة تفحَّصها وأراها لمَن جنبه واتفقا على أنها قطعة عظم. انحنى مرة أخرى، وحتى التراب فأخرج نصف جمجمة آدمية. وفي طرف

الخندق عثر حفار آخر على جمجمة كاملة ولم تمضِ ساعة حتى كانت بأيدي الحفارين ستّ جماجم. وباستثناء الجمجمة الأولى التي حطّمها الفأس كانت باقي الجماجم في وضعية جيدة، ولم تَضِعْ منها إلا بعض الشظايا. خرجوا، جميعهم، مروّعين من الخندق، وأعدّوا كأس شاي وجلسوا يدخّنون الكيف، ويرتشفون الشاي ويناقشون بهدوء: ما العمل؟ نبّههم أحدهم إلى غرابة وجود الجماجم فقط بدون باقي عظام الهيكل الآدمي. فاندهشوا لذلك ملياً، ثم عادوا لتقليب المعضلة على كل أوجهها. هل يُخبرون السلطة؟ أم يدفنون الجماجم ويواصلون عملهم كأنّ شيئاً لم يكن، فأرض الله كلها تتستر على العجب العجاب؟ إن أخبروا السلطة فسيتوقّف العمل، والمقاول تَعاقد معهم على إنجازه في سبعة أيام، ولم يتبقَّ لهم سوى يوم واحد لنيل أجرتهم، وحتماً سيجدها فرصة سانحة للتهرُّب من أداء ما بذمّته لهم، وإن عادوا إلى عملهم كأن شيئاً لم يكن، فمَن سيأمن وصول الخبر للسلطة التي ربما لها عيون حتى في فؤوسهم نفسها، وحينها سيُعاقَبون على تعاملهم مع جماجم آدمية كأنها سدادات قنينات؟! لمَن الرؤوس؟ ومتى دفنت هنا؟ وهل هناك جماجم أخرى؟ دخنوا طويلاً، وشربوا الشاي، واختلفوا، واكتشفوا أسئلة أخرى بلا جواب، وتعالت أصواتهم. وليضع أحدهم حداً لجدالهم، الذي لا نهاية له، انتأى مكاناً يقضون فيه حاجتهم، وتسلّل من هناك إلى الشارع، وبعد دقائق، عادَ في سيارة شرطة.
ذاعَ الخبر في مدينة متثائبة تنتظر، وفمها يتحلّب مثل هذه الأحداث لتلوكها لشهور. مدينة لا شيء يحدث فيها حتى قرَّرت الجماجم الست بعودتها الغريبة هذه بأن تهبها موضوعاً جديراً بالتحليل والتفسير والخيال والرعب أيضاً.

سرتُ مع الناس إلى المكان. كانت الشرطة تضرب طوقاً، وتُبعِد الفضوليين مثلي. وكان مسؤولون من مختلف الرتب يناقشون، ويدخنون، ويتحدثون في هواتفهم، وكان هناك أيضاً صحافيون يدسّون أنوفهم في الخندق ويلتقطون له وللجماجم الست صوراً. ولم يحدث شيء طيلة يومين. كان الناس يقضون حاجتهم، ويعرجون على المكان لاستقصاء الأخبار في منبعها. بقي الطوق الأمني نفسه، والمسؤولون المهيبون الذين يتناقشون ويدخنون ويتكلمون في هواتفهم هم أنفسهم. وفي اليوم الثالث، وقد صدر القرار من جهة ما عاد العمال للحفر تحت أنظار المسؤولين وفي كلّ بضع دقائق، كانت جمجمة تطلّ ممتعضة في يد أحدهم، وتتخذ لها مكاناً بجانب أخواتها. بعد أن تسجّل ويوضع لها رقم ويعلق في فكها. ثم جاء قرار آخر بأن لا يتتبع الحفارون مسار الخندق وأن يحفروا في كلّ الاتجاهات، وكانت مثل الخندق تماماً مليئة بالجماجم. شكّلت ربوة من الجماجم اختلفنا نحن الذين نقف وراء الطوق في عددها، فمَن قال أنها بلغت المائة ومَن قال أنها تجاوزت المائتين، ومن يزيد على ذلك. كانت الربوة تزداد يومياً وتقديراتنا أيضاً، وتجاوز الحفارون حدود ورش البناية، وبدأوا يقتربون من شارع تامڭنونت. كنت أحد المخلصين يومياً لفرجة الجماجم وأحد النشيطين في الجدال الكبير الذي ينشب بين المتفرجين حول هوية الموتى، وحول لغز وجود جماجم بدون هياكلها العظيمة. وعانيت، مثلما عانى معظم أهل المدينة، من كوابيس تراءت لي فيها جماجم تخرج من دياميس التربة مثبتة في نظراتها وأفواهها الفاغرة دهشة وفراغاً مذهلاً قلت في البداية بأنّ الأمر يتعلق بجريمة، وحين كثرت الجماجم قلت مذبحة، وحين تعاظمت الكومة قلت إبادة

جماعية، وحين شكلت الربوة قلت حرباً ضروساً أو قيامة صغيرة حدثت هنا فقط. ذات صباح تداول الواقفون نسخ فوتوكوبي لمقالٍ صدر في جريدة وطنية تحت عنوان: «العثور على مقبرة تاريخية بمدينة بني ملال»، لم يزِد صاحبه على المعلومات التي نعرفها، الإضافة الوحيدة التي تستحق الذكر هو أنه أشار إلى حيرة المسؤولين الشديدة في التعامل مع مقبرة غريبة لا يُعرف حتى الآن حجمها، ولا أهميتها، ولا الزمن التي تعود إليه. هكذا، فكلّ النقاش والتدخين والمكالمات الهاتفية للمسؤولين لم تكن تعكس إمساكاً متمكناً من زمام الأمور كما نتخيل نحن أيها الناس. جاء ابن تومرت ونغّص علينا فرجتنا مرة أخرى، طافَ من حولنا وهو يردِّد: «ألا تستحيون، يا أولاد الحرام، تتفرجون على عظام جدودكم وهي تُعامَل معاملة رمم الكلاب، يحيا الملك، تحيا المقدسات تفو. تفو. تفو عليكم». ابن تومرت يعنِّف المدينة كلّ يوم من أقصاها إلى أقصاها يخطب بعربية لا تَشوبها شائبة أمام المقاهي، وكلما رأى جماعة، ويتصرَّف كأنه انتدب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحذّر الناس من العذاب والآفات التي يمسكها وإلّا حلت بالناس. يخرج طلاسم كبيرة صنعها بيده ويخوِّفهم بها. ويدخل ويخرج في كلام كما يحلو له، غير أنه لا ينسى أن تتخلله دوماً: «يحيا الملك، تحيا المقدسات». منذ أن جرَّب ذات يوم سبّ الملك فحكم عليه، رغم أن وضعيته العقلية المتدهورة لا شكّ فيها، بسنتين سجناً لإهانته للمقدّسات، قضاهما كاملتين حتى آخر يوم، ونجح ما تعرَّض له في أن يزرع في قلب عتهه خطوطاً حمراء لا يقربها أبداً، بل إن الاستبداد تبدّى أقوى من هذيان الجنون نفسه، إذ صار سيل كلامه لا يغفل أبداً عن تكرار لازمة الهتاف للمقدسات، مهما كان موضوع

كلامه، ومهما اشتدّ هياجه، وتطاير الزبد من فمه. وكما تفعل السلطات دوماً مع شيء مزعج لا تجدُ له حلاً آنياً، فقد أتت بخيمة مخزنية كبيرة، وبدأت تخفي فيها الجماجم المستخرجة وسوّرت أمكنة الحفر بألواح قصديرية هائلة لم يعُد يرى فضولنا من خلالها شيئاً. فعلت ذلك مع الأحياء في أحزمة الفقر فلماذا لا تفعله مع الأموات والجماجم الغريبة التي جاءت من مجاهل التاريخ لتنغِّص عليها دعتها. ورغم ذلك، بقينا نأتي، ونتجمَّع قرب المقبرة الغريبة، ونتبادل الأخبار حتى اهتدينا لحلّ صعود أحدهم للشجرة الكبيرة المحاذية، من هناك كان كلّ شيء مرئياً حتى داخل الخيمة الكبيرة. علمنا بأنّ الجماجم تزايدت بشكلٍ مهوْل، وأنّ الحفارين اقتربوا من الشارع ولم يعُد يفصلهم عنه إلّا مترين تقريباً، وأن المسؤولين ما زالوا يتشاورون ويدخنون. وجاء ابن تومرت، بقامته الخيزرانية الفارعة ولباسه الأبيض وعصاه التي ليس له من متاع الدنيا غيرها، غاضباً عاصفاً كعادته وعنَّفنا: «يا أولاد الحرام، ألا ترون أنّ الأرض أخرجت أثقالها، صلوا وصوموا وتصدَّقوا وطهروا أنفسكم أهل بني ملال تطهيراً. عاش الملك، عاشت المقدسات. تفو. تفو. تفو عليكم»، وسار متوعِّداً لاعناً. تابعته وأنا أتذكَّر يوم رأيناه أنا والعسكري يقرع زبناء مقهى ويدعوهم لتعمير مساجد اللّه عوض المتابعة الوقحة للعابرات. ابتسمت فشدّ العسكري على يدي وقال لي: «التاريخ طاولة نردٍ كبيرة، لو وجد ابن تومرت المهرج هذا بذلاقة لسانه وتفقهه في الدين، مثل ابن تومرت التاريخ، عصبة تلتفّ من حوله وتجلّه وتعظِّمه مثل عبد المومن الگومي ومحمد البشير الوانشريسي وأبي حفص الهنتائي، ووجد سلطاناً متورِّعاً في الدماء حليماً مثل علي بن يوسف بن تاشفين، وغفلة من زمن وناس تطحنهم

قساوة الحياة فيولون وجوههم نحو الدين، لو وجد تضاريس منيعة كجبل تينمل يمنحه وقت إنضاج دعوته وتقويتها لكانَ له شأنٌ عظيم. في هذا البلد تفاصيل صغيرة وصدف ماكرة تجعلُ منكَ زعيماً مُلهماً أو مجنوناً خرفاً..». سِرْنا وبعد صمت طويل، كنت أقلب فيه في ذهني ما قاله، أضاف: «للأسف لا يحتفظ تاريخنا إلّا بالمجانين الذين نجحوا في التحول إلى زعماء أما الذين نطحوا رؤوسهم بصخر الواقع فتهشَّمت فلا ذِكْرَ لهم».

سربت السلطات خبراً مَفاده أنها طلبت لجنة مختصَّة ستأتي من الرباط لتحقِّق في أمر المقبرة الغريبة، ولتحدِّد الزمن الذي تعود له الجماجم، ولتقرِّر في مآلها. وبعد يوم واحد من تداول الناس خبر اللجنة، أوقفت السلطات عمليات الحفر، فقد ضاقت ذرعاً بما تخرجه الأرض. وبعد أيام قامت تلك الكيمياء الغامضة التي تنجزها يدٌ حاذقة بتحويل اهتمامات الناس إلى فضيحة فقيه ضبط متلبساً في مسجد بمواقعة مؤذِّن المسجد نفسه. وأهلنا ذاكرتهم قصيرة، وشغفهم بالقضايا عابر، لذا سرعان ما تناسوا المقبرة، وفضّوا اهتمامهم بها، وولّوه نحو مؤخِّرة المؤذن. وبقيت أنا وحفنة من الناس نرتادُ المكان، وننتظر اللجنة الموقرة، غير آبهين بتلك الخدمة الجليلة التي صار فقهاؤنا، بنزواتهم وفحولتهم الزائدة، يقدِّمونها، من حين إلى حين، لرأي عام متعطِّش للفضائح ومشدودٍ لِما تحت السرة، ولسلطة تربح الوقت وهي خائفة من أن يلتفت الناس لما ينفعهم.

الكتابة

كنت أرِقاً أتلوى في الفراش وليلي متطاول، أهيمُ في أودية نفسي، وأقلِّب هواجسي تقليباً حين أحسستُ بالعسكري وهو يشعل ضوء الأباجورة التي بجنبه وسمعتُ وشوشة أوراقه. فقلت له:

- ما بك؟

ردّ:

- لا شيء. لا شيء. أريد أن أكتب فكرة عنّت لي.

ضحكتُ وقلت له: بل حلمتَ بها. وبعد صمتٍ كان فيه منهمكاً في كتابة ما عنّ له، قلتُ له: ماذا تكتب؟ لم يُجِبني. فظننتُ أنه لم يسمعني، لكنه حين انتهى من الكتابة، وعادَ للتمدد في السرير وأطفأ نور الأباجورة قال لي: شذرات. أكتب. شذرات. هذيان رجل لا يعرف ماذا يفعل بوقته، رجل يعيش بين الكتب فقط، ولم تعُد له صلة حقيقية بالعالم. ولأنّ نومي كان بعيداً وعليَّ أن أراوده وأستدني حبله مني شيئاً فشيئاً، فقد كنتُ في حاجة إلى مواصلة الحديث معه قلت له: لماذا لا تكتب كتاباً؟ فضحكَ تلك الضحكة البائسة، المتعالية، وتساءل بدهشة بدت لي مصطنعة ومتهكمة: كتاب؟ فأجبته: نعم. بدا أنه لم يسمعني، أو أنه شرد في تأمل أمرٍ ما

كعادته، أو أنه فوجئ بالسؤال واستغرق في التفكيرِ، ولأول مرة، لماذا لا يكتب كتاباً، فعثرَ على ما يشبه الجواب. قال بأناة تبحث عن الكلمات بعد أن يئست من مواصلة الحديث معه: روحي قلقة، متقلِّبة، وملولة تجدُ نفسها في الكتابة الشذرية لأنها احتفاء بالمتقطع والعابر، بذلك الشيء الذي يتجلى للحظة ويمضي، بذلك الشيء المتلفِّع بكبريائه والمكتفي بذاته وليس في حاجة لأن يسنده أو يبرره شيء آخر. ثم بالكتابة الشذرية أحفظ لنفسي الحقّ في أن أكون متناقضاً، وأن أحطِّم الأنساق التي نسجن أنفسنا بداخلها. أكتب الشيء ونقيضه في الآن نفسه. إنها كتابة ما بعد الكارثة حين ينهار كلّ شيء بداخلك ويتمزق، ويفقد معناه، وحين تصير أنت نفسك شذرات لكلية كُنتها ولكتابٍ تناثرت أوراقه في الريح. هي كتابة الصدوع والدويّ الهائل للانهيار، والجلبة البعيدة لحياة تمضي بعيداً عني. قلت له بابتسامة ماكرة: يا عيني على الفلسفة يا عيني. فلم يكترث بتعليقي وواصل بجدية مهيبة: حتى الله، ولأنه يعرف ما زرعَ في العالم من فوضى، فقد كلَّم رسله بطريقة شذرية. لماذا لم يُنزل الكتاب دفعة واحدة؟ لأنه يعرف أنّ ما عدا الشذرات والشظايا والآيات المُفردة زيف وتصنُّع وملء غبي للفجوات. كل نسق جريمة واغتصاب. تلوّى في سريره وكأنه فعلَ ذلك ليهدِّئ حماسه، ثم أضاف: في براءة طفولة البشرية، لم تكن هناك إلا الشذرات، لم يكونوا يعرفون زيف وظلم الكتب. ثم خلدَ للصمت، وبدا أن صدره الساخط بدأ يستعيد تنفسه العادي لينحدر في أمان أرض النسيان العظيم. قلتُ بصوت خفيض كمَن يلقي بحجرة صغيرة في بركة هادئة، وعماذا تكتب؟ تلوى في فراشه من جديد كأنّ خطافاً انتشله ممّا كان يهوي إليه، فقال بصوت أجش: أكتب عن نفسي، عن

الصحراء، وعن لا شيء، وعن السلاطين والأولياء الصالحين، وقد لا أكتب وأكتفي بنسخ نصوص تاريخية تعجبني، أكتب عن المغاربة. وضحك تلك الضحكة السريعة اليائسة والمتعالية: نعم أكتب عن المغاربة. فضحكتُ بدوري وقلت له ممازحاً: أليس في ذلك ادّعاء كبير، مَن أعطاك هذا الحق؟ غير أنه أخذ كلامي مأخذ الجدّ وردَّ باحتداد: ومَن أعطى للفنانات والفنانين الرديئين والعاهرات والقوادين وحثالة السياسيين والصحافيين هذا الحق؟ أنا على الأقل سَفِح بعض دمي في صحرائه، وخربتُ حياتي وأنا أدافع عنه. وبعد صمتٍ حانق، عاد للقول بصوت هش كأنه يكلِّم نفسه: الكتابة هي فعل المقاومة الوحيد والمتبقي في بلد صمتت طيوره عن الغناء، وصارت أزهاره ترفض أن تتفتح في الصباح، وتوقفت أشجاره عن النمو، بلد أتى عليه حين من الدهر صارت فيه رايته منشفة يجفِّف به المغنون التافهون عرقهم في السهرات، والعاهرات يحاضرن فيه عن الفضيلة، واللصوص يقومون فيه بالدعاية لمحاربة الجريمة، والماضي يشرُف فيه على التحديث. بلد غريب بنخبٍ جديدة غريبة، يشق طرقاً ويبني موانئ ومطارات ويغوى الاستثمارات، ولكنه ترك الإنسان يتعفَّن في المجاري الآسنة للجهل واللامبالاة والتشدُّد الديني الأخرق، وكمَن حرَّك حجرة في جبل فتدفَّق منها بركان غاضب، أو فتح صنبوراً ليشرب، ولم يعُد يعرف كيف يغلقه بعد ذلك، ولأنني لم أنهِ أسئلتي السارترية عن الكتابة، فقد قاطعتُه لكي أوقِفَ شلّال كلامه: ولمَن تكتب؟ فكان جوابه على طرف لسانه: لنفسي. ألم أقُل لك أنا أقاوم وأحاول أن أرفع رأسي من الماء النتن للمجاري العامة وأتنفس هواء نقياً غير هذا الهواء الفاسد الذي صار يزيِّن لشباب في مقتبل العمر الجهاد في قفار بلدان سمعوا للتوّ بأسمائها.

إنها كتابة ما بعد الكارثة حين تستفيق من هول ما وقع، وتريد أن ترمم، بفردة حذاء نجَت من الحريق، ورجل كرسي، وآنية مطبخ، وطرف كتاب كنت تقرأه البارحة، وشظايا مرآة، واقعاً لم يعُد حتى هو يتعرَّف على نفسه في هذه الأشياء الناجية المتناثرة من حولك. لكنها أيضاً كتابة ما قبل الكارثة التي يتجمَّع غمامها الأسود المقيت في الأفق. فمثلما تلدُ الحرب حرباً أخرى، وتلد الثورة مَن يأكل محرِّكيها تحضن الكارثة أيضاً بيض الكارثة القادمة وترعاه. قاطعته: الله ينجينا، يا أخي، وضحك ضحكة منفسة صافية، وقال وهو يسحب الغطاء فوق فمه: تصبح على خير.

اللجنة

وأخيراً وَصَلا في الصباح الباكر، فَتَحْتَ رذاذٍ خفيف وبرودة منعشة، نزلا من حافلة قادمة من الرباط. الأول ثخين وقصير بوجه أبيض أنثوي لاهث، ويسحبُ معه آخر طويلاً ونحيفاً بوجه أسمر شاحب أكلت معظمه لحية مشتتة ونظارة سوداء. كانا يلبسان بذلتين داكنتين أنيقتين بربطتي عنق تمنحهما مهابة المهمات الرسمية. بقي النحيف واقفاً في مكانه بينما ذهب الآخر ليأخذ الأمتعة من مساعد السائق، فأخرج من جيبه علبة سجائر وولاعة، وأشعل واحدة، وبدأ ينفث دخاناً حزيناً، وقلقاً في وجه مدينة متلكّئة لم تخرج بعد من نومها. عاد القصير يحمل حقيبتين كبيرتين، ووضعهما بجانب صاحبه، ثم سار وعاد بصندوق خشبي من تلك الصناديق التي يحملها مروضو الأفاعي، ووضعه هو أيضاً، وسحب صديقه من يده حتى أوقفه بجانب الرصيف. فعل ذلك وهو يلتفت نحو الحقيبتين والصندوق، ثم عاد ونقل كل شيء. وبدأ يلوّح لسيارات الأجرة، وقفت واحدة، فوضع الأمتعة في الصندوق العلوي للسيارة، وطلب من السائق أن يوصلهما إلى مكان عثر فيه على مقبرة أثرية.

أنزلتهما السيارة قرب الحاجز الذي نصبته السلطات لإخفاء

المقبرة، فهرع الثخين إلى الداخل وعاد بالحارس وأمره أن ينقل أمتعتهما إلى الداخل، وأن يكلِّم مَن يهمه الأمر ويخبره بحضورهما. ولو أنِ الأمر لا يحتاج إلى إخبار لأنّ الفاكس الحاسم نزل البارحة في إدارات عديدة مخبراً بوصول اللجنة. بعد حوالى نصف ساعة، تقاطَرَ كلّ المسؤولين الذين كانوا يتناقشون ويدخنون فوق الجماجم، وبدا أنّ مهمة الثخين قد انتهت لأنه شبكَ يديه فوق بطنه ونكّس رأسه كتلميذٍ مذنب، وتركَ للنحيف أمر مناقشتهم. حرَّر الرجل النحيف صوته لأول مرة، وقدم نفسه بصوت وقور متخثر: الأستاذ محمد البركة خبير أركيولوجي، وأشار بيده لزميله: الأستاذ كمال الدندوني تقني أركيولوجي. وشرح لهم بأن الإدارة العامة كلَّفتهما بإجراء التحريات الأولى في شأنِ ما عُثر عليه. لم يعرف المسؤولون هل الأمر يتعلق بمزحة سمجة، فالخبير أعمى والتقني تبدو في عينيه وتقاسيم وجهه بلاهة متأصلة، لكنهم كفكفوا شكَّهم ونظراتهم المتفحِّصة المتسائلة بقولهم همساً لبعضهم بأن الإدارات لا تمزح في مثل هذه القضايا، وقد توصلوا بفاكس عليه أختام الإدارة. قد لا تحتاج المقبرة إلى عينين تبحلقان فيها وإنما لخبرة في المجال. وهزوا أكتافهم بعدم اكتراث. فإنْ كانت الإدارة المركزية قد أرسلت أعمى، فلأنه يمتلك ما يؤهله للقيام بهذه المهمة. وبلهجة شبه آمرة، طلب منهم الخبير، الذي حدس، وبدون شك، تساؤلاتهم فبحث بيدٍ متلعثمة عن شيء في جيوب بذلته وحين وجده أشهره مقلوباً في وجوههم وفهموا أنها بطاقة مهنية، بأن يتدبروا له مكاناً آمناً وبعيداً عن أعين الناس عوض هذا العراء وينقلوا له الجماجم ليقوم بما يتوجب القيام به. انفضَّ المسؤولون من حوله وهم ينظرون إلى الجماجم بحقد أعمى، فبما أنّ الأمر بدأ بجنون خالص خرج من الأرض فلمَ لا ينتهي به!؟ سار الخبير والتقني إلى فندق رخيص لا

يبعد عن المكان كثيراً. في اليوم الموالي، جاءت شاحنة كبيرة، ونقلت الجماجم لإدارة خربة كانت في ملكية الدرك الملكي نُظِّفت على عجل في الليل، وأخرجت منها أعطاب وحثاث سنين من الإهمال، ولسوء أو لحسن حظنا، أنا والعسكري، كانت الإدارة قبالتنا ولا تفصلنا عنها إلّا ما يشبه الحديقة. تطيَّر الناس حين رأوا الجماجم تتخذُ لها مكاناً بينهم. وقد تمّ إنزالها أمام أعينهم من طرف عمال متأففين كانوا يعاملونها معاملة حبات الدلاح. جماجم بتلك النظرات الفارغة المريعة، بذلك الخواء الوجودي الكبير، بذلك الفم المجمد في صيحة دهشة عظيمة. جماجم متشابهة، وحدها رعب جريمة ما في التاريخ. فما يتبقى من الإنسان هي هذه التجاويف التي يملأها التراب، هو هذا الشيء الخفيف الذي يتفتَّت في اليد، هو عظام بئيسة لم تعُد فيها حاجة لا إلى الشياطين ولا إلى الملائكة، هو هذا الهراء المفجِع الذي جعل الناس يتجنَّبون المرور من قرب المكان الذي تحوّل إلى مقبرة غريبة. كانت تقديراتنا خاطئة عن عدد الجماجم، فهي لا تتجاوز الثلاثمائة في أحسن الأحوال، لكن كم بقي منها مدفوناً في الأرض؟ حرصَ الخبير والتقني على تتبُّع عملية نقل الجماجم، ووقَّعا محاضر عديدة مع المسؤولين، ونجحا في الحصول على حراسة بالتناوب يتكفَّل بها مخزني يجلس في مدخل البوابة الكبيرة، ولا يقرب أبداً مكان إجراء التحريات والفحوصات.

كنا نراهما داخلين في الصباح أو خارجين من المختبر بالإجلال الذي يشيع به الجنود الذاهبين إلى حرب عادلة، وبالتوقير الذي يرى به العلماء، وبذلك الخوف الغريزي الذي يحسّ به الناس أمام حفار قبور تعبث يداه بين عالمين. نرى الشخين في الظهيرة يخرج ويعود

بسندوتشات ومشروبات، ونحسّ بمهابة وجسامة ما يجري هناك. ثمة قوة مقلقة تشدّ أذهاننا وعيوننا إلى المكان. كيف يتحرّون؟ وبأيّ لغة تكلمهم الجماجم؟ ما هي الأدوات التي يستعملونها؟ وأي علم هذا الذي سيكشف هوية القتيل والجاني وظروف الجريمة إن كانت هناك جريمة؟ ذات صباح جاءت شاحنة نقل صغيرة محمَّلة بأثاث بسيط نقله الثخين على عجل إلى الداخل، ومن يومها لم يعُد الرجلان يخرجان إلّا لماماً. كبرت حيرتنا وأسئلتنا تجاه ما يجري هناك، وخصوصاً حين لم يعُد المخزني يحضر للحراسة. نمرّ بمحاذاة المكان ولا نسمع صرير آلة، ولا نسمع محادثة، ولا نسمع حركة أو نأمة، صمتٌ بلا قرار كصمت مقبرة نائية في ربوة منيعة، فما ينجز يتمّ بالحرص الخرافي لنحّات يجمل زمردة نادرة.

لم يصبر العسكري كثيراً، أعدّ براد شاي وحمل الصينية وهجم على المكان، ففي النهاية تطلَّب افتضاض أسرار المكان روحاً مقدامة كروح العسكري. عاد بعد ما يزيد على ساعتين مرّتا كأنهما دهر، وضع الصينية وانفجر ضاحكاً. حكى، واندفاعات ضحك صاخب تتخلل كلامه، وأنا غير مصدق، بأنه وجد الرجلين نائمين وسط علب السردين وأكياس وقناني البلاستيك الفارغة وأعقاب السجائر، وأن عدَّتهم في البحث لا تزيد عن ميزان صغير ومسطرة لقياس الطول والعرض وعلبة سكوتش ودفتر لتسجيل الملاحظات. وأنهما بالكاد يجردان في اليوم أربعة جماجم. يعطون للجمجمة رقماً يلصقانه فيها بالسكوتش ويزنانها ويقيسان طولها وعرضها ويسجلان ملاحظات حول حالتها، ثم يعيدان عدة البحث إلى صندوق خشبي وينامان، وختم قائلاً: «هذا هو الإنجاز الذي يقومان به يومياً ثم ينامان نوماً

مستحقاً. لماذا يستعجلان، فالتفاحة لم تسقط بعد على رأس نيوتن!؟». لم أصدق ما قال، وبقيت ذاهلاً أحرِّك رأسي دلالة الرفض. فقال وهو يفرد يديه فيما يشبه حركة مسرحية وبصوت مفخم: ماذا تنتظر من أعمى وأبله؟ وأضاف بسرعة لكي يسترد بسرعة نصل العمى الذي وخزني به. «لا تستغرب. فالإدارة التي ترسل مستشارة في ديوانها ومختصين في التراث وآلة حفر لاستخراج كنز مزعوم في منتصف الليل، ويعتقلهم الدرك ليفرج عنهم بعد ذلك بتدخل من هنا وهناك، قادرة على فعل ما يشيب الصغير في حضن أمه. ما صار يحدث في البلد أقوى من الخيال بنفسه». وهو يبتعد وعدني بأخذي، إلى هناك لأرى بنفسي.. حمل العسكري صينيات عديدة إلى هناك، وكان كلّ يوم جمعة يحمل لهما الكسكس، وبدا أنه استطاب الجلوس معهما، حتى إنّه صار يسهر معهما أحياناً حتى الفجر. أسأله عمّا يفعله هناك فيقول لي نتحدث في مواضيع عديدة، ندخن ونشرب، نستمع للمذياع ونغني. وقال لي مرة بأنه بدأ في مساعدتهم في كتابة تقرير عن الجماجم. ودعاني مرات عديدة لمرافقته لكنني أرفض بشكل قاطع. يبتسم ويقول لي: «أأمن الأمكنة في هذا العالم هي المقابر، عليك أن تخاف من الأحياء أما الأموات فهم منصرفون لأشياء أهم من إخافتك، أو انتزاع شيء منك، أو إرضاء ذلك الشره المرضي الذي يزين للإنسان الفتك بأخيه الإنسان». أقول له معاتباً في كل مرة: «وتغنون. أهذه هي طريقتكم في احترام الأموات» فيضحك ويرد: «نحن نحتفي بعودتها المظفرة. إن الغناء تكريم لها بعد أن أكلت لقرون التراب، لا تريد الجماجم التي يقيد لها أن تعرج على العالم من جديد نحيباً، بل فرحاً ورقصاً ونشوة». ولا أصدق هذا الفرح المزعوم الذي يجري هناك، لا أصدِّق أن الجماجم مسرورة بالبهدلة التي تتعرَّض لها على يد لجنة غريبة تزنها كما توزن البطاطس. هل

العسكري صادق فيما وصف لي؟ لا   لا   لا أصدّق أنّ تلك العملية الفجة، الذي بإمكان صبي متجر أن ينجزها، ستتمخَّض عنها أشياء كبيرة: شهادة ستغيِّر التاريخ. إضاءة لمرحلة معتمة من ماضينا. دليل إدانة لمذبحة مرَّت في غفلة. ونحن وحدنا في الحمام الشعبي بالبيت الثالث القريب من النار، قال لي: «الجماجم تُزعج لأنها أثر، والمجرمون الكبار يكرهون ترك آثار. إن الذين فكروا في أحواض الأسيد عندنا في الستينيات لإذابة جثث المعارضين كانوا يفكرون في مثل هذه اللحظة التي يقرر فيها التراب بأن يُخرج بعض أسراره».

وجاء ابن تومرت دلّه أحدهم على المكان، ووقف أمام البوابة الكبيرة، وبدأ يصيح: «يا أولاد الحرام، تدَّعون أنكم لجنة وأنتم تجار موتى تبيعون عظام الجماجم بالتقسيط للعطارين والسحارين والمشعوذين، عليكم لعنة الله، تفو. تفو. تفو عليكم. عاش الملك، عاشت المقدسات..». كان وجهه مزبداً والزبد يتطاير من فمه، ورعشة غضب حقيقي ترجّ جسده النحيل. ابتعد قليلاً ثم عاد: «يا أولاد الحرام، سأسلِّط عليكم لعنتي إنْ لم تعيدوا الجماجم إلى ترابها، أليس في هذا البلد رجل رشيد يوقف هذه المهزلة، تفو. تفو. تفو عليك. عاش الملك، عاشت المقدسات..». وسار دائماً هو هكذا، خطبه سريعة ومقتضبة، ولا يمكث إلّا الوقت الذي يخطب فيه ثم يمضي لا يلوى على شيء. ورغم جنونه فهو يعرف بأنّ مناكر المدينة كثيرة، وعليه أن يوزِّع ريقه وزبده باقتصاد عاقل على مدينة تتزاحم فيها المقاهي، ويشدّ بعضها بيد البعض، مدينة فتحت ذراعيها لتوسُّعٍ أرعن وأنبتَت مغربات عمرانية.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **الواقعة أو صبح الأعمى**. في عمر الحادية والعشرين وثلاثة أشهر وأربعة أيام وسبع ساعات (عرفت الساعة من المذياع الذي كنت أصحو على صباحياته) وقع ما كنت أحذَره. أزحتُ عني اللحاف وأنا أحسّ الأنسام الندية للصباح وحاولت، سدى، العثور على البلغة لأذهب للمرحاض. لم أرَ شيئاً، فركتُ عينيّ بيدي، وعاودت النظر ولم أرَ شيئاً. عدتُ وتمدَّدتُ على السرير بأنفاس مختنقة، وقلب راكض، وأطراف مرتعشة. قمت لأبحث عن البلغة واحداً والآن صرتُ أشتاتاً. كان العسكري يشخر بِسَكينة في السرير الموضوع في الطرف الآخر من الحجرة. فكرتُ في أن أستنجد به، لكن ما بوسعه أن يفعله. عاودتُ التحديق لعلّه انخطاف مؤقت للبصر فقط، لكنني، وبعد دقائق من المحاولات الحثيثة لحثّ الأجفان المطرقة على طردِ العتمة إلى الخارج، أدركتُ أنّ الليل المنسحب في الفجر أناخَ في عيني ولن يبرحهما، كما سبق أن تنبأ بازوف اللعين. تجمَّعت في صدري صرخة ساخطة، متوحشة سرعان ما تبدَّدت لإحساسي بلا جدواها، وتحوَّلت إلى دمعتين حارتين، وممتلئتين نزلتا حتى عنقي. لم تجريا

فوق خدي، بل في أعماقي، وسمعتُ لانحدارهما دوياً مريعاً. ومن كل الأفكار المتزاحمة بداخلي، أفكار بلا وجهة ولا شكل ولا معنى، أفكار مَن يرى حياته تُفصل إلى شطرين، احتفظت بفكرة أنّ عيني احتفظتا، على الأقل، بقدرة على بكاء عالمٍ لن ترياه أبداً بعد اليوم.

أثيرت جلبةٌ في البيت، لطمَت أمي وجهها، وبكَت أخواتي، وانثال الأقارب والجيران وكَثُر الهرج والمرج فوق رأسي. واضطرت أخواتي للسهر ليلتين أعدَّتا فيهما قنطاراً من الحلوى لمواجهة سيل الزوار، وندبت إحداهن نفسها لإعداد الشاي. جفّ حلقي من الردود عن الأسئلة البليدة والتمنيات اليائسة، وأدلى كلّ قادم بدلوه في تشخيص حالتي، واقترح أسماء أطباء ووصفات، وشرب وأكل ومضى. وكان هناك ما يشبه التواطؤ على أنّ هناك أملاً في الشفاء، وحكيت حكايات عن عميان استردوا البصر بتجريب أعشاب، أو بزيارة طبيب، أو ولي صالح أو بعد رؤيا تجلَّت لهم في نومهم. وكُدِّست بجانبي أكياس مملوءة بعلب الحليب واللبن المحلّى والتفاح والموز وقناني الماء المعدني وقوالب سكر، بل إن دجالة تسمى الحاجة أم هاني سمعت بحالتي وانتدبت نفسها لشفائي. كانت تأتي بعد العصر، وتجلس إلى جانبي في السرير وتضع يدها المثقلة بالخواتم فوق عيني وبعد غمغمة ما تيسَّر من أدعية تستسلم لهذيان، لا أول ولا آخر له، عن مَن أنقذتهم من العمى وعن شيوخها وزياراتها للأولياء، وكلما فتح أحد من المتحلقين حولي فمه بكلمة قاطعته بفظاظة، واستعادت الإمساك الحازم بزمام الكلام. عالمة بكل شيء، خبيرة في كل شيء، قادرة على كل شيء، كل هذا،

ويدها فوق عيني، ولا يكون لي في جلسة العذاب تلك إلا رجاء واحد هو أن تزيح يدها، برائحة الثوم الكريهة المنبعثة منها، من قرب أنفي. بدا العسكري، ومن صباح ذلك اليوم الأغبر، رابط الجأش، وتصرَّف بحسٍّ قيادي لا غبار عليه، حسّ رجل المرحلة. كان يأمر وينهي من حولي، ويجيب حين لا أجيب، ويرد على الأماني، ويشيع الزوار، ويدير الاستقبالات بصبر وجدية لا تناسب مزاجه العصبي. وذات صباح، قال لي بأنه ضاق ذرعاً بترهات الناس، وأخذني إلى طبيب العيون في المستشفى، وطلب منا هذا تحاليلاً وصورَ أشعة وتأسَّف للنتيجة القاطعة. وأخذني إلى الرباط، وكشف عليّ طبيب له شهرة وطنية طلب هو أيضاً تحاليلاً وصور أشعة أكثر دقة، وتأسَّف بخبثٍ لكوني لم أزره حين كان بإمكانه إنقاذي من العمى. وعدنا حزينين لأنّ الطبيب الشهير زرع بداخل كل واحد منا، إلى غير رجعة، عذاب الفرصة الضائعة. وأخذني إلى طبيب في الدار البيضاء قيل له بأنه عالج حالات ميؤوساً منها، فحصني وطلب منا أن نعود بعد سنة لعلّ بارقة أمل تشعّ في شبكة العين. كنت في قرارة نفسي يائساً لكنني كنت أفضِّل الخروج والسفر على الاستسلام لشفقة الناس ومهاتراتهم. كان عليّ في خضم تلك الجلبة أن أبدأ قتالاً خاصاً، لن يقوم به أحد نيابة عني، قتالاً ضدّ الحزن، وغضبُ لماذا أنا بالذات؟ والضياع والإحساس بأنك عبرت نقطة اللاّعودة. العمى هو أن يتنكر لك العالم فجأة، وتصير كل خطوة مغامرة، وكل يدٍ ممدودة منك سباحة في المجهول، فلا تعرف أين تلقي برجلك، ولا يدك، ولا كلامك، ويصيرُ التردُّد توأمك كأنك سُكبتَ معه في قفاز رصاصي. قلّصت حركاتي إلى حدّها الأدنى، أحتاج فقط يد العسكري تأخذني وتعيدني من وإلى

المرحاض. ووطَّنتِ نفسي على أن لا أنقاد لذلك التشامخ بالوجه الذي يدأب عليه العميان، وأن أتجنَّب ما أمكن تلك السحنة المتصلبة المذعورة لمن ضُبط متلبساً بجرم. وأحذر خراب علاقتي بمن حولي بفعل الوساوس والارتياب وسوء الظن. وكما يحدث دائماً، لم تعُد الفرجة مسلية للناس فانفضوا من حولي وتركوني لآلامي ومكابدتي.

أنا أعمى غرّ، بلا تجربة، ولا مكر دفاعي، وعليَّ أن أشحذ حواسي الأخرى لتعوِّض فقداني البصر. في أيامي الأولى، كنت أدافع صرخة وحشية قوية تتجمع كعاصفة في حلقي، لعلها تُحدث ثلمة في جدران الظلام التي أطبقت عليّ، وأدفعها بتصنُّع هدوء خادع، بابتسام يائس، بالثرثرة مع مَن حولي، بمحاولة التفكير في عميان انتصروا على العاهة. وأقول لنفسي لماذا ليس للإنسان كبرياء بعض الكائنات الصغيرة مثل النحلة التي تموت بمجرّد فقدانها شوكتها؟ لماذا يقبل الإنسان الاستمرار في العيش وهو ناقص مشوّه ومثير للشفقة؟ ولم تعُد تفارقني صورة جدي وهو يدعو اللّه بأن يجعل نهاية بصره وعمره واحدة، فلا يتأخر الموت ثانية واحدة عن موت نور العينين. وكنت أشغل نفسي بجدال داخلي رهيب، ما الأرحم والأفضل لي: لو كنتُ قد ولدت أعمى. أو عماي وقد بلغت الحادية والعشرين من العمر! ومن الأفضل، أن تولد مثل آلاف الكائنات غير المبصرة التي لا تتعذب بما فقدته، أو تصاب بالعمى بعد أن تكون قد أخذت نصيباً ولو قليلاً من العالم، وعرفت الشمس، وألوان الفصول، والأشجار، والطيور، ولون السماء والخبز والشاي، والحمرة الشفيفة للخجل حين ترتسم في الخدين،

والدموع حين تتفجر في العينين، ورأيت الحناء في أيدي الصبايا، والماء جارياً في السواقي، والغمام الهارب، وقطرات المطر، وقوس قزح، والأصيل حين يسفح دم النهار ويضرج به الأفق، والندى متلألأً فوق الزهور، وضحكات الشيوخ، وحدب الأمهات حين يرتسم في وجوههن، ووجوه الأطفال، والزهر، وخزَّنت بداخلك الصور والوجوه والأشكال والحركات، وصرت تمدّ يدك كلما عنّ لكَ أمر، وتخرج من ذاكرتك الصور المخزنة بداخلك، تُخرِج ما يُعينك على التعامل مع الشيء كأنكَ تُبصره. ما الأرحم لك أن تتعذب بما لم تَرَه أو تتعذب بما فقدتَ رؤيته؟ كانت وقائع عمى مُعلن، وكان لديّ متسعُ سنين من الوقت لأوطّن نفسي على قبول العاهة. انتظرتها كما ينتظر الأرق ليلَ العذاب. أقبلتُ بحمية على تسميم علاقتي مع كلّ ما أراه، وعلى ادّخار كل الآراء التي ترى بأنّ العالم قبيح والحياة «كارثة مخزية»، وأن الإنسان خُلق ليشقى، وما يميِّز الناس هو نوع الشقاء ودرجته. أحطتُ نفسي بكلّ الأفكار التي تدثَّر بها الضِّعاف والمحرومون والموسوسون الذين يرون بأنّ رَكب الحياة خلفهم، ولم يترك لهم سوى ترفِ النباح وراءه. غير أنه، وكما يحدث دائماً، ما وقع مختلِفٌ جذرياً عمّا كنت أتخيّله. كنت أنتظر ليلاً هادئاً أدخل فيه رويداً رويداً، وأتصالح معه، وتهتدي يدي في عتمته بإشراق التعرُّف على الأشياء وشقّ طريق وسطها. كنت أقول إنْ كان في هذا العالم ملايين العميان، وبعضهم من المشاهير، فلأن العمى إمكانية من إمكانات الحياة، أو على الأقل خبط من خبطها العشواء، يُصيب البعض ويخطئ البعض، ولنقُل هو صيغة قاسية لأذى الحياة، لكنها تستمر رغماً عنه، وقد تنتزع منه قليلاً من السعادة والهناء. ما كنت أخافه في عماي القادم فقط هو التردّد الذي

أراه في كلّ العميان الذين أصادفهم فيُدمي قلبي، تردّد وأنت تلقي الخطوة، تردُّد وأنت تمدّ اليدّ أو العكاز، تردُّد وأنت تلقي بالكلمة فلا تعرف أيّ أذن التقطتها. يُبكيني هذا الارتطام المجازف بالعالم، فكلّ شيء لا تمتلكه بنظرك يصير احتمالاً وارتباكاً، لكن العمى حين جاء لم يكُن كما توقعته. فلا هو بليل يتكاثف من حولي حتى يحُجب كلّ ما يحيط بي، ولا هو بانطفاء تقهقر فيه الضوء تدريجياً حتى طمره الرماد، إنه جدران سميكة تُطبق عليك من الجهات الأربع، إنه خواء أسود، إنه نهاية الامتلاك، والاندفاع، والتجاسر الغبي على الأشياء. العمى جزر دائم لا يبقى لك إلّا ما تشدّ عليه بين يديك، العمى سيف سُجِنَ في غمده، ومدق في مهراسه، وحبات شعير عالقة بين شقَّي رحى ميتة. لأقلها، لأقُلْها الآن، عماي يدعوني لعلاقة بكرٍ مع العالم، عليَّ فيه أن أتحرَّر من جفاء وغطرسة امتلاكه بالنظر وحده، عليّ أن أسير نحو الأشياء، أتحسَّسها، أحنو عليها، وأنتظر أن ينبجس ومض وجودها في مسامي.

بعد شهر، جاءني العسكري بالعدة الرسمية للأعمى: عكاز ونظارة سوداء. اشتراهما من بائع خردة. خنقني إحساس بالضَّيم يومها، وأغلقتُ باب المرحاض عليَّ وبكيت بحرقة. عليَّ أن أودع في هذا القضيب من الألمنيوم البارد واليد البلاستيكية المعدَّة بشكل يلائم الأصابع رجائي، وضياعي، وترددي، أودِع فيه تهجّي المتصاغر للعالم. عليَّ أن أؤاخي هذا القضيب البارد فهو الذي سيصبح دليلي وعنواني، ولن أقدِم على العالم إلّا وهو يسبقني ويضبط مسافة الأمان التي تفصلني عن الارتطام والسقوط. إنه رِجلٌ ثالثة لا تملك إلّا قدرتها على الاستشراف الأصمّ للحيِّز الذي أتقدم

فيه. بكيتُ لأنني صرتُ في عيني العسكري أعمى تاماً وكاملاً بلا أمل ولا رجاء. وبكيتُ لأنه وفي الوقت نفسه والحجرة نفسها صار هناك عكازان، وعجزان، وكآبتان. فاجأني العسكري وأنا أنتحب لهول الهدية تحت اللحاف. جلس بجانبي وربتَ على كتفي وبعد صمت طويل قال لي: «ستتعوّد، وستقبل، فهي حين تحطمنا تماماً تمدّ لنا يدها، وتساعدنا على الوقوف، بل إنها تزرع بسمة مدهشة في شفتينا وذواتنا وأملاً وسط حطام ودخان صدورنا، ستتعود يا أخي ففي يدها الزمن تلاعبه كيفما شاءت».

لم ألمس العكاز، بقي لأيام بجانب السرير، هادئاً وساخراً ينتظر استسلامي بصبر من تنبو الحوادث عنه ولا يكترث. ذكَّرتني هبة العكاز القاسية بطعنة كتاب **الأيام** حين ألقاه العسكري في حجري، وفهمتُ يومها أنه يحضّرني لدخول نادي الظلام المخيف. مددتُ يدي للعكاز في النهاية، ونقرتُ به الأرض وسمعتُ طنينه الذي عليّ أن أكون قادراً على تمييز نوعية الأرضية التي ينقرها: إسفلت، إسمنت، تراب، خشب. وطفقتُ ألاعب به المدى من حولي كسيفٍ بلا بأس، وأحاول أن أودِع في حياده نفخة من روحي. سيصير حاجبي وطليعة خطاي وعيني على المجهول. سيصير ظلّي وخليلي وكاتم أسراري، سيصير منذري وحبل نجاتي في مدينة تعشق الحفر، وأوراشها مفتوحة لا تنتهي، البلدية تحفر، المواطنون يحفرون، مصلحة الكهرباء تحفر، مصلحة الماء تحفر، ومصلحة المياه العادمة تحفر. ودائماً هناك سلك، نُسي، وأنبوب ينبغي تثبيته مجدداً، وأشغال أنجزت بطريقة سيئة يتوجب إعادتها، وأشغالٌ لم تنجز دراسات تقنية عنها ينبغي هي أيضاً إعادتها. حتى إن المدينة صارت مصيدة كبرى للمبصرين،

ومهلكة عظيمة للعميان الذين قلّ أن تجدَ بينهم مَن لم تكسر يده أو رجله أو أنفه، أو مَن لم يبهدل بدلة جارحة حين بقيت رجلاه معلقتين في الهواء، ورأسه يختنق في نتانة الماء الآسن.

هناك هوة سحيقة تفصل الفكرة عن الحياة، فلا الفكرة تتحوّل إلى حياة، ولا الحياة تتحوّل كما هي إلى فكرة. فكرة العمى ليست هي العمى تماماً، مثلما أنّ ما عشته ليس إطلاقاً ما أحكيه هنا، وكل نصيبي من اللغة يقف مبهوتاً إزاء لحظة واحدة بكثافة أبدية عشتها حين أفقتُ ووجدتني أعمى. ما أحكيه هو طعم فاكهة مُرّة في الحلق لا الفاكهة نفسها، هو أثر، ورجع صدى فقط.

ذات مساء، أخرج العسكري كرسيين، وجلسنا أمام الباب هو يقرأ كتاباً ويكتب في جذاذته وأنا أستقبلُ نسائم الأصيل، ولا أعرف من أيّ جهة في روحي تسلَّلت أبيات للسياب إلى فمي، فبدأت أردِّدها بصوت مسموع:

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الألم
لك الحمد إن الرزايا عطاء
وإن المصيبات بعض الكرم
لك الحمد يا رامياً بالقدر
ويا كاتباً بعد ذلك الشفاء.

سمعتُ العسكري يضحك بصوت مكتوم:

- ماذا يُضحكك؟

ردّ:

- لا شيء. وواصلَ الضحك بشكل أوضح هذه المرة، ثم وقد فهم من نقرات عكازي المتلاحقة بأنه أغاظني. تنحنح ثم قال:

- كم يعجبني تحايُل الضعاف والمرضى على عجزهم، الرزايا عطاء، نعم العطاء. وواصل الضحك، أردتُ أن أوقف سخريته المُرة، الممجوجة، فقلت:

- صاحب هذه الأبيات هو بدر شاكر السياب، شاعر العراق العظيم.

غير أنّه واصل ضحكه المتغطرس، وسمعته يفتش في جيبه؛ ربما يبحث عن منديل ليمسح دموعه. ثم قال كأنه يحدِّث نفسه:

- هناك كبرياء ما، لا ينبغي التنازل عنه، حتى أمام الخالق نفسه. كيف لشيوعي أن يحوِّله المرض اللعين إلى متسوّل مسكين يمدّ يده طلباً للرحمة. بما نفعه هذا التضرع الأهبل؟ لقد افترسه المرض كلية في النهاية.

تمتمتُ بتشنج راعش:

- أعانه على تحمُّل ألمه القاسي.

فصاح بظفر.

- هكذا. باب الدين إلى ذواتنا هو العجز، إنه مثل طائر قمام يطوف فوقنا في رحلتنا الطويلة وهو ينتظر سقوطنا ليتملكنا.

يا له من رجل متناقض هذا العسكري، لا يستقر على موقف أبداً، وتتصارع بداخله الآراء والأفكار. تراه يصلّي لأيام، بخشوع ناسك، وتجده أياماً أخرى يسخر من الدين، ويرى فيه سبب بلاوينا. تراه هادئاً وقوراً حكيماً، ثم ينفجر في وجهك كلُغم أرضي. تراه

كريماً يتنازل للآخرين عن كلِّ شيء يملكه، وقد يرتكب جريمة من أجل درهم إنْ اعتقدَ أنه أخِذَ منه تحايلاً. يبدو كئيباً ومحطَّماً، لكنه حين يضحك يفعل بصفاء وفرح مَن يعيش غبطة متصلة. ولا تعرف أبداً هل هو مع شيء أو ضدّه، وفي كلّ ما يقول هناك دوماً «لكن» كابحة ومتشكِّكة. فيه جفاف وصلابة جندي، وفيه رقة شاعر ولينه. يُصاب بالأرق أياماً تنتفخ فيها عيناه وتلتهبان، وينام كالرُّضع، يبدو فيها النوم خاطرة من خواطر. موسوس تعذِّبه تفاصيل صغيرة وواثق من نفسه إزاء الشدائد. يقدِّم لك تحليلاً تعجَب من عمقه، ونفاذ بصيرته، ويُطلق أحكاماً هوجاء وغريبة تخيفك منه. متسكِّع كبير يُجرجر رجليه في الأسواق والحواري، وعاشقٌ كبير للعزلة. ثرثار لا يملّ ولا يكلّ من الحديث، وصامتٌ يتكلم بالإشارات فقط. غمام مطرٍ وحجر صلد، ريحان وشوك، تنهيدة وأنّة، وسلام داخلي عجيب.

تحسستُ في جيبي، مرة أخرى، الورقة التي تركتها لي إيزابيل: «حتى ولو..» وقلت لنفسي ما قلته لها مئات المرات: دلالتها بسيطة للغاية، فحتى لو أصبتُ بالعمى فعلي أن أبقى حراً كطائر يحلق فوق الأرض التي رمزت لها بالخطّ الأفقي. أو إن شئت بعض التفلسف لقلت: حتى لو حلّت بي النكبة فعليّ أن أتعالى كطائر على جراحي وألمي، وأحلق في سماوات الحياة التي تعرف كيف تضمّد وتواسي. غير أن شيئاً ما بداخلي كان يرفض هذا التفسير اللائق بحصة رسم لأطفال يتم فيها تعليمهم رموز الأشياء. هناك سرّ في ما رسمته، لا يمكن لذلك اللقاء الذي صنعه القدر بحرص وشاعرية كبيرة، وبتركيب مذهل للتفاصيل أن ينتهي إلى ابتذال نصيحة يمكن أن يوجِّهها لك مَن هبّ ودبّ في الطريق، ولا حاجة للسفر والليل والمغارة وسيدي

محمد الغريب والوحشة والتوتر والتخيلات الجامحة. في الورقة دلالة على أن أدركها، أو أن الآتي سيتكفَّل بإيصالها إليّ، الأمر أشبه بقرصان يخبئ كنزاً في جزيرة صادفها في الطريق، ويترك خريطة برموز تبدو ظاهرياً مبتذلة لكنها تخفي وراء ذلك الغباء المسار المعقَّد الذي يقود إلى الكنز. وحتى لو لم تكن هناك دلالة ما في الورقة غير النصيحة الصغيرة، فلا شك أن فيها طاقة مؤثرة من قبيل تلك البركة التي يُودِعها الأولياء الصالحون والقديسون في كلام دارج يخطّونه على عجل، كلمات عادية، لكنها غرفت من بحر التدبير الإلهي للكون فتصير ملهمة وحامية. لأقُل بأنني، ومنذ أن عدتُ من الجبل صار للورقة حضور هائل في حياتي بغضّ النظر هل هي رسالة لم تقرأ بعد كما يجب، أو هي تميمة عليّ أن أحتمي بها من هَول ما هو قادم. أو هي مجرّد ذكرى للقاء عابر. وضعتها في محفظة جيبية وصرتُ أتحسَّسها في جيبي طيلة النهار، وفي الليل أضع المحفظة بجانب رأسي. ربما سألتقي مرة أخرى بإيزابيل، فالعالم يصير صغيراً وكريماً جداً حين يأخذ على عاتقه عقد لقاء معجز بين متباعدين. آنذاك سأريها شكلاً فريداً لوفاء رجل منحته في التباسات لحظة زائلة ورقة بسيطة، ومضَت لكنه جعل من تلك الورقة وصية.

سعدتُ كثيراً بزيارة الخبير ومساعده لي. جلس الخبير بقربِ سريري، وأمسكَ بيدي وقال لي: اصبر يا أخي. هذا ما كُتب لنا في لوح لو وَجَدته لرفسته برجلي. ضحكنا طويلاً ذلك الضحك المتلعثم الحزين والمطارَد بغصص مؤلمة، ولا تملك تلك الكلمات المواسية إلّا ما يملكه طنين نحلة أمام دب جائع يهاجم خليتها.

هاملت وهوراشيو

أمسك بيدي وسحبني وراءه وهو يقول: ستستمتع كثيراً لا يمكن أن تفوِّت على نفسك هذا مرة أخرى. حاولتُ أن أحرِّر يده من يدي لكنه كان يشدني بقوة وتصميم. نقر الباب انتظرنا قليلاً، وقبل أن يفتح الباب همسَ وهو يقترب مني: كيف نخاف من شيء لا نراه. ثم دخلنا طلب لي كرسياً وأجلسني فوقه ثم قال لهما: جئتكما بمحمد. وردّا من مكان بعيد، وبصوتين متنافرين: تشرَّفنا. كان نزولاً سريعاً إلى الجحيم. بقيتُ جامداً ومروّعاً كفأر سقط في مصيدة. ورغم أنّ العسكري اقتعد شيئاً ما بجانبي. فقد أحسستُ بظلمات عزلة كبيرة تطبقُ عليّ، ظلمات أقسى وأكبر من العمى، كأنني نزلت كهفاً تحجّرت فيه كلّ مذابح وجنائز وعويل وحرائق التاريخ. نزلتُ إلى مكان لا يوجد في الحياة، وإنما في جانب خلفي منها أو تحتها، مكان أشبه بالسرداب أو المجرى النتن الذي يصرف فضلات الناس. تشمَّمت باشمئزاز رائحة ترابِ التَهَم جيفة مخلوطة بروائح سمك متعفّن وخمر عطن وتبغ ويود وفساء. لم يدُم الصمت المريع طويلاً، فسرعان ما كسرته همهمة ما خرج على إثرها أحدهما. وكان العسكري يشيعه بـ: لا داعي. وهو يردّ عليه: ولو يا

أخي. أذكر أنني نكست رأسي بين ركبتي، وبقيتُ بلا حراك، لم أقدر على رفع عيني المنطفئتين لتلتقيا بعيون الجماجم الفارغة، ذلك الضياع التام، ذلك الأسى، تلك التجاويف والإبهام المحبط، وتلك النظرات العميقة الساخرة الممقوتة التي لا عون ولا عزاء فيها، التجاويف التي تلعن الحياة، وتقول بأنها خواء في خواء. لا ترى العيون المنطفئة إلا مثيلاتها. وأنا مروّع ومتجمّد، كانت تتردَّد بداخلي فكرة جنونية مؤدّاها أنّ الهوة القائمة عادة بين الأموات والأحياء والتي تجعل الناس وما أن تهجر الروح الجسد حتى يتحاملوا بشراسة غريبة على الرمة ويتخلَّصوا منها في أسرع وقت، فما الجسد الميت إلّا وعد بتفسخ وبدود ورائحة كريهة، وعليه أن يطمر في التراب، ليتفرَّغوا لتوضيب حضور ساذج للفقيد، يتكفل به مَن كانت لهم صلة ما به، تمتزج فيه الذكريات والصور والآهات ونتف الوقائع والكلام، لم أكُن أحسّ بأن هوة ما تفصلني عن الجماجم، ولم أمتلك ترف التعامل معها بذلك الحياد البارد الذي توحي به حجرة. إنها تخيفني، تستثيرني، تحرك عواصف بداخلي، وتكلِّمني، وأرى محاجرها الفارغة تحدِّق فيّ وتلتهمني. حتى في حصص العلوم الطبيعية، كانت رؤية الهيكل العظمي المصنوع من البلاستيك تُفزعني. تحفَّزت للوقوف، فربت العسكري على ركبتي مهدِّئاً. وجاء صوت هادئ وعميق من بعيد قائلاً، بنبرة ساخرة:

- ها أنت ترى يا محمد، لم يترك لنا جدودنا إلّا عظامهم البئيسة، العظام والأسوار، هذا هو تراثنا العظيم.

حدستُ أنّ الخبير الأعمى هو مَن يكلمني بنبرة رسولية واثقة، وأنّ الذي خرج هو مساعده لأنه هو مَن يقوم في العادة بالمَهام

الخارجية. ضحك العسكري وقال:

- ورغم ذلك علينا الاحتفاء بهذه الجماجم وتكريمها.

فردّ الخبير بسرعة:

- طبعاً. طبعاً.

دخل المساعد ووضع أمامي قنينة، وهمسَ في أذني العسكري بأنها مياه معدنية. وسمعتُ رنين كؤوس وشيء ما يتبادل بينهما، لا شكّ أنها كؤوس خمر ولفافات تبغ، وبعد اضطراب إعداد الجلسة المؤقت، ووصول رائحة الدخان لأنفي، عاد الخبير للكلام:

- العظام هي أنبل شيء فينا، بعد الروح، فالدود البغيض لا يأكلها، وهي تبقى شامخة تُقارع الزمن لقرونٍ إن وجدت ظروفاً مواتية. بعد برهة، ترك لنا فيها حقّ تأمل ما قاله، أضاف:

- وهي التي تحافظ على هوية الجسم، يترهّل، يتهدّل، يذوي، تغزوه التجاعيد والأمراض والنكبات والخيبات، ويتدهور، لكن العظام تبقى هي، هي، قد تتقوّس وتَهِن لكنها تبقى هي، هي.

فكرتُ بأنّ الرجل يريد أن يُبهرني من أول لقاء بيننا، وأن يُقنعني بأنه قادر على أشياء أكثر من الميزان والمسطرة واللصاق، من قبيل تأمّل كومة عظام وقول أشياء جليلة وعميقة عنها. بعد صمت طويل عادَ ليقول بنبرة خافتة، هربت منه، بدون شك، وثوقيتها الأولى. كأنه تكلّم ليكسر الصمت الفادح فقط:

- لولا العظام وتطوّرها، لكان الإنسان مثل فقمة يتجرجَر على الأرض.

ولأن أقوى مُساجل هو صمتُ مَن تكلّمه، لأنّه يحيّرك في

البداية، ثم يُقلقك ويشكّكك فيما تقول، وينتهي بك أيضاً إلى الصمت، فقد لاذَ الخبير هو أيضاً به. وسمعتُ هسهسة أشياء تؤكل ورنين كؤوس توضَع وتُرفع، وكمَن أفاق من غفوة، قال العسكري، بصوت فيه خدر انخطاف ما:

- اللّغز ليس في العظام، أيها الخبير، وإنما في النفس البشرية. اللحم والعظام عناصر تهبهما الطبيعة وتستردهما، ولو بعد قرون، كلّ شيء يفنى في النهاية. اللغز في الروح، يا أخي.

ونفثَ دخاناً كثيفاً تجمَّع في صدري، فلوَّحت بيدي لأُبْعِده عني، وأضاف بنبرة فظة:

- لا فرق بين جمجمة وجذر شجرة ميتة، كلاهما بقية حياة كانت وانقضَت، لا قيمة لهما في ذاتهما، ولا أهمية لهما إلاّ كذكرى لشيء كان ولم يعُد.

ثم أضاف بعد ضحكة خافتة متصنعة:

- أتعرفون أين يكمُن لؤم العالم وقساوته وإجرامه في حقِّنا؟! إنه لا يُنهي ولا ينظِّف مسرح جريمته مثلما يفعل المجرمون المحترفون، إنه يتلذَّذ بتناسي أشياء وعلامات وشهود وبقايا وذكريات لا تنفع الأموات، لكنها تعذِّب الأحياء، وتفسد عليهم حياتهم، يهبُ العاجز والضعيف المكر والقناع ليستمرّا هما أيضاً وسط الأقوياء، ويتلهّى برؤية سيرك الادّعاء والجنون والتفجُّع والضغينة والجماجم العائدة.

وكان على الخبير أن يقول شيئاً، فكبرياؤه - كما بدا لي حينها - لن تسمح له بأنْ يترك آخر يستأثرُ بالكلام في حضرته، ويتفلسف على هواه، وخصوصاً في وجود ضيف جديد. تنحنح وقال:

- اللغز لغزٌ فقط لمَن يَحُول حجاب ما بينه وبين الشيء. ماذا لو اكتشفنا في يومٍ قادم بأنّ الروح ليست سوى تركيبٍ حاذق لعناصر في الجسم تتفاعلُ بينها وتصنَع الحياة، وحين يختلّ التركيب تنتهي. ولا شيء يهجر الجسد ويحلّق في السماوات إلّا جهلنا وغباؤنا.

ثم كأنّ نوبة جنون تملَّكته. سمعتُه يقف ويقول: دعونا من هذا الكلام التافه، ثم قال وكأنه يخاطب أحداً: هل هذه جمجمة مهرّج الملك؟ فيجيبه صوتُ العسكري ضاحكاً: أي والله هذه يا هاملت.

هاملت: دعني أراها. كنت أعرفه لا حد لنكته وذكائه ومقالبه. أعرفه حين يسلِّطه الملك على من يغضب عنه ليسفِّهه أمامه. أعرف هذه الفك حين كانت تتمطى وتتلوى لتضحك. أعرف بريق هذين العينين اللتين تسكنان هذين المحجرين الفارغين وأعرف حزنهما ومرارتهما أيضاً. أرجوك يا هوراشيو، أخبرني، يُجيب مساعده: بماذا يا مولاي؟

هاملت: أتعتقد أن الإسكندر آل إلى مثل هذا في التراب؟

هوراشيو: لا شك في ذلك يا مولاي.

هاملت: وخبثت رائحته كهذه. أف!

هوراشيو: نعم يا مولاي.

هاملت: ما أحط ما قد نؤول إليه يا هوراشيو! أفلا يجوز للخيال أن يتعقب أثر الإسكندر وترابه النبيل إلى أن يلقاه سدادا لدن؟

هوراشيو: إنه لتأمُّلٌ غريب يا مولاي.

هاملت: لا أبداً. فبإمكاننا أن نتعقّبه إلى غايته دون مبالغة قد تفسد الاحتمال هكذا: الإسكندر مات، الإسكندر دفن، الإسكندر

عاد إلى تراب، ومن التراب نصنع الطين، فلماذا يستبعد أن يسدّ بعضهم بذلك الطين الذي تحوّل الإسكندر إليه دناً من دنان الخمر؟

(وبصوت مسرحي مفخم) إن يمت قيصر على رحب سلطانه ليغدو طينة ربما سد حجر الصد ريحاً باردة:

ليت التراب ذياك الذي أرهب الدنيا كلها يلأم صدعاً في الجدار لدرء هبات الشتاء[1]

هوراشيو: لكن يا مولاي أمثال الإسكندر من الملوك لا يُدفنون مثل عامة الناس، ولا يمكن لتُرابهم أن يتحوَّل لسدادات دنان، فتُرابهم يحصّن ويُحمى بأضرحة وحرس وطقوس ترحم..

هاملت: لا تكترث يا هوراشيو للزخارف والرخام، ما يجري تحت أفظع مِن أن يحجُبه حرس وطقوس وبخور..

هوراشيو: نعم يا مولاي.

هاملت: لأن ينمو البنفسج في جسدي أو ينمو الشوك والعليق أفضَل من أن أسجَن في تراب ميت أعمى. لا يلد ولا يولد.

هوراشيو: معك الحق يا مولاي.

هاملت: أترى هذه الجمجمة الفظيعة، يا هوراشيو؟

هوراشيو: أراها، يا مولاي.

هاملت: لو عرفت الفاتنة ما ستؤول إليه لما وضعَت المساحيق وقضَت الساعات الطوال تضعُ الأصباغ والرموش المصطنعة.

هوراشيو: نعم يا مولاي.

هاملت: تبّاً لك، يا هوراشيو، ستتحوّل رأسك المليئة بالصدق والإخلاص إلى جمجمة مقفرة.

---

(1) مقتطف من مسرحية هاملت لشكسبير.

هوراشيو: أجل يا مولاي، تباً لي.

وضحكا معاً ضحكاً طفولياً صاخباً شاركهما فيه العسكري الذي كان يردِّد: الله. الله. وبدا من حركات صغيرة أنّ كلّ واحد منهما عاد إلى مكانه، وانتهى العرض المسرحي المرتجل إلى صمت محزن جديد وإلى زفرات مكروبة. وبصوتٍ طالع من بئر عميق قال الخبير وكأنما يكلم نفسه:

- أتذكر، يا هوراشيو حين كنا نريد أن نُسقط النظام بالمسرح والأندية السينمائية، وأغاني الشيخ إمام، وشارات النصر، وسراويل الجينز، والشعور الطويلة، وقراءة ماركس ومهدي عامل..

هوراشيو: نعم يا مولاي أذكر ذلك.

هاملت: ما أغبانا يا هوراشيو.. لم يكن النظام في حاجة إلى الضغط على الزناد فقد سلَّط علينا أصحاب: «أحد.. أحد»، و«جيش محمد سيعود» وعود الأرك، وكلّ شيء عورة، فصِرنا نتصارع معهم كالديكة وهو يرقُب المشهد بانتشاء غامر..

هوراشيو: نعم يا مولاي، كان النظام ينظر إلينا ضاحكاً، ويودِعنا في السجن جميعاً لا بتهمة المسّ بالأمن العام، والرغبة في الإطاحة بالنظام، وإنما بتهمة الشجار، وتبادل الضرب والجرح الحقيرة كأننا سكارى في حانة.

هاملت: أحسنت، يا هوراشيو.. أحسنت. ولكن أتعرِف ماذا فعل حين طردنا دعاة الحقيقة الواحدة من كل شيء وخلت لهم الساحة؟

هوراشيو: من أين لي أن أعرف يا مولاي إن لم تقُل لي.

هاملت، ضاحكاً: لقد سلَّط عليهم «الديموقراطيون» بأنواعهم

الزائفة و«الشعبويون» والظواهر الصوتية العجيبة وكاسحة «تجديد الحقل الديني». وسيتلاعب بهم طويلاً حتى تولَد حركة احتجاج جديدة في المجتمع فيتولى أمرها هي الأخرى.

هوراشيو: هذا ما سيفعله بهم، يا مولاي، لا محالة.

هاملت: أتذكُر، يا هوراشيو العزيز، حين كنا نصفُهم بقَتلة بن جلون فيُحملقون فينا ويبحثون في تاريخهم القصير ولا يجدون شهيداً واحداً ولا قطرة دم واحدة سقطت في محاربة النظام، بل لا يجدون حتى آثار سوط في ظهر أحدهم ليُشهروه في وجوهنا.

هوراشيو: أتذكَّر ذلك جيداً، يا مولاي، ليس لهم شهيد مثلنا، ولا قطرة دم ولا ضربة سوط.

هاملت: لكنهم يُشهرون المصاحف يا هوراشيو في وجوهنا.. ماذا بإمكاننا أن نفعل إزاء المصاحف؟! كأننا يهود خيبر، يا هوراشيو..

هوراشيو: ماذا بإمكاننا أن نفعل إزاء المصاحف يا مولاي؟

هاملت: نحن بإمكاننا أن ندَّعي بأن هذه الجماجم تعود لرفاقنا الشهداء الذين اختُطفوا وعُذِّبوا وقُتلوا، وانتُزِعَت رؤوسهم ودُفِنَت بعيداً عن أجسادهم لكي لا يتعرَّف أحد عليهم.. هم بلا شهداء، يا عزيزي هوراشيو، ولا جماجم.

هوراشيو: نعم يا مولاي لا جماجم لهم.

هاملت: أتعتقد، يا عزيزي هوراشيو، أنّ حلمهم بالخلافة يمكن تحقيقه؟

هوراشيو: لا أعرف، يا مولاي، لكن من أين لهم بالسجّان، وقاطع الرؤوس، وأسواق النخاسة، والحمام الزاجل، والسبايا،

والغنائم، وديوان الخراج، وأهل الذمة، والنعال، وجفان الطعام، والشعراء المداحين، والجدل حول مرتكب الكبيرة وزواج المتعة؟..

هاملت: كل ذلك مقدورٌ عليه بقليل من الجنون، يا هوراشيو، يمكن أن يصير لهم كلّ ذلك. جنونهم الكبير يدَّخرونه لشيء أكبر وأعظم.

هوراشيو: لم أفهم يا مولاي.

هاملت: كلّ ما ذكرت، يا هوراشيو، أكسسوارات بسيطة لإنكار الزمن، واعتبار أربعة عشر قرناً لا شيء. هم يفكرون فيما هو أعظم، يا عزيزي.

هوراشيو: شيء أعظم.. شيء أعظم.

هاملت: نعم، يا هوراشيو، حتى يعيشوا الخلافة بجلالها ونخوتها، فلا بدّ لهم من سقيفة، وغزوات، وجمل عائشة، وخلفاء يُقتلون تباعاً، ومن خوارج يلعنونهم صباح مساء، ومن قبائل مرتدّة يقتلون رجالها، ويستبيحون فروج نسائها. لا بد لهم من مصاحف معلَّقة في أسنَّة الرماح والسيوف، ومن تحكيم، ومن خيانة أهل الكوفة في كربلاء، ومن شيعة وسنة ومُرجئة، ومعتزلة وملل ونِحَل، لا بد لهم من سمّ يُدسّ في طعام، ودسائس تُدبَّر وسط شعائر الحج، ومنجنيق يدمِّر الكعبة، وكفرة ينحرون في المساجد وأيام الأعياد.

هوراشيو: من المستحيل الحصول على هذه الأشياء، يا مولاي.

هاملت: بلى، بالجنون، يا هوراشيو، الجنون الهائل الذي يُنبِت كلّ هذا أمام أعينهم فلا يرون الأسلحة الحديثة التي في

أيديهم، ولا أحذية نايك التي ينتعلونها، ولا سترات المارينز التي يحتمون وراءها. الجنون الكبير، يا هوراشيو، والمدمر.

هوراشيو: أراك يائساً، يا مولاي.

هاملت: لا أعرف، يا هوراشيو، بي ما هو أكبر وأقوى من اليأس. أكادُ أجَنّ، يا عزيزي، لقد صرنا بازاراً مفتوحاً لكلّ عاهات البشرية منذ بدء الخليقة، والقادم أسوأ، القادم مرعب، إنه زمن الجنون الكبير، والعمى الهائل، يا صديقي.

هوراشيو: وهل علينا أن نجنّ نحن أيضاً لجنونهم الكبير، يا مولاي؟

هاملت: الجنون الآخر، يا صديقي، هو أن نحارب هؤلاء بالمفسدين، فنُطلق أيديهم تعيث فساداً في المدن، بدعوى أنهم القادرون على وقف الإسلاميين، فيتغذّى هؤلاء من أولئك، ويربحان معاً. المفسدُون يراكمون الثروات، ويخرِّبون المرفق العام، والإسلاميون يتقوون بجيوش من الشبان الضائعين واليائسين والحالمين بالحوريات وبالجنة.

انفجر العسكري ضاحكاً، فأعقبه ضحكهما. لكزته بالعكاز، وانحنيتُ، وهمستُ له بأنني تعبت، فاستأذنتهما في أن يوصلني إلى الدار ويعود. شكرتُهما وحييتهما. وفي الطريق قال لي: ما رأيك؟ وبعد تفكير، قلت له: لا أدري. يبدو أنّ وراء الخبير تجربة كبيرة. فشدَّ على يدي قائلاً: خلصت إلى هذا، ولم ترَهُ حين تداهمه أزمة الحبل. برافو. فتساءلت: أزمة الحبل؟ كنا قد بلغنا باب دارنا، أخرج المفتاح من جيبه، وفتح الباب، وقادني حتى سريري، وعاد إلى المكان دون أن يكلِّف نفسه عناء إجابتي.

عاشور الصغير

جاءت سيارة من دار الباشا في تمام العاشرة صباحاً تبحث عني. كنت غير بعيد عن الدار. التمسَ مني أحدهم بأدبٍ جمّ بأن أرافقهم لأمرٍ هام، فالحاج فرح السكرتير الشخصي للباشا ينتظرني. طلبتُ منهم أن يعطوني بعض الوقت حتى أغيِّر ثيابي، فرفضوا لأنّ الأمر الذي تلقوه من الحاج يقضي بأن لا يتأخروا. ركبتُ معهم وأنا أتصبَّب عرقاً من الحيرة والارتباك. كانت الطريق قصيرة جداً. سمعتُ البوابة الكبيرة وهي تفتح وسلام يتبادل، ثم سارت السيارة في الساحة الفسيحة بتمهُّل شديد. وتوقَّفت في جهة ما، وفتح الباب الخلفي، وامتدَّت يد ليدي وسحبتني، وصاحبها يقول لي: «دع عكازك في السيارة، سيدي، سأرافقك»، سحبني وسرنا نطَأ أرضية صقيلة زلقة كأنها من رخام، وسمعتُ خرير مياه وهمساً متقطِّعاً وشدوَ طيور، وشممتُ هواءً مشبعاً بروائح حديقة مزهرة. صعدنا درجاً، وسرنا في ما يبدو من هوائه الضاغط بأنه ممرّ، ثم وجدتني أجلس فوق كنبة ناعمة. جاء رجل آخر، تبيَّنت هذا من صوته الأجش، وطلب مني ماذا أشرب؟ فقلت له: شاي. فقال: بسكر أو بدونه؟ فأجبته: بسكر. وبعد دقائق، جاءني بالشاي، وضعَه على

الطاولة وقرَّبها مني، وانسحبَ وهو يقول بأنّ الحاج سيستقبلني بعد حين. دام هذا الحين دهراً كاملاً أحسستُ فيه كأنني في سجن، ولو أردتُ الانسحاب لن يكون بمقدوري ذلك، فأنا تحت رحمتهم تماماً، حتى العكّاز جرّدوني منه. كنت أسمع كلاماً بعيداً وخطى تعبُر ما يشبه ممراً بالقرب من المكان الذي أنا فيه. حاولت السيطرة على قلقي، لعلّ في الدعوة خيراً لي، ثم إنّ الوجود في هذا المكان، الذي عبَرَ منه التاريخ وفرّقت فيه المصائر، امتياز كبير في حدّ ذاته، يحلم به جُلّ أهل المدينة. غير أنّ إحساساً بالرهبة لم يكُن يفارقني، رهبة الأماكن الغامضة والمُثقَلة بالصرامة والأسرار، والتي تقتضي من بين ما تقتضيه بأنْ تنتظر فيها، تنتظر طويلاً جداً، حتى تتشرَّب فكرة أنك أدنى، وحتى تتمدَّد هواجسك بداخلك، وتكبُر كنزيف متحلِّل وتصير أكبر منك. ومن قدرتك على أن تتماسَك، وتستعيد ما كُنته قبل قليل وأنتَ تدخل. انتظر، لأنك شيء مهمَلٌ كمساحة أرجل، انتظر لأنك في دواخلك تقرّ بأن هناك تراتبية أكيدة تحترمها وتعمَل بها. انتظر لأن لا قدرة لك على أن تخرج، وتخبط الباب وراءك غاضباً. ليس الانتظار عارضاً تُمليه إكراهات تدبير مشاغل متراكِمَة على مَن يتم انتظاره، إنه فلسفة كاملة طوَّرت البلد، فبناء الخضوع والاستسلام والمهانة يبدأ من هناك. الانتظار عنفٌ وإفحام وترويض على قبول أنك تحت الرحمة، وأنك في حاجة، وأنت ووقتك ملكٌ لمَن تنتظره.

حين عرفتُ بما يكفي مَن أنا، وبعد ثلاثة ساعات كاملة من الوساوس والشكوك والتعب، امتدَّت لِيَدي يدٌ وسحبتني وسِرنا بضعة أمتار، ثم نقر مرافقي باباً وانتظر، ثم عاودَ النقر باحتشام شديد،

وسمع صوتاً آتياً من جوف بئر: ادخُل. ومرافقي يفتح الباب همس لي: «أنت داخل عند سيدي الحاج». تقدَّمت بخطواتٍ متردِّدة فوق سجاد ثخين، خفتُ أن أتعثَّر وأسقط، فتشبَّثت أكثر باليد التي تقودني، وسمعت الحاج يأمر مرافقي بأنْ يجلس الأستاذ في الكنبة، ويأتي له بكأس شاي. أجلِستُ في مقعد جلدي وثير، وسمعتُ الحاج على مبعدة مني في المكتب الواسع، وبصوت جهوري يتردَّد بداخله رنين معدني، صوت رجل متقدِّم في السن، لكنه ما زال يحتفظ بعنفوانه، يجري مكالمات يسأل فيها عن الصحة والأولاد ويضحك ويستشيط غضباً، ويُعطي أوامر، ويسأل عن أشياء متى تنجز، ويخرج من مكالمة ليتلقى أو يقوم بأخرى وسط زحام من الرنات، وتقليب الملفات، وتعنيف سكرتيرة مسكينة تقبَع في مكان قريب منه على نسيانها تذكيره في أمرٍ ما، والتغزُّل في امرأة سألها عن حالة الجو في باريس. لما يزيد عن نصف ساعة، تصرف الحاج كأنني غير موجود، وتلك منزلةٌ أخرى من منازل إذلال الناس، وذلك بتقريبهم وتجاهلهم في الوقت نفسه، لإشعارهم بتفاهتهم والتحدّث أمامهم بأريحية وبدون تحفظ، كأنهم جماد في أمورٍ وقضايا معقّدة ومتشابكة لا يُمسكون إلّا نتفاً منها. كان كلام الحاج بالقرب مني مثل استعراض عسكري لطائرات ودبابات وصواريخ وشاحنات جيش جرّار لإرهاب فأر مذعور أصلاً، وكلّ رجائه معلّق في جحر يتراءى له فيلوذ به. وربما كانت تلك النصف ساعة ويزيد من الثرثرة المتعالمة في أمور المال والأعمال مجرّد تبرير للساعات الثلاث من الانتظار، وبرهنة زائدة على أنّ الحاج لا يملك وقته، وأن عالماً صاخباً متحرِّقاً ينتظره في الطرف الآخر من هواتفه العديدة.

وأنا ساهمٌ في عزلتي الرهيبة اقترب مني الحاج وسمعته يحييني وهو يجلس في مكانٍ مقابل لي.

- أهلاً. أهلاً أستاذ معذرة على التأخير. ها أنت ترى الناس لا يتركوننا في حالنا. اشرب الشاي يا أستاذ. مرحباً. مرحباً.

كنتُ أتمتمُ أجوبة بلهاء ويخرج صوتي ضعيفاً متردِّداً. كنت مندحراً، مهزوماً، أرفع في وجهي المنهك راية استسلام، ثم وكأنه يقرأ في جذاذة أمامه وأنا أحرِّك رأسي دلالة الموافقة، بدأ وكملاك موت يتلو الخطوط العريضة في صحيفة حياتي. - سيدي محمد الغافقي، 22 سنة، طالب جامعي في السنة الثانية شعبة اللغة العربية وآدابها، توقّفت عن الدراسة حين صار عماك كاملاً، كان عليكَ ألّا تفعل، أفهمت؟ والدك الحاج المعطي الغافقي أمين تجار الزرابي، وهو ملالي من فخدة أولاد سعيد، أمك الحاجة زهرة، ملالية من فخدة امغيلة. لك ثلاث أخوات كُبراهن متزوجة وأخ عسكري أصيب في الحرب، جدة والدك كانت عريفة لدى الباشا بوزكري قدّس الله روحه. أنت يا سيدي محمد ابن هذه الدار التي لا تنسى مَن خدمها بإخلاص.

كدتُ أضحك من مفارقة مناداتي بسيدي بعد أن تعامَل معي نصف نهار كامل كحشرة تافهة. لم أندهش لما سمعته، فكلّنا في المدينة نعرف بأنهم يعرفون كلّ شيء عنا، وأنّ لكلِّ واحد ملفاً تسجّل فيه كل كبيرة وصغيرة عنه، وأنهم يراقبون كلّ ما نقوم به ويتفحصّون نوايانا ولا شيء عندهم متروك للصدفة من أمور الكائنات

الفقيرة والبئيسة التي يتآكلها الطمع، والحقد على ما في أيديهم. ثم أردَفَ الحاج بعد أن قدمني لنفسي:

- هنيئاً لك سيدي محمد. أبشِّرك بأنّ سيدي الباشا عطف عليك، واختاركَ لتكون أحد ندمائه. نعم. نعم. أفهمت؟ ستجالس حضرة الباشا من حين إلى حين. طيب. هنيئاً لك سيدي. أفهمت؟

كان بادياً له بأنني لم أفهم شيئاً، وأنه عجز عن ترتيب أفكاره ليقدِّم لي عرضاً مُقنِعاً وواضحاً، ولم ينجح حماسه في إخفاء ارتباكه في تبليغ ما أراد تبليغه، وكان يريد مني أن أملأ بفطنتي ما عجز هو عن ملئه. بقيتُ صامتاً وواضعاً كلّ فتوري في تقاسيم وجهي الجامدة. فاضطرّ بعد لأيٍ لأن يستجمع شتات أفكاره ويشرح لي من جديد بكلمات بطيئة:

- كان من عادة حضرة الباشا في مصر أن ينظِّم سهرات فكرية يحضُرها ثلّة من الأصدقاء يسمعون الأغاني، ويناقشون آخر الإصدارات، ويتبادلون الأفكار حول القضايا الراهنة، أفهمت؟ شبه نادٍ مغلق للترويح المفيد عن النفس، أفهمت؟ عاشور بيه الطبيب، وفهمي بيه الأزهري، وصدقي بيه الأستاذ، ووهبة يعقوب بيه القاضي، وحسنين بيه رجل أعمال، لا حسنين حضر جلستين فقط، وسافر إلى أميركا، وتوفيق بيه الموثق. أنا مَن طرحت الفكرة على حضرته. قلت له: أفهمت؟ سيدي، من حقّ شباب هذه المدينة الطيبة أنْ يستفيدوا من سعَة علمكم ومن أفكاركم الثاقبة، أنتم الذين جالستم وحاورتم طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم ويوسف السباعي. وغيرهم كثير، أفهمت؟ عمالقة الفكر

وأهرام الفن ووزراء وضباط كبار في الجيش كانوا يطلبون مشورة حضرته.

بعد فترة من الصمت يبدو أنه انتظر مني فيها أن أبادر لقول بعض الكلمات، أردفَ بصوت بدأ يجفّ ويقسو:

- طيب. طيب، كانوا كلهم عميان، لكنهم من خيرة ما أنجبَت مصر ذكاء وثقافة وتجارب، أفهمت؟ يصرّ حضرته على أن يكون مع أناس، يقتسم معهم شيئاً ما، أفهمت؟ يريد أن يكون على راحته تماماً. ولكن ليس مع أيٍّ كان، أفهمت؟ يريد أن يكون مع مَن بإمكانه أن يفهمه ويحاوره.

أعرف أنه ينظر إليّ بِغَيظٍ مكتوم، وأن صمتي ووجهي الجامد محبِطان له وهو يقدِّم لي فرصة حياتي في مُجالسة الباشا، لكن ما لا يعرفه الحاج هو أنني كنت متعباً جداً وضائعاً، مثل دودة تتلقى درساً لاهوتياً حول طبيعة الملائكة، ومكوّنات الجنة، وكنت غير قادر على تمييز الذهب من البراز، وعلى غير كلّ ما توقّعت ضحك الحاج ضحكة صافية وأردف:

- منذ الآن وما أن تدخل القصر فأنت عاشور الصغير. هكذا سأسميك لأنّ بينكما شَبَهٌ كبير، أفهمت؟ رغمَ أنّ عاشور بيه رحمه الله كان طيباً وفقَدَ بصره بسبب السكري اللعين، فقد كان محباً كبيراً للأدب وللشعر خاصة. عاشور الصغير. نعم. نعم يليقُ بك هذا الاسم، وأتمنى أن تكون جديراً به، أفهمت؟ اخترنا إلى جانبك شباناً آخرين ستتعرَّف عليهم إنْ شاء الله.

ثم نهضَ وضغط على زرّ دخل على إثره أحدهم، وأمره بأن يأخذني عند الخياط ليأخذ لي بعض المقاسات ويُعيدني له. وأنا أخرجَ طلب مني أن أعطيه بطاقتي الوطنية. سِرنا في ردهات وصعدنا درجاً ونزلنا أخرى، وفتحت في وجهينا أبواب، وأغلقت وراءنا حتى دخلنا حجرة فيها رائحة ثوب محترق. وتلقّفني الخياط المهذار بيديه الناعمتين وصوته الأنثوي، ونكّل بي كثيراً ليأخذ لي مقاسات تافهة من رأسي حتى قدمي. ثم عدنا إلى الحاج، أجلسني المرافق في الكنبة نفسها، كنت خائفاً من أن يندلق العالم المنتظر في أطراف هواتفه الكثيرة مرة أخرى، إنْ حدث ذلك سيُغمى عليّ، لكنه ولأمرٍ ما استحثه على الفراغ من أمري، جاء عندي وهو يقول:

- اسمع، عاشور الصغير. سيعدّ لك خياط الدار عدّة بدلات ستتوصَّل بها قريباً، عليك كلّما كنت آتياً إلى هنا أن تستحم، وتلبس إحداها، أفهمت؟ حضرته يحب الأناقة والنظافة. وسكت سكوتاً مسرحياً طويلاً رحمة بقلبي، ثم قال وهو يقطر الحروف تقطيراً: أبشِّرك بأنّ حضرته تكلَّم في شأنك، ووجَد لك وظيفة بالبلدية، ابتداء من يوم الاثنين القادم، اذهَب إلى هناك لتسلُّم وظيفتك، وسينعم عليك قريباً بمأذونية نقل تؤمّن لك حياتك، أفهمت؟ حضرته حريص على رفاه مَن يعطف عليهم «ولسوف يعطيك فترضى».

ثم نهض من جديد وضغط على الزر وهو يقول لي:

- ما أن تتوصل بالبدلات عليك أن لا تغادر داركم بين السابعة والحادية عشرة مساء، لأيّ سبب من الأسباب، أفهمت؟ ربما يريد حضرته مجالستكم. لا أحد بإمكانه توقّع ما يريده حضرته، علينا أن نكون يقظين وجاهزين، أفهمت؟ هنيئاً لك عاشور الصغير. هناك أشياء أخرى سنضبطها في حينها. مع السلامة.

وأمرَ مَن دخل بأن يُعيدني إلى دارنا. وضعَ الرجل يده في يدي، وسحبني كالخرقة وراءه. وجدنا السيارة في انتظارنا، وحين لمستُ عكازي أحسستُ كأنني عدتُ إلى العالم الذي أألفه، وأن كابوساً ثقيلاً انزاح عن صدري.

وأنا في الطريق إلى دارنا، أحسستُ بأنّ كلّ المشاعر التي عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة كانت تتصارع بداخلي. لم أكُن ممتلئاً بشيء من تلك الأشياء التي تنتابُ المرء حين تهجم عليه الحياة بخطب ما، يقلب رأسه على عقب، بل كنت خاوياً كقصبة مستسلمة لكلّ شيء يريد أن يعبرها: الخوف، الفرح، القرف، الدهشة، الغم، الانتشاء، اليأس، القلق، وكنت بالأساس ميتاً من الجوع وشاي الدار الكبيرة النبيل يقرقر في بطني.

صلى الوالد ركعتَي شكر لله، ومنعَت أمي نفسها من أن تزغرد بصعوبة مخافَة أن يتجمَّع علينا الجيران، وبقيتُ وسط زوبعة الفرح هادئاً. أوصلتني السيارة حتى باب الدار، وفهم كلّ مَن رأى لونها ورقمها بأنها أتت بي من هناك. وأمام كبر وجلال ما وقع، لم يعُد معنى لِما خلفه حادث السطح بيني وبين أهل الدار، وذاب الحرج والخجل والتوجُّس كفَصّ ملح. حكيت ما وقع باختصار في البداية، ثم بالتفاصيل المملة تحت ضغط إلحاحهم، وأجبتُ عن أسئلة كثيرة واضطررتُ لإعادة قول ما سبق أن قلته مرات عديدة. كانوا ذاهلين وممتطينِ صهوة انتشاء كبير يجعلهم يسمعون محتبسي الأنفاس ما سبق أن سمعوه. وحده العسكري نأى عن الزوبعة وبقي - أحدس ذلك - يرقُب ما يجري أمامي ببسمة ساخرة.

ها أنا قد اختبرتُ كيف أنك لا تخرج أبداً الشخص نفسه إن أنت دخلت إلى هناك، وما ينبغي لك، ولا رأي لك، ولا أهمية لبقائك صامتاً كمتاع يحول من مكان إلى آخر، فإمّا أن تخرج فائزاً أو محطَّماً. دخلت نكرة بئيسة صالحة للتسوّل أمام بنك أو باب مقبرة، وخرجت نديماً للباشا دخلت عاطلاً يائساً، وخرجت موظفاً. ودخلت، وأنت محمد الغافقي، وخرجت وأنت عاشور الصغير لأنّ الحاج فرح - أو ربما هو الباشا نفسه - قد تشبَع بذلك السخاء المشرقي في توزيع الألقاب، والبحث لكلّ شيء عن أشباه ونظائر، من زمن كوكب الشرق والعندليب الأسمر حتى سلاطين وملوك وأمراء الطرب التافهين الآن.

ليلتها عادت الدار لسير الباشا عبد السلام عندما ركب رفقة ابنه طه ومجموعة من الخدم والمرافقين مركباً إنجليزياً تجاه الإسكندرية. فهو لم يكُن يحمل معه أمتعة عادية لولده ولمَن سيسهرون هناك على راحته، بل كان يدسّ وسط ذلك ثروة هائلة من سبائك الذهب والعملات الأجنبية، فبذكائه الكبير فهم أنّ حركة الأموال تجاه فرنسا مكشوفة تماماً، ولو صرف فرنكاً واحداً في باريس سيصل خبره إلى الرباط، وأن القاهرة بضباطها الأحرار تبدو مكاناً جيداً لانتظار ما ستؤول إليه الأوضاع في البلد، وهناك لن تطال أمواله اليد النهمة للمخزن، إنْ فاز في الواجهة وعاد لعادته في أكل أبنائه واستصفاء أموالهم. وإن فازت المعارضة ذات الأهواء القومية فقد سبقهم إلى كعبة الحلم بوطن واحدٍ من البحر إلى البحر ورسّخ رجله هناك. دامت مهمة ترتيب أوضاع طه هناك، المعلنة، سنوات كاملة كان يعود فيها إلى المغرب أياماً معدودة، اشترى فيها الباشا قصراً على

الضفة اليسرى للنيل كان في ملكية إسماعيل صدقي باشا، وقام باستثمارات صغيرة ومحسوبة في مجالات الأبناك والعقار، ومواد البناء، واشترى عزبة كبيرة قرب المنوفية، وتبرّع بسخاء كلما رفع ضابط من الضباط سبابته لأمر ما، وكانت تهنئاته وتأييده لجمال عبد الناصر في المناسبات الوطنية، وكلّما خطب أو توعَّد إسرائيل تملأ صفحة كاملة من صحيفة الأهرام، حتى صار اسم رجل الأعمال عبد السلام المغربي اسماً صاعداً في سماء نجوم القاهرة، غير أنّ الباشا لم يكُن ينسى السفير المغربي، وبرقيات التهنئة للقصر، والتكفُّل بمصاريف الاحتفال بعيد العرش وعيد الاستقلال، وتنظيم حفلات عشاء فاخرة لكلّ مَن له شأن في المغرب، ووطأت رجله القاهرة.
وحينما كان عبد السلام المغربي يتدبّر بألمعية كبيرة وضعية منفى اختياري شائك يطارده فيه تاريخ مشين مع المستعمر في قلب مكان كانت رموز الحركة الوطنية توجه منه نداء القاهرة لتحريض الناس على المقاومة، كان طه يتلقى دروساً في القصر أهّلته لاجتياز البكالوريا، ودخل جامعة عين شمس شعبة الآداب، ولم يكُن بعض الأساتذة يكتفون بإيلائه أهمية كبيرة في الفصول، بل كانوا يعيدون الدروس بتوسّع أمامه في القصر، ويدفعهم حماسهم لتصحيح أوراقه التي أملاها أمامه. بدأت الشهادات الجامعية تتهالك على رجليه تباعاً حتى حصل على الدكتوراة في موضوع: «شعر الغزل عند ابن زيدون»، دكتوراة من تلك الشواهد الكبيرة الناعمة التي لا تؤكِل جائعاً واحداً، ولا تحارب عشباً ضاراً في حقل صغير، ولا تفسِّر وجعاً خفيفاً في بطن، ولكنها تمنح لقباً مهيباً تشقّ به الطرق إلى المناصب والمراتب العليا في وطن عربي، تدبّر أموره الخطابة والزبد المتطاير من الأفواه. غير أنّ طه لم يكُن في حاجة إلى لقب يزين به

وضعه الاعتباري في مدينة يتنابَزُ الناس فيها بالألقاب حتى أنّ الحاج فرح سكرتير الباشا كان يخاطب هو أيضاً بالباشا، وبالبيه وبالدكتور. ولم لا يلقب هو أيضاً بالدكتور؟ وقد تلقى، ومنذ أن ارتأى الباشا بوزكري أن يكون عبد صغير نجيب لم يتجاوز بعد ستّ سنوات رفيق وحارس طه ومشاركه في اللعب، تلقى هو أيضاً الدروس نفسها التي تلقاها الباشا، وتعلّم الإنجليزية، وحفظ أجزاء من القرآن والمعلقات وبعض خطب نهج البلاغة، وتلقى معه كلّ دروس الابتدائي والثانوي والجامعي. ورغم أنه كان بمثابة عكاز للباشا الصغير، وكان عليه أن يبقى جامداً بلا حراك طيلة تلقيه لدروسه، فإنه كان يستوعب ويحفر في ذاكرته ما يُقال، ويسعف الباشا الصغير حين يحتاج إلى رقم أو إلى كلمة أو إلى معلومة أو إلى صياغة لغوية لفكرة. كان مذكّرة حية تمشي على رجلين، وتقود الباشا من يده وتعرف أفكاره، وتفهم عذاباته من تنهيدة أو زفرة. لم يعرف الحاج فرح شيئاً آخر في الدنيا غير خدمة الباشا طه، من خلاله يرى العالم، ويفهم ويتذوّق ويفسِّر الأشياء، ولا يتحدَّث إلّا فيما فعله وقاله الباشا، هو الظلّ والصدى وعباد الشمس المتشوف أبداً لنور سيده.

بعد شهور، بدأ يظهر في القصر إنجليزيان وليام كالاغير وإدوار طومسون يحملان حقيبتين مليئتين بالأوراق، وينزويان مع الباشا عبد السلام لساعات في حجرة لا يَقربها أحد. ومن تلك الحجرة المغلقة، ووسط دخان خانق، كانت الأموال التي انتزعها الباشا بوزكري، ومن بعده الباشا عبد السلام، من القبائل الفقيرة توزَّع في حسابات مصرفية واستثمارات وصفقات تصدير واستيراد بلندن ونيويورك، وكالكوتا، وسيدني وبانكوك، وبعض الجنات الضريبية

في جزر كان الباشا عبد السلام يسمع بها لأول مرة. ما أن ظهر الرجلان حتى صارت القاهرة مجرّد مكان لإصدار أوامر وتوقيع مستندات ومراقبة بيانات ثروة نمَت كالعشب في بلدان عديدة، ولم تعُد صالحة بفتات ما استثمره فيها إلّا للتمويه، وتنظيم سهرات باذخة، وتقديم التهاني في الأهرام لعبد الناصر.

في شهر رمضان سنة 1960، وقع ببني ملال حادثٌ أثبت له بأنه كان على حقّ في كلّ توقعاته، فقد اندلعت ما صار يعرف في أدبيات اليسار، بانتفاضة القايد البشير بن التهامي، الذي اغتال رفقة القايد حمو الفاخري عميد الشرطة أوقبلي وفرّا إلى الجبال المجاورة لبني ملال، وهناك هاجما، رفقة مَن انضاف إليهما (يردّد الباشا أسماء قادة جمهورية تاگلفت الخاطفة واحداً، واحداً، وهو يبتسم بسخرية مرة: محمد المذكوري، محمد بوكرين، حماد أوبوجو، الذهبي اللاص، سيدي موح احنصال، حسن لعريبي وحدو أومحى) ثكنة تاگلفت، وحصلوا على بنادق وخراطيش ومدفع رشاش وقنابل عنقودية. ولأربعة أيام، أسسا جمهورية شعبية أوهى من زخّة مطر في سمائم أغسطس. إذ تعاونت جماهير رعاة الجبل التي كانت تتلقى منهم محاضرات غريبة عن حرب العصابات والاشتراكية العلمية، وديكتاتورية البروليتاريا، وخيانة المناطق التي كان من المفترض أن تندلع فيها هي أيضاً انتفاضات متشابهة، مع الجيش الذي أتى تحت قيادة الجنرال حفيظ العلوي لإنهاء الجمهورية قبل تعيين أول حكومة لها، ونجح في ذلك بدون خسائر تُذكر. وحين اعتقل قادة الانتفاضة عثر في أوراقهم على قائمة مَن يتوجب تصفيتهم، وكان الباشا عبدالسلام في صدارة قائمة الموت، كما بيّنت ذلك أطوار المحاكمة

وما نشرته الجرائد في حينه. روع الباشا عبد السلام لأنه كان يفكر في قضاء رمضان الانتفاضة ببني ملال، لو لم تمنعه وهو يهمّ بالسفر بعض المشاغل الطارئة. وبتأثير مشؤوم من هذه القائمة الغادرة، اعتلَّت صحته وصار يقضي أيامه منزوياً لا يخاطب العالم إلّا عبر التلفون، ويقضي ليله أرقاً يذرع حجرته جيئة وذهاباً. كان يعرف أنه مهدَّد في حياته منذ أن بدأ السباق الضاري نحو الحكم، لكن ذلك كان مجرد احتمال من احتمالات بلد يهزأ في الغالب بكلّ التوقعات، أما وقد صار رأسه هدفاً أولاً لجمهورية غريبة نشأت في ذهن حفنة من المغامرين، ولا أحد يعرف امتداداتهم في الوطن وخارجه، فمن واجبه أن يقلق ويحتاط، إذ لا شك أنهم يتتبعون خطاه، ويجمعون المعلومات عنه.

دامت وساوس الباشا ثلاث سنوات، نهشت فيها فكرة كونه مطارداً جسده، وأحالته كومة عظام. سنوات عجاف من الألم، والأرق، والترقب، والزيارات الخاطفة للمدينة متنكراً لدفن كلّ العلامات التي يمكن أن تقودهم إليه، إذ كان يمرِّر أخباراً وهو في ضيعته عن الحفل الذي سينظمه ذلك المساء في باريس، وعن كونه عيِّن هناك مستشاراً لشركة سلاح كبيرة، لذلك باعَ قصره في القاهرة وأرسل الباشا الصغير إلى لبنان، وغيرها من التفاهات التي تلوكها ألسن الناس، لكنها لا تُبعد عنه هاجس فوهة المسدس المصوب لجبهته. وفي 15 مارس 1963، دعي على عجل إلى الرباط، وحدّثه رضا كديرة مدير ديوان الملك عن فكرة تشكيل جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية (ما عرف بالفديك)، وأنهم فكروا في كلّ المخلصين للعرش لتشكيل قوة سياسية تُساند الملك، وتحمي الدستور والديمقراطية الفتية. وحضر في 20 مارس 1963، الندوة

الصحفية التي أعلنت فيها الجبهة، وأخذت له صورة تاريخية رفقة رضا كديرة وباحنيني والدكتور الخطيب وأحمد العلوي والمحجوبي أحرضان تخلد لأوّل تجربة للملك في تأسيس حزب يخوض به غمار السياسة. ومن هناك، عاد بمعنويات مرتفعة وبتطمينات ليخوض الانتخابات التشريعية ضدّ تاجر مواد غذائية من حزب الاستقلال، ومعلم من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. فتح داره طيلة الحملة لجياع المدينة الذين أكلوا وشربوا وسرقوا الكؤوس والأواني، وبقروا ما يجلسون عليه بشفرات الحلاقة، وأخذوا كومات من الصوف تحت ثيابهم، وتركوا صغارهم يتبوّلون فوق زرابي فارسية، ويتخاطفون ورود تزيين موائد الأكل، وكان يراهم في مسيرات خصميه يشتمونه، ويرددون «والله حتى نعرگها والصفرا نشركها».
أمطر أوراق لونه الانتخابي الصفراء من فوق طائرات رشّ المبيدات، ووزع أموالاً وشاياً وسكراً وثياباً بسخاء جنوني، إذ لم تكن الانتخابات صراعاً حول منصب في البرلمان، بل محكاً لنفوذ عائلة، وامتحاناً لتاريخ فعلوا فيه ما شاءوا بالناس. وحين خرجت النتائج أغمي عليه، فقد احتلّ الرتبة الثالثة، وبعدد أصوات مُهين لا يساوي حتى عدد العمال الذين يأكلون من أيديهم، وشمتت فيه وفي غيره جريدة العلم بمانشيت كبير: «تمخّض الجبل وولد فأراً».

لجأ محطّماً تماماً إلى القاهرة، فقد خَذَلَ الملك وجبهته للدفاع عن الحُكم المطلق، وتكسَّرت في جسده النصال على النصال، وفتك به غيظ تقديم رأسه لمَن هبّ ودب ليقيء عليه حقده. أنذره الأطباء بأنّ قلبه لن يحتمل إلّا الوقت الذي يرتّب فيه ما بعده. أيامها اعترف للباشا الصغير بأنه المالك الفعلي لكل شيء، وأنه كان

يتصرف فقط فيما كتبه له جده، وأعطاه أرقام الأرصدة البنكية ومستندات الاستثمارات، ونشر أمامه الخريطة المدوّخة لأموال القبائل حين تحوّلت لأسهم في البورصات العالمية. وعرفه على وليام وإدوار، وعلى كلّ المحاسبين المتفرقين في أرجاء الدنيا، وقبَّل يده وهو يقول له بصوت مختنق: «سامحني على كل شيء يا بني»

ومات يوم 23 أكتوبر 1964، ودفن هناك في مقبرة اشترى أرضيتها الباشا الصغير، وبناها ببناء يليق بوالده. وكان الناس، ولسنوات، يسمعون القرآن يتلى فيها من الفجر حتى صلاة العشاء، من طرف مقرئين متناوبين، وكانت الصدقات توزَّع كل صباح جمعة في بوابة المقبرة.

الحبل

سألت عن العسكري في الدار، فقالوا لي بأنه لم يدخل بعد فعرفتُ أنه عند هاملت وهوراشيو. تردَّدت كثيراً لكنني سرت في النهاية إلى هناك، رغم الكلفة النفسية الفادحة التي يسبِّبها لي الإحساس بأنني محاطٌ بأكوام من الجماجم. وجدتُ الباب موارباً قليلاً، وتناهت إليّ حشرجة أعقبها أنين خافت مثل ذاك الذي يصعده حيوان جريح يرى الصباح الفاضح يقبل وهو قد علق بعصيدة لم تعُد له أصلاً دخلت بحذر وخوف شديد، فتلقفتني يد العسكري وهو يقول لي:

- الخبير في أزمته التي حدّثتك عنها. لا تخَف سرعان ما سيجتازها، الأمر أشبه بنوبة صرع.

كان يئنّ ويتألم ويتلوى في الأرضية الباردة والمتربة للمكان، ومساعده يتعقَّب انتفاضة جسده، كما تصوّرت، محاولاً تهدئته. يئن ويتحشرج، ثم يهدأ قليلاً كأنّ يد رحمة مسحت على جسده ومنحته سكينة وسلاماً مؤقتين. ثم يبكي بحرقة، ذلك البكاء الذي ينهمر قوياً كماء سيل حبس حتى تجمَّع فداسَ كلّ ما يعترضه. وأسمع همسات المساعد المتضرِّعة وهي تحاول أن تهدئه. ما به؟ ولماذا يفعل هذا

بنفسه؟ أحسستُ كأنني في جلسة تعذيب قاسٍ تتولّاه شياطين تمتلك قوى مخيفة. كنت أسمع، وأنا مُجمّع على نفسي، أنات وحركات ونداءات روح تتعذَّب وجسد يُنكّل به. ولا أملك له شيئاً أنا الشاهد الصامت والعاجز عن خدمة أو مواساة. وحتى إن كان بمقدوري أن أفعل شيئاً فلا سبيل لذلك، فما يجري يحدث في عالم آخر أعمق غوراً، وأوسع من مغارة وأعقد من نفس بشرية. ثم صاح:

- يا إلهي. كانوا ستة. كانوا خمسة، ستة. السادس بقي في السيارة.

فردَّ المساعد:

- ستة. السادس لم يصعد معهم بقي في السيارة. هذا ما قلت لي مراراً.

همهم بشيء، ثم صاح مرة أخرى:

- كانوا خمسة. واحد جمعنا تحت رجليه، أنا وأمي وأختي، وجلس فوق كرسي. كان يبتسم وهو يمضغ العلكة، وكنّا نبكي وهو يأمرنا بأن نبقى هادئين فسينتهي الأمر بسرعة، وسحبه الأربعة إلى حجرة نومه، كنّا نسمع صراخه وتوسّله وبكاءه.

ثم توقف من جديد، ودخل في نوبة بكاء، فامتلأت عيناي بالدموع، وسمعت العسكري ينتحب في صمت هو الآخر. وقال بصوت مختنق وشبه هامس:

- خمسة في الهزيع الأخير من الليل، فتحوا الباب بعُنف وألقوه أمامنا ويداه مكبّلتان، ثم جرجروه إلى حجرة نومه. كنا نسمع خبطاً يتلوه تأوّه وتوسّل ونشيج. . ونرى العلكة في فم مَن يُبقينا تحت

رجليه، ويأمرنا بالهدوء، بل إنه يقول لنا مبتسماً: لا تخافوا سيعترف أين خبأ بعض الأشياء ونترككم في سلام.

قال له المساعد بصوت متضرِّع:

- أرجوك كفى. كفى. لقد حكيت ذلك مئات المرات.

همهم لنفسه مرة أخرى بشيء، كأنه يجري حوارين: واحداً داخلياً مبهماً ومؤلماً يحفر فيه بداخله ولا يقوى على إخراج الكلام، وآخر موجهاً لعالم كان شاهداً صامتاً على ما جرى، فيه خليط محزن من التفجّع والشكوى والألم:

- خمسة يكادون يكسرون الباب. يجب أن يعرف العالم ما وقع. ويلقونه كالخرقة، خمسة شداد، غلاظ، جبابرة، يسقط على وجهه، لأنّ يديه كانتا مكبَّلتين في ظهره. جرَت أمي المريضة بالقلب باكية وحاولت أن ترفع رأسه فضربها أحدهم بركلة أسقطتها بعيداً عنه، وهو يقول لها: «ابتعدي أيتها القحبة». جمعنا صاحب العلكة، وطلب منا الهدوء، انتحبت أمي وكبَّت على رجليه تقبِّلهما: «إنه مريض. والله العظيم مريض. بالله عليك قلْ لهم إنه مريض» لكنهم كانوا قد أغلقوا الباب وراءهم بعد أن سحبوه إلى حجرة نومه. مخلوقات لها جمر في عيونها ومخالب في أيديها وقواطع في أفواهها، ولها أحجار في قلوبها، وتتصرف ببرودة آلية كأنهم مسخَّرون من طرف شياطين تتلهى برؤية الشرّ المطلق وهو يعبث بمصائر الناس. وكلما سمعنا صراخه، كانت أمي تنتفض وتقول لصاحب العلكة وهي على حافة الإغماء: «يا ناس إنه مريض. مريض جداً» فيبتسم ويطمئنها: «لا عليك. إنهم يتفاهمون بهدوء معه لكي لا يُعدي بمرضه الناس من حوله. لا تقلقي»، ثم سمعنا

ضربة قوية أعقبَها صمت وهمهمة غاضبة، أعقبَها شجار خرج على إثره أحدهم، وقال لمن كان يمضغ العلكة ويراقبنا: «فعلها الأحمق. المريض مرة أخرى». وأشار بيده إلى عنقه دلالة النحر. هرع مَن كان يراقبنا إلى الحجرة غاضباً، وبعد دقائق عادَ مضطرباً وطلب من أمي حبلاً

قام، وبدأ يخبط رأسه ويديه بالحائط، والمساعد يسترحمه أن يهدأ تدخل العسكري أيضاً وتمكَّنا من أن يبعداه عن الجدار الذي كان يريد أن يحطِّم به شيئاً فيه علّه يتخلص من كوابيسه. تهاوى على الأرض، وبدأ يبكي مجدداً ذلك البكاء الملتاع العميق الصادر عن مأساة، لم تعُد تقيم في الذاكرة فقط، بل سكنت العظام والعروق والمسام. تلك المآسي التي تلدُ في رحمها إنساناً معذّباً ممزقاً لا يرى ما أمامه إلّا من خلال دخان الكارثة وأنقاضها. عاد العسكري إلى مكانه معتقداً أنّ الأزمة انتهت، لكنه صاح:

- يا إلهي. هذه اليد يدي وأكرهها. وقفَ المجرم فوق رأس أمي المريضة بالقلب، وأمرها أن تعطيه حبلاً وهي منهارة وعاجزة عن أن تتحرَّك أو تفكِّر حتى، لطمها وركلها فزحفتُ على بطني، وأخرجتُ حبلاً أزرق خبَّأته تحت الثلاجة لألعب به لعبة الحبل مع أختي. أخذه مني المجرم ومسح على رأسي بيده القوية دلالة الرضى. لم أكُن أريد إلّا أن أنقذ أمي من وقفته الغاضبة فوق رأسها: يا إلهي. يا إلهي. يا إلهي، أنت تعرف فلِمَ جعلتني شريكاً في الجريمة.

يواسيه المساعد:

- لكنك لم تكُن تعرف، من أين لك أن تعرف؟

وقف مجدداً وخبط الجدار بيده، وقال كأنه يؤدي دوراً في تراجيدية يونانية:

- أتعرف أقسى ما يمكن أن يتعرَّض له المرء وهو أن يتَّخذه القدر أداة لإيذاء أعزّ الناس إليه. كأن تريد أن تمسح بندقية وتطلق بلا قصد طلقة قاتلة تجاه حبيبتك، أو أن تعطي حبلاً لعتاة وهم يريدون أن يشنقوا به والدك. يا إلهي. يا إلهي.

قال المساعد بصوت متهدل على حافة البكاء:

- لم تكن تعرف. لم تكن تعرف. لماذا تعذِّب نفسك بشيء وقع في مارس 1973 بعد أحداث مولاي بوعزة.

- من يوم الحادثة لا آكل بها ولا أكتب ولا أحمل بها شيئاً.

سمعته يتهاوى إلى الأرض من جديد، وبصوتٍ أشبه بالأنين واصل:

- هذه اليد أكرهها وسأبترها في يوم ما. أكره يدي وأمقتها وكم أطفأتُ فيها أعقاب السجائر، ليست مني ولا من جسدي. كانت أختي التي تصغرني بعامين تحتمي بي، بل تغرس أظافرها في لحمي حين تهاوَت أمي التي فهمت كل شيء. وحين خرجوا من حجرة والدي، أغلقوا الباب بالساروت، وأخذوه معهم وخبطوا الباب، وبقينا أنا وأختي باكين ضائعين نرتجف من الخوف وبَلَل بولنا في ثيابنا، بين أمٍّ في غيبوبة وأبٍ صامت مسجون في الداخل. بقينا هكذا ساعات، ساعات طوال يا ناس. طلع النهار وخرج الناس إلى أعمالهم والأطفال إلى مدارسهم، وأنا وأختي نرتجف ونحتمي ببعضنا بين أمٍّ بلا حراك وأب في الداخل لا نعرف لماذا لم يخرج، وسمعت دقات باب ونداءات جارتنا (التي سمعت كلّ ما جرى في الليل هي وغيرها من الجيران) ولم أقوَ على النهوض لفتح الباب

أجبناها ببكائنا فقط. بعد دقائق كسروا الباب ورأونا كما كنا طفلين، ذاهلين، مرتعشين، مبللين نجيا من الدمار بقرب جثة والدتهما، وحين عالجوا باب حجرة الوالد وجدوه معلقاً إلى جانب الثريا بالحبل الذي أعطيته لهم. وبركة صغيرة من الدّماء تحته وثيابه ممزقة تتراءى من خلالها كدمات زرقاء في جسده.

ثم بدأ يضحك ضحكاً هستيرياً متشنجاً.

- يا إلهي. كيف لا تجنّ. كيف لا تجن. كان المحققون يتلطّفون معنا. يسألوننا عن المشاكل التي كانت بين أمي وأبي. وكم من مرة تشاجرا أمامنا. ويتأسفون للكيفية التي قاد بها شجار بسيط في منتصف الليل إلى كل ذلك الخراب العائلي. يعطونني حلوى ويشجِّعون اليتيم الذي صرته على أن يرتّب الوقائع كما رآها وعلى أن لا يغفل أياً من التفاصيل حتى ولو كانت تافهة: مَن انتحر أو مات الأول؟ لماذا هناك كدمات في جسد الوالد وفي أمكنة لا تطالها يده؟ ماذا قال الوالد قبل أن يدخل إلى حجرته ويغلق الباب عليه وينتحر؟ هل تطوّر الشجار إلى ضرب متبادل بينهما؟ فهناك آثار ضرب عنيف ولا يمكنه أن يكون هو مَن أحدثه في جسده. وكنت أبكي بحرقة وأقول لهم وهم يبتسمون بأنّ أبي كان يرسم لي الفراشات ويقرأ لي الشعر ولا يدخل الدار إلا وباقة ورد في يده ويسمع فريد الأطرش وهو يغني «فوق غصنك يا لمونة..» ويأخذنا كل أسبوع إلى السينما ولا يقدر أن يشارك أمي في قتل ذبابة أو صرصور. لكن الخمسة الذين أخذوه ثلاثة أيام كاملة ثم أعادوه في تلك الليلة. اختفَت ابتساماتهم وجمعوا أوراقهم وقالوا لبعضهم: أي خمسة؟ نعم. نعم. كوابيس الصدمة ألم تسمعوا الفراشات والشعر. نكتفي بهذا القدر يا بني لقد قلت كلّ شيء. هناك شك ما في إخلاص الزوجة

سمَّم العلاقة في ما بينهما وقاد للكارثة. كان الرجل رومانسياً من شهادة ابنه نفسه ولم يتحمّل. هكذا كلّ ما في الأمر.

آه يا أوغاد. آه يا سفَلة، أمي عاهرة يا أولاد القحاب. حتى الجيران أولاد القحاب، يعرفون كل شيء ويقولون هم أيضاً انتحر. آهٍ يا شعب الصمت والخذلان والخيانة، يا شعب الجبن الذي يتلذّذ برؤية أجمل أزهاره وهي ترفس بلا رحمة أمامه. أستاذ في الجامعة وشاعر فوق ذلك، يا ناس، يعامل معاملة الكلاب. لم يقتلوه فقط، بل يتبرَّزون فوق قبره أيضاً وقبر زوجته.

عدنا إلى الدار أنا والعسكري بعد أن هدأ ونام، صامتين، متعبين، كأننا كنّا في جنازة ميت عزيز. سألته عن مصير أخت الخبير وقال لي بأنه فهم من هذيانه في نوبة أخرى بأنها جنّت. حين اتخذ كل واحد منا مكانه في السرير كنت أفكر بأنّ الجماجم الحقيقية هي ما يحمله الخبير بداخله، وما يحمله كل واحد منا، مقابر فسيحة ومظلمة بشواهد قبور ناتئة: عقدة الذنب والحقد والتفجع والمخاوف والذكريات المريرة. وكان العسكري يزفر وهو يتلوى في فراشه وحين هدأ واعتقدت أنه نام سمعته يقول لي: معه حق، هناك سؤال أخلاقي كبير يجب أن يطرحه هذا الشعب على نفسه، الدولة ازدردَت كلّ جرائمها بجُرعة ماء الإنصاف والمصالحة، ومرَّرت قطناً ينزّ بيتادين على الجراح المتقيِّحة التي ينخرها الدود. هل صارح هذا الشعب نفسه واعترف بجُبنه وَصَغاره حين كان الناس يُساقون في الليل إلى المسالخ كالدواب، وحين كانت الأبواب تكسر والناس يختفون والأسر تشرّد لأنهم يقرؤون جريدة، أو ضبطت لديهم منشورات أو كاسيت للشيخ إمام أو كتاب للينين؟! ماذا فعل الجار

لجاره وهو يراه يُسحل، والصديق لصديقه، والرفيق لرفيقه؟! كانت الحياة تستمرّ بعد الجريمة في العمارة والحي والمدينة والحزب والتنظيم كأنّ ما رأوه وما سمعوه وقع في فيلم السهرة المرعب فقط، لكن ما يحزّ في النفس هو أنّ هذا الشعب الذي عليه أن يكفِّر عن ذنبه تجاه الضحايا لم يتَّعظ بما وقع، وها هو فرح بإعادة صناعة الفرادة الإلهية والتي وكأيّ ألوهية تحترم نفسها لن تنتج إلّا تعاقباً آخر لقسوة كبيرة توشى برحمة عابرة. ثم ضحك تلك الضحكة الساخرة التي يُبدعها وسط أشدّ لحظات مرارته: أشاهدتَ تلك الجلسات البئيسة والميتافيزيقية في التلفزيون المسماة جلسات استماع والتي عرضت علينا الضحية والطعنة والخنجر المضرّج بالدم، لكن بلا قاتل؟ جريمة بلا مجرم متفجّع يبكي ويطلب الصفح. كان ينقص كلّ ذلك الإخراج المسرحي الرديء، مجرم واحد يجعل العرض مقبولاً ومسلِّياً بعض الشيء، لكن مَن هندسوا ذلك التخلص الرشيق والناعم من الماضي، واعتقدوا أن مالاً منثوراً، هنا وهناك، يمسح كلّ شيء بخلوا على المشهد بمجرم واحد يضحّون به. أتعرف لماذا؟ قلت له وأنا أغالب النوم: دعنا ننام. واصل: لأن لا إرادة حقيقية لهم في طيّ الصفحة، ولأنهم في الحقيقة ما زالوا يدَّخرون شراستهم وأقبيتهم وجفافاتهم وحبالهم وأجهزة الصعق بالكهرباء والطيارة وتقنيات قتل الكبرياء والأمل في الصدور. إنهم لا يثقون يا أخي إلّا في أسلحتهم ومجرميهم. لا يثقون في أحد ولا في شيء آخر. بما في ذلك الشعارات التي يطلقونها. قبل أن أنام نجحت في أن أقول له: احذر، أنت تسفِّه جهود الدولة في طيّ صفحة الماضي وهي تهمة كما تعلم ما زالت تُستعمل من حين إلى حين لإسكات جاحدين ومتشكِّكين مثلك. ضحكنا ونمنا.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **صوت الأعالي أو حبّ في العتمات**. أعدَّ لي العسكري كل شيء، ثلاثة أسطال من الماء الدافئ ولوازم الحمام وساعدني في أن أتخذ مكاني داخل سلة القصب. ثم خلعت ثيابي بتمهُّل، وكلما خلعتُ شيئاً مددته له، وحين انتهيتُ أسدل الباب وقال لي بأنه سينزل لمشاهدة مقابلة كرة القدم في التلفزيون، وإن احتجتُ لشيء فعليَّ أن أنقر الأرض بالعكاز وسيصعد لمساعدتي. مع البشائر الأولى للربيع لا أعود قادراً على الذهاب إلى الحمام البلدي، ذلك البخار والحرارة والتناثر الخانق للّحم الطيني الذي نفخ فيه العذاب، تلك العتمات، والرائحة العطنة لتطهر فظ، والصرخات العمياء، والرغوة، وبكاء الأطفال حين يتسلَّل الصابون إلى أعينهم، ذلك العراك الجماعي القاسي مع القذارة، مع أجساد لا فكاك لها من قبضة الطين. وأفضِّل أن أستحمّ في حمام سلة القصب، تلك الحمامات المرتجلة في السطوح والتي تغطى بالإسمنت أو البلاستيك لتحافظ على الحرارة، قباب قصبية صغيرة كالمحارة تمنحك متعة أن تخلو إلى جسدك تتعهّده تتلمّس شقوقه وتقيس المدى الذي بلغته صدوعه. كنت سعيداً وأنا أدلق الماء عليَّ بفرح وأدلق معه روحي الجذلى في بشائر الربيع، إقدام الفراشات والرفة السريعة

للنسيم واستيقاظ النبض القديم في عروق الهوام، وانهمار النسغ في جذوع الأشجار العارية وامتلاء السنابل وفرح الطيور. شهور بعد ذلك وأنا أستعيد ما جرى أقول إنّ الخطأ كان خطأ الربيع لا خطئي أنا. وكرعشة البدايات العظيمة سمعتُ مياهاً تُدلق في سلة قصب الجيران المحاذية لسلتنا، لا يفصلها إلا حائط بعلوّ متر ونصف. سمعت صوت سطل حديد يُسحب وأشياء تُرتَّب، ثم وبفرح يُشبه فرحي تدفَّق صوت آتٍ من بعيد، من الجبال العالية، انحدر مع الأودية السحيقة، وتتبَّع مجاري الماء العنيفة، وتخطى الفجاج ووصل. بدأ خافتاً في البداية ثم تعاظَم حتى شلني تماماً فبقيت مبهوراً. أوقد ناراً في الهشيم وها هو يحرِّكها لتستعر وتلتهم كلّ ما يحيط بها.

سمعت وأنا ألاحق الحروف، حرفاً حرفاً، والكلمات، كلمة كلمة، «تاماوايت» حزيناً، ذلك الإنشاد الأمازيغي الذي يتنازل فيه الجبل الغامض المهيب عن كبريائه ويسكن كلمات حزينة تفتّت الحصى والمرارات والغصص وتذروها في الريح، صوت القمم العالية الذي تشرئب فيه النفس لتصل للآخر البعيد هناك في الضفة الأخرى من الوادي، أو في الدوار القريب، أو في المراعي وراء القطعان في الحقول الخضراء، أو ليصل إلى الجراح العميقة التي لملم سطحها الزمن ونثر فوقها نسياناً كاذباً. بقيت مسمّراً وآنية سكب الماء في يدي معلّقة وحائرة بين جسمي والسطل. حركة زائدة وسأفسد هذا المجرى السري الذي يوصل لي الصوت نقياً صقيلاً كأنه نداء حياة أخرى ممكنة. حركة واحدة وسيجفل هذا الصوت الوحشي النافر ويغيض في صمت خجله، حركة واحدة ويولي الربيع الفرح كله الأدبار من روحي.

إينكر إيدا ايوفان لوكان

زوند آكو. زوند آكو

وفيما يشبه صعقة حبّ أحسستُ بأنّ هذا الصوت الفتي المتفجّع قسمتي من الدنيا (حين حكيتُ للعسكري ما جرى قهقه طويلاً وقال لي: مجنونا أصوات أنا وأنت)، وقاربي إلى شاطئ ظننته بعيداً، وظننت أنني لن أصل إليه مهما جذفت، وطوّحتني العواصف، وجلدتني الأنواء. يا لجموح قلبي الغضّ، ويا لخيالاتي الحمقاء، فسرعان ما كسوتُ الصوت جسداً بضاً مبلّلاً، بنهدين نافرين، وشعر أسود فاحم بطول شعور أميرات الحكايات، وعينين متّقدتين ولاسعتين، وفم شهواني يخدش القلب إن افترّ عن بسمة أو حرف، ونبع كطينة الخلق يتخاصر فيه الفرح والعذاب، وفي الوجه وشم وحنين وحزن، وفي اليد حناء وأساور وخشخشة مبهمة ورنين، وجعلت الكلّ في قامة ممتلئة وطويلة فيها شموخ وانتصاب الذرى الشاهقة التي تلامس الغيم، وتذلّ غطرسة الريح. صمتت لبعض الوقت وسمعت صوت الماء وهو يهرق، وسمعت حركة بحث عن شيء ما أعقبها سقوط آنية، ثم عاود الصوت القوي اندلاقه مندفعاً للقائي، كأنه ما تشاغل عني إلا ليستنفر نفساً آخر أكثر عذوبة وفتكاً. لم يسق لي القوى الجبارة للطبيعة التي قهرها هناك في الجبل فقط، بل ساق لي أيضاً روائح الزعتر والخزامى ورائحة الخبز الخارج من إينور، ورائحة حليب الماعز، ورائحة السواك والحرقوس، ورائحة القطران في أواني الشرب. وتذكرت صوت حادة أوعكي في صباي حين أتى الوالد بمسجلة وبكاسيت لمجموعة من الفرق الشعبية وخصوصاً بناصر أوخويا وحادة أوعكي. وأذهلني الشريط الذي يدور على نفسه ويدور ويخرج أصواتاً محبوسة ومتزاحمة، أصواتاً

يُبقيها سحر أسود أو تعزيم جهنمي أسيرة نقرة واحدة. كان صوت حادة أوعكي بالأساس يُبهرني ويُبقيني مجمداً مسحوراً بيقين أنّ جرسه ليس من هذا العالم، وأنّ رنينه مثل برد العاصفة الذي ينزل كالمعجزة من السماء متلألأً في أماسي الصيف القائظة، وأحسّ أنها لا تغني للناس، بل تعنفهم وتوبِّخهم لتوقظهم من غفلتهم، ففي الصوت أيضاً تباريح وجشن رسول لم يُفهم من قومه كما ينبغي. كم بقيت تسمعها من الوقت؟ كم بقيت تمدّ راحة صوتها وتثبتني في حركتي تلك نحو الماء؟ لا أدري. فحين غنّت ابتعد الزمن عن سلة القصب ومضى يشحذُ دقائقه بعيداً.

سكبت الماء عليّ كيفما اتفق، ومررتُ الصابون على بعض أجزاء جسدي ونقرت بالعكاز الأرضية فصعد العسكري ومدّ لي المنشفة ثم الثياب الداخلية والخارجية شيئاً فشيئاً. وحين خرجتُ لاحظ انخطافي فقال لي: ما بك؟ رددتُ: لا شيء، أحس بالبرد. ونزلت شبه غائب عن الوعي، وتمدَّدت في السرير، ودثَّرني بلحاف، وهو يقيس بيده حرارة جبهتي. وبعد حين جاءني بكأس ماء قال بأنه أذاب فيها قرص دوليبران. فاضطررت باشمئزاز لشرب الماء المرّ لكي لا أثير ريبته. كان بي شيء لا أعرف كنهه، عاطفة أو لأقل هاجس لم يتّضح بعد، شيء يتخلق ببطء في أعماق النفس، ولن أعرف ما هو حتى يكتمل ويعلن عن نفسه كما تعلن عن نفسها النبتة التي تفلق النوى في ظلام الأرض، وتتحامل على وهنها لتخرق القشرة الأخيرة التي تفصلها عن النور، آنذاك تقول للعالم ها أنذا. كنت مضطرباً كأنّ شيئاً انكسر بداخلي وعلى يقين وبأنني لن أعود الشخص الذي دخل حمام سلة القصب فرحاً مهما رتقت ودافعت.

كدتُ أن أمازح العسكري قائلاً: هل لديك دواء لحمى الروح؟ وأحجمتُ لأنني لم أكن مستعداً للكلام عن شيء مبهم بداخلي لا شكل له ولا لون ولا رائحة.

زوندآكو. زوندآكو. أزحتُ اللحاف ومددتُ يدي للجلباب المعلق بجانب السرير وأخرجتُ البلغة المخبأة تحت السرير (ذكر ديدرو في رسالته عن العميان بأنهم أصدقاء الترتيب) سحبني العسكري الذي لا شكّ أنه بقي ينظر لي مستغرباً من يدي قائلاً: إلى أين؟ فأجبته: أحسّ بالاختناق وسأخرج لأتنشق الهواء. عرض عليّ أن يرافقني، فخرجَت من فمي: لا جافة وعدائية. كنتُ أريد أن أبتعد عن مراقبته، وأبتعد عن الدار كلها علّني أستعيد هدوئي. مضيتُ نحو ساحة المسيرة الخضراء أتلمّس طريقي من خلال نقر الطوار، وأتلمس في الحق الطريق إلى ذاتي. وكخيول متمطّرة تتراءى لها أسلاب وغنائم كان الصوت يندفع ويمرح في دمي، وأنا لا أشدّ على شيء، حتى نَفَسي لا يطيعني. لقد حرك بداخلي منطقة منطفئة وهامدة لا أكاد أنا نفسي أن أتبيّنها وسط الحشائش الباردة التي تحجبها، منطقة مفتاحها ومنذ الأزل كان في يد صوتها هي. هي؟ نعم، هناك سؤال كان عليّ أن أجيب عنه وأنا أخبط الطوار بعصبية لا شكّ أنّ المبصرين المارين شاهدوها ألم يكن الصوت سوى تلك الحاجة المؤجلة طويلاً في حياتي، سوى تلك الرمية السديدة التي حطّمت في لمح بصر عزوفاً ادّعائياً هشاً، سوى تلك الفضيحة الصغيرة لنأي زائف لم يجِد ما يتهالك عليه. أنا مثل كلّ الرجال في حاجة إلى امرأة في حياتي.
ولم أكن ألتذّ بالصوت فقط، بل بخيالات جسد صاحبته أيضاً. لم يكن الصوت سوى الريح التي رعَت غيمة الجسد المشتهى ودفعتها

نحوي. لم تكن سوى بذرة نائمة في رحم جاف وأدركها البلل على حين غرة، وصارت تطالب بحقها في النور. لم أكن أعنّف الطوار وأنا أخبطه متلمساً الطريق بعكازي، كنت أجلد ذاتي التي حين تستقري تاريخ المرأة منذ أن اكتملت الشهوة فيها فلا تجد غير نظرات ينكسها الخجل، وابتسامات يكفكفها الإحساس بالنقص، وآهات غريقة في وحلِ عمى قادم. لم أعرف، مثل أقراني، تلك الحكايات التسخينية الصغيرة لحرائق القلب القادمة، لم أعرف جمل الحب الأولى المتعثرة في خجل المعنى ولا الانتظارات السخية لإشارة أو بسمة مشجعة، ولا انكسارات الغيرة الفتاكة، ولا اللهفة والقلق ومتعة القبلات المختلسة. وصلت الساحة عرفتُ ذلك من أصوات الباعة وصياح الأطفال والازدحام، وأخذتني يد ووضعتني فوق كرسي من تلك الكراسي الإسمنتية الفظّة التي تغتال أي فكرة عن الرقة داخل مؤخرتك، كراسٍ سلّحتها البلدية بما يكفي من صلابة لمقاومة جلوس فيلة فوقها، أو عبور مغول يرومون تحطيمها. ودسستُ شيئاً فشيئاً، كمَن يتخلص في الطريق تدريجياً من مادة مشبوهة، فوضاي في صخب الساحة. وبدأتُ أملأ أذني بثرثرة مَن هم جنبي وأسمع ضحكهم، وأحاول أن أغتال تلك الرقّة المبلبلة داخل الانصهار في الابتذال العام، وأهفو لهدم أسوار نفسي وجعلها مستباحة لهم، لكن وكما يحدُث دوماً حين نكون حيارى أو معذبين أو يائسين أو مبلبلين بخطب ما، يكون وجودنا وسط الناس كعدمه، بل وجودنا بينهم يفاقم أحياناً ما بنا. إذ نراهم لاهين، وغير مكترثين بنار تشتعل قريباً منهم ولا يرون الدخان والستائر التي تسقط والزجاج الذي يتحطّم واللهب الشَّرِه حين يعثر على خشب أو صوف شهوته، فيسرف في العربدة والضحك.

2

سور بطول متر ونصف يفصلنا عن سطح الجيران، لكنه كان بالنسبة لي وأنا أجلس قربه مثل أسوار فيينا بالنسبة إلى خيول العثمانيين. أعرف أنها لا تستحمّ كل يوم، وأعرف أنّ عليّ أن أرابط فوق السطح وأنتظر بصبرٍ جميلٍ لعلّ ذلك الحنين الغامر للجبل يقودها إلى حيث ترى الذرى البعيدة السابحة في الزرقة والمكلَّلة بالثلج، فتنشدها لوعتها ونشيجها، فتماوايت متطلِّب ولا يساوم في حاجته إلى الأعالي، ولا يصدح بالألم والحنين إلى حين تشرئب لمنشده الأعناق، ويضع العالم وأشياءه تحت رجليه. كان عليّ أن أبرر هذه المرابطة الحمقاء والمريبة في السطح لأهل الدار، وتطوّع العسكري وبطيبة نفس، والذي كان شاهداً على الأزمة الأولى، بأن يشرح لهم بأنّ الاختناق الذي أحسّ به، نفسي بالأساس، وأن الإحساس بالضيق يصور لي الجدران قبراً ويدفعني لطلب المساحات التي لا يحدّها شيء لذا سأرتاح في الساحات والسطوح أو ما شابه ذلك من رحابة. وتفهَّم الجميع الأمر وربما توسّعوا في تحليله واستحضروا نكبة العمى، ورجعها المدمر في نفس حُرمت من كل شيء. فصار لعزلتي تلك في السطح مهابة

انزواء كائن جريح يتأمل عالماً حقيراً يمضي لحاله دون أن يكلّف نفسه عناء النظر لجرائمه وضحاياه.

أرابط وكلما سمعت صوتاً يجفل قلبي ويسبقني ليستطلع الأمر، وتكون ريح أسقطت شيئاً ما، ويكون طائر ذاعر تشهى اللعب فوق حمام القصب، وتكون آنية تتوجّع، أو تكون حركة تقوم بها امرأة في سطح بعيد وهي ترتب غسيلاً فوق سلك أو تحرك كسكساً أو قمحاً يجفّ، وتكون تلك الحركة المبهمة التي لا أحد ولا شيء وراءها حتى أننا نتشكك في صدقيتها، حركة التنفيس الكبير عن توازن وتجاور وتدافع بين أشياء ألقَت الصدفة بعضها في وجه بعض. ويعود قلبي إلى جسده خائباً وأعود إلى انطفائي.

اشتريت من سي علي صاحب الحانوت علبة ثقاب، لا حاجة بي لها، لأسأله فقط عن معنى: «زونداكو» بالأمازيغية، فقال لي ضاحكاً: «مثل الدخان. يا أستاذ». وللوهلة وأنا أبتعد عنه متلمساً الطريق نحو الدار رأيت عبد الحليم بداخلي بوجهه الأسمر المحترق، الذي لم يترك فيه المرض اللعين سوى خطوطٍ ونتوءات عارية مثل سنبلة جرّدتها الطيور من حبّاتها، ورأيت بريق العينين الغارقتين في محجريهما واللتين لم تعودا قادرتين على إنبات شيء غير شجن الوداع، ورأيت اليدين النحيفتين العصبيتين وهما تتطايران مع الكلمات ثم ترتاحان في أطراف جسد يستريح هو أيضاً في الهدنة التي تمنحها له الموسيقى ليستنفر ما أبقاه النخر الحثيث، ويشدو للمرة الأخيرة، للنفس الأخير. العندليب ببدلته الأكثر بياضاً من كفن، والتي فاقمت كلّ السمرة والعذاب والاحتضار الجليل الذي

يجري بداخلها رأيته يغني لي أنا: «وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان. يا ولدي».

«مثل الدخان» قال لي سي علي بضحكة مبتهجة، كأنه يحمد لي منة اعتباره ولو للحظة في تاريخ طويل من الحساب والسلف والمراوحة بين البيع والشراء ملاذاً في مسألة لغوية شائكة. ورغم أنني قد أكون بصدد مطاردة دخان حقاً، كما قال عبد الحليم، فإنني هرولت إلى هناك. كلما ابتعدت لحاجة، أو لتعقل عابر، أو لضيق من جلسة البلاهة قرب جدار أصم، أعود صاغراً أجرجر لهفتي أمامي. كأنّ الصوت كان يترصّدني، ويحصي خطواتي، ويقيس هل ابتعدت كفاية ليركب السطح ويشدو كما تفعل راعية تركت غنمها بغتة، وتسلّقت صخرة عالية لتغني لحبيب كانت وعوده دخاناً، ولحياة هي نفسها دخان. أصعد الدرج وأنا ألهث، وأنا ألقي بالعكاز كيفما اتفق، وحين أصل يحثو رماد الصمت كومة كبيرة ويلقيها في وجهي.. لمَ لا أسأل عن صاحبة الصوت في الزنقة التي تولّي ظهرها لحارتنا. لم نكُن جيراناً إلّا بذلك الجدار القاسي، ولا أعرف أيّ شيء عنهم. لمَ لا أختصر كل هذا العذاب الذي بلا معنى، فربما المرأة متزوجة ولا ينبغي لي أن أبني أوهاماً حولها، وحتى إن كانت غير متزوجة، فهي تغني احتراقها في تجربة حبٍّ ما. هل أخطأت ذلك الرنين المربد في صوتها كتلويحة وداع؟ لا لم أخطئه. لا شيء يكون أكثر صدقاً من غناء للنفس في عزلة كاملة. فكلّما مدَّت يدها للماء يطلع صوتها وسط البخار مفرغاً روحها ومرتحِلاً بها إلى هناك. لم يكن غناء خاوية قلب حتماً، ولا غناء لاهية يخرج من حنجرة لا تضع يدها في الجمر المتَّقد لتباريح ما. لمَ لا أسأل عنها

إذاً؟ لم لا أسأل وأنهي بحقيقةٍ ما هذا الانتظار العبثي، هذه الخيالات التي أنسجها وأفكّها مثلما تخفي بنيلوب ما حقيقة قلبها وراء نسيج معذّب. يوم، يومان، ثلاثة ولم أفعل، كأنّ شيئاً بداخلي يقاوم ابتذال وضع حالة مدنية لغيمة بلّلت قلبي ومضت، ويأنف من إشعال النور وفضح ظلمة حبلى بالخيالات اللذيذة. ثم عن ماذا أسأل؟ هل للسراب والريح والغمام والمرور الخاطف لليمام هوية؟ ومَن سأسأل عن رعشة قلبي السريعة، عن هذا الصوت الخلبي الذي داسه ومضى؟ كنت في حاجة إلى الوقت وإلى سماع آخر وإلى مزق ضاعت من ذاتي لأرتب كلّ شيء كما يرتب الكاتب حكايته بأناة.

وكما يحدث دوماً حين تتلكأ الروح في خطب ما وترتدّ لذاتها لا انقسام ولا تشظّ، تتوقف اللقمة في الحلق كدمعة حارة، ويصير النوم غصّة عذاب يقودها الأرق إلى دروب الهواجس والمرارات، ولا يعود لشيء ممّا كنت تألفه أو تركن له أو تتلاهى به معنى، وتضرب الوحشة من حولك نطاقاً والعالم كله سيصير غريباً وبلا معنى. زوندآكو. زوندآكو. وأنت أيضاً تصير غريباً، وما بداخلك غريب، وتكاد تخبط رأسك بالجدار الذي تتكئ عليه لعلّك تنفض عنه هذه الحاجة إلى شحذ معنى من قصب أجوف.

كم أمسكت في وهاد أرقك بقبضتين من حديد على بقايا أنفة بداخلك، ونفخت فيها وتعهّدتها، وسلّحتها بالوصايا العظام لتقودك في الصباح لشيء آخر، أو لتُعيدك على الأقل إلى ما كانت عليه حياتك السابقة من تصريف بئيس وهادئ لوقائع عمى مُعلن، لكن الشمس الفضّاحة وبشعاع نور واحد تنهي زيف إصرارك هذا. وتُعيد

تفكيك العدّة المضحكة التي هيئتها في الليل لبدء حياة جديدة. تتظاهر بأنك تفطر وأنت غير قادر على أن تتذوّق شيئاً آخر غير مرارة صمت الجدار، وتصعد من جديد إلى الجلجلة وأنت تتشهى أن تزلّ بك قدمك وينتهي كلّ شيء.

لهذا الحدّ الحاجة إلى امرأة عنيفة وآسرة، وبيدها كنبتة سرطانية أن تحجب وتخنق ما عداها. حاجة يسري في عروقها الألق الأهوج للحياة نفسها، حاجة مغمضة على العالم ومفتّحة على مهوى شهوتها فقط. فبعناد وصبر حية جائعة خرجت من بياتها الشتوي وتنتظر بيُبوسة غصن ميت وبكلّ السم المتخثّر فيها دنو الفأر اللاهي، كنت أنتظر ولا قيمة للدقائق والساعات ولا للشمس وهي تزحف في الأفق ولا للظلّ المتثائب في تعقّبها. وحدها الغريزة العمياء ثابتة ومتحفِّزة، كلّ شيء فيَّ يملّ، يتهالك، يتدفق، يشرد وتبقى هي يقظة متنبهة. ما أقسى الحاجة إلى امرأة حين تتلبس شيئاً عابراً ومبهماً.

3

في اليوم السابع نفسه، وفي توقيت المرة الأولى نفسه، ولأن النساء في العادة يحترمن مواعيد استحمامهن. سمعتُ حركة قريبة من سلة القصب، وسمعتُ رنيناً لسطل معدني أعقبهما لدقائق صمت محبط. ثم سمعت صوت ماء يدلق، وانخطف قلبي وأنا أسمع الصوت نفسه. بدأ خافتاً مثل المرة الأولى ثم تصاعدَت قوته حتى صار مثل عاصفة تقتلع كلّ ما يعترضها انتابني ذعر كبير، ونزّ من جسدي عرق بارد، وكدتُ أن أمضي نحو الدرج مهرولاً، لو لم أتمالك نفسي، واعترتني رجفة شديدة حرتُ بعد ذلك في تفسيرها. كان لمي يومها قلب أمٍّ تهاوى حين رأت ولداً انقطعت أخباره من سنوات كثيرة. وكان لي جسد ممسوس لم يسع الأفكار والعواطف المختلطة التي تتصارع بداخله فيقابل كلّ تلك الفوضى بارتجاف عصبي. لم أسمعها بصفاء وسكينة المرة الأولى، حالَ جسدي دون ذلك وهي تنشد تاماويتها الحزين، كنت منشغلاً بالسيطرة على فوضاي وتنظيم أفكاري. ها أنت تسمعها من جديد، فما العمل؟ ستنهي استحمامها وغناءها وتنزل وتترك لك الجدار مجدداً والانتظار العبثي والأسى. هل أناديها؟ هل أفتعل حاجة ما وأطلبها منها؟ ها

أنت تسمعها مرة أخرى، ولن يعود لك النسيم قريباً، ستنتظر أسبوعاً آخر من رماد، ستتفسخ في كرسيك وأنت تصغي للأنفاس الباردة للجدار وسلّة القصب المقفرة. لم تُنادِها. تعاون الخوف والخجل وأبقياك مسمراً مضطرماً في حيرتك. سكتت لبعض الوقت سمعت فيها دندنة خافتة وماء فرحاً يتسرب من بين يديها، ووصلك شذى رائحة حناء، ثم وكما تصعد الزفرة من صدر المكروب صدحت مجدداً بتماويتها الحالم الحزين، ورأيت في شساعته، أنا الأعمى، بغالاً خرافية تصعد مسارب تقود إلى السماء، وماعزاً صاخباً يتناثر بين الشجر والحصى، وجسوراً للخوف صنعت من جذوع أشجار ميتة فوق مجاري ماء غاضب، ونساء ضاحكات يحمِلْن غابات حطب فوق ظهورهن، وأطفالاً بخدود حمراء يلوحون للغريب بضحكات تسفه أسمالهم وقذى أعينهم، وحميراً مدرّبة ماكرة تلقي بالفحم الخشبي حين يعترضها معترض، وتفرّ إلى وجهة معلومة، وكلاباً تعبد قطعانها. ورأيت الغابات الخضراء المتكاثفة والمتستِّرة على أسرار مكينة، والأجراف السحيقة، والكهوف التي تفحم في جدرانها خوف الإنسان القديم من كلّ ما يحيط به. رأيت الطيور تمزِّق برفيف أجنحتها صمت الغابات، وابن آوى يحوم حول خم دجاج، وخنازير تعيث خراباً في حقل ذرة بأنياب أمضى من فأس الفلاح، وحجلاً يمرق كسهم متعجِّل إلى الكبد الأخضر للجبل، والصفصاف والجوز والأرز والسنديان والصنوبر الحلبي تفرد قاماتها المهيبة في الأودية العميقة، وتومئ للسيل الهادر أنْ آتِ ما عندك. رأيت عجزة ضاحكين في ظلال الحيطان بلا تفجع ولا انكسار، فقد اعتصروا غيم الحياة حتى آخر قطرة، وأسواقاً لكسر العزلة والعناق، وأكل السفنج والشواء وتبادل الملح ومواد الأخبار، وأعراساً بضفائر

الصبايا ونقش الحناء والسباني وليالي أحيدوس وخبط الدفوف، ومآتم كثيرة لأموات ماتوا لأسباب معظمها تافه جداً، وجرفهم ذلك المحو الكبير الذي ينزل جلاميد الصخر وجذوع الأشجار والشياه النافقة، ويقذف بها في ذهاب عاتٍ لا أوبة بعده، ومشيعين حزانى يسيرون صامتين إلى مقابر في أطراف الغابات لا تشبه المقابر، مقابر بصخور وحشائش وأشجار عالية متآمرة على ذلك النتوء الترابي الهزيل وحجرة الشاهد والزلافة المليئة بالحناء. رأيت في التماوايت عزلة حياة مكتفية بذاتها، حياة تتقرى مجيء فصل في ظهور طائر، وهبوب عاصفة قوية في قلق ديك، وهطول مطر في رقص نحلة. تماوايت الصوت العالي، الأعزل، المتذمّم، الطالع من جبل ترك لحاله منذ قرون، والطالع أيضاً من مسغبات الروح.

انتبهت لنفسي بعد ما لا يمكن تقديره من زمن مضى، ووجدتني لا أشدّ إلّا على الصمت المقيت. كأن الصوت الذي طوى المسافات وتسلق الذرى وجاب الأودية وأنا عالق به كان يتردَّد بداخلي فقط. خرجت ألوي على خيبة سوداء، وسرتُ نحو ساحة المسيرة الخضراء. وماذا بعد؟ تعثرت وأنا أرى نفسي في يد معروقة وثملة في حانة حقيرة تنفح، بصعوبة شديدة، آلة الموسيقى نقوداً، وتنتظر أغنية حزينة ترشّ على ثمالتها ملح فجيعة ماضية. لو أنسى، لو أكون مثل هؤلاء الناس الذين يعبرون من حولي غير مكترثين بمن تعذّب، ومن هوى، ومن خسر، ومن ربح، هذه الجُزر الصغيرة المتحركة التي لا تهتم بالحريق المشتعل في الجزيرة المجاورة، فهناك ماء غويط يفصلهما. اقتربت من الجلبة الضاجّة للساحة. لو ناديتها وكلمتها لأنهيت كلّ شيء، وكنت رجلاً آخر الآن يستلقي في

السرير، وفي يده طريق مفتوح لحكاية مزهرة أو نهاية تامة لسوء فهم دام أسبوعاً كاملاً ماذا أفعل بخجلي وبجبني الصغير الذي رأى كلّ ذلك العذاب والانتظار، وولى ظهره في اللحظة الحاسمة ومضى يصفر بسخرية؟ لم أستطع حتى التطاول وهي تغني لأشرئبّ بمتر وسبعين سنتمتر طولاً التي لا أملكها، وأترك لعشرين سنتمتر الفائضة على الجدار والمحظوظة ترفَ تلقي صوتها مباشرة بلا حاجز ولا قيد. كنت في حاجة إلى يدٍ تهزني أو تصفعني حتى، وكان عجزي وذهولي أكبر مني. تماوايت، تماوت، موت. أذكر أنّ صوت حادة أوعكي مثل صوت الفتاة تماماً كان يجمد العالم من حولي، ويفرّغه من سعاره. كان يميت الأصوات الأخرى، ويسيطر على الرغبات، ويلفّك في تلك الغيمة البيضاء المتلذّذة بكونها غير مجبرة على أن تلد مطراً أو خذلاناً للمنتظرين. صفاء تام تسبح فيه، ولا أهمية فيه لمعاني الكلمات التي تسمعها ولا حاجة إلى ترجمة سي علي فقلبك يسبق عقلك، وأذنك ويبتسم وهو يتلقى بفدائية كلّ ذلك الألم واللوعة والحنين الأسمى من كل معنى. تماوايت، تماوت، موت، صوت النهايات، وحدود الأشياء، وذكريات الراحلين من حياتنا إلى موت داهم أو إلى حاجة تلوح بتلبيتها الأمكنة البعيدة، أو إلى خيانة تشبه في حقارتها كل الخيانات. كم كنت أرغب في أن أقف على مبعدة من مرآة وأرى نفسي وأقول لها: أنتِ عاجزة وأبصق في وجهها وأخرج. حين اتخذتُ لي مكاناً في كرسي إسمنتي فظ، كنت أقلب بداخلي فكرة أنّ العمى يجعل المرء عنيداً، العناد صنو العمى وتوأمه ورفيقه، فمثلما أشدّ العكاز إليّ شداً وتتيبَّس يدي في مشيتي الخائفة على فكرة أنه يرى ويقرأ ما حولي، وحين أمدّه أمامي فكأنما أمدّ ترقّبي وخوفي ورجائي، كنت أيضاً أشدّ بقوة على فكرة أنها

تمدَّدت في عروقي وسكنت أحلامي وصارت لهفتي ومناي. خاطب طه سوزان في رسالة: «**إننا سوف نسير من جديد، أقوياء بهذا الحب نحو المستقبل الذي ربما سيشبه الماضي، أو لعله سيكون أفضل منه أو ربما سيكون أسوأ منه، ولكن ما همنا؟ سوزان، لنتابع المسير، أعطني يدك**».

أعطني يدك أيها الصوت الذي ينادم الذرى فوق عطشي. أعطني يدك وأنت تهشّ للريح والضوء وزهر الأودية والندى البكر لأشياء بعيدة لا تبصرها، لكنها تأتيك طائعة وأنت تلتقطها واحداً واحداً بمنقار حاذق يفصل الحب عن الزوان. أعطني يدك أيها الشوق والوعد الحق.

لو كنت أرى لزرعتُ لهفتي في ابتسامة عابرة لامرأة أخرى، وبدَّدتُ حرقتي في نظرة حالمة لصبية تمرّ حاملة قبطة نعناع. لو كنت أرى لسللت جسدي في أجساد مثيرة مشتهاة، ولتهالكت على أوّل عينين توجهان لي رفات عاشقة، ولاقتفيت مرتعشاً خطى عجيزة أيقظت بداخلي عصف كلّ الشهوات، لكن العمى اللعين لا يدَع لك في كل غوايات العالم وإمكاناته المفتوحة إلّا ما يأتيك وتتلمسه وتحس بأنفاسه تتحكّك بأنفاسك كهرَّة محبوبة. العمى عناد ما في يدك فقط ويأس ما تتشبَّث به وتهبه أهمية عظيمة تشبه أهمية خشبة عائمة لغريق. أعطني يدك أيها الضياع.

وصعدت مجدداً إلى السطح بقلق أقلّ وبانتظار عاقل. كنت أتكئ على الجدار البارد الأصم فاتحاً قلبي لهبّة صدفة رحيمة تقودها

إلى سلة القصب مجدداً. ربما توجّه لها دعوة لحضور عرس أو مناسبة ما ويكون عليها أن تستحمّ في غير موعدها، ربما تحرَّك في جسدها نداء غامض للماء، ربما أحست برغبة في الغناء ومثلما تتسلق الصبايا في الجبل الصخور العظيمة والأشجار الباسقة لتطلقن ذلك الصوت الملتاع في وجه حياة قاسية تتسلق هي أيضاً السطح وسلّة القصب وتشدو. أنتظر ثقة في الصدفة وتكريماً لها فليس للعالم ولحسن الحظ انتظام ساعة سويسرية.

4

أخذتُ ورقة صغيرة ومسطرة وكتبتُ في أعلاها وأنا أضع المسطرة بشكلٍ أفقي لكي لا تترنح حروفي «أنا محمد» وأنزلت المسطرة لتحت وكتبت «قصدي شريف». كتبتُ بحذر وبطء وطويتُ الورقة، لم أضعها في المحفظة الجلدية لكي لا تختلط بورقة إيزابيل. بعد تردُّد وجدال داخلي كبير انتهيتُ إلى هذه الصيغة التوفيقية بين جبني وعدم قدرتي على مناداتها وحاجتي إلى مدّ جسر تواصل معها. لا يمكن أن أستمر أكثر في هذه الصداقة الحمقاء للجدار. لا يمكن أن أهدر حياتي في هذه الاستماتة العبثية في قتل الوقت انتظاراً للذي يأتي ولا يأتي. سألقي بالورقة حين أحسّ بها تخرج من سلة القصب كما يلقي متوجِّس بحجر كبير ليقيس عمق بحيرة راكدة. سألقي بها ويدي على قلبي ربما استشاطت غضباً ربما ابتسمت وردت عليّ بإشارة ما من تلك الإشارات التي تملك النساء وحدهن القدرة على إبداعها، إشارات تنبني في الخط الرفيع بين رضى لا يفصح عن نفسه ونفور غير مصمم. سأنهي طريقاً في حارة مشيت فيها، مثل حارات المدن القديمة، ولم أعرف أنها مسدودة أو سأفتح طريقاً اعترضتني في بدايته أحجار مسنَّنة وجذوع أشجار

وحشائش. سأربح سكينة العودة إلى نفسي القديمة أو بشائر أمل حياة أخرى تسكنها امرأة، لكن ماذا لو حمَلت هبَّة ريح حقودة الورقة بعيداً؟ ماذا لو كانت شاردة ولم تنتبه لها؟ ماذا لو شاهدتها، ولم تلتفت لها ظناً منها أنها ورقة تافهة يتلاعب بمصيرها الريح؟ من أين لها أن تعرف بأنها تحمل قلب رجل بداخلها؟ أسير في شوارع المدينة هائماً على وجهي تتلقّفني الأيدي، وتجتاز بي إلى جهات لا أرغب فيها. أسير بلا هدى والأيدي الفضولية المتصدقة تعبَث في تيهي. وقرب مقهى سمعت بن تومرت يعنّف روادها: «تخلون المساجد وتعمِّرون المقاهي، يا كفرة، يا لئام، يا مكابيت، وكلما مرت امرأة جرَّدتموها من لباسها، وأخضعها فريق منكم للفحص بالإيكوغرافي، وفريق آخر للفحص بالسكانر. عليكم لعنة الله، يا عيون الفاحشة، عاش الملك. عاشت المقدسات»، سمعت قهقهات رواد المقهى الوقائية، قهقهات من يعرف في قرارة نفسه أنّ طائف الحقيقة مرَّ من هنا، وينبغي التعمية على مروره. أسيرُ والورقة في جيبي كسلاح غارة، لا بد من أن أقوم بها.

هل أملك التصميم اللازم لفعل ذلك؟ ماذا لو انخطف قلبي مجدداً وجبنت؟ ماذا لو قايضت كلّ لهفتي لمخاطبتها بالسلام الحقير للبقاء مجمداً مسحوراً بصوتها؟ حين وصلت إلى القصبة طلبت من أحدهم أن يدلّني على بائع ذهب. اشتريت منه علبة صغيرة من تلك العلب التي يضعون فيها الخواتم والأقراط. وأنا أبتعد عنه أخرجتُ الورقة من جيبي طويتها، ووضعتها في العلبة بطمأنينة مَن ينهي بلا رجعة تهديد الريح لها حين سألقي بها إلى ما وراء الجدار، وسرت متشامخاً كمَن سيطر على عاصفة كاملة وخبأها في جيبه. عليَّ أن

أتصرف هكذا بهدوء، وعقلانية وأن أجد حلولاً لكلّ شيء، عليّ أن أتسلح بالتحليل الملموس للواقع الملموس، وعليَّ أن لا أعتبر ما هو متجاوز في عيني متجاوز أيضاً في عيني الجدار الأصم الفاصل بيننا. فهذا خطب لا ينبغي أن يعالج بالأرق، وبفقدان الشهية وبإسفاف الذبول والانتظار، بل بالحكمة والتخطيط والتوقع، لكن ماذا لو ألقيت بالعلبة، وسقطت بين سلة القصب والجدار؟ ماذا لو ارتطمت بالسلة وانقذفت بعيداً؟ عليك أيتها العلبة أن تسقطي بين رجليها حين تخرج من السلة، وعليك يا رميتي أن تكوني سديدة، فأنا لا ألقي بزجاجة في البحر وداخلها رسالة، وأقعد معوّلاً على كرم الأمواج في إيصالها إلى شط أحلامي. أنا شاطئي أمامي وبالقرب مني وعليّ أن أقلِّص إلى الصفر تقريباً إمكانية ألّا يتلقى رسالتي.

عدتُ إلى الدار، وقمتُ بمناورات كبيرة لأهرِّب عزّافة إلى السطح، وحين أحسستُ بأنّ كلّ مَن في الدار ناموا، بدأتُ تدرّبي الجنوني على ضبط كلّ شيء. خلعت الرأس الذي تنظف به العزافة ركن السقف من بيوت العنكبوت، وأبقيتُ في يدي العصا الطويلة. تحسستُ بها من فوق الجدار في البداية سلة الجيران، وبحثتُ عن بابها، ولم أجده في كلّ ما خبطته. ففهمتُ بأنه في الجهة المقابلة للجهة الموالية للجدار، ثم قستُ طول السلة وعرضها، وعاودت التحقق من كلّ الأمور، بالاستناد إلى موقع سلّتنا من كل ذلك حددتُ بدقّة المكان الذي عليَّ أن أقف فيه لألقي بالعلبة. على بُعد خطوتين من الجانب الأيمن لسلّتنا ينبغي أن أقف، وأقذف العلبة مسافة أربعة أمتار وعلى علوٍّ يوازي رأسي. هكذا. هكذا، فقط، ستسقط العلبة أمامها تماماً. هكذا فقط لن يدسّ الحظ العاثر

والصدفة أنفيهما الكريهين في مسار رمية الحلم، ويعترضاها بشيء غبي لا يعرف جسامة الجريمة التي يرتكبها.

«قصدي شريف» اخترتُ هذه الصيغة المسالمة بعد تفكير طويل. عليّ من البداية أن أفصح عن نواياي تجاهها، على أن أطمئنها. لا أملك غيرها لأتّقي غضبها إنْ كانت متزوجة أو تجمعها مع رجلٍ آخر علاقة حب. ولا أملك غيرها لأفتح عينيها المغمضتين لترايا هذا العاشق الصامت الذي تفصله عنها حين تصعد إلى السطح أمتار قليلة، عاشقٌ يلوح لها بوعد والتزام بدئي. اخترتُ هذه الصيغة رغم ابتذالها الداعر في الأفواه الذئبية لكلّ ما يريد أن يجرّ امرأة إلى السرير، لأنني لم أجد غيرها، فهي وعلى ابتذالها تؤدي ببلاغة حاجة مدّ جسر بين غريبين، جسر عليه وقبل أن تطأه رجلاهما في اتجاه بعضهما البعض أن يكون ثابتاً وآمناً. حتى العاهرات العريقات يحبِّذن هذه الافتتاحيات المتظاهرة بالبراءة والمتستِّرة على الامتعاض الوقح الذي يجرح الكبرياء وما أدراك بغزال جبلي نافر.

5

وما رميت. لم أصدق أنني فعلت ذلك. هنا حيث أقف بعد أن خطوت خطوتين متصلبتين أعتصر في يدي العلبة وأذني على تلك الحركة التي تدفع بها باب سلة القصب وقلبي يركض وطبول تهدر في جسدي، طبول رقص وحشي، ونار مستعرة التهمَت صوتها وهي تغني التهمت الجدار وسلة القصب والسطح نفسه. والتهمت كلّ شيء في ما عدا إصراري الحجري على أن أقذف بالعلبة. **إذ رميت.** مهما وقع، وحتى لو هربت روحي مني، وحتى لو رميت العلبة وتهاويت إلى الأرض فاقداً الوعي. أمسك تحت رجلي فوهة بركان، ويرتجّ جسدي للحمم الغاضبة تحتي ولا أتزحزح ولا أهن. وأتعرَّف بصعوبة على هذا النفس الأخير الذي يُبقيني واقفاً والطبول المصمّمة تدوي وتتوعد. **ولكن اللّه رمى.**

لو فتحت شقاً لدودة التردُّد لقضمتُ وقفتي تلك في لمح بصر، ولشلّت يدي ولبقيتُ مسمَّراً في تلك الفرجة البلهاء والمسلية للجدار. تدحرجت العلبة، سمعتُ ارتطامها بأرضية السطح، سمعتُ أنَّتها الصماء تأتي للقاء زفرة الانتصار على خجلي الخارجة من صدري.

ومثلما يداعب مطر أرضاً متشقِّقة وناشفة سمعتُ ضحكة جذلى تنتشلني من عذاب تلك الصيحة الغاضبة التي كنت أضعها في حساباتي كأقسى ردٍّ ممكن من ردودها المحتملة على معاكستي لها. ضحكة لم تفرج عني فقط، بل لملمت أشتاتي وأبعدت الطبول عني ووهبتني ذلك الاطمئنان الذي نحسّ به بعد الإقدام على حماقة ما، وتبيُّنِنا بأنها كانت بلا تبعات. ثم سمعتُ الارتطام الأصم نفسه بالقرب مني، نزلتُ إلى الأرض وحبوت، وأنا أتحسَّس أرضيتها شبراً شبراً حتى عثرت يدي على شيء اعتصرته كثيراً، وكان بإمكانها أن تتعرَّف عليه وسط ملايين من الأشياء.

أحسستُ أنّ يدي أصيبت بالشلل وهي تضعه في راحتها. كأنها أيضاً اختنقت في لهفة العثور على جواب جاء بسرعة لا ترحم. هل وقفت؟ لا بقيت ممدداً في الأرض، ولم أرفع رأسي كأنّني مهدَّد بزخة رصاص. هل ردَّت لي رسالتي كما توصَّلت بها؟ هل كتبت لي ردّها وأرسلته في العلبة نفسها؟ كانت الحقيقة قريبة مني، بل إنها كانت في راحة يدي، لكن روحي كانت مشلولة يمتلكها عجز غريب. سمعتُ وقع خطواتها كخفق رموش ناعسة وهي تبتعد بسرعة. وسمعتُ إجهاد الحقيقة القاتلة في قلبي، في كلتا الحالتين، سواء كانت صدّاً قاسياً، أو وعداً رحيماً، فأنا أعرف نفسي، سأتعذَّب وسأتضور قلقاً وحيرة.

بعدما لا أعرف من وقت مرّ، وأنا مقع ككلب جريح، لملمتُ نفسي ونزلت. سرتُ نحو مقهى شعبية قريبة منا. طلبتُ شاياً بالنعناع، وأخرجتُ العلبة وبيدٍ مرتعدة فتحتها ببطء ثم مددتُ الإبهام والسبابة

لكي أخرج الورقة برفق. سأعرف بسرعة إن كانت الورقة التي كتبتها، لكنني لامستُ شيئاً ندياً رطباً وقفز قلبي من صدري، فقد اعتصرت أصابعي خصلة شعر مبلولة. كدتُ أن أسقِطَ برّاد الشاي، وأنا أقف وأبتعد عن المقهى. جرى النادل ورائي وشدَّني من كمي، وقال لي بأنني لم أؤدِّ ثمن الشاي. أعطيته عشرة دراهم التي في جيبي، ومضيتُ دون أن أنتظر الأربعة دراهم التي ينبغي أن يردّها لي. كان في يدي شيء منها، ليس رسالة فحسب، بل طرف صغير من جسدها تنازلت عنه لي، لي أنا. أخذت الرسالة، ووضعت مكانها خصلة الشعر بسرعة وردَّتها لي. ربما كانت هي أيضاً تحس بأنفاسي من وراء الجدار، وتعرف لهفتي وتنتظر أن أقوم بالخطوة الأولى، ربما هي أيضاً كانت تحصي هذا الوقت اللئيم المتلكئ الذي يوصلها إلى موعد الاستحمام، فتغني وهي تعرف بأنني هناك على مبعدة منها أسمعها. ما الذي عليّ أن أقرأ في سرعة ردّها إلّا هذا؟! كانت تتوقع مني حركة ما، أو نداء، أو رسالة وكان جوابها جاهزاً.

هزَّتني فرحة أنها ادَّخرت لي رداً جديراً بأروع قصص الحب الكبيرة حين تحسّ الحبيبة بأنّ ما تملكه من كلمات باردة يخون النار المتأجِّجة بداخلها، فتعمد للمقصّ وتقصّ ضفيرتها، وتضعها رفقة وردة يابسة في ظرف، وتُرسله للحبيب البعيد. حاولت أن أتذكر ضحكتها وهي تنحني لتلتقط العلبة. السرّ كله في تلك الضحكة السريعة كالومض، الحادة كالنصل، والجذلى كقبلة فوق شفة ناشفة، السرّ كله في طبيعة تلك الضحكة الخاطفة. هل كانت ضحكة فرح أم سخرية؟

تتموّج الضحكة في ذاكرتي وتتراقص، وتدنو مني ثم تبتعد، وتُريني حقيقتها ثم تُخفيها لتريني حقيقة أخرى. هل كانت تواطؤاً كريماً أم نأياً متعالياً؟ ما أنا موقن منه هو أنها كانت خاطفة كلدغة، غير أنني لا أدري هل تحمل الترياق أم السم الزعاف؟

سرتُ والخصلة في يدي، أرضى بها غنيمة كافية لكلّ ذلك الجهد والانتظار، أرضى بها عظماً صغيراً فضل لي من وليمة عظيمة، أرضى بها يقيناً صلباً في يدي أثمن وأبقى من كلّ تلك الأحلام، والتهيؤات والانتظارات الخائبة والأسئلة التي بلا أجوبة، أرضى بها ولو كانت علقت بمشطها وكانت منذورة للمجاري مثل الوسخ الذي تطهَّرت منه. إنها مشاكَة، نعم، سقط شعر مثل ذاك الذي تعلّقه النساء في شجر السدر بالقرب من أضرحة الأولياء الصالحين ليرزقوا شعوراً طويلة، أو ليتّقوا العين الحسود. أنا سدر رجائها وحمايتها.

أسير بفرح نابت في قلبي، لقد تبادلنا رسالتين، وفي يد كلّ واحد منا شيء من الآخر، وانتسج بيننا واقع تشابكَت أولى خيوطه. هكذا تبدأ القصص، خيطان تقودهما عشرات التفاصيل للقاء بعضهما، وبعد ذلك يتكلفان هما بالباقي. هي الآن تعرف أنّ قصدي شريف، وأنا الآن أمسك بخصلة متكتمة من شعرها، خصلة قادمة من أرض تماوايت الحزين، حيث لا توجد فجاجة الوضوح ورعونة التصريح، هناك كلّ شيء إماءة وإبهام وأحجية للبيب، هناك كل شيء دهشة وحيرة واشتباه. الجبل ليس رخيصاً وهو لا يمنح نفسه إلّا

للجَسور المتنبه الذي يقرّ في البداية بضآلته أمامه ثم يقرأ كلّ ما يلقيه في طريقه.

أتشمَّم الخصلة وتصعد في روحي رائحة لوز مخلوط بالحناء وعناصر سرية أخرى، رائحة أشياء برية نفاذة، أشياء غامضة متوحِّشة لا علاقة لها بروائح الكيمياء البليدة، أشياء تتكاثف لتصنع روحاً مثل حقل جدي المخبأ في صرة والذي كان يتشمَّمه في لحظات ضيقه أو صفائه. لديّ أنا الآن ما أتشمَّمه، ما أودع فيه أشواقي وحنيني. أشياء هذا العالم متناثرة من حولنا بكثرة جنونية، لكن ما يصير جزءاً منا هو ما يسوقه، حظّه العاثر أو السعيد، ليأخذ مكاناً له في حكاية لا تعنيه من حيث أنه شيء، لكن تعني مَن يرى في غفلته حضوراً وذكرى لذات كان جزءاً منها أو ليدٍ لمسته أو كانت تستعمله أو لِعَين كانت تراه وتأنس به. أتلمَّس الخصلة الثمينة في يدي. ماذا كان سيكون مصيرها لو لم ترتب لها الأقدار هذه الدعة المريحة في يد عاشقة غير ظلمة وقذارة مجاري آسنة أو وجع مزبلة محترقة؟ أقول لنفسي، وأنا أَرِقٌ والخصلة في يدي، وماذا بعد؟ ما هي الخطوة القادمة؟ ماذا سأطلب منها بعد «قصدي شريف»؟ هل سألقي لها بورقة أخرى، وأحدِّد فيها موعداً نلتقي فيه؟ لكن أين؟ وكيف سأتعرف عليها؟ هنا وضعت يدي على جمر سؤال حارق كنت أتجنَّبه وأدفعه، وأنجح في أوقات كثيرة من عذابي في أن أتركه في القبو المعتم من ذاتي، أتركه تحت بعيداً عن هواجسي، لكنني كنت أعرف أنه هناك ولن تنجح الظلمة في إمساكه طويلاً، وأنه في ساعة ما سيدعوني للتفرُّس فيه ومواجهته. أجلته لأنه في الواقع لم يكن بيني وبينها ما يدعوني لطرحه على نفسي، أما وقد صارت في يدي خصلة

من شعرها، أما وقد مدّ جسر فوق جدار المتر ونصف، وبدأ بيننا تواصل حتى ولو كان جنينياً وملغزاً، ولا يصرح بشيء، ولا يفتح شيئاً، كيف ستتصرف حين ستعرف بأن مَن «قصده شريف» أعمى، أعمى متجاسر وغبي؟ ستصرخ حتماً. **وذات يوم قال لي طه: «لا بد من أن أقول لك ذلك، فأنا أحبك؟ وصرخت وقد أذهلتني المفاجأة، بفظاظة. ولكنني لا أحبك». كنت أعني الحب بين الرجل والمرأة ولا شك. فقال بحزن: «آه، إنني أعرف ذلك جيداً، وأعرف جيداً كذلك أنه مستحيل»**. نعم أعرف جيداً أنّ ما أبنيه ستحطّمه الاستحالة بضربة واحدة مثل بناء من رمل في شاطئ يطاله موج مخرب، وأعرف أكثر أنّ البنات حين يبنين صورة فارس أحلامهن، لا يتنازلن عن الجمال والقوة والنجاح والمال، وليس لي من هذه الأسلحة شيء. سأصدمها بعجزي وبحاجتي إلى يد دائمة تعينني على اجتياز العالم بأمان. أعمى؟! ستقول مروعة، وكأنها تقاوم الإغماء ثم تمضي هاربة. أعمى؟! أعمى لا يعرف حدوده، ولا يحترم الإحساس بالنقص الذي ينبغي أن يُبقيه متعثراً في جلاجله متعرِّقاً من خجل وجوده نفسه. أعمى لا يعرف استحالة أن تولد بينه وبين امرأة صعقة الحب وانخطافه الذي تُحدثه النظرة الأولى المتبادلة، ذلك البريق الخاطف الذي يُحدث دوياً في القلب، ذلك اللهب الحارق الذي يوقف الزمن ويقول لك بأنّ فيما تبادلته الأعين شيء هائل ومزلزل. فلا نظرة للأعمى ليلقيها أو يتلقاها، لا شيء إلّا انطفاؤه وشقاؤه. أعرف جيداً أنه مستحيل، لأنّ مشاعر مقيتة ومتعجلة كالشفقة والخوف تسبق المرأة إلى الأعمى، وتخنق أيّ إمكانية لولادة مشاعر أخرى هشة وخجولة مثل الحب.

هل أصارحها بحالي في ورقتي القادمة إليها، فإن كانت هذه القصة منذورة للموت بصرخة مروعة تصدر عنها: «أعمى»، فليكن ذلك وأنا بعيد عنها، فليكن، وقصتنا في بداياتها، ولم تتجاوز الخيالات والتهيؤات والأسئلة. نهاية كلّ هذا العذاب في جملة واحدة أكتبها لها بلا فذلكة ولا مقدمات: «أنا أعمى» أو «مَن قال لك قصده شريف أعمى»، ويسدل الستار وتنتهي ملحمة السطح وسلتي القصب وحائط المتر ونصف والعزافة. ولكن كما قال لي العسكري ذات يوم: «نحن المغاربة نخاف النهايات، ونتلافى حدوثها بكل ما أوتينا من قوة، وحتى إذا مات شيء بقينا متشبثين فيه، نسنده، ونتعامى عن كونه انتهى منذ زمن طويل»، فقد وجدتني أكتب ورقة تجدّد لها بأن قصدي شريف، وتضيف تمنياً ساذجاً بأن نتواصل بالكيفية التي تلائمها.

6

قال لي العسكري بأنه يريدني لأمر مهم. سحبني من يدي واتجه بي نحو المقهى طلب شاياً لي وله. لم يكلمني طيلة الطريق، وحين شربنا الشاي وضع في يدي العلبة التي رميتها باتجاهها البارحة. وقال لي بأن امرأة جاءت غاضبة، واشتكت لأمي من كونك ربطت علاقة مع خادمتها، وتتبادل معها الرسائل. لم تقصدك أنتَ طبعاً، هي لا تعرف مَن. تحدّثت عن أحدنا إمّا أنا أو أنت. وبما أنك تطيل المكوث في السطح، ضحكت لك الضحكة الساخرة المتعالية، فالفعلة صادرة عنك. هذا ما أجمَعَ عليه أهل الدار. بلعتُ ريقي بصعوبة. واصلَ الحديث: كانت تحمل الدليل في يدها، صعدَت إلى السطح لتأخذ حاجة من سلة القصب وروّعتها وهي حامل. والخادمة تبكي وتقسم لها بأنها لم تتبادل معك أي رسالة، كان يتكلم وأنا أحرِّك رأسي نافياً.

أحسستُ بعرق بارد ينزل مع عمودي الفقري، والعالم يتهاوى من حولي. وكما أفعل دائماً حين يرعبني شيء، نهضتُ لأبتعد عنه، لكنه أمسكني من يدي وأجلسني، وخيبات مريرة تتراكض في دمي. أذعنتُ له لأنني لم أكن أملك القدرة على خطو خطوة واحدة.

هكذا، فما ظنّه أهل الدار أزمة نفسية قاسية تزين لي الانزواء في السطح، ما حسبوه مأساة، لم يكُن سوى مهزلة مضحكة لعلاقة غرامية عمياء حقاً. تمترست وراء صمت حانق، لم أكُن أبحث فيه عن تبرير ما للفضيحة، بقدر ما كنت أهرب لاستعادة ما جرى، بأكثر ما يمكن من تفاصيل، بأكثر ما يمكن من مرارة الإحساس بالخجل، كأنني أقاوم حلماً مزعجاً بتجميع مزق ما يمكن تجميعه من مخلفات عاصفة سوداء مدمرة. كان ذلك على بُعد يومين من موعد استحمامها، صعدتُ إلى السطح بلا رجاء تقريباً، وجلست بالقرب من الجدار متضرِّعاً كالعادة للصدفة، ربة كسر الانتظام الرتيب للأشياء. وسمعت حركة خافتة قرب سلة القصب، خشخشة قصيرة وصوتاً معدنياً. وعرفت بأنها جاءت لتأخذَ شيئاً ما فهي لم تُدخِل السلة. أخرجت العلبة وخطوت الخطوتين وأرسلتها فوق الجدار، وبقيتُ أنتظر العدّ الرتيب لحبات رمل حامية تتسرب متثاقلة بداخلي مجمعة كومة يأس وخذلان قاتلين.

ربت العسكري على كتفي وقال لي برعونة: «لا عليك. ليس على الأعمى حرج» وضحك بحذر. وحين تبيَّن له بأنني بقيتُ واجماً وجوماً صخرياً مجلّلاً بالعار، أبكي بلا دموع، ربت على كتفي مرة أخرى، ولم ينبس بكلمة واحدة. وبقينا هكذا لساعتين كأننا في سرادق عزاء أسابيع الحماقة الكبيرة. بعد ذلك سحبني من يدي وأخذني في جولة طويلة بالمدينة القديمة، ونجح في أن يقول لي في نهايتها: «لماذا لم تحكِ لي من الأول؟» ثم أضاف جملة مريعة تكاد تخنقني كلما تذكرتها: «على الأقل أنت بقي لكَ قلب تحب به».
ونحن نتمشى كنت أتأمل هذا العمى الأقسى، عمى أن تفعل شيئاً

وأنت تعتقد أنْ لا أحد يراك، ولا يحدس حتى ما تقوم به، وتركن لظلام عزلتك وأنت تستكثر من التحوّطات، وفجأة تكتشف أن تسرعاً وغفلة منك زرعا عيوناً كثيرة في قفاك، وسلطا عليك نوراً فضاحاً. سيمنعني الخجل من مواجهة أهل الدار، وحتى إنْ تصرفت وكأن شيئاً لم يقع، ماذا سأفعل بإبتساماتهم الساخرة المكتومة؟ ماذا سأفعل بغمزهم لبعضهم؟ ذاك هو العمى، ذاك هو الظلام الذي يزرع بداخلك ارتياباً عميقاً تجاه المبصرين، وتشككاً لا شفاء منه نحو كلّ تلك الإشارات التي تتبادلها العيون، وتوحي بها تقاسيم الوجه، ولا سبيل لها أبداً. لم يؤلمني العمى كما آلمني ذلك المساء، وأنا أدرك أنني قفزت عالياً فوق عاهتي وأردتُ أن أتبادل إشارات ورسائل مع امرأة لم تكن لي أدنى فكرة عنها، امرأة التمعَ صوتها وهو يغني بداخلي، وبنيت من تلك الالتماعة حكاية تكشفت تهريجاً مثيراً لقهقهة مجلجلة. تحسستُ خصلة الشعر في جيبي. خادمة؟ نعم خادمة تشكو في تماوايتها قهرها ووحدتها وحنينها، وأضفْتُ لها أنا ثقلاً آخر. يا للعار! ماذا فعلتُ بالمسكينة وأنا أتلف لحظة سعادتها الوحيدة حين تخلو لنفسها، وتغني لجبَلها البعيد. لن تغني بعد اليوم، وحتى وإن فعلت كيف لي أن أصعد إلى السطح مجدداً؟! كان بيننا سر، أما الآن فبيننا فضيحة، يا للحياة اللئيمة التي تبني وتدمِّر ما بنته في لمح بصر.

عرضتُ على العسكري بأن يأخذني إلى مستودع الجماجم. هناك، ولأنّ الخبير ومساعده كانا منهمكين في حديث هامس، حكيت للعسكري باختصار ما وقع، وأريته خصلة الشعر لأثبت روايتي فضحك كثيراً وقال لي: «أنا وأنت مجنونا أصوات»، وحكى

لي يوم سمع صوتاً أنقذه من إقدامه على الانتحار. ثم قال لي: يا لئيم، وتركتني أعطي لأهل الدار درساً تافهاً في الأزمات النفسية.
مهما سيقع سأحنّ كثيراً لتلك الأيام التي كانت لي فيها قضية، ونار تضرم بداخلي وأمل يتخطى عجزي، ويطل بأطراف الأصابع على حبّ مستحيل، مهما سيقع سيتردّد تاماوايتها بداخلي كترنيمة صلاة وثنية، كبقية جمر في رماد نار اشتعلت في تبن، وأكلته بسرعة شديدة. ليلتها حسدتُ الجماجم الحية الميتة، لأنها انتهت من كلّ هذه الأشياء، ولم يعُد يَستعِر فيها عطش هواجس وشهوات ورغبة في الامتلاك. ها هي مكدَّسة ومتداخلة بعضها ببعض، لكنها لم تعُد تكترث نهائياً بمن راح ومَن جاء، ومَن أحب ومَن كره، ها هي ترفل في سلام وسكينة تحرّرها من نوبات الجنون، من سعار الزمن وما يفعله بالأحياء، فيمنح ويمنع ويقرب ويبعد. يا رَب ليتَ لي لا مبالاة جمجمة تجاه دراما الحياة.

بعد يومين من عذاب تبكيت الضمير، والإحساس المُميت بالفراغ، ومن عناء التواجد مع أهل الدار وتجنُّبهم في الآن نفسه، بتدبير هندسة العسكري، بحيث أنه عمل على أن أتناول معه الوجبات في حجرتنا. قال لي ونحن نهمّ بالنوم بجسامة وبتمهّل مَن يقتسم سراً كبيراً: «اسمها صفية وعمرها سبعة عشر سنة، وتنحدر من وادي آيت بوگماز»، وبعد صمت طويل أضاف: «الوغد صاحب الدار طردها وأعادها إلى أهلها». ولأنه حدس بأنه نشر أشواكاً في سريري، وأن عينيَّ لن تكتحلا بالنوم فقد قال لي: «نمْ. لها مدبِّر حكيم». وهو يعرف أنني لن أنام وعقد مخازيّ اكتمل بطردها من العمل.

ليالي الباشا الصغير

1- يا ليل يا عين

كنت قلقاً وأنا أنتظر أمام باب الكاتب العام للبلدية، ماذا لو سخر مني وبدوتُ له كواحد من أهل الكهف متأخراً بستين سنة عمّا يجري الآن، أعمى ما زال يعتقد أنّ الباشا عبد السلام يحكم البلد، ويصدر الأوامر بتشغيل مَن يشاء؟! أبتسم ببلاهة لكلِّ مَن دخل أو خرج من عنده، وأداري ضيقي ووساوسي بخبط العكاز على الأرضية الرخامية. وأسترقُ السمع لِما يُقال بالداخل. لن أنحو عليه باللائمة إن سخر من الكائن الغريب الذي يقف أمامه ويطالبه، وعلى وجهه التعاسة الكبيرة لمَن لا يصلح لفعل شيء، بعمل. لكنه هشّ في وجهي حين أدخلوني عنده وقدَّمت له اسمي بفم متصلِّب. وبدّد وقتاً طويلاً في الهذر من ضرورة الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة ودمجهم في مسلسل التنمية. وإعطائهم المكانة التي تليق بهم في الأوراش الكبرى التي يعرفها البلد، بما في ذلك ورش تأهيل الإدارة، وجعلها في خدمة المواطن، فكلنا نصبو إلى إدارةٍ عقلانيةٍ منتجة ونزيهة. وهو يتحدَّث، بذلك الحماس الفضائحي المفارق عن

الجدوى وهو بصدد توظيف أعمى، كنت أتضاءل في الكرسي وأتعرَّق. فعُتْه الدولة في التعمية على خَراب المَرافق العمومية خرج من التلفزيون، وبدأ يطاردنا في كل مكان، وكلما فتح مسؤول إداري أو سياسي أو مواطن فمه غَرَف من البحر الزاخر الذي تركه مسقط الطائرات تراثاً خالداً للأمة في إنكار الواقع والتعمية عليه، ووضع العكر على الخنونة، كما يُقال. ثم انتفض من خدر السديم الناعم للغة الفصام والادِّعاء، التي كانت تصف قطرات لا تبلل شفة يابسة بأمطار الخير العميم، والبركة في عزّ جفافٍ أهلَكَ النسل والضرع، وتوارى مصطفى العلوي، وسألني بصوتٍ انبرى للأمور الجدية، سؤالاً اختلطت فيه أخلاط من الأنطولوجيا والميتافيزيقا:

- في أيّ مصلحة ترى نفسك قادراً على العطاء؟

فكدتُ أن أجيبه جواب بشار لهاشمي سأله نفسه أمام الخليفة عن عمله:

- مصلحة ثقب اللؤلؤ.

ولكنني بقيتُ صامتاً، وافتعل تقليب ملفات أمامه، ثم وكأنه خلص من فحص بعض الأوراق إلى الجواب عن سؤاله. قال لي:

- سأقترح على السيد الرئيس تعيينك في مصلحة الموارد البشرية، لا شكّ أنك ستساعدهم في كتابة جمل مفيدة وبدون أخطاء إملائية.

وأنا أخرج طلب مني أن أبصم على ورقة، وأن آتيه ببعض الصور والشواهد الإدارية وأمرني بأن ألتحق بعملي يوم الاثنين القادم ثم ترجّاني أن أبلغ سلامه الحار للباشا وللحاج فرح.

حين عدتُ إلى الدار، وأخبرتهم بكلّ ما دار بيني وبين الكاتب العام، فرحوا فرحاً عارماً إلّا العسكري اليائس الذي غمغم كلاماً حاقداً وخرج. خلتُ أنني سمعته يقول: لم يتغير شيء في البلد. ولم أفهم موقفه هذا. هل يرضيه أن يتغير البلد في وجه أخيه فقط ليتفسخ في عماه وبطالته؟ إنه يصيبني بخيبة مريرة، ولا أريد أن أفسّر ذلك أبداً بأنه يحسدني على هذا الانقلاب الفرح والكبير في حياتي، لأن لا مبرر له في ذلك، لكن مَن يمكن أن يعرف ما يدور في الأغوار المظلمة للنفس البشرية، ربما، وبتفسير نفسي رخيص، يريدني أن أبقى تحت جناحه يفسِّر لي كل ما يدور في العالم، ويأخذني إلى الطبيب، ويختار لي ما أشتريه، ويعطيني من حين إلى حين بعض ما يفضل له من نقود وكتب. ومثلما تعزّ على المرء رؤية طائر رباه، وتعهده طويلاً وهو يحلق بعيداً تاركاً له خواء اليد، فإنه هو أيضاً يرى موضوعاً لحزنه وشفقته، ورعايته يبتعد عنه: **«أنت لا تعرف صاحبك كما ينبغي أن تعرفه، وأنت لا تتبيّن خليطك وعشيرك كما ينبغي أن تتبينه، ومن هنا تقع بينك وبينه الخصومات، ويسوء بينك وبينه الظن»** قال طه.

وفي مساء ذلك اليوم جاءت سيارة من دار الباشا إلى الدار، وأعطونا أكياساً وعلباً كرتونية، وتَحلَّق كل مَن في الدار حولها، وهم يُخرجون ما فيها شيئاً فشيئاً: أربع بدلات بألوان مختلفة، اربعة أقمصة، وأربع ربطات عنق وأحزمة، معطفان، أربع أحذية، قبعة، نظارات من نوع رايبن، قوارير عطور من نوع شانيل وإيف سان لوران، وملابس داخلية قطنية، وعكاز بمقبض عاجي، ومحفظة جلدية. ليلتها عرفتُ أنّ الأشياء الجدية بدأت وأنّ عليّ أن الازم

البيت من الساعة السابعة مساء حتى الحادية عشر كل يوم مثلما ينضبط المرء لعملٍ يعتاش منه. أنا، ومنذ لقائي مع الحاج فرح، قشّة فاجأها سيل جبار وحملها مستسلمة إلى حيث يمضي هادراً، فمنذ أن فشلت في إيقاف العمى، صارت حياتي بلا قضية، مملّة، تافهة، مكرورة تمضي نهاراتها ولياليها تفجُّعاً وزفرات حامية، لذا تهالكت بكلّ قواي على صوت صفية، وتعلّقت بأول غصن يلوح لي به مجرى الزمن العاتي الذي يجرفني. وأفرغت فيه كلّ مدخراتي من القلق والتشوّف والاستثارة وبناء الأحلام ورؤيتها وهي تتحطم كالزجاج. آه. صفية. لولا خصلة الشعر ولولا ورقة إيزابيل، اللتان أتحسَّسهما في جيبي بحنان وحذر، لخلتُ أنّ ما أعيشه حلماً وأن دخول الدار الكبيرة وحصولي على عمل وبِذَل وعطور مجرد تهيؤات لرجلٍ بلا أمل ولا عزاء. أمضي في حياتي الجديدة بلا اضطراب، ولا اصطخاب، كأنّ ما يحدث لي يعيشه إنسان هادئ ومتعقِّل فعلاً يُسمى عاشور الصغير يتقبل ضربات وعطايا الحياة بلا حماس زائد. حياة وهبته حباً وانتزعته منه بفظاظة، وها هي تهبه عملاً وقرباً معجزاً من سدّة مأمولة ومشتهاة، ولا يعرف متى ستُنهي الحياة حظوَتَه هذه التي يدين بها لعاهته، ولوجوده في زمان ومكان معينين قرر فيها الباشا بأنْ يروّض حنينه الغامر للقاهرة.

جاءت سيارة الدار الكبيرة بعد ثلاثة أيام، كنت أجلس فيها أمام الباب، ويجفل قلبي لكلّ سيارة عابرة. جاءت في تمام العاشرة ليلاً، وأمهلوني دقائق لبست فيها بذلة، ورشّت أمي العطر على عنقي ودعت لي. ورغم أنّ الحذاء وخزني في عقب قدمي فقد تحمّلت أذاه، وخرجت إليهم (قال لي العسكري بعد أسابيع ضاحكاً بأنني

كنت أبدو كمهرج في حفلة تنكرية). وجدتُ الحاج فرح في استقبالي، وجرَّني من يدي إلى مكتبه. وهناك أخبرني وبدون مقدِّمات بأنّ لمجالسة الباشا أعرافاً، ولنقل شروطاً ينبغي الالتزام بها حرفياً، وهي كالآتي:

- حين يدخل عليك أن تقف. أفهمت؟

- لا ينبغي أن تجلس حتى يأذن لك. أفهمت؟

- لا تبادره بالسلام وإنما تردّ سلامه إن حياك. أفهمت؟

- لا تبادر للكلام في حضرته حتى يأذن لك. أفهمت؟

- الباشا يُخاطب بالجمع: سعادتكم، حضرتكم. وينبغي أن تتخلل كلّ كلامك معه، سيدي، أو نعم سيدي. أفهمت؟

- لا ينبغي إصدار أصوات في حضرته نهائياً من قبيل التجشؤ والتنحنح والهمهمة وإصدار أصوات أثناء مضغ الطعام أو الشرب، فستوضع أمامك مائدة صغيرة عليها كلّ ما تريد، مدّ يدك بحذر إلى الطعام والكؤوس. أفهمت؟

- لا ينبغي مجادلته أو إغضابه أو الإطالة في الكلام، ما قلَّ ودَلّ فقط. أفهمت؟

- لا ينبغي أن تحدِّث مَن يجلس بالقرب منك لأيّ سبب من الأسباب. أفهمت؟

- احرص على أن تفرغ مثانتك ومصارينك الغليظة قبل أن تأتي إلى هنا، فإنْ جالست الباشا لن يعود بإمكانك الخروج والدخول. أفهمت؟

- ننظم هذه السهرات للباشا لكي يستمتع، فكُن من صنّاع استمتاع الباشا، «ولسوف يعطيك فترضى». أنا أعوِّل عليك، يا عاشور الصغير، احفر هذه الأشياء بداخلك. أفهمت؟

ثم ربت على كتفك بحنان ومدَّ يده لك وسحبك وصعد ونزل وردَّ تحيات كثيرة، وحين فتح باب وغمرتك رائحة عود القماري وسمعت من هناك ينهضون قدمك قائلاً: صديقكم عاشور الصغير، ثم أجلسك في كرسي وثير وهمس في أذنك: هل تشرب؟ فأجبت ببلاهة لست عطشانَ. فضغط على يدك وقال مبتسماً: لا أقصد ما نشترك فيه مع البهائم. أفهمت؟ فقلت له: لا   لا أشرب، وقدَّم لك مَن في المكان: فهمي الصغير، وهبة يعقوب الصغير، صدقي الصغير، شوقي الصغير، توفيق الصغير.

أُجلِسْت كطفل يدخل فصلاً دراسياً لأوّل مرة، لا يعرف أحداً من زملائه، ويحاول أن يهادن إحساسه بالخوف والوحدة باللهو بأصابعه، وبآلام الحذاء الجديد في قدميه. لا شيء من أصوات الخارج يتناهى للمكان، كأنني في مكان قصيٍّ من العالم، أو في مغارة سحرية في أعماق الأرض، ولا أحدَ من الذين هُم بالقرب كان يصدر صوتاً. كنّا جامدين نشدّ بحرفية شديدة على وصايا الحاج فرح تاركين صمتاً بارداً، يلوك نفسه، ويُعيد لوكها فوق رؤوسنا. (سيقول لي صدقي الصغير حين صار لي صديقاً بأنّ جدران المكان مصفَّحة، ويمكن أن تقاوم قذيفة مدفع وليس صياح ديكة، ومنبّه سيارة بعيدة وشدو طائر ليلي). خرج الحاج فرح، ودخل ووضعت أمامنا، كلّ في طاولته، أوانٍ وكؤوس، لكن لا أحد مسَّ ما وضع أمامه. كان جسد كلّ واحد منا كما قال الجهشياري في «الوزراء والكتاب» صدى لا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء، جسد شفاف بلا غدد ولا أمعاء. عليه أن يبقى في وضعية بيات سهرة كاملة، كابتاً فيه كلّ ما يتدفق ويومض ويختلج.

لا شك أنهم أيضاً لم يساوموا، ولم يطلب رأيهم، وقبلوا أن يَفعل بهم ما شاء الباشا. في مثل هذه الأمكنة، تُريك الحياة بأنّ لكل شيء ثمناً، وأنك لا تأخذ إلّا بقدر ما يُؤخذ منك. تقرب لتبتعد عن ذاتك، وتصعد لتتنازل عن حريتك وكرامتك، وتغتني لتفتقر إلى تلك البساطة التي تهبُ كل شيء تحصل عليه بشوق وعرق ومكابدة معنى. ألم ترَ الحاج فرح وهو يملي شروط الخزيرات بودٍّ حازم؟ ولمَ لا يفعل، وهو يرى ثيابه تَستر عورتك، ويرى حذاءه في رجلك، ويشمّ عطره فيك؟ إنهم لا يرتاحون إلّا حين تأخذ منهم وتنكّس نظرتك في التراب، لا يرتاحون إلّا حين يرون ما يمتلكونه يغزو حياتك وينتشر فيها كعشب ضارٍ ينسج شبكته من حولك، ويجعل فطامك بعد ذلك مراً ومؤلماً، وحين ستطرد من الجنة لن تكون إلّا شخصاً معذّباً وممزّقاً بين ما كنته قبلها، وما صرته فيها، وما عليك أن تكونه وأنت ترتق حطاماً لا يرتق. وأنا مستغرق في تأمُّل وضعيتنا نحن الستة إزاء حضرته، لا يمكن أن نتوهَّم مجرد الوهم بأننا أصدقاؤه والحاج أفهمت؟ يتلو علينا قائمة التنكُّر للذات وشطبها نهائياً في حضرته، لا نحن بخدم له، لأنّ مقامنا أرفع، فحضرته لا يُجالس الخدم وأهل الدار، ولا نحن بممثلين يؤدّون دوراً مكتوباً في مسرحية تدور أحداثها في قصر يُعاني صاحبه من مللٍ شديد يحتاج إلى آذان تسمعه. نعم لسنا ممثلين، وإنما كومبارس لممثلين أضاعهم البُعد، وشتّتهم الزمن والموت، وعلى كلّ واحد منّا أن يجسد الدور الضئيل والصامت لمن غاب دون أن يعرف أيّ شيء عن نصّ المسرحية، أنا عاشور الصغير كومبارس عاشور بيه الكبير (لا يمكن أن يكون هناك صغار إلّا في وجود كبار) الذي لا يعرف أي شيء عن شبيهه، ولم يكلف

أحد نفسه عناء وصفه له. فتح الباب ودخل الباشا، بعد أن نبَّهنا الحاج أفهمت؟ فوقفنا محتبسي الأنفاس، تعتصر قلوبنا تلك الرهبة التي صنعها الانتظار والخوف والطقوس والعطايا، وسمعت صوتاً هادئاً وئيداً كأنه من عالم آخر يقول لنا بنبرة متعبة:

- ليلتكم سعيدة، تفضلوا بالجلوس. تفضلوا.

ثم ونحن نجلس أمَرَ الحاج بأن يسمعه أغنية محمد عبد الوهاب: «عندما يأتي المساء». لا شك أنّ وجوهنا كانت محمرة، وقلوبنا مهتاجة، وأنّ الباشا يعرف من خبرته أن مجيئه يُحدث ارتباكاً عظيماً في نفوسنا تصعُب لملمته إلّا بشيء مهدئ وحالم كموسيقى وغناء محمد عبد الوهاب الذي يعنف بهدوئه السرعة الهوجاء التي يمضي بها العالم، وينقر صخب الحياة بالتفجع البطيء لمن يغني من شرفة غرفة مستشفى للأمراض الميؤوس منها لم أتلذَّذ بسماع الأغنية، بل كنت أسمع الباشا وهو يدندن كلماتها بصوته الواهن المجروح. وحين انتهت الأغنية، قال كمن يناجي نفسه:

- ياه، غنى عبد الوهاب هذه الأغنية في فيلم **«يحيى الحب»** سنة 1936، وكلماتها للشاعر محمود أبو الوفا، وهي إلى جانب: **«جفنه علّم الغزل»** و**«سهرت»** تمثّل قدرته المبكرة على إغناء المقامات العربية، مثل الرست هنا، بإيقاعات غربية، سريعة، وفرحة. وقد حكى لي رحمه الله كيف أنه حاول في تلحينها أن يلعب على التضادّ بين الرتابة الشرقية والخفّة الغربية، وأن يُحاكي إيقاع الليل الذي يبدو سريعاً راقصاً في المساء ثم يتهدل قليلاً حين يحلّ الظلام لتأمُّل فتنة النجوم، وينتهي بما يشبه إعلان الأذان الذي يبشر بصباح آخر.

ثم وبعد تنهيدة حارة قال: آه الليل، وبعد صمت طويل بادرنا بسؤال غريب:

- كيف ترون ليل بني ملال؟

لم يسبق لي أن تأمَّلت ليل بني ملال، ولا عرفتُ حتى بأنه موضوع صالح للتأمل، فالنهار منذ ولدنا معاش والليل سبات. ردَّ زميلي الذي يجلس بالقرب مني والذي سأعرف بعد ذلك بأنه صدقي الصغير بصوت متردِّد:

- هادئ. نعم سيدي.

فضحك الباشا برنين تموّجت فيه سخرية ما:

- هادئ ورتيب وخاوٍ كَلَيْل الدواوير. أتعرفون، يا سادة، بأنه لا يمكن أن يكون عندنا فنّ كبير بليل الغطيط والتقلب والفساء. الليل سخاء وجنون وحدس وتحرير للقوى الغافية بداخل كلّ واحد منا، فإنْ كان النهار مشاعاً للجميع، فالليل انتقائي وأناني يصطفي خيرة الناس، فالبشرية بأرقيها ومتسكِّعيها في الأزقة الخالية، ومشرَّديها في الحانات والمَراقص، ومتهالكيها على حاجات أجسادهم، تدين له بأفضل وأسوأ ما فيها. العتمة تحرّر وتشجّع كل شيء على إخراج ما هو حقيقة، ليلُ اللذة والأفراح والدسائس والمكائد والصفقات. الليل الذي لا ترى فيه اليد التي تُعطي والتي تأخذ، والتي تغتال، والتي تتلمس طريقها إلى جسد مشتهى. لم تعرف هذه المدينة، باستثناء بيوت أندلسية قليلة، ثقافة واقتصاد الليل اسألوا أصحاب سيارات الأجرة الذين يشتغلون في الليل سيقولون لكم أشياء مذهلة عن مدينتكم.

مددتُ يدي بحذرٍ شديد وأخذتُ شيئاً عرفت وأنا أرفعه إلى فمي

بأنه لوز مملّح، وبحثتُ في صحن آخر فرفعتُ قطعة بسطيلة صغيرة ثم قطعة سلمون مدخّن وجبن وزيتون، وبحثت عن الكؤوس وشربت عصير زنجبيل وقرفة، ثم عصيراً لذيذاً لشيء لم أهتدِ لكُنهه، ثم آخر أغرب من السابقين، عصائر كأنها نداء من الجنة. وأنا أهجم بجوعي وبداوتي على المائدة التي أمامي بهمّة شديدة، كان الباشا يحدِّثنا عن فيلم «**حد السيف**»، إخراج عاطف سالم، تمثيل محمود مرسي في دور طلعت عبد الحميد وكيل الوزارة المهيب والصارم والنزيه، وزهرة العلا في دور زوجته المتفانية في رعاية بيتها، ويوسف شلبي في دور شبورة مُصلح آلات الطرب الذي يأتيه السيد عبد الحميد بقانونه ليُصلح بعض أوتاره، وحين سيعزف أمامه سيُعجب شبورة بعزفه وسيقترح عليه العمل ليلاً مع الراقصة سوسو بلابل التي تلعب دورها نجوى فؤاد، كعازف بأجرٍ مغر. ولأنّ وكيل الوزارة كان في حاجة إلى النقود لتعليم أولاده وتلبية رغباتهم، فقد قبل العرض بعد تردُّد وصار يعزف وراء سوسو بلابل متنكراً حتى انكشف أمره.

بعد أن تناول شيئاً ما استرسل:

- لا يمكن لأحداث فيلم «**حد السيف**» أن تقع في مدينة ليس فيها أمكنة وثقافة ومهن وعوالم الليل، وكذا قدرته على منح الناس إمكانية أخرى لمداواة مشاكل وجراح وخصاص النهار. في الليل كان عبد الحميد طلعت يقتل الموظف بداخله لحساب الفنان والحالم، لأنّ الليل قناع كبير يمنح لمهزومي النهار فرصة تعويض ما خسروه فيه.

تغذيت مع محمود مرسي في الإسكندرية، أتعرفون بأنه هو مثقَّف كبير درس الفلسفة في فرنسا، وقلت له بأنه لم يجسِّد في ذلك

الدور عذابات الموظف في تحصيل لقمة العيش، بل جسَّد مأزق مصر التاريخي، هذه الأمة العظيمة والتي اضطرَّتها الإخفاقات المتتالية على كلّ الأصعدة إلى قبول مهانة خدمة دويلات صغيرة تاريخها القصير يشبه تاريخ سوسو بلابل وشبورة. إنّ حد السيف الموضوع في رقبة طلعت عبد الحميد هو سيف الحاجة نفسه الموضوع على رقبة مصر والذي يضطرّها للعب مع الصغار وللعزف على أوتار هزّ الردف، وتحريك مرارات عزيز قوم ذلّ.

ضحك مرسي طويلاً وقال لي: ربما. ربما معك حق.

ثم طلب من الحاج أن يُسمعه: «**الجندول**» لمحمد عبد الوهاب و«**ليه يا بنفسج**» لصالح عبد الحي.

والباشا يتلذَّذ بموسيقى وصوت عبد الوهاب المتفجّع المفعم بالحنين والذي يزيده هواء الشرق الراكد تصدُّعاً، كنا كقوارض صغيرة نبشت كيس قمح، ومضَت تنتشي بالتهام أكبر قدرٍ ممكن من الحبوب. وحين غنى عبد الوهاب «**فعرفت الحب من أول نظرة**»، وخصوصاً حين عرّج على «**ذهبي الشعر**»، تحسَّست خصلة الشعر في جيبي، وأبعدتُ يدي بسرعة مَخافة أن ينقضَّ عليّ قلبي، ويفسد عليّ هذه الليلة الساحرة. وعندما بدأ صالح عبد الحي ينشد موال: «يا ليل. ياعين». قال الباشا:

- يا ليل يا عين، كلّ المطربين غنوا لليل، فمَن لم يعرف الليل لم يعرف الحياة. أتعرفون مطرباً غنى للنهار؟ ثم سألنا:

- إن أرق الواحد في هذه المدينة أين يذهب؟ هناك مرقصين حقيرين يستقبلان لصوص المواشي، والفلاحين الذين قبضوا ثمن غلاتهم بعد شهور من التعب، والعاهرات العنيفات اللواتي يتعاركن

بشفرات الحلاقة، والمهاجرين الشباب الذين يريدون أن ينتقموا بصخب سياراتهم وأجسادهم من الحرمان والغفلية التي عاشوها هناك. وماذا بعد غير البيرة الرديئة، والدخان، والغناء المبكي، والشجار الدامي. لو خاضت هذه المدينة حرباً لما سقط لهِا عدد من الموتى الذين قتلوا أمام باب المرقصين من طرف الفيدورات، أو على إثر الشجار أو السياقة بعد براميل البيرة التي تشرب.

كان صوت حضرته يصلُ من مكان قريب، لكنه أعلى قليلاً من المكان الذي نوجد فيه، وكان الحاج فرح يسهر على خدمته. كنت أسمع رنين كؤوس وأوان، لكنني لا يمكن أن أجزم بأن الباشا كان يشرب الخمر، وهو يسمع الأغاني، ويحدِّثنا من حين إلى حين، فصوته بقي متماسكاً ولم يطرأ عليه ذلك التآكل البطيء الذي يحدث لأصوات السكارى. ربما هو من ذلك الفصيل، الشاربين النادرين الذين لا يهزّهم ريح.

سمعنا «**رق الحبيب**» لأم كلثوم، وسمعنا «**الناس المغرمين**» لمحمد عبد المطلب، وبعض أغاني أسمهان. واستأذن الباشا وخرج بخطى النمر نفسها التي لا صوت لها.

وتبعناه بعد دقائق كانت سيارة القصر في انتظارنا في الباحة. ركبت قرب صدقي الصغير الذي وضع يده على كتفي وهمس لي: «معك يونس» فأجبته هامساً: «أنا محمد» وحين كان يهمّ بالنزول، اتكأ على أذني وهمس لي مجدداً: «نلتقي في مقهى سان باولو غداً في الساعة العاشرة صباحاً. ستجدني بالداخل اسأل النادل».

هذيانات مغربية

2- باب السلاطين

حين كان شيوخ أوروبا، القبيلة الساذجة، يبايعون إدريس بن عبد الله الأعزل والهارب من الشرق رفقة مولاه راشد. ويقولون: هو سيدنا ونحن العبيد. وحين بايعوا ابنه وهو طفل في سن إحدى عشر سنة، كانوا يضعون لبنات تاريخ طويل لاحتقار الذات والعبودية المختارة. أذهل الطفل - على ما قال البكري - الخاصة والعامة بعقله ونباهته وفصاحته، لأنهم، وببساطة، كانوا يفتقدون كل تلك الصفات. ومنذئذٍ، صارت تجري في عروق كثرة هنا في هذا البلد المسكين دماءٌ وَضيعة تافهة ومغمورة، وتجري في عروق قلة دماء نادرة ونبيلة ومصطفاة. قال الطفل للشيوخ: «فلا تمدّوا الأعناق إلى غيرنا، فإنّ ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا»، فتسارع الناس إلى بيعته، وازدحموا عليه يقبِّلون يده ببلاهة عجيبة.

في أطراف الصحراء، وضع عبد الله بن ياسين، الفقيه، يده في يد الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ومن بعده في يد يحيى بن عمر

اللمتوني. وكانوا بهذا يؤاخون بين الموعظة الدينية والسيف، ويؤسِّسان لهذه القوة العاتية التي جرفت كلّ ما يقف أمامها قروناً بعد ذلك، قوة خلقت دولة المرابطين وكل الدول التي جاءت بعدها.

كانت زينب النفزواية وهي - بحسب وصف بن خلدون - من المشهورات بالجمال والرياسة زوجة ليوسف بن علي بن وطاس شيخ وريكة، ولمّا تغلب عليه لقوط بن يوسف المغراوي اتخذها زوجة له، ولما قتل أبو بكر بن عمر المرابطي لقوط تزوّجها هو أيضاً، لكنه اضطر للعودة إلى الصحراء فاستخلف وراءه على تراب المغرب وعلى زوجته يوسف بن تاشفين. وهكذا لا يكتمل امتلاك الأرض إلّا بامتلاك المرأة. لذا لا غرابة في أن يبقى الفقهاء وحتى مجيء الاستعمار يتجادلون: هل فتح المغرب عنوة أم صلحاً، أو عنوة وصلحاً في الآن نفسه؟ كأنهم يقيِّمون وضعية جارية في سوق نخاسة لا وطناً وشعباً وهوية متجذرة.

عرف المغرب طلاب حكم كُثُراً، لكن لم ينجح منهم إلّا قلة امتلكوا الذكاء والكلبية اللازمين، وكانت لهم قراءة ثاقبة للأوضاع، وانحازت لهم الصدف، ولعلّ أبرزهم هو محمد بن تومرت الذي لقَّب نفسه بالمهدي ووضع معجزات ركيكة، وكان بحسب بن خلكان يستدني «أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أغماراً. وكان أميل إلى الأغمار من أولى الفطن والاستبصار» فحتى تنجح دعوة ما أيضاً لا بد أن تُحاط بغباء كبير.

لا تنبني سلطة ما إلّا على أنقاض أخرى، ولا يبني سلطان ما

شرعيته إلّا حين يقوض بشكل عنيف أو ناعم دعائم حكم سلفه حتى ولو كان والده. قد يهدم ويقتل ويشرِّد، وقد يكتفي بإبعاد هذا وذاك وإعادة صياغة رموز حكم وطقوس وشعارات عهده هو، وقد يترك فقط الحبل على الغارب لمنتقدي والده وكاشفي عوراته وهناته ومخازيه.

السلطة أنانية جداً وغيورة جداً وحقودة جداً ولا تقتسم مع أحد. وكلّ عهد يريد في قرارة نفسه أن يبدأ التاريخ معه، وأن لا يرى الناس سواه، وأن لا يتذكروا إلّا مآثره. ولع سلاطين المغرب بالهدم والتخريب والمحو، وحين تُسقِط أسرة ما أسرة حاكمة لا تُطارد فقط ذكورها المؤهّلين للحكم، بل وقبورها وأحجارها، وكل ما يَمُتّ بصلة ما لها. فقد عاثت مثلاً «عساكر بني مرين في جبل تينمل، واكتسحوا أمواله، ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المومن، واستخرجوا أشلاءهم، وكان فيها شلو يوسف بن عبد المومن، وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم» (الاستقصاء)، وقضى المولى إسماعيل فترة من حكمه منشغلاً بهدم قصر البديع العظيم جوهرة ما بناه أحمد المنصور والدولة السعدية «لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع» (نزهة الحادي). غير أنه ومن يوم مات والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور (التي بناها هو) على قدر وسعهم،وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام، ولبن وقرمود، ومعدن، وغير ذلك إلى وقتنا هذا (البستان)، بل إن ابنه المولى عبد الله أمر النصارى والشعابنة أن يهدموا مدينة الرياض التي فيها أخواله الوداية، وفيها دور العمال والقواد والكتاب وأعيان دولة والده مولانا إسماعيل. ركب عند الفجر وأشرف على كدية وأمر بالهدم من كل ناحية والناس نيام لا علم لهم. فمن بادر

وحمل رزقه نجا، ومن لا معين له أو تراخى بقي متاعه تحت الردم. (الجيش العرمرم).

جنود وعبيد لجرعربة بدل الجياد

بدا السلطان راضياً، وبحسب عاداته، لم يقل كلاماً مهماً. لكنه أمر أحد ضباطه بأن يربط أربعة أحصنة بالعربة. كان يتوجَّب إفهامه بأنْ لا واحد من خيل المرابض السلطانية قد جرّ عربة، فكل مقتنياته من سيارات وفياكر تتعفن، مهملة وبلا فائدة في مستودعات وأقبية، لكن ليس بالإمكان حرمان جلالته من متعة رؤية عربته تتحرك، فربط إليها جنوداً وعبيداً، وأمروا بأن يجروا ببطء الآلة الثقيلة والمكلفة والتي لا فائدة لها ولكنها رائعة. تحرَّكت الآلة:

- سنقوم بنزهة. قال السلطان.

ثم أشار لقنصل الدولة العظمى بأن يركب خلفه، وركب هو في المقعد الشرفي والمذهَّب، أما أنا، فقد اتخذت لي مكاناً بالداخل، وحين استوينا في أمكنتنا بدأت العربة أول وآخر رحلة أبهة لها. كان الجنود والعبيد يرشحون عرقاً، ويتنفسون بصعوبة بينما العجلات تغيض شيئاً فشيئاً في المرج السبخ. كنا نتقدم ببطء.

الكلاوي آخر سادة الأطلس
(1893 - 1956)،
كافان ماكسويل

الثالوث المقدس

أخبرني غير واحد ممّن لقي الحافظ أبا بكر بن الجد، أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة

دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أو خمسة أقوال، (المذاهب الفقهية) أو أكثر من هذا، فأيّ الأقوال هو الحق. وأيهما يجب أن يأخذ به المقلد، افتتحت أبين ما أشكل عليه من ذلك، فقال له وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار للمصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب
عبد الواحد المراكشي

السلطان وتوظيف السوقة

ثم جمع رضي الله عنه (عبد المومن بن علي الكومي) السوقة بأجمعهم كبيرهم وصغيرهم، وقال لهم اليوم أعرف أنّ ما لي إخواناً ولا جيراناً غيركم، وأنتم أهل الأمانات، بارك الله لنا فيكم، وأعطاهم السلاح سيوفاً ورماحاً ودرقاً وسكاكين، وأمرهم أن يعملوا زقاقاً من إيمي ن تكمى[1] حتى إلى السجن، وأمر بإخراج أعداء الله من السجن عشرة في عشرة، وكانوا يقتلونهم بإخصائهم.

أخبار المهدي بن تومرت
البيدق

مهما يُقال، لم يكن في تاريخنا الطويل سلطان أعظم من المولى محمد بن عبد الله، فهو مَن بنى المغرب من الصفر بعد

---

(1) اسم أمازيغي لمكان بمدينة مراكش.

ثلاثين سنة من الفوضى التي تسبَّب فيها أعمامه ووالده، وأعاد الهيبة للدولة وحطَّم جيش العبيد الذي تسبَّب في مآسي واضطرابات كبيرة. وعرف بأنّ قوة المغرب تتطلب جيشاً محترفاً وأسطولاً بحرياً متمرِّساً، وأن لا مفرّ من الارتباط بالتجارة الدولية، ولهذا الغرض بنى الصويرة، وافتكَّ كلّ الأسرى المغاربة، وكان يعتبر المساس بمغربي واحد مَساساً به هو شخصياً، وكان يتعامل مع باقي الدول الأخرى كعاهل لأمة عظيمة، وكان ورعاً تقياً يرتاح لمجالسة العلماء والمثقفين، وألَّف عدَّة كتب، ولأنه فهم جيداً مهنة الملك. قال لخاصته في الرباط: «الذي يأمن في أحمق يلزمه من يكويه في رأسه»، وأجاب صديقاً له عاتبه على جفائه: «من أحببناه عذبناه، ومن أبغضناه قتلناه، ومن أحبه الله لم يعرفنا ولم نعرفه».

لا أحبّ سلاطين المغرب حين يهنون ويدارون ويتملّقون شعبهم. أحبهم حين يغضبون ويعنفون ويهزأون. أحبهم حين يكسرون تلك الصورة الحالمة لذاتٍ تعالَت على كلّ شيء، بما في ذلك العواطف وسورات الغضب. لا أحبّ الوجه الجامد، واللغة المحنطة النقية والمعقمة والتي لا تدع شيئاً يتسلَّل إليها ممّا يجري حقاً من تدافع وكراهية ونقمة وضيق وتعب متبادل بين الراعي ورعيته. أحبّ الزبد المتطاير ورعشة الحنق في الشفتين واليد الملوحة بنقمة تتجمّع في الأفق كعاصفة، اليد العنيفة والتي تشتهي أن تخنق وتُجندل وتبقر وهي تتلاعب بخنجر متوعّد بين أصابعها. أحبهم كثيراً حين يعودون إلى أصل الأشياء ومنبع الطاعة وأس الولاء: القوة ولا شيء آخر أحبهم حين يرفسون بأرجلهم، في احتداد غضبهم، كلّ ما بناه الفقهاء والكتبة والمتملِّقون من صيغ مخزنية مقيتة عن حبّ متبادل مكين وتعلق

لا تنفصم عراه. كم أبتهج وأنا أقرأ ما كتبه المولى محمد بن عبد الله لشرفاء تافيلالت العلويين: «. كافة شرفاء تافيلالت شتَّت الله شملكم، لا سلام عليكم ولا رحمة ولا بركة في أموالكم ولا في أولادكم ولا في عمركم ولا في مَن كان يتخطى في بلادكم القبيحة. تالله لولا سادتنا القدماء [المعتبرون] هناك لرأيتموني كالرعد في ليلة مظلمة أو المطر في آخر الليل..» (**تاريخ الضعيف الرباطي**). أو حين أقرأ للمولى سليمان وهو يؤنِّب أهل فاس الذين قاموا على عاملهم الحاج محمد الصفار وأرادوا عزله: «. فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام من الأسواق، ويتغذّى عنده ويتعشى السفلة والفساق، ويدعو اليوم بن كيران، وغداً ابن شقرون، وبعده بنيس وابن جلون، ويفرِّق عليهم من الذعائر لأحبّوه، وما قاموا عليه. وقل للصفار: الكلاب لا تتهارش إلّا على الطعام والجيف..»، أو وأنا أسمع الحسن الثاني وفي خطابه سنة 1984 وهو يتحدث عن الأوباش والدراري، و«للي قالو يسقط نخلي دار باباهم..».

لا شيء يعلو فوق شهوة الحكم، لا آصرة ممّا يجمع الناس بمقدورها أن تنتصر على هذه الشهوة التي تعمي وتأسر وتجنن. بها يتنكر الابن لأبيه، ويخون الأخ أخاه، ويفتك القريب بالقريب. قروناً ومنذ أن فرّق إدريس الثاني المغرب بين أولاده والعائلات الحاكمة تتناحر فيما بينها وتمزّق البلد وراء أهوائها، ولا تمرّ سنة تقريباً دون أن يطلب ابن أو أخ أو ابن أخ أو عم أو ابن عم متمرّد الحكم لنفسه، ويستنفر ما استطاع من جند وقبائل لنصرته. لا يحكم المغرب حقاً إلّا مَن وضع قلبه جانباً، وضرب بقوة وحسم أفراداً من قرابته. بعد قتل يعقوب المنصور الموحدي، مثلاً، أخاه وعمه، لاحظ عبد الواحد

المراكشي في: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: «هابته بقية القرابة، وأشربت قلوبهم خوفه، بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له..» كم من دماء جرت في القصور؟! كم من أنفاس خنقت؟! وكم من أطراف قطعت؟! فلا تكتمل سلطة ما إلّا حين ترتكب فظاعة عائلية كبيرة. روى أكنسوس عن السلطان المولى سليمان أن المولى إسماعيل لمّا أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدي وقال له: «إني في آخر يوم من أيام الدنيا، فأحببتُ أن تشير عليّ بمَن أقلِّده هذا الأمر من ولدي لأنك أعرف بأخوالهم مني». فقال له: «يا مولانا لقد كلَّفتني أمراً عظيماً وأنا أقول الحق: أنه لا ولد لك تقلِّده أمر المسلمين، كان لك ثلاثة المولى محرز والمولى المأمون والمولى محمد فقبضهم الله إليه» (لم يقدر على أن يقول له قتلوا) فقال له السلطان: جزاك الله خيراً وودَّعه وانصرف ولم يعهد لأحد. إنما العبيد كانوا يقدّمون من شاؤوا.

كلما صار في فترة تاريخية ما رضا المخزن هو أعزّ ما يطلب، تصير مهمة حكم بلد كالمغرب، مهمة كئيبة ومملة بلا مخاوف ولا تحديات ولا مخاطر حقيقية، إذ لا يعود للسلطان من عدو إلّا نفسه.

عذاب حاشية السلطان

«كان من عادته (محمد بن إدريس العمراوي كاتب السلطان) أنه يلازم الجلوس بباب القصر السلطاني حتى في الأعياد وأيام البطالة، يذهب أرباب الوظائف والخدم إلى دورهم، ويبقى هو بالباب لا يبرحه، فإذا تمَّم أشغاله نام هنالك، ولا يذهب إلى بيته إلّا لأوقات

محدودة أو حاجة أكيدة، ويقول الأيام حبالى، ولا يدري ما تلدُ فربما يحدث أمر وأكون غائباً».

إتحاف أعلام الناس ج4
عبد الرحمان بن زيدان

عاش سلاطين المغرب، بدون استثناء تقريباً، وحتى مجيء الحماية الفرنسية، عذاب وإنهاك ضبط تراب وطني يستعصي على الضبط. وأمضوا حكمهم يخمدون الحرائق هنا وهناك، ويتعقّبون منافسين وثواراً، يُتقنون فن الفرار لتجديد المواجهة في مكان آخر. وبالغت الجغرافية والمجتمع نفسه في كرم تقديم خيارات عديدة للخاسر في المنازلات للهرب إلى مكان آمن، واستجماع القوى ومعاودة الهجوم من جديد: الجبال بذُراها وأوديتها، والصحراء بكُثبانها وسماديرها ووهادها، والقبائل بتقلّبها وانتهازيتها، والزوايا بحُرماتها وأمانها، وأعيان وفقهاء المدن بكلبيتهم وبيعاتهم الجاهزة للمنتصر. من هنا تأتي تلك المرارة القاتلة التي كانت تستولي على السلاطين في آخر أيامهم، مرارة مَن نطح صخر الجبال بلا فائدة، مرارة من طارد سراب الصحاري، وتعقّب خيالات في السهوب والمفازات.

ثمن الخطيئة الأصلية في الدين يسير: إدمان الصلاة وطلب المغفرة وتصميم على التوبة وزهد وتنسك. أمّا في السياسة فثمنُها هو إنزال السروال، لذلك فقد عمل سلاطين المغرب بصبر ودَأب كبيرين على اصطياد المتنطعين ودفعهم للوقوع في خطيئة الضعف والطمع. ينثرون أمام أرجلهم الذهب والمناصب والحظوة، وكلّما انحنوا

لالتقاط شيء من ذلك كشفوا عوراتهم لضحك التاريخ، وفعلوا بهم ما شاؤوا.

رضا السلطان أقوى من أذى الموت

روى عبد العزيز الفشتالي، شاعر وكاتب أحمد المنصور الذهبي، في **مناهل الصفا** بأن ولداً له يناهز السنتين مرض وقضى، فكتب لحاجب باب السلطان ليقيم المعذرة، إنْ سأل السلطان عنه لأنه انشغل بدفن ابنه. وحينما خرج السلطان لمباشرة شؤون الحكم استفهم عنه، فأخبره حاجب الباب بالحادث، فتأسَّف ومدح إخلاصه في خدمته وأطال في السؤال عن أحواله، ثم أرسل له أحد خاصته للتعزية، فاستحالت «التعزية إلى التهنية بسبب ما شرفتني به عنايته أيده الله». وحين التقى الشاعر بالسلطان مجدداً في قصره عزّاه مرة أخرى وأبدى له أسفه وتأثره فـ«كدت أتلاشى خجلاً وسروراً».

مناهل الصفا
عبد العزيز الفشتالي

إن أرهقت الضرائب أو عسف القواد قبيلة ما فتمرَّدت وقتلت القائد، وأغارت على القوافل التجارية المارة بالقرب منها أو القبائل المجاورة، كان السلطان يغضب ويعدّ حملته المدمرة، فيحرق الزرع ويسبي النساء والأطفال والأنعام، ويهدم الدور، ويعود بحصاد وافرٍ من المساجين والرؤوس التي تعلّق للعبرة في أبواب وأسوار المدن. هذه العين بالعين، لم تخلف في البلد، كما قال غاندي، إلّا عمياناً ومنطق الحملات والحركات والتأديب العنيف، والمعالجة الموضعية

السطحية للاختلالات والأزمات دون المسّ بمسبباتها، لم تلد إلّا تاريخاً من الخراب والأحقاد والعنف المتبادل. وحتى المحاولات القليلة التي بذلت من طرف بعض السلاطين لإيجاد حلول جذرية لبعض المشاكل انتهت هي أيضاً إلى كوارث، مثل إنشاء المولى إسماعيل للقصبات ولجيش البخاري النظامي لتجنُّب هشاشة وتقلُّب وعدم احترافية جند القبائل والذي تسبب، وبعد وفاته، في فوضى دامت خمسين عاماً. ومثل حرص عبد الملك السعدي على دفع القبائل لاستقرار، لأنه شرط لاستقرار الدولة وقوتها ورخائها لسهولة تحصيل الضرائب من المقيمين، ولأنه لم يحكم طويلاً، ولأنّ أحمد المنصور الذهبي من بعده لم يلتفت إلى أهمية ذلك فقد أجَّج قراره قلاقل القبائل عوض أن ينهيها. لقد زرع السلاطين في هذا الشعب، وعبر تراكم قرون، تعلّقه بالعابر، والتعبئة المؤقتة من أجل القضايا بما فيها النبيلة، والحماس قصير النفس، والتجنُّد اللفظي، والاهتمام الخادع بالمظالم. كثيراً ما خيِّل إليّ، والناس يستنكرون فعلاً أو قراراً ما بأنهم سيحرصون على فرض إرادتهم، وأن ما رفضوه لن يمرّ إلّا على أجسادهم، لكنهم سرعان ما يتعبون وينسون ويعودون لعدم اكتراثهم الخرافي.

بلاهة معمَّمة

وعند وصوله (أحمد المنصور الذهبي) أمر بإلقاء القبض على مولاي الشيخ ونحّاه عن السلطة، وعلى الرغم من أن البعض كان ينعت مولاي الشيخ بالأهبل فإنه عندما استقدم إلى حضرة والده الملك تكلم بتعقُّل ورزانة جعلت العاطفة الأبوية تتحرّك لدى والده فأشفق عليه وقرَّر إطلاق سراحه. كما أخرجه معه في موكب رسمي.

وعند الاقتراب من الجموع. وكان كلّ واحد منهما يمتطي صهوة جواده، صاح مولاي أحمد بأعلى صوته: «يا سكان وأعراب هذه المملكة، إنني أقوم اليوم بإطلاق سراح ملككم»، إثر ذلك عمّ حماس كبير بين الجموع المحتشدة التي بدأت تهتف بما نصه: «حفظ الله ملكنا مولاي الشيخ»، وعندما رأى مولاي أحمد كلّ هذا همَسَ إلى مرافقه الخاص القائد عزوز قائلاً: «أناس بلهاء يريدون ملكاً أبلهاً».

وصف الممالك المغربية
مذكرة خورخي دي هنين

لا مولانا ولا سيدنا بعد اليوم

إلى كافة الفقهاء الخطباء بمحروسة تطوان سدّدكم الله ووفّقكم وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد، فاذكرونا في الخطب بمجرد اسمنا إسماعيل بن الشريف من غير زيادة مولانا ولا سيدنا، فقد استحييتُ أن تُذكر الخلفاء من الصحابة الأجلاء والتابعين وأتباعهم رضوان الله عليهم بأسمائهم وكناهم ونُذكَر نحن بأزيد من ذلك وإنْ أبدى بعض العلماء وجهاً وبالغ في الثناء، فالحياء غلبنا ومنعنا من الالتفات إليه والسلام.

المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف
عبد الرحمن بن زيدان

حين مات السلطان مولاي يوسف - كما روى ذلك روبير مونتان - في سنة 1927 فوجئ السيد ستيغ، المقيم العام للحماية آنذاك، ودعا المستشار ميشو-بيلير، وهو مختصّ محنّك في تاريخ

المدن والقبائل المغربية، وطلب منه أن يخبره عن الإجراءات المعمول بها في مثل هذه الظروف بالبلاط: «تغلق أبواب القصر، أجاب بمكر، وكلّ واحد يمتشق سلاحه. يحدث ذلك في كلّ ربوع البلد، وحيثما هناك أخ أو قريب للسلطان يزاول مهنة خليفته. تبدأ المعارك ومن انتصر يُعلَن سلطاناً».

كتاب ثورة في المغرب
روبير مونتان

محنة عالم مع سلطان

إنّ امتحان الفقيه أبي محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذي اخترعه عليليش المراكشي للسلطان الجليل المولى إسماعيل رحمه الله حسبما هو مشهور، فهجاه بعض السفهاء وهجا فاساً من أجله، وحقد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله، وأجرى عليه أنواع العذاب، وبيْعَت دُورُه وأصوله وكتبه وجميع ما يملك هو وأولاده ونساؤه، ثم صار يُطاف به في الأسواق وينادى عليه: مَن يفدي هذا الأسير؟ والناس ترمي عليه بالدراهم، الحلى وغير ذلك من النفائس، أياماً كثيرة، فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا بأمواله، وبقي على ذلك قريباً من سنة، فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم، ولمّا دنا وقت شهادته رحمه الله وقد أيِسَ من نفسه، كتبَ بخطّه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصه: «الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك العبيد إلّا لأني لم أجد له وجهاً ولا مسلكاً ولا رخصة في الشرع، وأني إن وافقتُ عليه طوعاً

أو كرهاً فقد خنت الله ورسوله والشرع، وخفت من الخلود في النار بسببه، وأيضاً فإني نظرت في أخبار الأَئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع، فرأيتهم ما آثروا أموالهم، ولا أبدانهم على دينهم خوفاً منهم على تغيير الشرع، واغترار الخلق بهم، ومن ظنّ بي غير ذلك وافترى على ما لم أقُله، وما لم أفعله فالله الموعد بيني وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام». وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله وستر في الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائة وألف هجرية.

ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو علي الروسي بقتله، فقتل رحمه الله خنقاً بعد أن توضّأ وصلى ما شاء الله، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ودفن ليلاً على يد القائد أبي علي الروسي انتهى ما وجدناه مقيداً.

كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى
الناصري

الرجل الثاني، ذلك الكيس الرملي الذي يتلقى الضربات المنفسة والانتقادات والسخط العام، والذي تلقى في حجره كلّ قمامة الفساد والقرارات الخاطئة والمشاريع المجهضة والأشياء المتعثرة في مفاصل الدولة، كان حاجة دائمة وملحة للسلاطين وللرعية حتى يرتاحا معاً في مواجهة ماكرة تُدار من وراء حجاب، مواجهة يخرجان فيها ضحيتين للمحيطين بالسلطان والذين يخونون ثقته فيهم.

لا شيء سوى خرق بالية

لمّا دخل أبو محلي مراكش، ذهب إليه إخوانه من الفقراء برسم زيارته وتهنئته فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنئونه ويفرحون له بما حاز من الملك. وفيهم رجلٌ ساكت لا يتكلم، فقال له أبو محلي: ما لك لا تتكلم؟ وألحّ عليه في الكلام. فقال له الرجل: أنت اليوم سلطان، فإنْ أمَّنتني على أن أقول الحق قلته، فقال له: أنتَ آمن. فقال له: إنّ الكرة التي يلعب بها يتبعها المائة والمئتان وأكثر وأقل من خلفها، ويكثر الصياح والضجيج والهول، وينكسر بعض الناس وينجرحون، وقد يموتون ولا يبالون، وإذا فتشت لم يوجد فيها إلا شراويط - أي خرق بالية - ملفوفة. فلما سمع أبو محلي هذا المثال وفهمه بكى وقال: رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه.

المحاضرات

الحسن اليوسي

حتى لو

كيف يمكن لمن عاش في مدينة ضاجّة ومتدفقة بكلّ شيء كشلالات التكوين الأولى، مدينة لا تنام وتهب لكلّ سهران ما يطاوع قلبه، رغم آلام واختناقات نهارها المتراكمة، أن يسيطر على نفسه في مدينة هامدة كموقد في دار مهجورة. لم يكن حديث الباشا الحزين عن الليل الحي الحافل والكريم الذي افتقده هنا إلا حرقة وتفجّع وحنين من قضى أزيد من أربعين سنة متنقلاً بين العوامات والمسارح والمراقص وجلسات الأنس في الأماكن المغلقة. كيف لقلبٍ عاش ليالي يتصاعد فيها الشدو الملتاع والأجساد اليافعة والآهات الحارقة والتفجّر السخي للحياة ألّا ينفطر هنا وهو يسمع من حين إلى حين تصاعد الشخير والصياح البليد لديكة أضاعت ساعتها البيولوجية والابتهالات المتعجِّلة لمؤذنين يلتذون بإفساد نوم الآخرين. نمتُ وأنا أفكر في الباشا وصحوتُ وأنا أفكر فيه. كان أرق من مخاوف الناس، وأبسط من تلك الهالة التي يصنعها من حوله المحيطون به لخدمة أنفسهم أولاً فما أن سمعت الصوت الغارق في أحزانه حتى وضعت يدي على الإنسان الذي تخفيه وصايا الحاج أفهمت؟ والجدران العالية والحرس والأسرار والطقوس

والآلة الرهيبة لبناء الخوف، إنسان اللحم الموشوم بوخز الحياة والدم المسفوح في أحراش تقلّباتها. البارحة وبعد أن توارت اليد الفظة التي تحجب والشعائر التي تخيف والجدران العالية التي تعمي وتصمّ وضعت يدي في يد الإنسان المنكسر المعذب والذي لم يكن في صوته الذاوي إلّا تلك الحاجة القديمة، قِدَم البشرية، لإخراج قار القلب والتعاون مع أول غريب لقذفه بعيداً. كان بالنسبة لي، مثلي في ذلك مثل أهل المدينة، نجماً بعيداً أرنو إليه، أتأمله، وأترقّب ظهوره واختفاءه، لكن بيني وبينه ملايين السنين الضوئية. كان صورة للعبادة أو اللعنة، كان لغزاً يتعذّر حله، كان توهماً خالصاً وخليطاً هائلاً من التهيؤات، وما سمعته منه لا يتساوى نهائياً مع الكذب الكبير الذي يُحاك من حوله. فحين تكلّم عرض علينا هشاشته ككائن وضياعه، وحاجته، وتمزقه، وخصوصاً، بين مكانين.

في تمام العاشرة، ركبت سيارة أجرة إلى مقهى سان باولو. هناك أخذني النادل من يدي وأجلسني قرب يونس أو صدقي الصغير. حياني بابتهاج كبير، وطلب من النادل أن يأتيني بعصير برتقال. كانت لدينا معاً الحاجة نفسها لاقتسام الكلام حول هذه التجربة الغريبة والفريدة والتي يصعُب على مَن لم يعِشها تفهم غموضها وتعقيداتها. ورغم ذلك قلت لنفسي: يجب أن تكوني حذرة جداً فربما يريدون من خلاله سبر أغوار نفسي، وما هي الانطباعات التي خلفتها لدي ليلة البارحة، وإلا فلماذا اختارني أنا بالذات ليُجالسني بعد ليلتي الأولى هناك؟ ولماذا همس لي بالموعد لو لم يكن يريد أن يخفي أمر الاستفراد بي عن العميان الآخرين؟ عرفت بأنه موظف في إدارة المعهد الموسيقي البلدي، وعرف بأنني موظف في البلدية. وعرف

خطوطاً عريضة في حياتي وخصوصاً بأنني حديث العهد بالعاهة، وعرفت بأنه ولد أعمى وأن والده معلم أصله من الرشيدية. كنت أجاريه في كلّ ذلك وأنا بالمرصاد لتحويمه هذا. أعرف بأنه يهيئ الأرضية المواتية لهجومه، وأنه ينسج، وبمثابرة عنكبوت، نسيجاً من المودة والألفة بيننا ليجعلني أبوح بما في صدري. تحدّثنا عن الطقس وعن نتائج فريق المدينة لكرة القدم وعن العمل وتساقطت المواضيع التافهة تباعاً حتى لم يعُد له ما يناور به فبادرني:

- كانت سهرتك الأولى مع الباشا.

فأجبته بسرعة المتحفِّز الحازم:

- نعم

- كيف وجدته؟

تساءلت، بسرعة، عن الجواب الذي يمكن أن أجيبه به ولا يظفر مني بشيء. وقلبت أجوبة محتملة بداخلي وقلت له بعد جهد كبير:

- رجل لطيف جداً.

فضحك ضحكة مرتجّة وقلقة:

- لم تسمعه وهو غاضب يسبّ ويتوعد. ثم واصلَ فيما يشبه التمتمة. ويكون مخيفاً حتى إنني أتجمّد في مكاني وتختنق أنفاسي.

كنت غير مطالب بالتعليق لأنني لم أعِش معه تلك النوبات، ولأنني، وهذا هو الأهم، لا يمكنني أن أخوض في حديث داخل مقهى ومع رجل غريب، أجالسه لأول مرة، عن ذات حضرته. وضعتُ رِجلاً فوق رجل ونأيت بلساني عن شباكه، وبقيت صامتاً، قال بصوت حاول أن يحمِّله كلّ حيرته:

- ما الذي يجعل رجلاً بكلّ ذلك التاريخ، والمال الموزّع في العالم، والعلاقات الراقية، والنفوذ يختار شباباً بلا تجربة، وثقافتهم محدودة، جداً ليجالسهم؟ أهو العمى فقط؟ أم أن هناك أسباباً أخرى يتعذّر علينا معرفتها؟ هل يفكر في إنشاء جمعية لتبليغ فكرة ما؟ أم أنه يزجي الوقت؟ وتلك الألقاب المضحكة، ما رأيك؟

لم أتزحزح قيد أنملة عن محارة البرودة التي كنت أحتمي بها، وقلت لأحبطه تماماً ولأحطّم ألاعيبه:

- لم أفكر في الأمر نهائياً على النحو الذي ذكرته. ولا أشغل نفسي بلماذا نحن؟ حضرة الباشا أعلم بمبرراته ودواعيه لفعل ذلك.

ويبدو أنني ألقمته بهذا حجراً، فخلد لصمت طويل سمعته فيه يتنهد ويقوم بحركات عصبية برجل ترتجّ على إثرها الطاولة التي تفصل بيننا. طبعاً لن أفسد الحظوة التي نلتها لأرضي فضوله أو مهمته في تجميع آرائي وانطباعاتي حول حضرته. أعرف بأنهم لا يتركون شيئاً للصدفة ويحذرون كلّ الحذر من الذين دخلوا الدائرة وبدأوا يعرفون أكثر من اللازم، وليست أيديهم طويلة فحسب، بل آذانهم أيضاً. ربما أنا الآن في جلسة اختبار مفعول ما وقع البارحة عليّ، وهل أنا جدير بالثقة أم أنني سفيه مهذار لا ينبغي ائتمانه على شيء. وكأنه قرأ فكرة ما يدور في ذهني، فقد قال بصوت مَن يكلم نفسه بغير قليل من التعريض بصمتي القاتل:

- يخيّل إليّ بأننا نشارك في مسرحية نعرف مُخرجها لكننا لا نعرف نصّها ولا الممثلين المشاركين معنا فيها. مسرحية يطلب منا فيها أن نلبس ثياباً معينة ونجلس بشكل معين، ونأكل ما يوضع أمامنا بحذرٍ واحتشام، وحين ينتهي العرض علينا بغلق أفواهنا، هذا كلّ ما في الأمر.

فهمتُ من جملته الأخيرة نفاد صبره وخيبته في انتزاع موقفٍ ما مني. استأذنتُ منه، وأنا أضع يدي في يده لتوديعه، شدّها وهو يقول لي:

- أنت وأنا هما المثقفان الوحيدان وسط المجموعة. ينبغي أن نتفاهم ونتواصل فما يحدث لنا غريب يا صديقي عاشور الصغير.

وقهقه بسخرية مرة، كأنه وهو يستعمل لقبي ينفس عن كلّ غيظه المكتوم تجاهي. لَم آخذ سيارة الأجرة. صعدتُ مع شارع محمد الخامس وأنا حريص على أن لا أبتعد عن الطوار، أنقره لأتأكد من أنني لم أبتعد عنه، سيقودني إلى ساحة المسيرة الخضراء، وبعد أن أستريح في كراسيها المسلَّحة سأواصل طريقي إلى دارنا بيُسر.

هناك في الساحة وأنا متعرِّق ومتعب، أخرجتُ ورقة إيزابيل والعلبة التي فيها خصلة شعر صفية. صرتُ أفعل ذلك كلما خلوتُ لنفسي، إنهما الإثبات الوحيد على أنني عشتُ شيئاً واقعياً ملموساً قبل أن يجرفني الخيال. كنت كمَن يسحل بقوة ويحاول أن يتشبَّث بالأعشاب التي تَطالها يده، وكلَّما شدّ على جذع سحبه معه. أقلِّبهما في يدي وأواجههما وأبحث عن صدىً ما وشوشاه لبعضهما. تقول ورقة إيزابيل لخصلة الشعر: حتى لو نأَت صاحبتك إلى الذرى البعيدة والمتلفعة بعزلتها وصمتها وشقائها، وحتى لو غاضَ الصوت في السطح والتئم شقّ الجدار عليه ولم يعُد للأذن ولليد أن تطاله، وحتى لو حلَّق بعيداً مثل طائر إيزابيل ولفّه الغياب، كما يلفّ كل شيء من حولنا تدريجياً أو فجأة، وكما يليق بالأشياء الرقيقة الفاتنة التي لا تحتمل الحياة الفظة بقاءها طويلاً، هل تتحمَّل ديمومة فراشة أو

أصيل أو تألق ندى أو التماعة نجم بعيد أو ضحكة عجوز محتضَر أو براءة طفل؟! فإن عليك أن تبقى مثل غصن مهجور خلَّفَ فيه الطائر وهو يندفع رعشة اهتزاز مؤقت وكرب حزن دائم. زوندآكو. زوندآكو. تبخر الطائر في الجو كالدخان وسيصير الغصن مهما طال به الزمان دخاناً في فرنٍ ما، والكلام الذي يصفهما هو أيضاً دخان في بدَد أحاسيس مهلوِسة. وتقول الخصلة للورقة: لأنني هنا قرب قلبه أدير شراسة الاتحاد في الألم، فأضفر مع حنيني للجسد الذي اقتطعت منه حنينه لصوت سمعه، وبنى من خلاله نسيجاً من الخيالات والأوهام. أنا تمرين جسد جازف بفصل شيء عنه ومنحه للآخر، أنا نداء روح كوَّمت عزلتها ويأسها في خصلة وقذفت بها، أنا في يده دعوة دائمة ليفعل شيئاً، لأنْ لا يستكين لهذه النهاية البئيسة، أنا هنا لملء المكان الذي تركته هوة سحيقة. لم تكن الخصلة في يدي دمنة أعرج عليها وأواصل الرحلة، ولا معالم تلوح كبقايا وشمٍ في ظاهر اليد، إنما هي طلل أحمِله في يدي فيوقظ فيَّ شجناً من حين إلى حين، ويَخزني، ولا يترك ما عشته في السطح يذوي بداخلي.

وأنا أقترب من الدار عرجت على هاملت وهوراشيو لأتوّج تعاسة الصباح بهذيان التاريخ الذي خرج من باطن الأرض. وجدتهما قد فرغا لتوّهما من إحصاء ووزن آخر جمجمة (منذ مدة وهما يقولان بأنهما انتهيا للتو من إحصاء آخر جمجمة)، وقالا لي بأنهما سيبدآن في إعداد تقرير مجمل عن مهمتهما، يعرضان فيه لكل الفرضيات المتعلّقة بوجود هذا الكمّ الهائل من الجماجم في مكان واحد. وسيعوّلان على المعونة التي سيقدّمها لهما العسكري

والمعلومات التاريخية القيمة التي سيسعفهما بها. حسدت الجماجم مرة أخرى على كونها انتهت من عاصفة الحياة، لقد أفرغها الدود من حمى الرغبات والتملك والمغالبة، ولا شكّ أنها تعرف جيداً خطورة وعذابات هذه الكتلة المائعة المسماة دماغاً، فما أن كبرت بداخلها حتى دخلت الدروب المقفرة للوعي بالزمن بما يخلِّفه من حنين وتفجُّع وتمزّقات، وسعي وحشي إلى ما لا يدرك. ربما هي تضحك في سرها الآن على الورقة وعلبة خصلة الشعر، وعلى هذه القدرة التي نمتلكها في تحويل الأشياء التي لها صلة بالمعشوق إلى علامات وتحويل العلامات إلى معانٍ وصور نتمرَّغ في دلالاتها طيلة النهار بلهفة العثور على جوابٍ أو إشراق ما. وأنا أخرج من حديقة الحكمة التمعَت بداخلي خاطرة غريبة. لن يتفهّم أحد في هذه الدنيا لوعتي مع صفية إلّا الخبير، عليَّ أن أحكي له ما حدَث لي، عليّ أن أطلب مشورته. لن أجد قلباً احترق كما احترق هو وفهم الألم كما فهمه هو.

ليالي الباشا

2- البكاء بين يدي طه حسين

دخل حضرته، مرة أخرى، بخفّة نمر، وبالخطوات نفسها التي لا تمنح لارتطامها بالأرض صوتاً. وقفنا كالعادة وسمعناه يقول بالصوت الهادئ المتخثر نفسه:

- تفضلوا. اجلسوا.

ثم قال للحاج:

- أسمِعْنا شيئاً لفريد الأطرش، الأغاني القصيرة من فضلك.

فانثالت الأغاني تباعاً: **فوق غصنك يا لمونة، نورا، يا ليتني أطير أطير حواليك، وأكتب على أوراق الشجر، ما تقولش لحد، يا بو ضحكة جنان، يا جميل يا جميل، أنا وأنت، وياك.. وياك،** ثم أوقف الحاج فريد وهو في بداية تقسيم على العود لأنّ الباشا أمره بذلك، لا محالة، بإشارة من يده. وقال له:

- أسمِعْنا أغانيه في الغربة يا حاگ (نطقها بالمصرية)

فخرج صوت فريد المبلَّل بالدموع، يغني: يا منى روحي سلاماً من غريب يُرسل النجوى إلى دار الحبيب. إنه صوت الغريب الذي

لا يرى شيئاً يمكن تخليده في هذه الدنيا غير الحزن. غنّى فريد لنفسه أولاً، وحين كان يفعل يغرق في تعاسة كبيرة، تسمعه وتحسّ بأنّ الصوت يريد أن يرتد إلى ذاته لأن ليس هناك مَن يسمعه، وحتى إذا سمعه فإنه لن يصل إلى الحرائق التي تؤجِّجه. يهتزّ صدر فريد في الغناء وتتصلَّب تقاسيم وجهه كأنه يؤدي، ومنذ شبابه بروفة السكتة القلبية التي ستودي بحياته. لقد حجز في كلّ أعماله السينمائية دور المنذور للعذاب الذي لا تريه الحياة إلّا وجهها القاسي والبارد وشقاءها الذي لا ينتهي، وجسَّد في غنائه وتمثيله تلك الروح الأرستقراطية المتفجِّعة ذات الألم القديم الذي لا ينفع معه شيء. وكأن حضرته حدس ما يدور بداخلي، فقد قال وكأنه يجمل الطائف الذي مرّ بنا:

- إنه البكاء الطويل لأمة مقبلة على أحزان لا تنتهي.

ثم دعانا لتناول ما وضع أمامنا، فتداعينا على الموائد بعصف المحرومين، وضاعَ صوت فريد. شربت عصيراً غريباً، ولكنه لذيذ جداً، ولأنّ حضرته كان مأخوذاً بما يسمعه، فقد قال:

- في سهرة لي مع معلمي في رامتان قلت له بأنني أعجبت أيما إعجاب بما قاله عن الموسيقى في مقدمة مقاله عن أوبرا بينيلوب لجبرائيل فوريه، ورينيه فوشوا. فضحك وقال لي بأنّه كاد أن يكتب بأن الموسيقى خلقت للعميان أساساً، لأنهم من خلالها يسمعون تنفّس العالم واضطرابه وصخبه ورقته ونعومته وضعفه وغيظه. الموسيقى هي العالم حين ينحل في أصوات متناغمة. مَن قرأ منكم المقال؟ فقد صدر في كتابه: **قصص تمثيلية لأشهر الكتاب الفرنسيين**.

لا شك أننا كلنا نكسنا رؤوسنا خجلاً. ورحمة بنا لم ينتظر طويلاً حتى نتعفّن في صمتنا.

- لا مبرر لكم ينبغي أن تكونوا قد قرأتم وحفظتم كلّ ما كُتب، إنه معلمنا وقدوتنا، فالله منح كلّ أمة أعمى يهديها السبيل ليفهمها جيداً بأنّ العيون لا تعمى وإنما القلوب التي في الصدور، أعطى لليونان هوميروس وللأرجنتين بورخيس، وللإنجليز جون ميلتون، ومنح العرب، لكرمه، أبا العلاء المعري وطه حسين.

ثم باغتنا بسؤال مُحرج آخر:

- ما أهمية طه حسين في نظركم؟

بادر صدقي الصغير للقول:

- هو مَن قهر الظلام وحاول أن يقرِّب الشرق من الغرب.

وغالبتُ خوفي وقلتُ بتردّد:

- إنه زعيم التنوير العربي وعاش محنة التفكير الحرّ في بيئة تقليدية.

وبقي الآخرون صامتين فتأكّد لي ما قال صدقي الصغير في المقهى، وبعد استغراق في التفكير، قال:

- نعم. نعم. في حوار له مع الأديب محمد عبد الحليم عبد الله قال معلمي: «إن مسؤولية الأديب الكبرى هي أنه يجب أن يكتب ليرفع الجماعة لا لينحطّ بها»، يرفعها إلى حيث وصلت البشرية في أعمالها للعقل وفي إرسائها لمجتمعات ديمقراطية يعتبر فيها الدين مسألة شخصية، ويحتكم فيها الناس لقانون وضعيّ يوفِّق بين المصلحة العامة والشخصية. أهمية طه الكبرى هي أن فهم، ومن المحن التي عاشها في بداياته بأن الفكرة، ومهما كانت صائبة لا قيمة لها إنْ لم تتحوّل إلى قوة اجتماعية يتم تصريفها في الحياة

اليومية للناس. ولتحقيق ذلك، على المثقَّف أن يعمل على ثلاث مستويات: العمل السياسي والعمل الصحافي والعمل في مجال التعليم، لذا ناضل سياسياً في حزب الأحرار الدستوريين، ثم في حزب الوفد وكتب المقالات السجالية، وهاجم ودافع وشرح أفكاره بصيغ مختلفة في الصحافة. وخاض في مجال التعليم حروباً من أجل استقلالية الجامعة، ثم من أجل جعل التعليم مثل الهواء والماء، لهذا سمِّي بوزير الهواء والماء. وكتب عن التعليم ومناهجه وأهدافه وسُبل تأهيله ليكون في مستوى تحديات العصر. حين أستعيد فصولاً من النقاش العام الذي كان يدور أيامها حول كلّ شيء، ويُشارك فيها الجميع يتفطر قلبي لرؤية المقبرة الفسيحة التي صرنا نعيش فيها الآن. كلّ شيء يدبّر من وراء ستار سميك، ولا صوت يعلو على صوت السلط القائمة بتكنوقراطييها وصوت رجال الدين.

لا أعرف أيّ شيطان ركبني فقلتُ لحضرته وهو لم يكمل كلامه:

- ألا ترى حضرتكم بأنّ الرجل وبدافع ممّا تعرض له من تهمة باعتناق المسيحية حيناً، وبالإلحاد حيناً آخر، قد سقط في شباك الفكر الديني فيما هو ينتصب لمحاربته. ألم يَصِرْ مفكراً إسلامياً بكتبه **على هامش السيرة**، و**الفتنة الكبرى**، و**الشيخان** (عثمان، علي وبنوه)، و**الوعد الحق**، و**مرآة الإسلام**؟ حتى أن باحثاً مثل محمد عمارة رأى أن ما كتبه في الإسلاميات فيه أوبة تفكير عمّا اقترفه في مرحلته التغريبية العلمانية.

فردّ بشيء من الاحتداد:

- يا عزيزي نحن أمة أعفَت نفسها ومنذ مدة طويلة من إعمال العقل ومن السؤال، أفهمت؟ وتركت للدين مهمة إعطائها أجوبة

حول كلّ شيء، ومهمة مراقبة كلّ ما يُقال وما يُكتب، إنه مصيدة هائلة. ظاهرياً معك حق، يمكن أن نذهب إلى أنّ الفكر الديني استردّ مفكراً خطيراً إلى حضنه، وكيفما كتب فهو وباختياره للتاريخ الإسلامي يعضد هيمنة الدين على الفكر العربي، لكن ألا ترى أنّ تركيزه على ما عرفته فترة الخلفاء الراشدين من فتن وصراعات دامية وتمزّقات إشارة ذكية إلى أنّ الدين لا يحمل وحتى في ما يقدم على أنها أزهى أيامه مدينة فاضلة، بل إنه وحين يختلط بشهوة الحُكم لا يلدُ إلّا الدم والدموع والإقصاء وهمجية القتل باسم الله.

- أيمكن حضرتكم، وبما أنه هو مَن علَّمنا ملكة الشك، أن نشكّ فيه هو أيضاً، ألّا يكون مجرّد ممثل رديء استولت عليه جهة ما، وأحاطته بموظفيها وكانت تمرِّر من خلاله أفكارها، ولعلّ هذه الجهة تظهر من خلال دعوته للمصري ليتعلم كما يتعلم الأوروبي، وليشعر كما يشعر الأوروبي، وليحكُم كما يحكم الأوروبي، ثم ليعمل كما يعمل الأوروبي، ويصرف الحياة كما يصرفها.

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟

فواصلت برباطة جأش عجيبة:

- إذا أضفنا حضرتكم شهادة سكرتيره لأربعين سنة فريد شحاته والذي شكّك في كلّ ما كتبه قبل أن يتمّ إخراسه، فإنّ تناقضاته الكثيرة وتغيير مواقفه السريع يثبتان أنه كان يعمل لجهة ما تتغير مواقفها بتغير مصالحها، ضدّ الدين ومع الدين، ضدّ الوفد مع الوفد، ضد الوحدة العربية ومع الوحدة العربية، ضد الملك مع الملك، ضد زعماء الوطنية المصرية ومعهم، مع اشتراكية عبد الناصر ومع الحرية، فبعد أن كالَ المديح للثورة المصرية حتى وفاة عبد الناصر، نسمعه في آخر حوار له مع غالي شكري ينهره قائلاً:

«أنت تتكلم لغتهم، شعارات، البلد كما أحسّ به لا يزال متخلفاً وفقيراً ومريضاً وجاهلاً».

فصاح بي حضرته:

- واصل قوله حتى الآخر. لقد ختم الحوار بقوله: «إنني في آخر أيامي أودعكم بكثيرٍ من الألم وقليل من الأمل». أليس كذلك؟

- نعم حضرتكم، لأنه أحسّ في آخر أيامه بأنّ كلّ أفكاره ذراها الريح. ولم تتحوَّل أي فكرة ممّا دعى لها إلى قوة اجتماعية، كما شرحت حضرتكم. أتذكرون قولته المريعة، والتي ذكرتها سوزان في كتابها «معك»: «أية حماقة؟ هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة؟»، كأنه، حضرتك، فطن في الأخير إلى أنه أدّى دور قائد في مسرحية هزلية انتهت بمرارة وأحزان.

فقال غاضباً:

- لا تتكلم على شاكلة المتخلّفين الدينيين الذين حين تعوزهم الأفكار يحوِّلون النقاش للمعتقد. أنا لا أفهم كيف يقبل أحد على نفسه في أمّة جزء منها أقباط أن يعيِّر آخر بأنه تنصر. طه ابن لهذا الشرق الكبير بمآسيه وتناقضاته الذي تكلَّم فيه الله والأنبياء والفلاسفة والمتكلمون والمتصوفة والدجالون والجلادون والبترول وتجار السلاح وسماسرة الفتن، وعاثت فيه أيدٍ كثيرة، وخرجت فيه دول مائلة من خيمة التقى فيها رجلان أمام خريطة وزرعت فيه إسرائيل. الشرق الحزين المعذّب الذي لبس أقنعة النهضة والقومية والاشتراكية والشرعية والانفتاح، ونفض عنه في كلّ مرة القناع، وعاد للقبيلة والطائفة والمذهب. أعتقد أن طه حسين لو ظهر في تونس، أو هنا في المغرب، لكانَ له أثر بالغ غير أثره في مصر. لقد تكالب عليه المشايخ، والإسلام السياسي اللذين ظهرا مبكراً

هناك بتدبير خبيث من الإنجليز، والعسكر ووأدوا كلّ ما كان يتمنّاه لمصر.

- ما رأي حضرتكم في كتاب «معك» لسوزان؟

بعد أنّة صغيرة قال:

- كان عليها أن تسمي الكتاب «معي» وليس «معك». ما كان يهمّها، يا عاشور الصغير، هو أن تبني كلمة كلمة المساحة الهائلة التي كانت لها في حياته وتماسكه أمام المحن ونجاحه. إنها سيرة حاجة طه حسين إليها. هل رأيت كيف انشغلت طيلة الكتاب بتمجيد رجال الدين المسيحيين (باستثناء ما كتبته عن الأخوين عبد الرزاق)، ووصف الكنائس والأديرة كأنها تريد أن تقدّم لمناوئيه والمشككين في دينه وقوداً لإدارة معارك أخرى ضده بعد وفاته. نيتشه فسَّر جيداً علاقة المرأة مع الرجل الناجح. عموماً كان الشرق بأمراضه أكبر من صبره وصلابته وإيمانه، فانتهى يائساً محطّماً، كيف لا وهو يرى بلداً أحبه مخيراً بين الاستبداد أو الفوضى، والخيار الثالث خيار الحرية والديموقراطية بعيد كنجمة قطبية.

لم أجد ما أقوله لأنني لا أعرف رأي نيتشه. وأمر حضرته الحاج فرح، كأنه تعب هو أيضاً، بأن يسمعنا «**راحلة**». ومحمد الحياني يغني بدأ ينكأ جرحي ببطء، ويبذر بداخلي لظى من مزقت ضلوعي. تحسست خصلة الشعر في جيبي وانسابت روحي خافقة مع لحن عبد السلام عامر الملتاع والذي اعتصر ليلنا البهيم ليلد نوراً يأخذنا لحظة بلحظة لذلك الغروب المأتمي، حيث يمضي من مضى على الكراهة وهو يتأبط جزءاً منا تاركاً لنا ذاتاً ناقصة وقلباً ممزقاً.

ونحن في الممر الذي يؤدي للساحة أمسكني الحاج من يدي وقال لي:

- رغم أنك تجاوزت بعد الحدود. أفهمت؟ لكن برافو، برافو، برافو. لقد أعدت الباشا لنقاش العوامة الصاخب، حضرته راضٍ عنك جداً. هنيئاً لك.

عرض علي صدقي الصغير بأن نسير على أرجلنا لدارينا ووافقت. كنت في حاجة لأن أبدد الشجن الذي جمعه الحياني في قلبي بالمشي. حين ابتعدنا عن البوابة الكبيرة، وضعنا يداً في يد ونزلنا مع شارع محمد الخامس، المدينة غارقة في نومها الأسطوري، ومن حين إلى حين تمرق سيارة ممزقة السكون. بارك لي رضا الباشا لأنه سمع كلام الحاج المهلل. وأشاد بشجاعتي في نقاشي مع حضرته، وقلت له إن تلك الشجاعة غريبة عني، وأنني كنت أفاجأ لما أقول كأنهم دسوا لي شيئاً ما في العصائر التي شربتها، فأمن هو المرتاب جداً كما تبين لي من أول حديث معه (لا أعرف من منا المرتاب حقاً) بقوله: « يفعلون أكثر مما تتصور بإمكانهم أن يشربونا أشياء فنعترف بقتل الباشا عبد السلام نفسه، يا أخي»، ضحكنا ضحكاً تنفيسياً طويلاً فيه انتصار على ثقل ورهبة المكان الذي خرجنا منه. غير أن صدقي الصغير أفسده بسؤال متعجل نزل علي كقطعة ثلج:

- ما رأيك في الحاج فرح؟

فحرك فيّ، وكأي مغربي أصيل تراد جرجرته لمواضيع مهلكة، مشاعر الحذر والخوف، وقلت في نفسي ها هو عاد مرة أخرى لألاعيب الاستنطاق المقيت المحبوكة بإتقان وسط ما يمكن أن تخاله ثرثرة. أجبته بحسم:

- رجل طيب ومتفهم.

- نعم. نعم.. ألا ترى أنه يفسد علينا جلستنا مع حضرته. ماذا يفعل مبصر وسط عميان؟ وكيف يَقبَل حضرته أن يكون تحت مراقبة أحدهم، يحصي عليه قلق يده وهي تبحث عن كأس، وفتات الطعام وهو يعلق بطرف الفم؟ ألا ترى أنه يلعب دور الله يرتِّب كل شيء ويضع كل واحد في مكان، ويحدد ما ينبغي أن يُقال أو لا يقال، ويعطي ويمنح، ويرانا ولا نراه؟

فقلتُ له بمكرٍ بشديد:

- أعوذ بالله. لا تنسى أنّ الحاج فرح ارتبط بحضرته وعمره ست سنوات. بينهما عمر من الحياة المشتركة والتواطؤ، واجتازت علاقتهما اختبارات عديدة، إنه المرآة التي يُبصر فيها حضرته نفسه وهو عينه على العالم، ألا ترى التبجيل والتعظيم الذي يُعامل به حضرته؟!

ولأنه مرتاب حقاً، ولأنه أعمى أصيل يكره كره الموت المبصرين، فقد هزّ كتفه، وقال لي:

- لا أصدق، لا أصدق، كلّ ذلك نفاق وتظاهر، الحاجة والمصلحة تقدّس حتى الأحجار والأشجار.

ارتأيت أن أغير هذا الموضوع الذي لن يخرج فيه بطائلٍ مني، مهما حاول، ومهما عدد جبهات الهجوم. وبعد صمت طويل وتردُّد وبتأثير من أغنية: «راحلة» وسكون الليل، حكيت له ما وقع لي مع صفية، لم أذكر السطح ولا سلة القصب ولا خصلة الشعر ولا العزافة ولا أي شيء ممّا وقع. حكيتُ له كيف أحببتُ خادمة الجيران، ولمّا عرفوا بالأمر طردوها. هذا ما حكيت له بعد أن أفرغتُ الحكاية من أحشائها العبثية، واحتفظتُ بالجوهر القائل بأنّ

كلّ شيء فيَّ صار مكرساً لها، وأنني أعيش مأزق عشقها، وكلّ ما فيَّ صار أسير جنون هذه الحاجة الغريبة إليها.

شدَّ على يدي وقال:

- تزوّجها، لا تضيع هذه الفرصة.

فقلت بطريقة آلية بلهاء:

- لقد رحلَت إلى وادي آيت بوگماز.

قهقه حتى حرّك في صدره نوبة سعال جاف، وبعد أن استعاد هدوءه قال:

- وادي آيت بوگماز في الثلث الخالي. إنه قرب أنفك، ثلاثة ساعات وها أنت هناك. ثم أضاف:

- بإمكان توفيق الصغير إنْ حزمتَ أمرك أن يساعدك، والده مَن تبانت أكبر قرية في الوادي.

- توفيق الصغير؟

- نعم توفيق الصغير سمسار الدور والسيارات والبقع الأرضية والمواشي والمواقف السياسية والبشر وحتى الهواء، ألقِّبه بالمحتال، يمكنه أن يبيعك عين أسردون وقصرها إن أراد ذلك.

- وماذا يفعل سمسار في جلسة مع حضرته؟

- إنهم لا يفكرون كما نفكر، يا عاشور الصغير، ينبغي كل شيء لصنع عالم من حولهم. يحتاجون إلى الحكماء والمثقفين وإلى الموسيقيين والفقهاء والمداحين وعتاة المجرمين والسماسرة والعاهرات والقوادين والمحتالين، إنهم يتعاملون مع مجتمع كامل لا حارة، يا صديقي العزيز.

ونحن نفترق وَعدته أن أفكِّر في الأمر. وأنا أتحسس الساروت

في جيبي لأفتح باب دارنا، رن في ذهني سؤال لم أجد له جواباً شافياً حتى وأنا أهيم في دروب الأرق المقفرة ليلتها، كيف عرف حضرته بأنني عاشور الصغير؟ هل همسَ له الحاج بذلك في أذنه؟ أم أنَّ الحاج وهو يحادثنا أعدَّ له تسجيلاً ليتبيَّن صوت كلّ واحد منا؟ أم أنّ الطريقة المخصوصة التي نجلس فيها من حوله تجعله يعرف صاحب الصوت من الجهة التي خرج منها؟ وربما هو يعرف أنّ مَن يمكن أن يناقشه هو أنا.

وصدقي الصغير، ولا شك أنه يعرف صوته لأنه جالسه قبلي. ولم أجد لجاجة الأسئلة إلّا بتقليب فكرة زواجي بصفية. سخرتُ من الفكرة في البداية واستبعدتها تماماً، ثم تسللت إلى داخلي كما يتسلَّل ماء في حاجز ويوسع الشق تدريجياً حتى يعصف بالبناء المتراصّ.

الغريبان

قلت لهاملت لأهيئ أرضية البوح له بما في قلبي قبل أن يرجع هوراشيو:

- أتحسّ بالغربة؟

- مَن؟

- الجماجم.

فضحك:

- لا لا هي انتهت منذ زمن طويل من هذه المشاعر التي تعذِّبنا بلا فائدة، لا غريبٍ إلّا أنا وأنت يا محمد.

اهتزّ شيء بداخلي وتذكَّرت حلم «عليك سيدي محمد الغريب» الذي تحوَّل في فترة من الزمن إلى قضية بالنسبة لي، وإلى بحث مضنٍ لم أخرج منه بطائل تماماً كبطل قصة نجيب محفوظ: **زعبلاوي** الذي أصيب بالداء الذي لا دواء له عند أحد، وسدَّت في وجهه السبل وطوَّقه اليأس، وصار يهيم على وجهه باحثاً عن ولي من أولياء الله يملك سرّ شفاء اليائسين والعالقين في مأزق الوجود ومتاهاته المؤلمة. أيكون هذا الرجل الذي يطارده الماضي ويعذِّبه بحبل،

ويطبق عليه العمى من كلّ جانب، عمى البصر، وعمى واقع غريب لم يعُد يرى فيه نفسه، فصار يفضل الابتعاد عن الرباط ما استطاع إلى ذلك سبيلاً والركون لعزلة حكيمة تتفرَّج على مغربات الوقت بسخرية حيناً وبمرارة أحياناً كثيرة، أيكون هو وليي وبغيتي ومناي؟ لن يفهمني إلّا قلب ممزق عاثت فيه الرزايا مثل قلبه. ولن تشفيني إلّا روح أطلَّت على الهوة السوداء التي حين تنفتح في وجهك تُحيل كلّ ما حولك هباء. ربما لم تخرج هذه الجماجم من تربتها وتنتقل إلى مكان قبالة دارنا إلّا لتصطاد محمد الغريب من الرباط وتضعه أمامي، وفقَ تكنيك قديم قدم الحياة يقضي بأنْ نبحث عن شيء في الأفق البعيد، وهو أمام أعيننا، بل بداخلنا حتى، لن أركز كثيراً على كوني أنا أيضاً اسمي محمد وعن قوله: لا غريب إلّا أنا وأنت، ولن أقلب نهائياً إمكانية تأويل الحلم على الشكل التالي: عليك بنفسك ودوائك بداخلك، ولا محمد الغريب إلّا أنت، لأنني بحثتُ طويلاً بداخلي ولم أجد شيئاً غير الضياع.

انتبهت لهاملت وهو يقول لي:

- ما هذا الصمت؟

- كنت أفكر في أمر ما.

ولأن عودة هوراشيو باتت قريبة ولن أستطيع الكلام أمامه، فقد غالبتُ اضطرابي وقلت له:

- أريد أن أحدِّثك في أمرٍ خاص.

- تفضَّل.

- أعتقد أنني أحب فتاة.

ضحك:

- في الحبّ لا نقول أعتقد، إننا نحب أو لا نحب.

- نعم. نعم لكن أحاسيسي مضطربة ولا بد أن أحكي لك ما وقع.

إننا لا نحكي دوماً ما حدث بالطريقة نفسها، دوماً هناك زاوية جديدة يفرضها مَن نحكي له وسياق الحكي وحتى مراميه، وهناك دوماً تفاصيل نسيناها في حكي المرة الفائتة تفرض نفسها بعناد، وتفاصيل أخرى تتوارى بعد أن ذكرت سابقاً، وهناك ترتيب دال، وهناك كلمات عاجزة وارتباك وتردّد في قول أشياء لا تُقال ولا سبيل لتحويلها إلى تراب لغة مناورة. هناك ضرب من الحبّ تعجز اللغة عن ابتكار كلمات ساحرة ووافية تقوله. بعد أن فرغتُ من حكاية ما وقع لي مع صفية، قال لي:

- بيدك أن تكتفي بهذه النهاية الباردة لقصة حبك، وستكون وبعد سنوات طويلة جنّتك المفقودة وتفجّعك الدائم أو تقاومها بتحويل نقطة عودتها إلى الجبل إلى فاصلة لها ما بعدها.

- أفكر في الذهاب إلى هناك لخطبتها.

ضحك:

- أنت تبحث عن تأكيد لما قرّرته بداخلك.

دخل هوراشيو ووضع شيئاً ما بالقرب منّا. فاضطررت للانسحاب، وجملته الأخيرة محتبسة في حلقي كالغصة. وأنا أبتعد عنه قال لي جملة فيها امتنان لثقتي فيه، ولأنني بحتُ له بما في قلبي في أمر حميمي يخصّني، قال لي:

- العسكري يشيد دوماً بذكائك ورهافة حسّك وهو على حقّ.

ليالي الباشا

3- العائلات الكبيرة

قال لنا حضرته:

- لدي في حجرة نومي صورة يعانق فيها طه حسين الملك محمد الخامس، تعرفون بأنه زار الرباط وفاس وافران وتطوان سنة 1958 وجالس طويلاً علال الفاسي ومحمد الفاسي، وفي مدينة بزو الصغيرة عثر في مكتبة زاوية سيدي الصغير على النسخة الوحيدة التي بقيت في العالم من رسالة: **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، للجاحظ وهو كتاب فريد في مديح العاهة. وفي طريقه إلى بزو تناول الغذاء هنا في الدار رفقة محمد الفاسي، وكان الباشا عبد السلام سعيداً باستقباله وزوجته سوزان، يومها قدَّمني له وكم فَرِحَ طه حسين حين عرف بأنني أحمل اسمه، وأن صيته بلغ حتى المغرب العميق والمعزول. لم تذكر سوزان هذا في كتابها، بل إنها تحدثت قائلة: «لم أتمكن من شراء شيء مهم من المغرب. لكني حملتُ معي على كلّ حال دثاراً صغيراً وجميلاً أبيض اللون مطرَّز الحواف باللون الأزرق»، ونسيت أنّ الباشا هو مَن أهداها إياه بين أشياء أخرى.

يبدو أنّ مزاج حضرته رديء جداً الليلة، فهو لم يبدأ السهرة كعادته بسماع الموسيقى ومصاحبة المطربين في غنائهم.

- لقد قللت من مكانتها كثيراً لدي بهذا.

ثم خلد لصمت طويل لا شك أنه كان يستعيد فيه ذكرياته مع طه حسين ولقاءاته به في القاهرة. وبصوت المتصدِّع لمن نهض من نوم عميق وعلى غير ما توقعت قال:

- كم من مشاهير مروا من هنا، ليس الملوك والأمراء والوزراء فحسب، بل مشاهير الفن والثقافة والرياضة. مارلو، وجاك بريل، وجاك ماجوريل، وإديت بياف، ومارسيل سيردان، والعربي بن مبارك، والقائمة طويلة. حتى جورج أورويل وزوجته قضيا ليلة هنا. ربما لا تعرفون أن أورويل قضى ستة أشهر في المغرب إبان الحرب العالمية الثانية. وبعد زفرة حارَّة واصل:

- لقد خسر هذا البلد كثيراً بتآمره على العائلات الكبيرة. وها هي مدنه كلها الآن في يد جياع لا تكفيهم سنوات لمَسح أفواههم من آثار ما يزدردونه. أين هي أيام العزّ والنخوة حين كان قواد وباشاوات الصح يستضيفون قبيلة بكبارها وصغارها وحتى بهائمها وكلابها، ويتكلّفون بتأمين الضيافة لفرسان كلّ فرق التبوريدة في المواسم، ويهنئون ويعزّون كل بيوت إيالاتهم، ويبعثون الناس للحج، ويعترضون الشدائد والآفات ويطوّعون ذرى الجبال، ويسوون أنفها بالتراب تحت أرجل المخزن؟ كان هنا أزيد من خمسمائة طاجين تطبخ على النار في صباح أو مساء يوم واحد، وكانت عشرات أو مئات الخراف تشوى في وقت واحد. وبإمكان الدار أن توفّر الأكل لجيش كامل. ومن يوم المؤامرة التي حيكت في سنة 1963 ضد الباشا عبد السلام، وغيره، وإسقاطه في الانتخابات، والضربات

تتوالى على هذه العائلات حتى أكمل مفتش الشرطة، الذي صار وزيراً للداخلية المهمة، على أكمل وجه، لأنه بلا تاريخ سوى سوابقه في الوشاية، ولأنه يحمل في قلبه حقد المحرومين، فقد تفتَّق خياله المرضي عن خطط جهنمية لبهدلة أبناء العائلات الكبيرة. في كلّ مرة كان يصنع لهم حزباً ويحشرهم فيه كالخراف، ويزوِّر لهم الانتخابات، وهو في ذلك يريد أن يُفهِمَهم بأن لا فضل لهم على المخزن، وأنهم لا يمثلون إلّا أنفسهم، بل إنه وليّ نعمتهم ولو تركهم للجياع لمزَّقوهم إرباً إرباً. فعلها في سنة 1977، وفعلها في مهزلة 1983 العظمى. وأخرج من قبعة بعض الأحزاب أرانب كثيرة، وأطلقها لتتسابق هي أيضاً ذات اليمين وذات اليسار. وها هم تلامذته يواصلون تجميع الانتهازيين والطماعين والإمعات، ومحاربة طواحين الهواء بهم.

وبعد صمت قال بصوت صار أكثر غيظاً وقسوة:

- قلت لأحدهم، جاء في مهمة رسمية إلى القاهرة وطلب لقائي، كنّا شركاء ولا ينبغي أن نتحول إلى كومبارس يتلاعب بنا رعاع ترقّوا وصارت بيدهم الأمور.

شعرتُ أنّ حضرته غاضب جداً من أمر ما من ولوغه القاسي هذا أمامنا استثنائي، ففي العادة، تنبني هذه العائلات الكبيرة على التكتّم والغموض، فلا تقبل أبداً بأن تعرض مواقفها إزاء حالة الطقس، مثلاً، أمام الدهماء، فما بالك برؤيتها لتاريخ البلد ومَن صعد ومَن نزل فيه. ربما ما زال اندحار الباشا عبد السلام في انتخابات سنة 1963 والذي أودى بحياته جرحاً نازفاً تحاول أن تداويه هذه الرواية التي ترى أن ما جرى كان مؤامرة من النظام، وأول لبنة في خطّة حفر قبر للعائلات الكبيرة ذوات الأقدام الراسخة

والمزعجة في التاريخ. يحكي والدي الذي كان آنذاك في شبيبة حملة الباشا عبد السلام الانتخابية بأنها كانت هزيمة منكرة لا جدال فيها، صنعَها بالأساس غباء الناس وتصديقهم بأنهم بمجرد هزمهم لأذناب الاستعمار في البلد من أمثال الباشا سيجدون في كلّ صباح عشرة دراهم تحت وسادتهم، نصيبهم من الفوسفات. لمَ لا يقرأ حضرته التاريخ على هواه؟ وقد صار الخونة في البلد الغريب يوزعون بطائق المقاومة، ويُشهرونها في وجه الناس، وطلب الجلادون أن تعوِّضهم هيئة الإنصاف والمصالحة، والذين كانوا يهربون كلّ درهم نهبوه إلى الخارج صاروا يقدمون أنفسهم على أنهم هم مَن حموا البلد بوقوفهم في وجه الحزب الوحيد وفي وجه الاشتراكية والشيوعية.

وربما لتلطيف الجو أمرَ حضرته الحاج أن يُسمعنا «**رباعيات الخيام**» لأم كلثوم. ورياض السنباطي يهيئ في مقدمته الموسيقية أرواحنا المضطربة الحائرة لصفاء تلقي الحكمة والتأملات العميقة حول الحياة والوجود وحركة الكون من حولنا، ونحن نتسامى شيئاً فشيئاً، بتأثير من صوت الناي الخائر وتموجات كمان يبشِّر بفتق في الكون، فتكفّ أيدينا عن التسلل خلسة إلى المائدة لملء كأس المنى قبل أن تملأه كأس القدر، عاد مزاج حضرته العكر وأفسدَ علينا هذه اللحظة الرفيعة، فقال:

– لم تكونوا قد ولدتُم بعد حين جاءت أم كلثوم في سنة 1968 وغنَّت على مسرح محمد الخامس هذه الأغنية. كنت حاضراً آنذاك، ليلة 12 مارس لا تُنسى. كنت في الصفوف الأولى وركَّزت على الكاميرا كثيراً حين كانت توجَّه إلى الجمهور. غير أنّ الست أفسدت زيارتها التاريخية بحفل الاستقبال المهين والغبي الذي نظِّمَ لها بفضاء

المنارة بمراكش. فقد نقلت كلّ ألوان الفلكلور المغربي، كما حكى لي موظف كبير، في شاحنات نقل الحجر والتراب. جيء بهم من الجبال العالية والأماكن المعزولة في الواحات والسهول والسهوب وحشروا في خيام وأعطوهم الشاي والسكر والخبز فقط. وحين وصلت مشَت كملكة وسط مغرب فقير وحزين يذلّ نفسه وينحني بفنانيه وأنماط غنائه ورقصه للشرق. مهما عظمت أم كلثوم كان يجب ألّا يلقى تراث شعب عظيم وعريق تحت رجليها. ربما كانت من بين النساء اللواتي استقبلنها واحدة تملك الخامة العجيبة لصوتها نفسه، ولو لقيت هي أيضاً الوسط الفني وشركات الإنتاج والقصبجي والسنباطي والموجي وعبد الوهاب وبليغ حمدي لكان لها هي الأخرى شأن عظيم.

ودون أن تنهي أم كلثوم غناءها فضّ حضرته الجلسة لأن مزاجه سيئ جداً. ونحن في الممرّ المؤدي إلى الساحة قال صدقي الصغير لتوفيق الصغير:

- لا تركب السيارة، سنتمشى، نريدك، أنا وعاشور الصغير، في أمرٍ مهم.

خرجنا من البوابة الكبيرة وأخذَ كلّ واحد منا بيد مَن بجانبه، كان صدقي الصغير يتوسّطنا. نزلنا في شارع محمد الخامس وما أن ابتعدنا حتى قال، صدقي:

- حضرته غاضب جداً. هل هو مع الشرق أو ضده؟

ولأنني اعتبرتُ نفسي غير معنيّ بالجواب، وهو يعرف أنني متحفِّظ في الحديث عن حضرته معه وبالأحرى حين ينضاف لنا رجل قال لي بأنّ بإمكانه أن يبيعني عين أسردون وقصرها.

- ما رأيك؟

- لا رأي لي. ربما حضرته ينظُر بعمق إلى الأشياء أكبر من مع أو ضد التي لا تصلح إلّا لأمثالنا في تقييمهم للأمور.

أبعد يده عني كأنه ضاق ذرعاً بمراوغاتي له. وأنقذ توفيق الصغير الموقف حين قال لنا بصوت فيه روية وفحيح:

- متى يسمعنا حضرته رويشة أو أحوزار. عوض هذا البكاء المسمى غناء.

ضحكنا فسهل ذلك على توفيق أن يبادرني:

- يا أخ عاشور منْ أين أتتك الفكرة الشيطانية القائلة بأنّ طه حسين لم يكن سوى ممثل رديء أدى دور مفكِّر كبير شغل الناس ودارَت من حوله حروب كثيرة؟

فقلت له باسماً:

- من مجلة كتبت ذلك عن بورخيس، أتعرفه؟ الكاتب الأرجنتيني.

- لا لا لم أتجاوز بعد طنجة.

ضحكنا مجدداً وفاتحَه صدقي في موضوع نيتي التقدُّم لخطبة بنت من آيت بوگماز. وشرح له كيف أنني سأعتمد عليه في كل شيء لأنني لا أعرف الوادي ولا أعرف حتى مكان منزل البنت ولا كنيتها.

استغرب توفيق ذلك وقال لنا:

- الوادي كبير وفيه دواوير كثيرة. كأننا سنبحث عن إبرة وسط تبن. لا بد من معرفة اسم الدوار وكنية البنت وأنا في الخدمة يا أخ عاشور عليك بالزردة فقط.

توفيق الصغير

كل الأخبار التي تجمَّعت لدي عنه تتفق على البدء من مزحة والده عسو أوشن مع جزار فظ وغاضب لا يجري في وجهه الناشف ماء رقة أو حتى بسمة عابرة. كان خمر البارحة ما زال يتلاعب برأس عسو حين جاء ليقترض نصف كيلو لحم من الجزار وعندما لفّ اللحم في كاغد أبيض وأعطاه له قال له بأنه مدعو غداً بعد صلاة العشاء لحضور حفل خطبة بنته مليكة. ولم يسيطر عسو على لسانه الذي ركبه شيطان مارد ولا على يده التي أعادت اللحم للجزار. واستغرب للسحنة الغاضبة التي قال بها للجزار بأنه كان ينوي الزواج بها وأنّ هذا اليوم هو الأسوأ في حياته. ولم تكذِّبه الأيام في حكمه هذا. سنوات وهو يسكر لفهم ما دفعه لقول ذلك حينها ولا يتوصَّل إلّا لهذا التفسير الذي تتهاوى من حوله كل التفسيرات الأخرى. ويبقى هو منتصباً وثابتاً. كانت مزحة أراد من خلالها فقط أن يتودَّد لجزار لم يكن يعرف قدر ديونه عنده. ردّ له الجزار اللحم بوجه جامد ولم ينبس بكلمة واحدة. لكنه وفي المساء بحث عنه في كلّ حانات المدينة وحين عثر عليه في ركن مظلم بحانة اللقلاق غارقاً وسط الدخان والروائح الكريهة للمرحاض الذي يخفي بابه نصف جسده النحيل، مختبئاً هناك من

دائنيه الذين لم يعُد يتذكّرهم كلهم. أخبره بدون مقدِّمات بأنه اعتذر لمن كان سيخطب مليكة وهو ينتظره غداً. وقف شعر عسو وتقيأ كل ما شربه وخرج هائماً على وجهه وساطور وسكاكين الجزار تتراءى أمام عينيه. كان على قناعة تامة بأنه وضع رقبته في فم أسد وأنّ خط الرجعة أقفل في وجهه. انهمرت دموع مدرارة من عينيه لأن لا خيار له، ومن ذعره تهاوى ليلتها أمام رجلي أمه وترجّاها أن تذهب معه لخطبة مليكة غداً. ولم تفهم هي من كل سيل الدموع وبلل رجليها إلّا أن ولدها أحدث شيئاً مع البنت وهو مُجبر على تصحيح غلطه.

ولأن عسو أوشن الموظف في مندوبية قدماء المحاربين وجيش التحرير قد هشَّم أجرته الشهرية وذراها في ديون كثيرة تقتطع من المصدر ومنع من دفتر الشيكات لأنه كان يوزعها كما يوزع مرشح أوراق دعايته الانتخابية، وجمع له الناس مرات عديدة مبالغ شيكات بدون رصيد لكي لا يُسجن، فقد كان عليه أن يبذل مجهوداً خرافياً في الاحتيال لاقتراض مبلغ سوى به الأمر، وبعد شهر كانت مليكة في بيت سيضيع في أحزان مأساة طويلة. كانت بدينة ومشعرة وفمها لا يجمع بصاقها وسبابها ورائحتها كريهة، ومن يأس عسو القاتل غرق أكثر فأكثر في الشرب وصار يؤجل دخوله للبيت في البداية حتى الهزيع الأخير من الليل، ثم بدأ يفعل ذلك ليوم أو يومين أو ثلاثة وحينما يفتح الباب يكون مثل عود ثقاب دخل مشتعلاً لبيت كبريت، فهو يخرج في الصباح بعين منتفخة أو شفة ممزقة أو أصبع مكسور وبعد أن كان يبرر ذلك بسقوطه على درج أو ارتطامه بمائدة فإنه مع التكرار الفاضح لهذه الحوادث صار يجيب مَن يسأله عن ذلك بدموع تتجمَّع في عينيه.

أضاعت أمه ما بقي من صحتها وهي تفضّ الاشتباكات الليلية بين كنّتها وابنها. وعجزت تماماً عن زرع شيء من الحنان وسط زوابع العنف والحقد التي كانت على أهبّة الهبوب لأتفه الأسباب. وحين قالت لها كنتها بأنّ دورتها الشهرية توقّفت بهتت ولم تعرف كيف ولدت رقة الإيلاج وسط كلّ تلك الكراهية والضرب والمنازلات الدامية التي كانت تعتقد أنها ستفضي في يوم ما لموت أحدهما وليس لكرش منتفخة. وحين ولد حسن وتبيَّنت أمه بعد شهور بأنه أعمى وأنّ هزاله غريب ولم تعُد تكف عن البكاء. نهرها الجزار ذات يوم قائلاً: ماذا كنت تنتظرين من حيوانات منوية تسبح يومياً في الجعة والماحيا؟؟

أخذَت الجدة على عاتقها إنقاذ حسن وسارت في الدرب اليائس لإيجاد نور لبؤبؤيه الخاويين وطافت به بين المستوصفات والمستشفيات وجرَّبت كلّ ما لدى العطارة بغير فائدة. كان حسن اتهاماً دائماً يتقاذفه عسو ومليكة بينهما كلما جاء للدار، فهو لم يكن أعمى فقط، بل كان يعاني من خلل عصبي يجعل حركاته وهو يحاول أن يقف ويسير على رجليه أشبه بالرسوم المتحركة، وبقي وهو في سن الرابعة يمصّ إبهامه ويرتطم بكلّ شيء أمامه ولا ينجح في خطو عشرات الخطوات دون أن يسقط ويضيف إلى وجهه ندبة أخرى، حتى صار الوجه يحمل أرخبيل شقاوة وتاريخ ظلم تلك اليد التي لم تمتد لصبي أعمى كان يتهجى العالم برجلين تنثنيان وعمود فقري مترنح. ماتت الجدة بسكتة قلبية وخرج حسن إلى عراء الحاجة كان عليه أن يتدبر لقمته وسط الناس وأن يكافح بعاهاته من أجل البقاء. ولأنه لم يكن يمتلك غير لسانه ليشحذه وسط أقران لهم أجساد قوية

وسوية فقد صار سليطاً جداً وجارحاً جداً وتسبّب له في تهشيم أسنانه وأنفه مراراً وكان بما يخرج من فمه من قمامة يقامر بالرصيد القليل من الشفقة التي كان يستحقها. في تلك الأيام لقِّب بـ«لبلى» البلاء لفحش شتائمه، غير أنه كان يسقط ويقف ويضرب ويحاول أن ينال من خصمه بحجر أو قطعة زجاج أو كلمة قاسية ويتلافاه الناس وهو يلاحقهم كأنه قراد. ويستغرب كلّ مَن يعرفه هذه الإرادة الحديدية التي زرعت في جسد لدن كالمخاط.

أخيراً، وحتى يتقطع آخر خيط يشدّه للدار، ماتت أمه مليكة ووالده يشرب في بستان من بساتين عين أسردون، وحين أفرغ كيس قنينات الجعة الكبير في جوفه وضرب نفسه الضربة القاضية بقنينة ماحيا وعاد خاوياً مترنحاً إلى داره استغرب وجود خيمة كبيرة أمامها فانسلّ بين رجال صامتين ومتجهِّمين انتبهوا له وتداعوا يعزّونه ونجح بعد جهد في أن يبعد وجوههم وأيديهم عنه ويقول لهم ببراءة سكران: من مات؟ قضى عسو الليل كله وهو يبكي ويتمرَّغ فوق قبر مليكة ولا يهبه التراب إلّا خزي نهاية تمناها طويلاً لكنها حين أتت وبالشكل الذي تمناه عذبته أكثر ممّا كان يعذِّبه وجودها كالغصة في حلقه وتركت له خواء لن ينجح أي شيء في ملئه حتى ولو شرب الأسيد القاطع. تدروش لشهور وترك لحية فوضوية تغزو وجهه وجرّب الصلاة وتلك التوبة التي يلوح بها الدين كخلاص لكلّ مَن أثقل ضميره بالذنب، لكن روحه كانت خاوية مثل ناي ولم يعُد بالإمكان بذر شيء بداخلها لذا أنهى كلّ شيء حين التهم علبة مهدِّئات ولم ينجح غسيل الأمعاء الذي أجرِي له في أن ينقذ حياته..

كان حسن يقضي معظم نهاره قرب بائع ورد بالمارشيه القديم وسط القصبة يأكل ممّا يجود عليه الباعة ويتشاجر مع كلّ مَن يكلّمه حين بدأت مدام الأندلسي تدسّ في يده بضع دريهمات حين تأتي لشراء باقة ورد، وتترك في خياشيمه رائحة عطر نفاذ صار يعرفها بها ما أن تركن السيارة وتمدّ رجلها الأولى فيجري للقائها ويسقط وينهض ليسقط حتى تلتقطه يدها المثقلة بالخواتم رقّ قلبها له حتى أنها قررت تبنّيه بشكل غير مباشر بحيث أنها ستسهر على توفير كلّ ما يحتاجه من مَأكل وملبس وستُدخله إلى مدرسة المنظمة العلوية لرعاية المكفوفين دون أن تسمح له بأن يعيش معها في دارها الكبيرة مهما توسَّل إليها وتشبَّت بأذيال ثوبها حين كانت تودِّعه. اختارت أن تكون له أماً عن بُعد، ترتب حياته، وتهبه ذلك الأمان الذي يحتاجه وذلك الحنان الذي حرم منه. وكان في آخر الأسبوع يعيش ليومين نعيم الخادمات وهنّ يدعكن جسده في الحمام ويدغدغن مناطقه الحساسة ثم يلففنه في منشفة كبيرة ويحملنه إلى حيث يجد الأكل واللعب. خففت مدام الأندلسي من شراسته وعلّمته أناقة اللباس والحرص على المظهر مهما وقع، وكان يسمعها تقول لأولادها الثلاثة: لا يهم أن تكونوا أغنياء المهم أن يصدِّق الناس ذلك، بصيت الغنى يمكنك أن تصير غنياً. وفي بلد لا تولد فيه الثروات كبيرة إلّا إذا كانت تقف على أكتاف الحشيش أو منح الاسم لنافذين في الدولة يروِّجون من خلاله ويبيضون ما نهبوه من أموال، فقد جرب ابنها البكر رشيد دسّ صفائح من الحشيش في شاحنات عملاقة كانوا يصدرون فيها الفلفل الأحمر إلى إسبانيا. ولأنه لم يكن يعرف كيفية شراء الطريق وضبط أمور الرحلة المظفرة للمخدر العذب حتى مستقره فإنّ رجال الديوانة كشفوا الحمولة واضطرّت المدام إلى إخفاء ابنها حتى تُخرجه من

لائحة المتهمين. فوزَّعت أموالاً طائلة، هنا وهناك، لتخلص التحقيقات بأنْ لا علم له بالأمر، وقبض على العمال الذين شحنوا الحشيش وعُذِّبوا حتى اعترفوا بجرمهم.

غير أنها كانت ضربة قاصمة لظهر رفاه الأسرة التي كان أولادها يغيرون السيارات والدراجات النارية كما يغيرون جواربهم، ويرتكبون الحماقات، ويعبثون بالفتيات فتكاثرت ديونها وحجزت الأبناك على العديد من ممتلكاتها. واضطرت المدام في النهاية لإخفاء نكبتها في الدار البيضاء وعاد حسن ليتمه الشديد رغم أنه بقي يتوصَّل بحوالة شهرية منها تُعينه على أن يحتفظ بمظهر ابن بالتبني لامرأة ورثت عن والدها وزوجها ثروة طائلة وبدَّدتها نزوات أولادها.

في سن السادسة عشرة هجر حسن مقاعد الدراسة والتحق بالموكب الفرح للمجزئين العقاريين الذين نبتوا كالفطر في أواخر الثمانينيات وسيطروا على الحياة العامة فصاروا هم الأعيان والمنتخبين والشرفاء والمحسنين والمراجع الحية لكلّ مَن يريد أن يترقى اجتماعياً وخصوصاً رجال التعليم الذين هبوا على بكرة أبيهم لتأسيس الوداديات السكنية، وسرقة بعضهم البعض. وأدت زياتين المدينة وبساتينها ثمن عاصفة الذهب هذه. بدأ حسن بنقل الأخبار لمجزئ عظيم اسمه الفاسي كانت يده تجري سمناً وعسلاً. وفي سن الثامنة عشر دخل أول ودادية لأنه وبالسماع فقط فهم اللعبة. وفهم أن المنخرطين يؤدّون كلّ شيء من شراء الأرض إلى تكاليف التصاميم والتهيئة وأنه لا يساهم إلّا باسمه ووقته لمطاردة أختام الإدارات.

ولأن مكتب الفاسي كان منجم أخبار ثمينة حول النشاط الاقتصادي الوحيد بالمدينة فقد عرف حسن كيف يستثمر ما يتجمّع لديه من معلومات ليوسع لنفسه مكاناً في كوميسيرية الشرطة وبالضبط بأحد مكاتب الاستعلامات العامة. كان ينقل لهم الغث والسمين ويستقوي بهم في خصوماته التي لا تنتهي ويوظف توصياتهم في تيسير عبور ملفاته مهالك الإدارات. ولأمرٍ ما أسس جمعية متطرفة بدأت تجاهر بالحديث عن ضرورة إسقاط الفصل التاسع عشر من الدستور وضرورة أن يقرر الشعب مصيره. كان يهذي بأشياء عن الملكية والتاريخ الوطني، لو قالها غيره لتحرَّكت شاحنة من تلك الشاحنات التي قدِّر لها أن تصطاد المعارضين لأنهم ولكثرة همومهم لا ينتبهون للطريق، وسوَّته بالأرض. ولا تفهم هل هي خطة استباقية من المخزن تقضي بأن تبادر المزابل البشرية لتبني القضايا النبيلة والدفاع عنها بطريقة مستفزة ورديئة تسيء إليها. أم أنه فهم في ارتياده المتكرر لمركزية الشرطة ومخالطة المخبرين بأن المخزن لا يكترث بمن في جيبه، بل يركِّز كل اهتمامه على مَن يزعجه ويجد حماته لذّة عظيمة في إفساده وشراء ذمته فصار يلعب لعبة المتطرف القادر على المزايدة المحسوبة والشغب العابر والتنطع الأرعن في مدينة تجلى فيها الانتصار العظيم للأجهزة في تحويل قلعة نضال يسارية إلى مبغى سياسي يرتع فيه كلّ مَن هبّ ودَب.

باع حسن أوشن واشترى في كلّ شيء من البقع والسيارات حتى الخردة والخضر في سوق الجملة والأفكار والأصوات الانتخابية. وكان بإمكانه التنازل عن كلّ شيء إلّا أناقته الشديدة التي كان يعتبرها أحد أسلحته في عمله. إنه التكثيف الحي للسيبة التي عاشتها كلّ

المدن ولذلك الرخاء الذي نبت في ثنايا مرحلة فكّت فيها الأحزمة جميعها. وطبق فيها وحتى مخ العظم شعار التوحش المدني: دعه يعمل دعه يمر.

ولولا أنه أعمى وسط عتاة من المبصرين لكان قد راكم ثروة هائلة، ورغم استثماراته الخائبة وتعرُّضه لعمليات احتيال متقنة عدّة مرات، ما زال بعضها في المحاكم، فإنه تمكن من أن يبني داراً من ثلاثة طبقات بمتاجر في الأسفل.

تقرير حول الجماجم

وجدتهم منهمكين في كتابة التقرير، وسمعت صياحهم وجدالهم قبل أن أصل إلى المستودع. كان الخبير بصدد تهدئة العسكري الذي أراد أن يهجم على الموضوع:

- لا بد من ديباجة نحدِّد فيها أسباب النزول، يا صديقي.

وأضاف مساعده:

- لا بد من أن يكون للتقرير باب يدخل منه مَن سيقرأه:

وليُمازح الخبير العسكري أضاف:

- تريد الدماء من أول سطر، على مهلك يا صديقي.

بدا من صمت العسكري بأنه غلب على أمره، انبرى الخبير يرتجل:

- في يوم وشهر وسنة كذا، انتقلت، أنا فلان، خبير أركيولوجي، والسيد كمال الدندوني تقني، إلى مدينة بني ملال لمعاينة وفحص مقبرة جماعية. التفتَ نحو المساعد وقال له: اكتب، اكتب، ثم واصل: مقبرة جماعية عُثر عليها هناك، وقد تمّ ذلك بطلب وإلحاح من السلطات المحلية. وفي عين المكان، لاحظنا بأنّ المقبرة عبارة عن كمٍّ هائل من الجماجم. كلمة: هائل، مُبالغ فيها

ولا تُناسب تقريراً علمياً، اكتب: عبارة عن كمّ من الجماجم بدون هياكل عظمية. توجَد المقبرة وسط غيضة من أشجار.

أسعفه العسكري قائلاً:

- أشجار حور عملاقة.

فواصل:

- وسط غيضة من أشجار حور عملاقة تمرّ بمحاذاتها عين تسمى تامجنونت، عثر على الجماجم في عمق لا يتعدّى ثلاثة أمتار، وهي في حالة جيدة عموماً، لم يتمكَّن الحفارون من مواصلة عملهم لأنهم اقتربوا من الشارع، ولم تعُد تفصلهم عنه إلا أمتار قليلة، قرَّرنا نقل الجماجم، بمساعدة قيمة من السلطات المحلية إلى مستودع مهجور، لا تكتُب مهجور، إلى مستودع في ملكية الدرك الملكي. وهناك قُمنا بجَرد دقيق للجماجم، تمثّل في ترقيمها ووزنها وقياس طولها وعرضها ووصف حالتها. وقد أنجزنا نسخاً عديدة لهذا الجرد وبعثناها للإدارات المعنية.

أضاف المساعد:

- تجدون رفقته نسخة منه.

- نعم. اكتب ذلك. ثم صمتَ كأنه تذكَّر شيئاً. ثم قال: شطِّب على كلمة: إلحاح، بطلب من السلطات المحلية، فقط، هي تفي بالغرض. ثم قال العسكري: ها نحن وصلنا إليك. يبدو أن الخبير يمارس صلاحياته كاملة، ولا يتنازل عن حبّة خردل من سلطته. كان يدير بيدٍ من حديد كتابة التقرير يختار الكلمات، ويحدِّد ما يجب أن يكتب وما لا يكتب. وأنا على يقين بأنّ ذلك يغيظ العسكري ويجرح بداخله حسّ القيادة.

واصل الخبير:

- وطيلة المدة التي قضيناها بمدينة بني ملال، قُمنا بأبحاث تاريخية لفكّ لغز هذه المقبرة الجماعية، واستعنا ببعض الباحثين والمهتمين بالتاريخ المحلي لاستجلاء الظروف المحيطة بها، ولا يسعنا إلّا أن نشكر السيد عبد الهادي الغافقي.

صاح العسكري:

- لا   لا   أرجوك. لا تذكر اسمي.

- هذا واجبنا نحوك، يا صديقي. أنتَ مَن فتحت أعيننا على التاريخ.

- لا   لا   أهمية لذكر اسمي.

بدا أنّ التقرير توقف عند عقبة الاسم وبقي يراوح مكانه. فالخبير قرَّر وبإصرار فجّ على أن لا يواصل إملاء التقرير حتى يحسم مسألة الاسم وتمترَسَ العسكري وراء رفض قاطع، وتدخَّل المساعد واقترح حلاً يقضي بمواصلة العمل في التقرير والعودة إلى مسألة الاسم حين ينتهون منه. التفَّ الخبير على العقبة، وعاد لصوته حزم القائد والآمر. وقال وكأنه يسجل هدفاً في الوقت الضائع:

- هي مسألة مبدأ، اكتب: توجد المقبرة على مبعدة من ما يُسمى، هنا، القصبة الكبيرة. وهي ما يُعرف بالكتابات التاريخية بالقصبة الكوشية التي بناها المولى إسماعيل سنة 1688، وجعل فيها حامية عسكرية تتكوّن من أزيد من خمسمائة جندي كانت تقوم بمراقبة الجبل وتأمين طريق المارة بالدير التادلي، كما تؤمن الأسواق التجارية الكبيرة التي كانت تُقام في المنطقة. ولا تبعد المقبرة إلّا بأمتار قليلة عن السور الكبير الذي كان يحيط بالقصبة، وبأحد أبوابها الستة، باب امغيلة.

وأضاف العسكري:

- أو باب البيرو، هكذا صار يُسمى حين جاء الاستعمار الفرنسي.

- نعم. وبما أنّ جنود الحامية كانوا يشاركون في حملات الزجر والانتقام وفرض الطاعة، وكانوا يقتلون ويحرقون ويصادرون ويعودون بالسبايا والمساجين وبكمية كبيرة من الرؤوس التي يجزونها كما يجز الصوف، ويعلّقونها فوق السور وفي الأبواب لإفهام الغاضبين المارين والمتسوّقين، بأنّ الحامية لا تعرف الرحمة أبداً، فلا يستغرب وجود مقبرة جماعية قرب السور والباب، ما رأيك سي عبد الهادي؟

- جيد. هذا ما وقع. يكفي أن تفتح كتاب تاريخ وتتصفّحه لتعرف كم من الدماء سالت في هذا البلد، وكم من الرؤوس حزَّت، فبعض السلاطين كانوا يصدرون Bon de commande لقوادهم ويحددون فيها عدد الرؤوس التي يجب أن تصلهم، كما يفعلون، تماماً، حين يطلبون الزيت والعسل والسمن لقصورهم. تاريخنا إجرامي وهمجي، يا أصدقاء، لم يرتَحْ فيه السيف أبداً.

ضحك الخبير:

- لا يمكننا أن نكتب ذلك في التقرير.

- أنا أوضّح فقط. أعرف بأن التقرير لا ينبغي أن يقول الحقيقة كاملة، لأنها جارحة وتزعج الخرافات الكثيرة التي لدينا عن أنفسنا. نحن أثخنّا في بعضنا قتلاً طيلة قرون. وحتى حين لا يفعل المخزن ذلك تغِير القبائل على بعضها وتقتدي به في التنكيل بالمنهزم والضعيف.

يبدو أنّ زمام التقرير أفلت من يدي الخبير، لذا بقي يردّد ببلاهة: طيب. طيب. كأنه لا يجدُ الجملة التي يرتِقُ بها ما

انفصل، فبما أنّه وصل إلى الدماء فإنه عجز عن مواجهة حماس ومواجهة العسكري الذي وجد نفسه في ساحته الأثيرة وبدأ، يتبورد علينا:

- عموماً يمكن تفسير وجود المقبرة الجماعية بقربها من السور والباب ونحن نعرف أنهما كانا يقومان، وبالإضافة إلى أدوارهما، بدور لوحات الإعلانات التي لا تعرض إلّا الفظاعات المخيفة. غير أنّ لدي فرضيات أخرى ينبغي استحضارها لتفسير الأمر. وهنا لا بد من قراءة دقيقة ومعمقة لتاريخ المنطقة.

لا اعتراضات، ولا إضافات. يبدو أنه أبطل، ودفعة واحدة، سلطة الخبير على التقرير. وأنه وحين نزل إلى التاريخ، فعليه بشكلٍ منطقي أن يتنازل عن الكلام لفائدة العسكري الذي أمسك بتلابيبنا، وسحبنا معه إلى وقائع لم تكُن لدينا أدنى فكرة عنها. سمعته يفتِّش في كيس بلاستيكي وأخرج، ما حدست، أنه كتاب.

وقال:

- اسمعوا ما كتبه البيدق في كتابه **أخبار المهدي بن تومرت،** وهو شاهد عيان موثوق به: «. ودفع جريدة أخرى لتادلا لعمر بن ميمون وعبد الله بن داود الجراوي ومحمد بن توفات وسليمان بن تيزنگاط وقتلوا منهم خمسمئة في موضع يُقال له نظير، ثم جند عمر بن ميمون وخرج لتازرفت ن يملوان[1]، فقتلهم بموضع يُقال له تيفسرت، وساق غنائمهم ونساءهم إلى تادلا، وشفع أبو بكر بن الجبر عند الخليفة في نسائهم فلم يُبَعن، ثم خرج أبو بكر من الجبر وقتل من صنهاجة وجراوة الفافي موضع يسمى بالعمري، وخرج

---

(1) اسم أمازيغي لمكان قرب منطقة تادلا

آكأنكّى إلى القلعة متاع مهدي بن توالا باعترافهم وقتل منهم ستة آلاف من زناتة فازاز». وقعت هذه الإعدامات الجماعية فيما عُرف بمحنة الاعتراف التي قام عبد المومن بن علي الكومي ثاني ملوك الدولة الموحدية. واقتدى فيها بمحنة التمييز التي أشرف عليها المهدي بن تومرت مؤسس الدولة. وهي تصفية دموية باردة وجماعية للخصوم والمعارضين بدعوى أن إيمانهم ضعيف وإخلاصهم مشكوك فيه. ربما هذه الجماجم المُحيطة بنا هي الشواهد المتبقية من جرائم الاستفراد بالحكم والتعصب الديني الأعمى الذي كان يُقتل فيه الناس جماعات على ترك الصلاة.

قال الخبير بصوت وديع يكاد لا يسمع.

- ربما.

واصل العسكري دون أن يكترث به وهو يبحث في كيسه البلاستيكي:

- لقد قَتَل الدين من جدودنا أكثر ممّا قَتَلت الفتن والمجاعات والأوبئة. كانوا كلما رفضوا ظلماً وقهراً اتّهموا بالكفر. ألَمْ يقل المولى الحسن الأول بأنه: «يجب قتال أهل تادلا قبل قتال اليهود والنصارى».

لاذَ بالصمت، وسمعت خشخشة كيس البلاستيك، بما يفيد أنه ما زال يبحث بداخله. لم ينبس الخبير ببنت شفة، أعتقد أنه يدير بداخله مخاطر تحوّل التقرير إلى محاكمة لتاريخ وطني وقع فيه ما وقع، ولا مصلحة لأحد في بعث شياطين الماضي. يكفي ما في الحاضر من مخاطر. ولعلّ مساعده توقّف عن كتابة ما يسمع وبقي هو مبهوتاً، إزاء هذا الشلال التاريخي الذي ينهمر فوق رؤوسنا.

- لدي فرضية أخرى. ربما تعود الجماجم إلى أولئك الأمازيغ المساكين الذين صنع منهم سيدي يوسف أحنصال جيشاً جرّاراً من حيث العدد ومضحكاً من حيث الأسلحة والاستعداد، كان ذلك سنة 1733، حين أحسّ سيدي يوسف شيخ الزاوية الحنصالية بأنّ صراع أبناء المولى إسماعيل يعطيه فرصة لا تعوّض للاستيلاء على الحكم، فأنزل المساكين من جبالهم، وقدَّمهم لقمة سائغة لجيش المولى عبد الله بن إسماعيل. وقعت المعركة قرب القصبة وحصدَت المدافع، في لمح البصر، أهلَ الجبل الذين كانوا لا يملكون غير صدورهم وجسارتهم، أمّا حرابهم وسيوفهم الصغيرة فقد كانت مستكينة في أطرافهم. فعدوّهم كان أجبن من أن يشتبك بهم. ندين بشهادة هذه المذبحة لتوماس بيلوو الذي كان جندياً ضمن جيش المولى عبد الله، وكتب مذكرات عن أسره الذي دام من عام 1721 إلى عام 1735. بعد المعركة قطعت رؤوس المساكين، وبُعثت إلى أبواب وأسوار المدن للمباهاة، ولعلّ نصيب القصبة كان الأوفر، وما خرج من الأرض هو جزء بسيط ممّا دُفن بجانب أسوارها

قرَّرت بأن أدلي وأن أغيظ العسكري، فقلت باستحياء ماكر:

- إذا سمحتم لي: ألا ترون بأنكم تتصرّفون وكأنكم تعيشون في زمن الحمام الزاجل؟ هذه الفرضيات صالحة لزمن لم تكُن فيه مختبرات بإمكانها أن تقول مَتى قتل صاحب الجمجمة بدقّة وبأيّ شيء قتل.

قال العسكري الذي أغاظه، حتماً، ما قلت، بامتعاض واضح:

- حين تُنقل الجماجم كالدوالح من طرف عمال بلدية في شاحنة أزبال. وتتداولها أيديهم بدون قفازات تصير غير صالحة لمختبرك. فلو أرسلنا إحداهن لمختبر أميركي لقَال لنا بأنها قُتلت سنة

1733، والمجرم هو صالح السرغيني عامل النظافة بالبلدية الذي ما زال حياً يرزق إلى الآن.

ضحك الخبير ومساعده وضحك العسكري، هو الآخر. ولأنه اعتقد بأنّه أفحمني بتسلسلٍ منطقي يقضي بأنّ الطريقة الفظّة التي استخرجت بها الجماجم وشُحنت وكدّست هنا، وميزان اللجنة ومسطرتها ولصاقها وأرقامها، يستتبعون أن يكون التقرير هو أيضاً، ومن باب التضامن، منتمياً إلى ارتجال ما قبل العلم، فإنه واصل كأنني لم أقل شيئاً:

- أما الفرضية الثالثة فهي جريئة. لماذا لا تكون هذه المقبرة الجماعية أحدَث ممّا يمكن أن تتصور؟ فتعود ببساطة إلى تلك الفترة السوداء التي امتدّت من الستينيات إلى بداية التسعينيات والتي كان فيها، هنا، مكتب للبوليس السري ضمّ مجموعة من عتاة المجرمين الذين كانوا ينشطون في المنطقة الوسطى والجبال المحيطة بها. وكانوا يختلقون المؤامرات على النظام لسوق أكبر عدد من الأبرياء لمسالخهم.

صاح الخبير:

- لا لا أرجوك. توقف. توقف.

سقط الخبير مغشياً عليه، وهرع مساعده لإسعافه، وهو يعاتب العسكري على تذكيره بما جرى له. وحين استفاق بدأ يتلوى ويئنّ ويتحدث عن الستة. لا بل خمسة الذين دخلوا إلى دارهم، وهم يسوقون والده مكبل اليدين. لم أتمالك نفسي. خرجتُ بعد أن أيقنت أنّ التقرير أصيب في مقتل.

يمكنك أن تسمي هذا الفصل **مريميدة أو حصاد الهباء**. حاولت أن أحصل على معلومات عن صفية عن طريق العسكري، الذي التقى بالممرض، وعاد غاضباً يلعن الرجل، ويقول بأنه مريض، كأنه سيعطيني سراً من أسرار الدولة. وعاودَت الكرَّة أختي مع زوجته، ونجحت في أن تنتزع منها بضع كلمات عن مخزن جماعي يسمى إغرم سيدي موسى، ونزل جبلي غير بعيد عنه، وهناك قرب أشجار جوز توجد دارهم، اسم أمها السكورية. لقد وضعت أهل الدار أمام واقع أنني سأذهب لا لخطبتها، وإنما لتهيئة الظروف لخطبة رسمية يحضرونها جميعهم. عرض عليّ العسكري أن يرافقني وألحّ في ذلك وتملّصت منه. كنت أريد أن أعيش التجربة لوحدي. ربما في قرارة نفسي لم أكن أريد أن ترى صفية وأهلها المصائب التي حلّت بنا دفعة واحدة.

لم أنَم من هول ما أنا مُقدم عليه، تقلَّبت طويلاً في الفراش، وسرب من الهواجس يفترسني وإلى جانب لهفتي وقشعريرة رتق ما انفتق بيننا، وتصميمي الرخامي، كانت بذرة تردُّد وخوف تحاول في

أعماقي أن تقضم لنفسها مساحة كبرى حتى تدفعني في النهاية لأصرف النظر عن الرحلة، متواطئة في هذا مع فجر بعيد ومتلكئ، يريد هو أيضاً أن أتفرّس في الأحداق المظلمة لما أنا مُقدِم عليه. تعذَّبت طويلاً قبل أن أسمع المؤذن فهرعت إلى البدلة التي كنت أضعها قرب السرير، لبستها ثم غسلت وجهي. استيقظ العسكري ورتّب هندامي وهو يعدل ربطة العنق دسّ في جيبي الداخلي أوراقاً نقدية، فحاولت أن أخرجها وأعيدها له فرفض قائلاً: ربما ستحتاجها هناك. وحين كنت أهمّ بالخروج أمرني بأن أنتظر، ولبس ثيابه بسرعة وأمسكني من يدي وهو يقول لي بأنه سيوصلني إلى المحطة. وعندما رأى بأنني تسمَّرت في الأرض طمأنني قائلاً: سأوصلك إلى المحطة فقط، كيف ستهتدي لصديقك ويهتدي لك وسط الضوضاء والمسافرين وكلاكما لا يبصر؟ اعترض سيارة أجرة أخذتنا إلى هناك.

وجدنا توفيق الصغير كما اتفقت معه قرب شباك الحافلة التي ستخرج لمدينة أزيلال. أدّى العسكري ثمن التذكرتين وأخذنا إلى الحافلة وأجلسنا خلف السائق ثم ودّعنا. وحين تحركت أحسستُ بشيء من الأمان والاطمئنان، إذ لم يعُد بإمكاني التردُّد، فطريق العودة سدّ في وجهي، وعلى إرادتي أن تستجمع نفسها، وتتحرَّر من الوهن الذي زرعه فيها الليل. لقد أنصَتُّ لروحي طويلاً حتى قادتني إلى ما أنا مقبل عليه، وعليَّ الآن أن أسيطر عليها حتى أعيش الرحلة نحو صفية بهدوءِ مَن يتمالك نفسه أمام بداهة حياته. تذكرتُ يد جدتي حين أطبقَت على عيني في رحلتنا نحو الغيس المقدّس. وقلت لنفسي: أليس العمى سوى يد القدر حين تَحُول بينك وبين الأشياء،

وأن تكتفي بما يصلك من العالم عن طريق الحواس الأخرى التي لا شك أن مصيبة الإبصار تفرحها، لأن تستثمر فراغ الروح من ملاهي العالم التي تحيط بها، وتطوّر نفسها؟ إنها مثل شجرة صغيرة نبتت تحت جذع شجرة عملاقة تحجُب عنها الشمس وأزاحتها جرافة من فوقها.

البارحة سمعتُ في إحدى القنوات مذيعة تتحدث عن أميركية مُصابة بمرض يُعرف اختصاراً بـ«بيلد» يطمح فيه الشخص المُصاب به إلى أن يصبح مشوهاً أو يعاني من إعاقة جسدية. عمدت المرأة إلى تقطير سائل تنظيف في عينيها كي تحقق حلم حياتها في أن تصبح ضريرة، وهي الآن تعيش سعادة القراءة بلغة برايل والبحث عن الأشياء بعينين منطفئتين. آه لو سمحت لي الحياة بمقايضة عماي برغبتها في العيش في الظلام. في حياة عقلانية ومعقّمة ومرتَّبة بدقة ولا يحتاج فيها المرء، المُحاط بوفرة مدهشة، أي شيء، تولد تلك الحاجة لِمَلْحِ مأساة تهبُ معنى بشرياً للآلية الصماء التي تسحَق حياة الناس بلا رحمة، فيعبدون بعض الأشياء كالتلفاز والغسالة وجهاز التبريد، ويعتقدون أن حياتهم ستتوقف إن فارقوها ويتمنّون الإعاقة ويقدِّسون الحيوانات الأليفة، ويُحدِثون في أجسادهم ما كانت تنكّل به أجساد العبيد في مزارع الميسيسيبي الشاسعة. إنه التحطيم النسقي لذوات ممتلئة برغد العيش، ولا ينقصها إلّا معنى يحمل هشاشة إنسانيتها.

قال لي توفيق الصغير بأنّه زار وادي آيت بوگماز مراراً رفقة جدّته التي كانت تحنّ إلى طفولتها هناك، وهي مَن علّمته الأمازيغية.

استحمّ في مياه الوادي الباردة وضرب أشجار الجوز العملاقة بالحجر حتى تسقط بعض حباتها، وشرب حليب الماعز. ثم وكأنه تذكَّر الخطيب الغافي بداخله فأوقف لغة الحنين والحلم وقال لي:

- أتعرف أنّ المنسي في كلّ مخططات الدولة هو الجبل، إنها لا تعرف ما تفعل به، تتذكره في فصل الشتاء فقط حين يحتجز الثلج الناس وتتعطّل الطرق والمَسارب وتموت الحوامل وتنساه بعد ذلك.

أعرف بأنَّ عليَّ أن أكون حذِراً معه أكثر من حذري من صدقي الصغير، ولكن عليّ في الآن نفسه أن أداريه. لذلك قلت بمجازفة كبيرة:

- نعم. نعم.

- الجبل هو كلّ شيء، هو الذي حمى هذا البلد من زحف الصحراء، وهو الذي شكّل حضارتنا وهو الذي يعطي الماء لضيعات السهل التي تقاسمها بينهم أهل فاس والرباط، وأعفوا أنفسهم من الضرائب ويسَّروا لها الاستفادة من المساعدات، وحين يبيعون الغلال لا يستفيد أهل الجبل ريالاً واحداً من كل ذلك.

قلت ببلاهة:

- نعم. نعم.

- بدأ الجبل يتململ وسيصحو قريباً. وسيطرد أولاً تلك النُّخب الفاسدة التي احتكرت الكلام باسمه منذ عقود وحوَّلته إلى أصل تجاري تبيع فيه وتشتري، ألم ترَ أنهم بدأوا يفرون إلى السهول!؟

ولأنني سمعتُ هذا الخطاب كثيراً في المدينة، ولأنني على يقين بأن لا شيء سيصحو فينا إلا الماضي، تذكرتُ، بالمناسبة، في

سنتي الأولى بالكلية ذلك الرفيق الذي أتته أخبار انتفاضة قبيلته في وجه الأملاك المخزنية والمحافظة العقارية والدرك وقبيلة مجاورة، ووقوع خسائر واعتقالات. فحَزَمَ حقيبته وقال لنا بأنها بوادر ثورة شاملة، وعليه أن يكون في الصفوف الأولى لتوجيهها. وعاد حزيناً ومنهكاً بعد شهر شهِدَ فيه المخزن من خلال أعيانه وهو ينظّم وليمة عظيمة حضرها الجميع وقبَّلوا رؤوس بعضهم البعض، وأقسموا وأيديهم على القرآن على أن لا يعودوا للشنآن وقرأوا الفاتحة، وتفرقوا تاركين لصديقنا هباء ثورة اشتعلت في خيالاته فقط. ولأنني أعرف أنّ المخزن لم يعد يتضايق في سريرته من المنذرين بالطوفان والكارثة والفوضى القادمة والارتطام بالحائط، بل يسخر من سذاجتهم ومن خلطهم المُحزِن بين ما يتمنونه، وبين واقع اشتغل عليه لعقود ليفرِّغه من الحالمين والغاضبين ومن القادرين على تجميع الناس، واقع يستطيع فيه طبل وغيطة أن يلهبا الجموع أكثر، بما لا يُقاس، من زعماء الوقت الذين أعدوا إعداداً لكي يفتِّتوا ما تبقى من ثقة في السياسة، وفي تغيير هذا البلد نحو الأفضل. وحتى إذا تحرك السيل يوماً، فإنه سيحطِّم كلّ ما يعترض طريقه، ويهدأ بعد ذلك. لأن لا هدف له غير التنفيس المؤقت عن قهر وأحزان متراكمة منذ سنوات. شردت في أفكاري هذه وحين انتبهت لنفسي كان توفيق يغطّ في نوم عميق. تحسّست علبة خصلة الشعر وورقة إيزابيل. ربما، ومثلما يحنّ السهم للقوس، والتراب للتراب، والفراشة للدودة التي كانتها، تحنّ خصلة الشعر للشعر الذي اقتُطِعت منه، ربما هي عاشقة تعيسة أكثر مني. وفي الوقت الذي تتعذّب للاجتثات الذي تعرَّضت له، وتعيش محنة العاشق الذي أضاع محبوبه يكون الشعر قد أنبتَ خصلة جديدة مكانها ونسي تماماً هذه التي ألقتها يدٌ إلى ما

وراء الحائط لتشعل حريقاً وتساؤلات لا تنتهي. حتى الآن لا أعرف ما هي الرسالة التي أرادت أن تقولها لي من خلال خصلة الشعر. كأنها أرسلت لي ورقة بيضاء يمكنني أن أملأ بياضها بما شئت، لكنني لا أفعل يكفيني أنها بعثت لي رسالة حتى لو كانت فارغة وبلا معنى. أرضى بهذه الإشارة، بهذه الحركة نحوي.

صعدت الحافلة ونزلت وحشرجت وتوقفت ونزل منها ركاب، وصعد آخرون واختلطت فيها روائح مقزِّزة وتعالَت خصومات وسباب، لكنني كنت منتشياً وفرِحاً كأنني حصلتُ على سكنٍ في سفينة نوح، وتركت طوفان الضياع ورائي. ومن تفاؤلي لم أقلب إمكانية رفضهم لخطبتي. لا أريد أن أفكِّر في ذلك. يمكن في النهاية أن أرضى بصدٍّ حين تعرف هي بأنني كنت صادقاً في تعلُّقي بها، وأنني بحثتُ عنها، وأتيتُ أتعثر في عماي حتى وادي آيت بوگماز.

وصلنا إلى أزيلال واضطررنا لنستقل سيارة أجرة أخذتنا إلى خارج المدينة. حيث الوُجهة المؤدّية للوادي. وقفنا بجانب الطريق ننتظر، وركبنا، على ما قال توفيق، إحدى تلك المُقاتلات التي تكدّسنا فيها مع الناس والماعز وصناديق الخضر وأكياس مملوءة بأشياء لا سبيل لتبيّنها. عربات لا هي بشاحنة، ولا هي بسيارة، ولا هي بجرار، ولا هي بجرّافة، هي كلّ ذلك ولا شيء من هذا. هي صنيعة الجبل يعرفها وتعرف مجاريه، وحفره، وأجرافه السحيقة، والتواءاته المدوّخة، وأحجاره المسنّنة، ومساربه السالكة. عربات فدائية بلا أوراق، ولا تأمين تناطح الجبل كلّ يوم وتؤمن للناس في غياب طرق لائقة الإمكانية المعذّبة والوحيدة ليقضوا حاجاتهم،

ويفكّوا العزلة عن أنفسهم. هنا وهناك، مشاريع لشقّ طرق وبناء مدارس ومستوصفات لكنها وأمام الخصاص القديم والفسيح مثل ريال ألقي في بركة عميقة.

بعد كيلومترات ومن شدّة الضيق، صرنا جسداً واحداً، دقات قلبي مختلطة بدقات قلبه، وأنفاسي بأنفاسه، وسيول عرق تجري بيننا. قال لي: «هذا هو الصعود إلى الجحيم»، فابتسمتُ وأنا أرى هذا العذاب المؤقت بعين (عين؟!) حكمة وسِعَة صدر لا أحد في المقاتلة يتقاسمها معي. وكما توقَّعت من يوم اتفقت معه على أن يرافقني لخطبة صفية، قرَّب فمه من أذني وهمس لي:

- ما رأيك في حضرته؟

روّع خاطري. ووسوس لي هاجسٌ ما بأنه أقدَمَ على مرافقتي من أجل أن ينجز ما فشل فيه صدقي معي. فأجبتُه بحسم:

- رجل عظيم وفاضل. ونحن محظوظون لأنّه شرّفنا بقبوله مجالستنا.

وبعد صمتٍ ممتعض قال بصوت مضطرب:

- نعم. لكن عدا عمانا، وآذاننا التي تصغي له بماذا يمكن أن ننفعه، وهو كان يجالس محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وطه حسين والمُشير عامر ونجيب محفوظ. أمير يجالس شحاذين. هناك لغزٌ ما وراء هذا؟

وكما راوغت صدقي وأحبطتُ كل محاولاته وأنا أواجهه باقتصاد محبط في الكلام عن حضرته، وبفقر في الخيال كأنني موظف بليد في وزارة خارجية غير مخوّل بالكلام. فقد لذتُ

بالصمت، فما قاله يَعنيه وحده ولا رأي لي فيه. ربما يدسّ في جيبه مسجلة وأنتظر حتى تنهكني الطريق وتتهاوى دفاعاتي تلقائياً ليخرج لساني. لكنه، ولدهشتي، غطَّ في النوم ولم ينتظر تعليقاً مني.

لم أشمّ روائح أعشاب الغابات التي نسير بمحاذاتها ولا الهواء النقيّ للجبل، ولم أسمع تلك الأصوات التي تنفّس بها كائناته عن شهواتها وخوفها وضيقها وكآبتها. كنت وسط الناس بصخبهم وإفرازاتهم، وذلك العمى الذي يجعلهم لا يلتفتون إلى فتنة الطبيعة ولا يصيخون السمع لنداءاتنا.

وصلنا إلى الوادي، ونزلنا وواصلت المقاتلة رحلتها الخرافية. تطهرنا شيئاً فشيئاً من خليط الروائح التي كانت عالقة بنا، وتمشيتُ قليلاً ليجري الدم في مفاصلي المتصلِّبة وسط صمتٍ وارف وبلا حراك. ما العمل؟ اقتعد توفيق حجرة وقال لي: «علينا أن ننتظر مرور أحدهم ليدلنا على الطريق أو يرافقنا. الناس طيبون جداً هنا». وعلى غير ما توقَّعت، وكانتقام من تلك البرودة التي عشتُ بها في الرحلة حتى أنني فكرت في أميركية بعيدة اشتهت العمى وفكَّرت في المخزن بعدوى أكيدة من العسكري، الذي يحلو له الحديث في مثل هذه المواضيع، استولى عليّ قلق آسر، وبدأت أتعرّق وينخسف ما بداخلي، ويظهر لي الوجه القبيح لمغامرتي. ماذا لو طردت شرّ طردة؟ ماذا لم جفلت وهي تراني: أعمى؟! ماذا لو دعا أهلها الناس للتفرج على هذه الحماقة الكبيرة التي جعلت أعميين غبيين يأتيان من بعيد لخطبة بنت ليست لهم أدنى فكرة عنها؟ كنت كفأرٍ عُلِّق في مصيدة نصبها لنفسه. وتحقّقت للمرة الألف بأنّ العالم تمثيلية سخيفة

والعميان هم أشدّ ضحاياها، لأنهم لا يرون خُبث العيون وتمطُّط الشفاه وتكشيرة التقاسيم، لا يرون الأيدي التي تقلز لهم وتعبث بالقرب من لحاهم. وها أنا أضيف سخافة عظيمة إلى هذه التمثيلية بما يشبه خطبة وما يشبه عريساً ابتكر لنفسه حكاية حبّ وها هو يسير بخطى حثيثة لختمها.

جاء أحدهم فوق بغل وكلَّمه توفيق طويلاً بالأمازيغية، ثم سحبني من يدي وسرنا وراء البغل. صعدنا مسرباً مغبراً. سألني وهو يلهث:

- والدها جندي شهيد؟

- لا أعرف.

لامسَ كتفي فيما يشبه حركة حانية ثم قال:

- السكورية زوجة جندي شهيد. بَلغْتَ مرادك يا عاشور الصغير.

غالبتُ قلقلي وابتسمت:

- أتمنى ذلك. وأنا أستبشع هذا الربط المقيت بين استشهاد والدها وتحقّق مرادي. ربُطّ أقدَمَ عليه السمسار الغافي بداخله والذي يتفحَّص الأشياء بحثاً عن مَكمَن ضعف فيها يسهل عليه حيازتها بأبخس الأثمان.

2

جرت حوادث اليوم المشهود كأنها مشدودة إلى قاطرة تسحبها باندفاع وسرعةٍ كبيرة. كنت في قلبِ ما يحدث، موضوع كلام طويل بين توفيق وأمها، ومادّة للتأمل تجري من حولها حركات وإشارات وضحكات مشتتة. وكنت مطرقاً من خجل ومن ضعف ومن ضياع ولا سبيل لي إلى كلمة ممّا يتبادلونه تستلّني من هذا الخواء الذي أتكوم عليه، كلمة فيها بريق نبع أو نصل نهاية. وسمعتُ نداء قوياً خارج الدار باسم صفية، فعظم انفعالي، ولم يعُد لي حين سمعت ماعزاً صاخباً يقترب من الدار إلّا أن أقاوم إحساساً بأنني على حافة الإغماء. قد أتحمَّل فحصهم لي وإحصائهم لحركاتي وسكناتي، وقد أقبل بأن أكون كالبضاعة الصمّاء التي يدور جدال طويل حولها بين البائع والمشتري في سوق كئيبة، لكنني لن أتحمَّل نظرة واحدة من صفية نحوي. لأنها ستخترقني وتعبثُ بكل هذه العظام واللحم المتراصين، ولأنها، وهذا ما يعذبني منذ أن أحببتها، يمكن أن تتمخَّض عن هول تلك الصيحة: أعمى؟! المؤلمة والعدوانية. لذا طيلة ساعة من انقطاع النفس والعرق البارد، وخزي العزلة في مكان غريب لم يكُن يعنيني من الخطب كله إلّا سؤالٌ كالنزيف: هل

رأتني؟! هاجمنا ونحن نقترب من الدار كلب بنباح شرس، فاحتميت بتوفيق واحتمَى بي وصاحب البغل يضحك من رعبنا. وعاد الكلب أدراجه بعد أن أدّى واجبه بأمانة شديدة في إثارة جلبة تفضح القادمين وتُخرج مَن في البيت لرؤيتهم. وصلنا إلى ما يشبه فناء مستوياً وخرجت امرأة كلّمت صاحب البغل ثم قفل راجعاً مثلما يفعل ساعي البريد سلم طردين بريديين. سمعتُ توفيق يطلب منها: ضيف الله. فأخذَت المرأة يده وسحبني وراءه وأدخلتنا إلى حجرة بها زربية ووسائد وبرودة وصمت ملائكيين. شممتُ رائحة كانت تُخفيها في أعماقي الأيام التي أقضيها عند خالتي في أولوو بجبل آيت سخمان، ولم أكُن في حاجة إلى البصر لأعرف أننا تحت سقف مرتكز على أعمدة موضوعة بشكلٍ أفقي رتّبت فوقها أغصان صغيرة، ودك فوقها تراب مخلوط بالجير لا يسمح للماء بالتسرب من خلاله، وأن الجدران مبنية بالأحجار وأن الموقد الذي تتركز من حوله كلّ الأنشطة اليومية للدار قداسة أكيدة، فهو واهب الدفء في الشتاء الطويل والقاسي وكؤوس الشاي الدافئة، وذلك الحساء المهيّج الذي يختم به نهار طويل وكئيب لا تملأه الحكايات ولا الذكريات ولا الغفوات المتقطعة. أرى السخام على الجدران، وتَطْلَع من أعماقي رائحة العفر والحثاث وذلك الاختمار الطويل للخشب المنخور بالتراب الذي لا يلدُ فقط زهوراً وحشائش في السطح، بل هواماً تملأ الشقوق وتتطارد وتنصبُ المصائد لبعضها البعض، وتتلافى بكلّ ما أوتيت من مكر عصف أيدي أهل الدار ونفاد صبرهم. وأرى الزريبة بسياجها المصنوع من أغصان الأشجار والأشواك، وخمّ الدجاج وفرن التراب المسمى إينور الذي يخرج خبزاً تتضوّع منه رائحة الأغصان المحترقة. هي دار من تلك الدور التي يلدها الجبل

بين القسوة والحنان، بين المجازفة واليقين، بين العراء والحضن المكين.

جاءت السكورية بكأس شاي، واشتبكت مع توفيق في حديث طويل، وبدا لي من صوتها أنها معذَّبة ومنهوكة. تصعَد من حين إلى حين زفرة حارة كأنها ما زالت في حِداد على زوجها، وحتى حين تضحك باحتشام، تلملم ضحكتها بسرعة كجدار يعتذر عن ثلمة تكسر رزانته. لم يكلف توفيق نفسه عناء ترجمة ما يدور بينهما، وأغاظني ذلك كثيراً حتى أنني وخزته في جنبه لأنبهه لذلك. لكنه ربت على يدي، وواصل الحديث كأنني غير موجود. وكان عليّ أن أبذل جهداً كبيراً للسيطرة على قلقي، وأن أنتحل له أعذاراً: ربما ليس هناك ما يستحقّ الترجمة، فهو ما زال في مرحلة تهيئة أرضية مفاتحتها بالموضوع. وربما رفضت وهو يحاول أن يُقنعها وقد قدر بأنه لا داعي لأنْ يصبّ الماء الحارق علي دفعة واحدة، وربما سيجمُل لي ما يدور بينهما وهو يتلذَّذ الآن بلهفتي وقلقي. فكيف سأقدِّر له ما بذله من جهد في سبيلي إنْ لم أتعذّب وأنا أنتظر ويتمرغ قلبي في رماد الشك وتسيب ركبتاي.

وخرجت السكورية لحاجة ما، فجذبته إليّ وأنا أقول له بصوت هامس:

- ماذا هناك؟

فرد:

- اصبر. لا يمكن للأم أن تتخذ القرار لوحدها.

- بمعنى؟

- لا بدّ من رأي البنت. ورأي خال لها. تفاءل يا صديقي عاشور. مبدئياً البنت من نصيبك.

- الحمد لله. الحمد لله.

- قلتُ لها بأنك موظف ووالدك أمين تجار بائعي الزرابي. وأنك لا تدخن ولا تسكر، ومدحتك بما فيك وما ليس فيك. وضحك تلك الضحكة اللاهية والمتطفِّلة على شغف لن يفهمه، ولن أجد الكلمات القادرة على تبليغه إياه. لا أملك إلّا أن أدور على نفسي وأدور، وهو يرتب مصيري ويبنيه كلمة كلمة مع أمها، لكن هل بوسعي أن أتكئ على ما بناه وأمدّ يدي لترى وجهها وهي تتلمسه في أدقّ تفاصيله، أم أنّ كل شيء سيتهاوى في لحظة معينة وأعود خاوي الروح واليدين؟! كنت مجمعاً على نفسي في انتظار تلك اللحظة المقدَّسة والعظيمة التي سيسمح لي فيها أنا الأعمى بأن أحرِّر كلّ هذا النور المحبوس بداخلي، والذي بنيت به قصراً لأحلامي، وجعلت من صفية الأميرة الغريبة التي تأتي في عربة ذهبية تجرها ستة خيول بيضاء، وحين تترجّل تبهر بجمالها وأناقتها كلّ من دعوتهم لحفلي الراقص. لقد أخذت منهم كل شيء: سحرهم، جمالهم، تعاليقهم، افتتانهم، حسدهم وغيرتهم، وحين حان موعد محدَّد لها انسلت من الحفل تاركة لي لغز خصلة شعر وعليّ أن أجد الشعر الذي انتزعت منه. حين دخلنا إلى الدار وشممت رائحة الرماد انثالت بداخلي حكاية مريميدة كما كنت أتتبعها في الرسوم المتحركة. وتحسَّست علبة الشعر كما كان الأَمير يتحسّس في يده فردة الحذاء الذي تركته وراءها.

•

غطّ توفيق في نوم عميق مرة أخرى فضاعف إحساسي بالعزلة.

طفقتُ ألاعب العكاز في يدي، وأنا أرى في هذا النوم غير المناسب خذلاناً لي وعدم اكتراث بالحرائق المشتعلة بداخلي كأنه أدّى ما عليه، بدون حماس، وبدون حرص، وبدون إيمان عميق، وهو الآن يستريح من جهد كان يفتقد فيه الحافز الداخلي. هممتُ بأن أوخزه في جنبه لكي أوقظه، لكنني تردّدت. في النهاية، علاقتي به سطحية جداً. ربطتني به حاجة ظرفية، وسينتهي كلّ شيء ما أن أعود إلى المدينة، ولا ينبغي أن أتجاسر عليه. فأن يأتي معك أعمى حتى هنا، يصحو مع الفجر ويركب حافلة متداعية ويكدّس في مقاتلة ويسير على رجليه مسافة طويلة، فهذا في حدّ ذاته نُبل وكرم كبير من جهته لا أعتقد أنّ من يغتابونه ويتداولون سيرته غير العطرة يذكرونه.

بعد أن تخثّر الوقت وبدأ يسيل فوق قلبي كحديد مصهور جاءت السكورية بطاجين. وقدمت لنا الماء، غسلنا أيدينا وألقيناها في لحم ديك تعيس أريق دمه ظلماً في قضية لا علاقة له بها. تحاملت على نفسي وأكلتُ بضع لقمات بلا شهية ولا إحساس. بعد الغذاء جاء صغير اسمه يوسف، وأخذنا إلى جانب الوادي. خلعتُ حذائي وجواربي وغطست رجلي في الماء البارد. فأحسستُ بالبرودة تسري في كلّ جسدي، وتخفّف شيئاً فشيئاً من شدّة ذلك اللهب الذي كان يضطرم بداخلي. ربما، هم في حاجة إلى ابتعادنا عن الدار ليتداولوا على راحتهم في طلبي. تلهيتُ كثيراً بالماء الغرّ الذي ما زال يرتع في طفولة الجبل، ويهدر بتفكّه قبل أن ينزل إلى السدود والبرك ومجاري الماء الحار ليتعفَّن بين أناس لا يعرفون عذاب الطبيعة في ولادة قطرة ماء واحدة. نبّهني توفيق إلى أنّ طريق العودة الطويل ما زال في انتظارنا. ولم أجد تعليقاً مناسباً، فبقيت صامتاً. هل أقول له بأنّ

الزمن لم يعُد بالنسبة لي سوى أداة تقرِّبني أو تُبعدني من بغيتي؟! أم أقول له بأنّ النوم في العراء أهون عليّ من العودة بلا جواب؟! أم أقول له بأن الطريق التي تعنيني فقط هي التي تقودُ إليها ولو انتظرتها العمر كله، ولو سرتُ فيها حبواً؟!

جاء الصبي مرة أخرى وكلَّم توفيق فقام وقمت. لكنه قال لي بأنهم يريدونه وحده فقد جاء خالها. عدتُ إلى الصخرة التي كنت أجلس عليها خائر القوى وقد تلقيتُ طعنة قاتلة في القلب مباشرة. لا شك لديّ بأنهم دعوه لتبليغه قرار الرفض وهم يريدونه وحده حتى يتفادوا الحرج الذي لا لزوم له. كم سيكون طريق العودة طويلاً! وكم ستعود حياتي تافهة مثلما كانت! لا أعرف هل لديّ القُدرة على طيّ الصفحة ولملمة أشتات نفسي والتحرُّر من ذكريات سلة القصب والجدار وخصلة الشعر. ولأن عالمي صغير، تذكرت شيئاً في جيبي: حتى لو رفضوك، تقول لي ورقة إيزابيل، فعليك أن تحلِّق كالطائر الجريح الذي يمضي إلى مكان منزوٍ وينزف ويتفجَّع على مهل. آه، كم ستكون طريق العودة طويلة. آهٍ، كم هو مؤلم جرح الغريب الذي عليه أن يضيف إلى خذلان المكان مرارات قلبه.

جاء توفيق، وعمد لإخراج درامي رديء ليُخبرني برفضهم. جلسَ بالقرب مني، وتظاهر بأنه يستعيد أنفاسه، وهو في الواقع يريد أن يحس باللهفة متدلية من كلّ جوارحي. لكنني خيَّبت ظنه وبقيتُ صامتاً متماسكاً أنتظر الطلقة برباطة جأش من توقّع الأسوأ. قال لي بهدوء عجيب:

- هل لديك نقود؟

- نعم. لماذا؟

- كم لديك؟

- خمسة آلاف درهم.

لم أشأ أن أضيف إليها الأوراق النقدية التي دسّها العسكري في جيبي والتي لا أعرف مبلغها.

- هات ما عندك. هنيئاً لك لقد قبلوا خطوبتك، ينبغي أن أعطي خالها ثلاثة آلاف درهم وأمها الباقي.

أعطيته المبلغ فعاد يقوده يوسف. لم أفرح، بقيَت عواطفي مشدودة تتأمَّل الخبر الذي جاء غريباً عن كلّ المقدمات السيئة التي كانت تمهِّد له. ومن بلبلتي لبستُ الجوارب والحذاء. كان ما يدور بداخلي أقوى من أن يسعه جسد ثابت فوق صخرة، وبدأتُ أسير على طول الوادي حتى أوقفني دغل كثيف فعدت أدراجي. قلت لنفسي: لا يمكن للأمر أن يتمّ بهذه السهولة. هذا القبول ملغز ومحيّر، هذه السعادة فظّة ولا تحتمل، وهذه النفس التي أحملها بين ضلوعي مرتابة ولا تؤمن إلّا بما تشدّه في يدها، نَفْسٌ تتعاقب فيها الفصول الأربعة، ويتخاصر فيها ندف الثلج مع شواظ الحر، ويولد فيها الضحك بكاء مريراً والبكاء قهقهة مجلجلة. رفعت وجهي للسماء التي رتَّبت كل شيء وساقَت إليّ صوت تاماوايت الحزين وأنا تحت سلة القصب، وها هي ترى ما أحدَثَه ذلك بداخلي وترى إلى أين أوصلني. ابتسمت للسماء ابتسامة امتنان، فها هي ومثلما ألقَت في طريق طه حسين بذلك القسّ، عمّ سوزان، والذي وبعد نزهة قصيرة معه قال لبنت أخيه: «بوسعك أن تنفِّذي ما عزمت عليه، لا تخافي..» فإنها تُسعفني بخالٍ لا يريد إلّا ثلاثة آلاف درهم فقط، لكن ماذا لو كان أمر النقود مختلقاً من طرف توفيق ليحصل بطريقة

ماكرة عن مقابل لتعبه معي؟ ماذا لو لم يقولوا له بأنْ يأتي وحده وهو مَن قرَّر ذلك وتركني بجنب الوادي لينسج مناورته البئيسة في ابتزازي؟! استغفرتُ الله، قلت لنفسي، لا يليق بي والرجل يكدح في سبيلي بأنْ أشكّك في نواياه، وأتهمه في ذمته المالية: والأمور بخواتيمها، والمبلغ في النهاية بسيط وليس في قيمة خصلة شعرها التي في جيبي. ولن أنزل أبداً إلى وضاعة التفكير في أنني اشتريتُ به ولو حفنة تبن من هذا الجبل المتستِّر على كبرياء رفيعة.

عاد توفيق. أكبّ عليَّ وضحك ضحكاً صقيلاً، وقال لي:

- لن تصدق ما سأقوله لك.

- الله يسمعنا خيراً.

- ستأخذ البنت معك غداً صباحاً.

روعت:

- لا لا جئنا لخطبة البنت. حتى إذا قبلوا هم هذا فلن أقبل أنا. هذا لا يليق بي ولا يليق بهم. هذا اختطاف.

ربَتَ على كتفي وهو يبتسم، ووضَعَ يده على فمي ليوقف استثارتي.

- لا تجري الأمور هنا على النحو الذي تتصوّره وليس فيها تعقيد وتصنّع المدن.

- ولو. لا لا لن أقبل، هي خطبة فقط.

فقال بحرارة وحماس:

- فكر جيداً. الأسرة في حداد، السكورية فقدت أمها منذ شهر. وهي لا تفكّر في عرس. وحتى إن أجّلت ذلك لسنة أخرى، فستتزوج بهذه الكيفية التي تجري بها الأمور اليوم.

وبعد صمتٍ قال وهو يرجّ جسدي:

- خذ البنت واختَر وقتاً، وعُد إلى هنا مع أمك ووالدك ومَن تشاء من أقاربك لترضي نفسك.

قلت بشبه استسلام:

- والعقد؟

فصاح بظَفر:

- هنا يتزوجون بالفاتحة فقط. وحين تلد لك قُم بإثبات الزوجية، الأمور بسيطة جداً.

لكن شيئاً بداخلي كان يقاوم بشدّة العرض:

- لا لا لا أقدر. لا أقدر.

وكأنه ضاق ذرعاً بمناقشتي وأراد إنهاء الكلام. قال بنبرة ممتعضة ومهدّدة:

- إنْ كنت تريد البنت سنبقى وسينظمون الليلة حفل عشاء للجيران يقرأ فيه قليل من القرآن ويُقضى الأمر. وإن لم تردْ، فالأحسن لنا أن نعتذر لهم ونخرج إلى الطريق ونعود.

كنت كالعالِق بين جَمَلين واحد عطشان والآخر جوعان، وكلاهما يجذبه إلى حيث الماء والكلأ. لا أريد أن أنساق وراء هذا الترتيب الغريب للأمور في جبل يأخذ فيه الناس من السيول اندفاعها، ومن الريح عصفها، ومن السماء بساطتها، ومن العاصفة حسمها السريع للأمور، ومن جهة أخرى، ها هو ما هفوت له يأتيني بأسرع وأفضل ممّا توقَّعت، ها هي صفية أقرب إليّ من خاطرة شعرية، لكن ماذا سأقول لأهل الدار حين أدخل عليهم بعروس في يدي؟ وكيف سينظرون إلى عروس تخلى عنها أهلها بهذه السرعة العجيبة كأنهم يطمسون معالم فضيحة أخلاقية؟

قمت، وبدأتُ أذهب أجيء أمامي من الحيرة أولاً، ولأشعره ثانياً بعذابي وعدم قدرتي على اتخاذ قرار. هل سأتزوّج في النهاية كما كان الناس يتزوّجون في موسم إملشيل؟ لم ينبس بكلمة واحدة. بقي كالسيف الصامت والمسلط على رقبتي. كان يلاعب ماء الوادي بيده، وينتظر اتخاذي لقرار، بل ينتظر مني أن أعارك قدري وأهزمه لأقوده حيث أريد، لكن وفي النهاية وكما كان يقول جدي دائماً: ماذا بوسع الميت أن يفعل أمام من يغسِّله؟!

3

وسط فوضى من البكاء والزغاريد والوصايا أخذتُ يد صفية، ونزلنا إلى حيث الطريق التي تعبُرها المقاتلات. حضرت حفل العشاء وأنا أذوب خجلاً. قرأ فقيه ما تيسّر. وشرب الحاضرون في نوبات متتالية شاياً يُميت نحلة من شدّة حلاوته. وتجادلوا وضحكوا بصخب حتى أنّ أصواتهم كانت تنحدر مع الوادي وتتلقفها آذان بعيدة. وكلما علا صياحهم نهرهم الفقيه بقراءة بعض الآيات. أسمعهم يستغفرون الله، ويخلدون مُكرهين للصمت في انتظار أن ينتهي. أحسستُ بأن للكلام هنا، وكما يحدُث في أسواق الجبل، لذّة إيروسية لا تضاهيها لذّة أخرى. فلأسبوع كامل يفرض التناثر المتباعد للدور وحاجات القطيع وشساعة الغابات ووعورة التضاريس صمتاً طويلاً على أرواح تشتاق أن تسمع وأن تحكي وأن تتبادل أخبار العالم، أرواح تقاوم برودة العزلة بحرارة تخرج مع كلمات مضمّخة بعرق وخبرة انتزاع بسمة من صخرة. لم يهتموا كثيراً بي. سلَّموا عليّ واعتصروا يدي في أيدٍ متيبسة كعظم. وخاضوا في ما يهمهم، حتى توفيق لم يعبؤوا به رغم أنه حاول أن يشاركهم في أحاديثهم. أعتقد أن عاهتنا لم تثِر فيهم ذلك الفضول الذي يلتهم

نهارات أهل المدن. فهم يعرفون، بالفطرة، بأنّ الإنسان لا شيء، قشّة تعبث بها قوى جبارة. ما قيمة النظر حين يفاجئك سيل غاضب وأنت في مجراه؟ ما قيمة ركب قوية أمام قمم تنتصب كجدار وتئنّ فيها البغال الصبورة من الإجهاد؟ ما قيمة قبضة وعضلات قوية أمام صخرة كبيرة؟ لم يكترثوا لعاهتنا لأنّ الجبل المُلهم علمهم بأنّ الإنسان ضعيف جداً، ولا يملك إلّا عجزه في مواجهة طبيعة تملك في يدها كلّ القوى والملكات وتناوب الرحمة والعذاب. ختم العشاء بالدعاء وودعوني بالأيدي المتيبسة نفسها، وسار كلّ واحد إلى عزلته الرفيعة. لقد حصلَ من الآخرين على الأخبار التي تهمّه، وروى لهم ما هو في حاجة إلى أن يقتسمه مع الآخرين، أمّا زواجي فلن يبقى في باله إلّا الوقت الذي يحتفظ فيه لسانه بطعم آخر كأس شاي شربها. قضيتُ الليل كله وأنا أتلوى في الفراش منتظراً الصبح.

كان توفيق يُحادث السكورية التي أبت إلّا أن ترافقنا حتى نركب. لم أتمكّن من كبح نوبة بكاء حين أخذت بيدي وترجَّتني، وتوفيق يُترجم لي أقوالها، بأن أعامل بنتها بطيبة، وأن أصبر عليها حتى تنضج، وعلى الأخصّ حين قالت لي بأنها يتيمة، وعليَّ أن أكون لها الزوج والصديق والأخ والقريب، فأنا كل شيء بالنسبة لها.

أنزل بترفّق من المسرب كطائرة ورقية يُلاعبها طفل يلهو. ها هي اليد الملائكية، الصغيرة، شبه الضامرة، الدافئة، المتعرقة بعض الشيء، الناعمة تهشّ ليدك وتحضنها وتقول لها: هذا أول الرحلة، هذا أول التوحد. «أعطني يدَك سوزان» قال طه حسين. لم أقُل

لصفية ذلك، هي مَن مدَّت يدها لي وأنزلتني بأناة مَن يُنزل آنية كريستال. أحاول أن أقول لها شيئاً، فتختنق الكلمة في حلقي. وأخمِّن بأنّ الماعز الذي تركته وراءها وأشجار الجوز العملاقة والغيوم البيضاء ينظرون إليّ بضغينة وأنا آخذ روح الجبل في يدي وأنزل بها.

أقول لنفسي في كلّ خطوة كيف لهذا الجسد النحيف، - يبدو ذلك من اليد الضامرة - أن يدخر في صدره كلّ ذلك الصوت الهائل والسخي؟! كيف له أن يتستَّر على كلّ ذلك الحنين والجراح ويخرج ملوناً بزفرة شيخ اقتات طويلاً على مرارات الحياة؟! كيف لهذا الصدر الغضّ الذي ما زال يعيش احتفال زهرة ترسل رفّة عشق أولى للشمس أن يكون مرتعاً لكل ذلك التفجُّع والغناء الحزين لشيء بعيد؟!.

حين وصلنا إلى الطريق قالت لي السكورية، عن طريق توفيق، وهي تشبك يدها في يدي:

- هذا عهد بيننا إنْ لم تتوافق مع البنت، فعليك أن تُعيدها إلى هنا. ولم أجِبْها إلّا برعشة سرَت في جسدي وببكاء صامت وانحنيتُ وقبَّلت رأسها. لم أنبس ببنت شفة، لم تكُن الكلمات تطاوعني. منذ أتيت وأنا أشارك في استعراض عرائس، يحرِّكني توفيق من هنا لهناك ويفاوض ويتحدَّث باسمي، ومن كل مفاجأة وانقلابات وصراع الأمس تقطّرت الوقائع والهواجس التي كانت تفترسني، وأنجبت لي هذه اليد التي قادتني إلى الطريق. كنت منهَكاً جداً وتُبقيني السعادة وحدها على مسافة من الإغماء.

جاءت مقاتلة. تركت صفية يدي وجرَت لمعانقة أمها والبكاء مرة أخرى، بكاء لوعة الفراق والانقذاف في مجهول. لا أحد يمكنه أن يخمِّن كيف يكون. عذَّبتني وقفة القاسي الذي يفصل بنتاً صغيرة عن أمها أكثر ممّا عذبني أي شيء آخر. وحين ركبنا، كنت حطاماً حقيقياً يتوسَّل إغفاءة قصيرة تُبعدني عن الهاوية. كانت المقاتلة أكثر رحمة، ولم نجد فيها أمة الجبل التي جئنا راكبين معاً. اندسَّت صفية بجانبي وشممتُ رائحة حناء. لا شك أنها طلت به البارحة يديها ورجليها، ولم تحرِّرهما إلّا في الصباح، وشممتُ رائحة الأعشاب البرية كأنني بجانب حقل مزهر. أعرف أنّ قلبها يرفّ كقلب طائر صغير تعجَّل وخرج من عشّه ليسقط في يد غريب، لكنني أعرف أيضاً أنّ الجبل يزرع في روح سكانه، ومنذ الصغر، ثبات وصلابة الصخر، ويَهبهم تلك القُدرة الهرقلية على مواجهة الحياة. لو لم تردْ لما جاءت معي، بكت بحرقة، نعم، لكنها تعرف بأنّ حياتها توجد في مكان آخر، وقامت بما يقوم به الناس جميعهم حين يدوسون عواطفهم ويمضون إلى حيث تقودهم أقدارهم.

في مدينة أزيلال، قررتُ أن نستقل تاكسي لوحدنا، أديتُ ثمن الأماكن الشاغرة، جلسَ توفيق في المقعد الأمامي بجانب السائق وجلستُ أنا وصفية في المقعد الخلفي. وضعت حقيبة يد صغيرة بيننا لكنني أزحتها وبدأت أبحث بيدي عن يدها، وحين وجدتها وأردت أن آخذها في يدي سحبَتها برفق، فاستعدتُها منها، وبقينا هكذا، تسلّ يدها من يدي وأشدّ عليها في لعبة ودودة مسلية. وتذكَّرت خصلة الشعر فأخرجتُها من جيبي ووضعتها في يدها. سمعتُ ضحكتها المكتومة وضحكتُ أنا أيضاً. بقيت العلبة لفترة من الزمن

بين يدينا، أضعُها في يدها وتُعيدها لي، كأننا نحيك بهذه الحركات اللاهية ذلك الجسر المرتجل الذي تحدّى جدار المتر ونصف وتحدّى البعاد والمسافة الطويلة، وها هو وقد هفت الضفتان لبعضهما، يوصل ما بينهما إلى الأبد. يا الله، كم أنا سعيد. ونحن على مبعدة من المدينة، بدأتُ أفكر فيما سأقوله لأهل الدار. وأوطّن نفسي على تقبُّل امتعاضهم ولومهم، لكن ورغم الخيبة التي سأسبّبها لهم، فإنني على يقين بأنهم وبعد أيام، وخصوصاً أمي، سيبتهجون لِما حصل لأنه صَنَع مني إنساناً آخر وجد يداً تُعينه على الظلام وتسهَر على أدقّ تفاصيل حياته. أموْضِع تفهّمهم لما أقدمت في هذه الخدمة الدائمة التي ستقدِّمها امرأة لكفيف، في هذا الانتفاع الذي أغنمه من عينين أمتلكهما ويدين في عوني وخدمتي، لكنني، وفي دواخلي لم أكن أنظر إلى الفتاة مثلما ينظر أعمى لعكاز حي وضع في خدمته، أنا في حاجة لها كأنثى، كملاذ، كفيضٍ من الرقة والحنان بجانبي، كرحمة تأخذني في راحتها وتتفهَّم أشجاني. أنا رجل يتمتع الآن بامتياز إغوائه لنجم ترجَّل من مجرّته، وها هو بجنبه يؤنسه ويرافقه، والباقي لا يهم. لاَ يهم إطلاقاً. لم أكلِّمها من حياء. لا شك أنها تتحدث بالدارجة التي تعلّمتها في بيت الممرض. ستعلمني الأمازيغية، وسنتكلم بها دوماً، وحين ستغني تاماوايت سأفهم كلماتها وأحفظها وأرددها معها. نقترب من بني ملال ووعود كثير تلوح لي وبشائر ترفٍ من حولي وفرح كبير يهدهدني ويمسح كلّ ما قاسيته في حياةٍ لم تكُن رحيمة بي.

وصلنا المحطة وارتأيتُ أن أترك صفية مع توفيق في حانوت ميمون الحلاق القريب. عليَّ أنْ أذهب بسرعة لأخبر العسكري بما

وقع، وليتكفَّل بتهيئه ظروف مواتية لاستقبالنا في الدار. وعليَّ أيضاً أن أشتري لحماً وفواكه، لا يليق أن أدخل عليهم بزوجة ويدين فارغتين.

أخذتُ تاكسي، وجدتُ العسكري، كما حدست، في مستودع الجماجم. حكيتُ له ما وقع باقتضاب شديد. بقي صامتاً. وقال لي بفتور: أمك قلقة جداً منذ البارحة. رَجَوْته بأن يساعدني. فربَتَ على كتفي. أخذت تاكسي إلى السوق، اشتريتُ لحماً وفاكهة وعدتُ إلى حانوت ميمون، لم أجد توفيق ولا صفية. سألت ميمون فقال لي بأنه سمعه يتحدّث مع امرأة كانت تتغزَّل في البنت الجميلة جداً التي معه. وبعدها ذهب. قلت في نفسي بأنني ربما تأخّرت فأخذها لدارنا. ركبت تاكسي وحين وصلت إلى الدار لم أجد شيئاً، ولم يفهم أهل الدار سبب قلقي واضطرابي الشديد. عدت مجدداً في تاكسي آخر عند ميمون. لعلّه ذهب معها لقضاء أمرٍ ما، وسأجدهما حتماً ينتظراني، لكنني وقلبي يترنَّح وركبتي سائبتين وأنا على حافة الإغماء، لم أجد إلّا الفراغ. تهاويتُ في كرسي بالحانوت، وفي صدري تجمَّعت صرخة، بل عويل وحشيّ. لم يفهم ميمون الحلاق ما بي، سألته هل يعرف دار توفيق؟ فأجابني: مَن؟ فانتبهت إلى أنّ ذلك الاسم لا يعرفه إلّا ندماء الباشا فصحّحت: حسن السمسار؟ فأجابني: نعم. طلبت منه أن يأخذني إليها، تذرَّع بعمله فدسستُ في يده ورقة نقدية لم أعرف مبلغها.

خبطتُ الباب بعنف وعاودت الخبط لمدّة طويلة حتى أنّ الباب بدأ يرتجّ تحت يدي. ثم فتحت نافذة وسمعت صوت حسن يقول:

- ماذا تريد؟

- أين صفية؟ أين زوجتي؟

- لا أعرف. إنْ بقيت تخبط الباب سأطلب لك الشرطة.

عظم هياجي، اعتقدتُ أنه يهزأ بي ويمازحني ذلك المزاح الأرعن، غير الموفق. تمتمت قائلاً:

- أرجوك يا حسن. كُفّ عن مزاحك هذا.

فقال لي بجفاء فظ:

- مَن قال لك أنا أمزح. رح لحالك. وأغلق النافذة.

مادت الأرض تحت رجلي، وبذلت جهداً خارقاً في الابتعاد عن الباب قليلاً، وسقطتُ فاقداً الوعي.

4

كأنّ اللحم والعظام أفرغا من جسدي وحُشي مكانهما زلط وإسمنت مسلَّح. أحاول أن أحرّك أطرافي وأعجز تماماً عن ذلك. لم يعُد جسدي مني. فحين آمر، مثلاً، يدي بأنّ تحكّ أرنبة أنفي لا تستجيب، فقد صار ذلك شيئاً مستحيلاً تماماً هي الآن مثل العكاز والعصا والكأس بلا روح، ولا تستجيبُ إلّا لتلك الأيدي التي تنقلني أو تديرني في الفراش. أستعيد وعياً أعمى للحظات فقط، ثم أغرق مجدداً في ذلك البئر الرصاصي العميق الذي لا تشرق فيه الشمس أبداً ولا شيء يتعاقب فيه غير كتل الظلام. أسمع همهمة وأصواتاً بعيدة، وتمتدّ أيدٍ إلى وجهي لكنني في مكان آخر فَقَدَ صلته بهذا العالم ولم يعُد يشدّه إليه إلا وعي هشّ لا يقوى على مُنازلة ما يحيط به إلّا لحظات ثم يخرّ صريعاً.

كأن كلّ ما كان يضطرم بداخلي جُمع على عجل، كما تُجمع ثياب غسيل أمام نذر عاصفة قادمة، وأُدخِل إلى قمقم ختم عليه. حين أستفيق لا أشكو من شيء، ولا أتذكّر شيئاً، رجل بلا ماضٍ يستلقي كما يستلقي غريق في شاطئ مهجور. أحاول أن أعثر على

شيء بداخلي، أرسل روحي إلى ما وراء الكثبان الثقيلة والمتراكمة فوقي، إلى ما وراء الحياد الكبير من حولي، إلى ما وراء جسدي الهامد والعاجز، لتستطلع ما هناك، فتؤوب فارغة، تتعجَّل العودة إلى غيبوبتها الرحيمة. كنتُ بلا ذاكرة، مثل ألواح الأطفال في الكتاب حين تُمحى بالصلصال لتستقبل كتابة جديدة، صفحة بيضاء ضيعت في خطب ما كلّ ما خطته فيها سنون طويلة. هل عليَّ أن أبدأ الحياة من جديد؟ هل انتهى كلّ ما عشته كأنه غمس في الأسيد وذاب؟

كأنني لم أفقد صلتي بالعالم فقط، بل فقدتها أيضاً مع اللغة. أسمع كلاماً فوق رأسي لكنني لا أفهمه. وتتفكّك الكلمات في ذهني وتصلُ أشلاء حروف أشبَه بثغثغة الأطفال. أعرفُ بأنها حبلُ نجاتي إنْ أردتُ الصعود من البئر، أعرفُ بأنَّ عليّ أن أتشبَّث بها لتقودني إلى الناس، وإلى نفسي بالأساس، لكنها كانت، هي أيضاً، نائية جداً مثل الشمس وطفولتي والأشجار وماء السواقي، ولا تتجمَّع في ذهني كأنّ شيئاً يدفعها بعيداً عني. فلا أملك إلّا أن أراها تتحلَّل وتغيض. لم يعُد لي مكان في اللغة، ولم يعد لها مكان بداخلي، أتمايل بين الحدين. ولا أقدر على إصدار أنين مثل حيوان جريح.

كأنّ الزمن هو أيضاً، وحين فقَد شمسه، لم يعُد قادراً على أن يهبني ذلك التقطيع الذي يمتزج بين الماضي بالحاضر ويشكّلان عبر الأحاسيس والعواطف والأفكار وأفعال الإرادة مجرى واحداً. كنت بلا وعي، وبالتالي بلا زمن، مثل بركان خامد يرقد تحت طبقات جيولوجية متراصّة. كيف للزمن أن يطالني وأنا في هوّة سحيقة

ومظلمة، بل في كهف تتعاقب الساعات والأيام من حولي وأنا في غفلة منها؟! لا تجري الدماء في عروقي، ولا يتحرك نَفَس في صدري، وتبقى شعيرات جسدي على حالها، وتنغلق مسامي فلا عرق سيعبُرها، لا شيء يدعو جسدي ليكافح من أجل بقائه، ولا شيء يفرض عليه بذل جهد لتحريك آلة الحياة بداخله. لم أفقد الزمن فقط، بل فقدتُ معه الحافز والغريزة.

كأنني لم أعُد أنا وأضعتُ نفسي في حادث ما. أستفيق ولا أجد شيئاً غير هذا الثِّقل الذي يعتصرني فأعود إلى العدم من جديد.

5

وكما تتجمع مزق الصورة في التلفاز حين يتوقّف أو يضعف الإرسال وتتراكب لتصنع في النهاية صورة واضحة، بدأَتْ وببطء جديد، تنبثق بداخلي صور، مفكَّكة، لا رابط بينها إلّا هذا الحيز الذي تتجمع فيه. وبدأتُ أفهم بعض الكلمات في جمل طويلة ومرهقة، وأتعذب لفكرة أنّ أشياء تُقال لي ولا أستوعبها بما يكفي. وامتدَّت يدي وتدلَّت في الفراغ، وبعد ساعات من تهويمها أدركتُ أنني في سرير، وأحسست بوخز وبتنمل في أطرافي، كما تحسّ مجاري الماء التي تيبس فيها العشب بخفقة الماء الذي انتظرته طويلاً. كنت مثل كلمات متقاطعة في حاجة إلى ترتيب صحيح. وأعرف بأنّ العالم لا يملك أيّ عون لي في هذا. عليَّ أن أحفر في داخلي، وأشدّ على الأساسي، وأبني شيئاً فشيئاً ما كنته وما أنا عليه الآن. وعادت الأحلام والكوابيس ولم أعُد أفرّق بين ما أعيشه في الواقع وما أعيشه فيها. أراني في أمكنة غريبة هارباً من شيء يتهدَّدني، أراني أبكي بكاء مريراً في طريق لا يعبُرها أحد، أراني والدم ينزف من رجلي ولا شيء يوقفه وأنا أجري نحو المستشفى وجدول دمي يتعقبني. أراني في الحمام وكسال أسود يدلّك جسدي

ويصبّ علي ماء يغلي فيتفطر جلدي ويتساقط شعري وأصيح بقوة وحين أستفيق أجد العسكري يشدّ على يدي، محاولاً أن يهدِّئني. هو أوّل مَن عرفت، هو أول مَن أحسست بأنفاسه بالقرب مني. وهو من أعادني إلى اللغة وإلى نفسي. أستفيق وأحسّ به وبزفراته المكلومة وأغيب من جديد.

6

بعد خمسة عشر يوماً من العدم المطلق، أفقتُ على واقع أنني أعاني من انهيار عصبي حاد، تطلَّب منحي وعَبْر السيروم أدوية منوِّمة لكي لا أفكِّر ولا أحس، ولكي لا يركبني ذلك الهياج الهستيري الذي لا يتحمَّله جسدي. تحسَّستُ ذلك الأنبوب البلاستيكي المغروس في معصمي والذي يهبني هدوء وحكمة قَبول ما وقعَ لي، ويحصِّنني من تلك العواصف التي تهدِر في أعصابي. ولا أعرف بأيّ قدرة تتمكن بعض الأدوية من التلاعب بالذاكرة والعواطف والوقائع نفسها، بحيث أنني، وتحتَ تأثيرها، صرتُ أستعيد ما جرى لي كأنه جرى لإنسان آخر يشبهني. هل الحب والخيانة والحقد مجرد عناصر كيميائية بداخلنا تتفاعل بينها بمقادير معينة لتصنع منا المُحب والخائن أو الحقود؟! ألم يبتكروا حبوباً للسيطرة على الخوف، وحين يشربها الرعديد يصير من أشدّ المُخاطرين بالنفس؟! أشمّ رائحة تلك المواد الطيبة التي لا تريد أن تمسّ أماكن الوجع في الجسد إلّا وهي غارقة في اليود المعقم، أشمّ رائحة الأدوية الحاملة لبرودة المختبرات والمفتقرة للمسة وخيال الطبيعة، وأدرك بأنني راقد في المستشفى.

بذلت مجهوداً خارقاً لأقول للعسكري: أريد أن أخرج من هنا. خرجَت الحروف من فمي متثاقلة، تتجرجر على لساني بصعوبة بالغة كأنها ولدت هي أيضاً في العماء التام، وعليها أن تتهجى طريقاً للعالم باحتشام شديد. أعرفُ هذا الكلام المتفسِّخ من خلال العسكري حين يشرب الكحول، فأول ما يفضح ذهناً منتشياً أو مثبتاً بالمهدئات هو الصوت المرتخي والمتردد.

أنزلوني من التاكسي أمام باب الدار. أخذَ العسكري يدي وأدخلني برفق حتى مدَّدني فوق سريري. آنذاك قال لي وكأنه يحرِّك هذا الصدع الذي كلَّفني كل هذه الأيام في المستشفى: عرضتُ عليك أن أرافقك. لم أجِبْه. لم يكن لما سأقوله معنى. فما وقع وقع، النصل أنجَزَ ما هو منذور ونحَرَني من الوريد إلى الوريد، وكم من «لَوْ» تنتظر تحت رماد ما جرى بجمرة متَّقدة أن أفتح الباب لأهبها ريح شوقها واستعارها.

مثلما عاد العسكري من حرب صحرائنا وجسده مخرَّب، عدتُ من المستشفى بروح مخرَّبة. كنت أعتقد أنّ أقسى ما وقع لي هو العمى، هو أن ينتهي النور في حياتي وأدخل نفق ظلمة طويلة لا ديك ومهما علا صياحه بإمكانه أن يبشِّر بأنها راحلة. غير أنني لم أكن أعرف بأنّ الحياة قادرة على أن تخرج لك في كلّ مرة ما ليس بوسعك أن تتخيله من عذاب وآلام. وها هي تشطرني إلى نصفين وتجبرني على أن أتذوّق طعم خِسَّة وخيانة لم أكن أعتقد أنّ في العالم مثيلاً لهما. ها هي تُذيقني من تلك الكأس التي أذاقت منها كثيرين وهم الآن يهيمون مجانين في الأزقة بأسمال مرقعة وأوجُهٍ

ذاهلة وأفواه تتزاحم بداخلها كلمات عدم الفهم والاحتجاج والغضب، لقد تركتهم الحياة، بخيانة ما، عبارة عن مقابر متجوِّلة تطوف بين الناس مستغربة كيف يعيشون بكلّ هذا الرياء الكبير، يحيون، ويبتسمون في وجوه بعضهم البعض، ويبدون علامات وإيماءات التعاطف والتضامن والحب، وهم يتسترون على حبّ ذات وحشي وقدرة على ارتكاب الفظاعات في حقّ بعضهم، من أجل شهوة صغيرة جداً. ماذا يمكنك أن تنتظر من جنس يأكل فيه الواحد أخاه إنْ لم يجد ما يأكله؟

أدين لقطرات يقطرها العسكري في الماء ولأقراص مُرَّة أبلعها على مضضٍ لأنني حين أفعل لا أعود إلى نفسي، أطفو شيئاً فشيئاً مبتعِداً عن آلامي. ويصير لما جرى لي تأثير حكاية مؤلمة أسمعها لأول مرة من فم جدتي. أضطرب للحظة ويخنقني الألم وتتصلب مفاصلي، لكن كلّ ذلك يمضي سريعاً ومع أول كلمات الحكاية التالية. صرت مشدوداً، بتأثير كريم للدواء، لما أحسّه وما أسمعه، وما يجري أمامي ويمنعني جدار سميك من النزول للماضي.

لم تكُن نقاهة من مرض، كان للدواء مفعول تأجيل الارتطام بما حدث وتخفيف حدّته. لم يكن يحلّ مشكلة ما بداخلي وإنما يؤجلها فقط. أحتاج إلى اختلاط الأمور في ذهني، ولهذا الشك الذي ينتابني في حدوث ما حدث فعلاً، ولهذا النَّأي الذي دفع ما جرى بعيداً عني، كأنه وقع منذ أعوام ماضية ليست لي حتى قدرة عدّها. ما أن أشرب الدواء حتى أبدأ الغرق التدريجي في مستنقع اللامبالاة، أصير شاهداً عاجزاً على الحياة، والكلام المتثاقل الذي يخرج من

فمي يصير بلا معنى، يهجم الدواء على قلبي وذهني ويخدِّرهما تخديراً موضعياً ويحضنها من آلام التفجُّع والذكرى.

تمكَّن العسكري من أن ينتزع مني بسمة مُرّة ذات مساء. ونحن نجلس بجانب باب الدار. فلأنه صار يعيش في الكتب أكثر ممّا يعيش في الواقع، فقد قال لي بأنَّ ما وقع لي مع حسن أوشن يشبه ما وقع للشبان في رواية **رجال في الشمس** لغسان كنفاني مع أبي الخيزران. أنت وهُم وضعتم ثقتكم في مَن لا يستحقها لماضيه ولعجزه عن القيادة، ولا يمكن لرحلة كهذه إلّا أن تقود إلى الموت والخيانة والخراب. لم أجِد ما أعلق به على ما قاله غير بسمتي تلك. فكَّرت في أن أقول له بأن تفسير الواقع بالأدب خاطئ ولا فائدة منه، وهو في كلّ الأحوال مضلِّل، فالواقع أقوى وأغنى من الأدب، وبإمكانه دوماً أن يخرج وقائع تُذهل الخيال نفسه. آثرتُ الصمت. إنّ إدمان قراءة الروايات لا يجعل منا أناساً أكثر معرفة وخبرة بالحياة، وإنما يخلق الدون كيشوت بداخلنا الحالم، والمنزوي والذي لا تُقرِّبه القراءة ممّا يحدث، بل تُبعده عنه.

بضربات خاطفة كان العسكري يُعيدني لما جرى ثم يغيِّر الموضوع بسرعة، كأنه ينفّذ خطة علاجية، أمر بها الطبيب، لمصالحتي تدريجياً مع ما جرى. يفتح القوس والسياق لا يستدعي فتحه ثم يُغلقه بسرعة ليستأنف الحديث في موضوع آخر، كأنه هو أيضاً يعاني من أعراض عدم الاتساق في الأفكار، أو أنه يجاري تلك الفوضى الدائرة بداخلي ويتفهمها. ولم يعُد يفارقني وأنا صاح، كان يسهر على إعطائي الدواء، وعلى مساعدتي في الأكل، وعلى

مساعدتي في الذهاب إلى المرحاض وإعادتي إلى السرير، وفي المساء يُخرج كرسيين ويُجلسني بجانب باب الدار. ويحرص على ألّا يرهقني بالحديث المتواصل. نجلس صامتين في معظم الأحيان كمتقاعدين منهَكين لم يعُد لكلامهما من معنى. ولا شكّ أنني حين أتناول دواء ما بعد العشاء وأدخل نفق ذلك النوم الرصاصي الثقيل كان يخرج ليسهر في مستودع الجماجم مع هاملت وهوراشيو.

قال لي ذات مساء بأنّ المحتال حسن أوشن لم يعُد له الوجه الذي يخرج به إلى الناس. وأنه حين يضطر للخروج يفعل ذلك باستعجال ويعود مهرولاً كأنّه مُطارد. وحكى لي كيف أنّ ميمون الحلاق الذي كان شاهداً على ما جرى بينكما قد نشر الحكاية في الناس، ويندُر أن تَجد طاولة في مقهى أو جلسة نسائية بعد الفراغ من أشغال البيت لا تجترّ ما وقع بينكما بتفاصيل تزيد وتنقص بحسب خيال الناس. وليغلق بسرعة هذا القوس الذي فتحه، سألني: هل تذكر ما وقع للمُعطي النجار؟ ورغم أنني حرَّكت رأسي بالإيجاب، فإنه استرسل يحكي لي عن الرجل الذي كان متزوجاً بامرأة باهرة الجمال. تقرَّب منه أناس بلحى طويلة وسبحات ودنانير في جباههم ورموا شباكهم عليه، فصار يُشارك معهم في حلقات الذِّكر والموعظة الحسنة، ويهاجر معهم إلى مدن أخرى للدعوة والتبليغ ويعود بقدر مالي محترم. كبرت لحيته هو أيضاً وحفر ديناره في جبهته وصار له، هو أيضاً، تعالي مَن يخاطب الله. وحين استوى وتذوَّق نعيم الدعوة وعسلها، طلب منه أن يُعد عشاء في بيته للأمير وبعض خاصته. فرح كثيراً وحَرص على أن يكون العشاء بقدر المغانم العظيمة التي ينتظرها منه. بعد الفراغ من الأكل همسَ أحدهم في أذن المعطي:

بما أنهم إخوة فعليه أن يأتي بأهل البيت ليسلِّموا على الأمير. فاستجاب بسرعة، وأدخل زوجته وابنته الصغيرة، سلَّمتا على الناس وخَرَجتا. وفي الصباح، أخبر بأنّ زوجته حُرمت عليه ولا يحلّ له أن يعاشرها بعد اليوم، فقد رآها الأمير وهي متبرِّجة وذلك عين الحرام. اضطرّ المعطي لتطليق زوجته ليرضي الأمير، وليحافظ على مكانته ضمن الجماعة. بعد ستة أشهر، سمعَ بأن الأمير تزوَّج مطلّقته، وفهم بأنه كان ضحية مؤامرة حيكت بتقوى كبير. جزَّ لحيته ووضعها في كيس وحين عرف بأن الجماعة مجتمعة دخل عليهم وألقى الكيس وسطهم قائلاً: ها هي البدلة الرياضية التي كنت أشترك معكم فيها يا فريق المكابيت، السلام عليكم.

وبعد صمتٍ تأمّلي أضاف العسكري: لا أعرف مَن قال: «مَن لم يعرف لذّة الخيانة، لا يعرف عن اللذة شيئاً»، أهو جون جونيه أم سيلين؟ علينا أن نكتب تاريخ الخيانة في هذا البلد، واللذات العظيمة التي منحتها للناس في تخريب أحزاب وتحطيم جماعات وأفراد والتنكّر لأفكار ومواقف وسَوْق رفاق وأصدقاء إلى معسكرات التعذيب أو إلى رصاص الإعدام، خيانات كبيرة وقعت، وما زالت تقع. نخون الآخرين، بل نخون حتى النفس والتاريخ الشخصي. ألم ترَ كيف تحوَّل بعض عتاة اليساريين إلى أعوان صغار ومنظِّرين للاستبداد وإلى كاراكيز، تعطاهم أدوار التهريج في الحياة السياسية؟! ما حدث لك يا أخي بسيط جداً، وستنسى بسرعة.

هل بإمكاني أن أنسى؟ وهل من حقي أن أنسى؟ وقد وضعت فتاة بريئة في يدِ كائن فاسدٍ ومتقلِّب وشرير. بإمكان الناس أن يقرأوا

في هرولته نحو الدار واختبائه بأنه يحسّ بعار ما فعله بي، لكنني وأنا الضحية لن ينطلي عليَّ ذلك، إنه يفعل ذلك لأن لديه في الدار ما يستحق أن يمكث فيها إلى الأبد، ولا يفكر نهائياً في الخروج. وأنا عاجز، وأنا مثقلٌ ومتخثر في هذا الهدوء الصخري الذي تصنعه الكيمياء، كنت ألملم صرخة بداخلي وأهمُّ بأن أطلقها مثلما يصرخ بهياجٍ بطلٌ إغريقي في وجه الآلهة الشريرة، لكن النَّفَسَ لا يتجمَّع في صدري وتضيع مني حتى الرغبة في الصراخ.

7

بعد قرابة الشهر، أدركتُ بأنني مَنحت المحتال وقتاً طويلاً ليتدبَّر تفاصيل خيانته ويُخفي معالم الجريمة بكيفية تامة. فكَّرت في الهجوم على داره وتحطيم الباب وأخذ صفية من يدها وإخراجها من هناك. أقول لنفسي بحنقٍ يتزايد يوماً بعد يوم: عليكَ أن لا تتخلى عن البنت، ما ذنبها هي؟ ألم تقُل لك السكورية بأنها ستطلب رأيها، هي وافقت إذن على أن تكون زوجتك، على أن تَهبَك يدها وتسير معك في هذه الحياة اللئيمة؟! عليك أن تكافح من أجلها، وألّا تهن وتستكين وتقبل هذه الإهانة. ألم تقرأ الفاتحة هناك مع جماعة من الرجال، وشهدوا على أنّك تزوجت البنت، وقالت لك السكورية بأنها أمانة في عنقك؟ هي زوجتك إذن أخذت غصباً منك، ولا شيء يبرر، لا صحتك، ولا الأمر الواقع، بأن تقبل هذا الوضع. فتدسّ ذيلك بين رجليك وتنسحب ذليلاً كأنّ الأمر لا يعنيك. يكفيك عاراً أنك قمتَ بردّ فعل أنثوي صريح وأنت تخرّ مغشياً عليك حين اكتشفت هول الخيانة. أنت الآن بأوراق جنون رسمية، وباستشفاء لأيامٍ بقسم الأمراض النفسية والعصبية، والمدينة كلها معك، لأنّ الناس يصنعون الضحايا ويلتذّون بالشفقة عليهم بعد ذلك. أنت

المجنون الضحية الذي بإمكانه أن يفعل أيّ شيء الآن، يفعل ما لا يخطر ببال أحد، وسيتفهم الناس كلّ ما تُقدم عليه.

تخيَّرت وقتاً من أوقات جلسة المساء وقلت للعسكري بأنّ عليّ بأن أفعل شيئاً للبنت. فردَّ عليّ بضحكة مُرة ثم قال بتهكُّم: البنت تعاشر الرجل المقيت برضاها أو مكرهة منذ شهر. ويمكنك أن تتخيل ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة. ما زال بؤساء الجبل يسلِّمون بناتهم للغرباء بالكلمة كأننا ما زلنا في القرون الوسطى. لم أنتظر هذا الجواب المُحبط منه، فقلتُ له بجفاء صوت يخنقه الغضب: بهذا المنطق لا ينبغي للمقاومة أن تطلب من المستعمر أرضاً زرع فيها مستوطنين وبنى فيها مدناً وطرقاً ومنشآت كبيرة. لا شكّ أنه بقِيَ يرقُبني مبهوراً بهذه المقارنة بين بنت وأرض مغتصبة. فقد قال فيما يشبه التمتمة: معك حق. معك حق. ثم خبطني في ركبتي، ومثلما كان يسخر من عاهته، قال لي ساخراً: ذهبتَ به ليخطب لك فتبادلتما الأدوار وخطبتَ له. قابلتُ سخريته الممجوجة هذه بصمت ممتعِض.

وليغيِّر الموضوع قال لي بأنّ الخبير ومساعده تلقّيا مكالمة تطلب منهما أن يعودا إلى الرباط: فابتسمت، وقلت له: وأخيراً تذكّروهما. فابتسم بدوره وقال لي: كان بالإمكان أن يقضيا هنا كل السنوات التي تفصلهما عن التقاعد ولن يزعجهما أحد. لولا أن صحفياً لم يجِد موضوعاً يكتب فيه، فتساءل في مقالٍ عن مآل اللجنة ونتائج عملها وأفسد عليهما رحمة هذا النسيان الإداري الذي أمَّن لهما مقاماً طيباً وتعويضاً مالياً مهماً عن الشهور التي قضياها رفقة الجماجم.

ما أن ذكر كلمة: «الجماجم»، حتى أشرقت في ذهني فكرة أنّ الجماجم خرجت من الأرض وانتقلت إلى المستودع الذي يوجد قبالة دارنا من أجلي أنا فقط. لتقول لي بأنّ ما يبقى هو العظام والتراب فقط، وأنّ خبث وخيانة بن آدم وألاعيبه عابرة كزخّة مطر في سمائم الصيف. قد يتجنَّد العالم ويصنع سلسلة من الأحداث وقد يستنجد بإعصار أو بركان او زلزال من أجل تبليغ فكرة صغيرة فقط قد تنقذ إنساناً ضائعاً حين يجدها في نهاية السلسلة كما يجد ضائعٌ في صحراء طائراً يقول له بأنّ هناك ماء قريباً. وبتلك الرغبة العارمة التي تدعو المجرم والضحية للعودة إلى مكان الجريمة، أخذت تاكسي إلى حيّ الرشاد، حيث يسكن المحتال، وهناك طلبتُ من طفل أن يأخذني إلى داره. لم أفعل شيئاً بقيت واقفاً أمام الدار مستنداً إلى العكاز، وعندما أحسستُ بالتعب جلستُ على الطوار. ستراني هي وستعرف بأنني لم أتخلّ عنها، وأنني هنا من أجلها. سرتُ إلى هناك ثلاث مرات، أجلس لساعات بهدوء شديد، هبة الدواء لي، أستعيدُ ما وقع لي منذ أن سمعت صوتها يغني لأول مرة وصولاً إلى وقوفي المريع أمام باب يفصلني عنها وانتصاب جدار آخر أكثر علواً بيننا. أدقِّق في التفاصيل، أقلبها تقليباً. وأتوقَّف عند ضحكتها وأنا أضعُ في راحة يدها علبة خصلة الشعر، لحظة السعادة الوحيدة التي تقاسمتُها معها. كيف تعيش محنة كونها تزوَّجت رجلاً وفي الطريق اختطفها آخر؟ أفكِّر في رفع شكاية لوكيل الملك والاستنجاد بأهلها هم يعرفون بأنها لي، والفاتحة التي قُرئت والقرآن الذي تلي والعهد الذي تبادلته، وأصابعنا متشابكة، مع السكورية، وكلّ الحجج الأخرى التي تُثبت الخيانة التي تعرَّضت لها. عليَّ أن أقاوم وأقاتله بآخر نفس، وآخر

عرق ينبض فيّ، لكن كيف يدير مَن كتب عليه العمى معركة شاقة وطويلة؟

دقّ أحدهم الباب وسلم ظرفاً قال بأنه يخصّني، فضّه العسكري ووجد بأنه يحوي خمسة آلاف درهم. احتجتُ إلى بعض الوقت لأفهم بأنه ردّ لي المبلغ الذي صرفته هناك. ولو أنه ماكر جداً بإجماع كلّ مَن عرفه، لكنه وبهذه الخطوة التي أراد أن يقطع من خلالها كلّ صلة بي، وأن يتفِّه ما جرى ويردّه إلى مبلغ مالي علق بيننا، وها هو يردّه لي ليبرئ ذمّته تجاهي، دلَّني ومن خلال شقٍّ صغير على ما يدور بداخله. سأخوض من هناك حرباً استنزافية طويلة ومُرهقة ضده. وقفة وقورة بلا صخب أمام داره دفعته لردّ مبلغ الخمسة آلاف درهم. أبْشِر إذن أيها المحتال، لن أدعك تهنأ يوماً واحداً بصفية.

العشاء الأخير

أعدَّ أهل الدار طاجيناً بأمر من العسكري. قال لي بأنّ علينا توديع هاملت وهوراشيو بكيفية جيدة، فقد آنسانا طيلة هذه الشهور، والجلسات معهما كانت مفيدة جداً. رغم أن «نون» الجماعة هنا ظالمة لأنهما آنساه هو، فقد وافقته فيما قال. نقل الأكل ثم أخذني إلى هناك.

كان الخبير ومساعده يرتِّبان حوائجهما في علب. وحين انتهيا من ذلك قال الخبير للعسكري بأنْ يعطي كلّ الأثاث والحاجيات التي كانا يستعملانها لامرأة محتاجة. من صوته المتهدِّج بدا لي بأنه حزين جداً، حزن مفارقة مكان قدَّم لهما طيلة هذه الفترة حياة وديعة وهادئة. تحلَّقنا حول الطاجين. وأخرج العسكري، ما أنا على يقين، بأنهما قنينات خمر، وسمعتُ رنين الكؤوس وهي توزع وصوت المضغ الرتيب لمن يُقبل على الأكل بلا شهية. قلت لأكسر هذا الصمت المأتمي:

- والجماجم؟

فكرَّر الخبير:

- والجماجم؟

فوضَّحت قصدي:

- أقصد ما هو مصيرها بعد ذهابكما؟

لا شكّ أنه هزّ كتفيه حين كان يقول بلا مبالاة تامة:

- لا أعرف. عليها أن تنتظر ربما تأتي لجنة أخرى لفحصها.

ضحك العسكري وقال:

- وربما تأتي شاحنة في منتصف الليل وتأخذها إلى وجهة غير معلومة وينتهي الأمر.

أدلى هوراشيو بدلوه أيضاً:

- وربما لن تأتي لا لجنة ولا شاحنة وتبقى معلَّقة تنتظر مثل قضايا كثيرة بهذا البلد. من يلتفت إلى أحياء في أماكن معزولة وبالأحرى إلى جماجم مزعجة؟

قال الخبير بنبرة ترشَح ألماً:

- كان عليها أن لا تخرج في هذه الظروف التي يهرب فيها الناس إلى العزِلة لكي لا يجنّوا.

فطن العسكري لهذا الغم الذي بدأ يحرق اللقم في أفواهنا. فقال بحيوية مفتعلة:

- سيسرّون في الإدارة المركزية بتقريركم عن الجماجم.

فخذله الخبير بردٍّ قاتل:

- لا لن يهتم أحد، ولن يقرأه أحد، أعينهم على الصفقات ودفاتر التحملات والسفريات للخارج. الباقي يغرق في خرائه الموظفون المساكين، أمثالنا نحن. وناصره هوراشيو:

- هم يعرفون بأنهم لا يمكنهم أن ينتظروا شيئاً من ميزان ومسطرة ولصاق، ويعرفون أن الجماجم يلزمها مختبر قادر على

فحص الحمض النووي، لكن على الإدارة أن تتحرك وتتظاهر بأنها تعمل، ومثلما نواجه أمراض جبل كامل بمستوصف فيه كرسي وطاولة وميزان حرارة وبيتادين وقطن، فها نحن نواجه التاريخ بهذه المهزلة.

وحتى لا نفهم التعبير الأخير لهوراشيو بشكل خاطئ، فنرى فيه نقداً ذاتياً لهما لأنهما يشاركان في هذه المهزلة ويتواطآن معها، فقد أوضح هاملت:

- تتذرع الإدارة بالعنصر البشري المؤهل، وحين يوجد تتذرع بالوسائل، وحين تتوفر تتذرع بغياب المحفزات، وحين تعطاها تتذرع بكونها منكبَّة على الأولويات والدراسات التقنية. هناك متاهة جبارة من البيروقراطية التي تتقن التظاهر بأنّ العجلة تتقدم، بينما لا شيء يتقدّم إلا الفساد والتحايل. للأسف، نحن جزء من ذلك ولا نستطيع أن نواجه سيلاً عاتياً.

وكأن هاملت تذكَّر محنة ما جرى لي. فقد قال وهو يتلمّسني باحثاً عن يدي وحين عثر عليها اعتصرها في يده وهو يقول بكآبة صادقة:

- قال المسيح في عشائه الأخير لحواريه: «إنّ ابن الإنسان لا بدّ أن يمضي لما كُتِب له، لكن الويل لذلك الرجل الذي على يده يسلم ابن الإنسان».

أحسستُ بأن أسارير العسكري انفرجت فقد قال ممازحاً:

- ها نحن نقتسم جسد المسيح الذي اتّخذ شكل الخبز ونقتسم دمه الذي صار خمراً.

ضحك الخبير أيضاً وقال بتفخيم مسرحي:

- قال المسيح: «أنتم تعرفون أين أنا ذاهب، وتعرفون الطريق».

فاعترضه العسكري بضحكة مجلجلة:

- لا نحن نعرف كيف نسكر فقط، لا غير.

عرفت بأنّ الخبير، وهو يستحضر العشاء الأخير للمسيح، أرادَ أن يقول لي بأنه لا جديد، والتاريخ يكرِّر نفسه، وأنّ خيانة حسن أوشن تشبه خيانة يهودا للمسيح الذي قال له: «أسرع فيما نويت أن تعمله». أنا أسلمتُ بغباءٍ غزالي للذئب وطلبتُ منه أن يحرسها حتى أعود. لو لم تكن الخيانة لما كان التاريخ، هي التي وهبته أجمل مآسيه وأكثرها قدرة على التأثير في البشر، هي التي، وفي شكل سمّ في طعام، وتسريب لأسرار ومعلومات لعدو، وفتح باب لمدينة منيعة، والتلاعب بثقة، والتخاذل حين يحمى وطيس معركة، جعلت التاريخ لا يتحرك بشرف المواجهة والوضوح، بل بنذالة الضرب من الخلف. أن تتعرض لخيانة يعني أن تؤدي ثمن الثقة في إنسان لا يستحق ذلك. وأن لا تكون قد فهمت المقولة القديمة: «من العزم سوء الظن بالناس». حتى الطبيعة تنبني على الخيانة، ولا تتطور فيها أشياء إلّا بالتنكُّر لبعضها البعض. ألا تخون الحبة النوى؟! ألا تخون الشجرة لحاءها؟! ألا تخون الفراشة الدودة التي كانت فيها؟! ألا تخون قطرة الماء الغمام الذي كان يحملها؟! ألا تخون النحلة الزهرة التي تتظاهر بالرقص فرحاً بها وعينها على الرحيق؟!.

غرقَ كلّ واحد منا في أفكاره وهواجسه، ثم صاح هاملت:

- أتذكر يا صديقي مسرحية: «كتاب الموتى» التي كنّا نشتغل عليها؟

تمتم هوراشيو:

- وفشلنا في ذلك، لم تكن قابلة للتحويل. ولو واصلنا العمل لكانت النتيجة محبطة.

- نعم. نعم. لأن النصوص المأخوذة عن بردية آني الفرعونية عبارة عن أناشيد، ولا تتضمَّن عناصر درامية. لا أقصد هذا.

- وماذا تقصد؟

- أقصد أنّ أرواحنا كانت تتهيأ لهذه الشهور وسط الجماجم. أتذكَّر (وقف) حين كنت أقف هكذا وأقول على لسان أوزيريس آني:

الجلال لك أيها الإله العظيم رب.. الماعين. لقد أتيتُ إليك يا ربي وأضحيت قريباً منك كيف يمكنني أن أنظر إلى محاسنك.. بالحق قد أتيت إليك.. لم أفعل شراً لإنسان، لم أقهر أحداً.. لم أسبِّب التعاسة لأحد.. ولم أدفع إنساننا إلى البكاء، لم أقتل ولا أمرت بالقتل لحسابي. لم أعذب بشراً. لم أسطو على عطايا المعابد ولم أغشّ قرابين الآلهة.. لم أزد ولم أنقص شبراً من الأرض، ولم أستولِ على حقول الآخرين. لم أغش الكيل وأطفف الميزان. لم أنتزع اللبن من فم الرضيع ولم أطرد قطيعاً من مراعيه، لم أنصب الفخاخ لطيور الآلهة ولم ألتقط الأسماك بطُعم من لحومها.. إني نقي.. إني نقيّ.. إني طاهر طهارة طائر.

قام هوراشيو هو الآخر وقال بصوت حاول أن يودع فيه جلجلة كورس:

- هلا يا مَن تزرعون القلوب.. هلا يا من تَسطون على القلوب وتسحقونها.. الجلال لكم يا أرباب الأبدية وأصحاب اللانهاية. لا تأخذوا قلب أوزيريس آني في قبضتكم.. لا تجعلوا الكلمات الشريرة تُقال ضده..

قاطعه أوزيريس:

- إن الأشياء الخامدة لملايين السنين قد أتت إلى الوجود.. لهذا صرت أقوى من القوي وبحقّ هذا امتلكت القدرة أكثر من القادرين، لهذا لن أهزم وأحمل رغماً عني إلى الشرق لأكون في احتفال الشياطين، ولن أتلقى هناك طعنات السكين الوحشية.. لن أوضع قسراً وأحمل إلى الشرق لأكون في احتفالات الشياطين.

صفق العسكري بحماس، أفسدَ علينا المشهد المسرحي. سكت أوزيريس آني وعاد للجلوس وتبعه الكورس، وصاح العسكري:

- كم هو جميل واستشرافي قول أوزيريس آني احتفال الشياطين في الشرق. ألا ترون أنّ الشياطين لم تعُد تحتفل في الشرق، بل تعربد؟!

ضحك الخبير وقال:

- لم يعُد هناك ما يُقال. كل شيء قيل سابقاً. لو وجدنا آنذاك هذه السينوغرافية العظيمة: مستودع مليء بجماجم عادت من مجاهل التاريخ لما أوقفنا المشروع.

أمن المساعد على كلامه، وقال وكأنه يصف مشهداً أمامه:

- جماجم وظلام وأصوات غريبة وبطل عارٍ بيدين مربوطتين إلى ظهره بحبل. سكت وقد أدرك الجريمة التي ارتكبها بذكره للحبل.

وتطوّع العسكري لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مغيِّراً دفة الحديث:

- مرَّت شهور وجودكما هنا كأنها يوم واحد.

تحامل هاملت على وجعه، وقال بصوت مختنق وهو على حافة أزمة أخرى:

- نعم. لم نحسّ بالوقت. والمدينة جميلة وهادئة.

صدّه العسكري برعونة ممجوجة:

- ولكنك لم تكن تخرج إلّا نادراً. كيف عرفت بأنها جميلة وهادئة؟

- لا أحتاج إلى الخروج لأحسّ بمدينة. المُدن تهبك روحها عن طريق الروائح والأصوات ومَن تخالطهم من ناسها، والأهم من كل هذا، تهبُكَ روحها عبر كيمياء غامضة يتعذّر شرحها وتحويلها إلى كلمات. الأمر أشبه بأنْ ترى امرأة ويقول فيك شيء ما بأنها امرأة حياتك.

وكأن رعونة العسكري قد أدَّت مفعولاً حميداً وأبعدت أوزيريس آني عن حافة الأزمة. فقد ضحك ضحكة صافية كأنه أطلّ على الحياة لأول مرة وقال:

- خامرتني فكرة الزواج من ملالية والاستقرار نهائياً هنا.

قررتُ أن أشارك في الحديث فقلت:

- ولماذا لم تفعل؟

فقال وبذلك الحزن المدمّر:

- لم أعُد أصلح للزواج، أنا الآن آلة للتفجُّع واجترار المرارات. كيف أدخل امرأة بريئة إلى مغارة جراح نازفة؟

وأضاف بعد لحظات صمت:

- ألا ترى عرس الذئب الذي أعيشه؟ أضحك وتطلّ دمعة من ضحكي.

لأنني لست بعيداً عنك..

خرجنا من العشاء الأخير حزينين. ها هي، وبهبَّة ريح واحدة، إمكانية من إمكانات حياتنا تطير من قبالة دارنا لن يفتح باب المستودع، ولن نحسّ بذلك القُرب الحميم من الجماجم، ولن نتذوَّق كؤوس الشاي مع الخبير ومساعده ونعيش تمزّقاته بين حبل وأداء مسرحي ومرارات حياة أفقدَته الكثير وهو يسير في الطريق.

ماذا كان بوسعهما أن يفعلاه للجماجم؟ وماذا بوسع أيّ لجنة ولو سلِّحت بآخر ما وصل إليه التقدّم العلمي في استنطاق الماضي أن تقدِّمه لها؟ لا شيء. يكفي أن تقرأ نتفاً قليلة من تاريخنا لتعرِف كم من رؤوس علِّقت في أبواب وأسوار المدن. فكما نرى نحن الآن الإعلانات التجارية في الشوارع بلا مبالاة تامة، كان جدودنا يرون، هم أيضاً، الرؤوس المعلقة بلا مبالاة خالصة، إذ لم تعُد الفظاعة والتخويف الحازم، والتشفي البدائي في الخصوم، ولفرط ما تكرَّر المشهد الذي يعمد له السلاطين والقواد المنتصرون أمام أعينهم، يثير اهتمامهم. على المسؤولين أن يُعيدوا الجماجم إلى ترابها، فلا شك أنها تحنّ له. نحن لم نصل بعد لترف التلهي بالتاريخ وبعث

خصوماته وجرائمه ومغيباته. إنها إزعاج خالص لحاضر مكتفٍ بذاته يُستعاد فيه الماضي حرفياً، لكن بأداء مسرحي متقَن ترفع فيه رايات الحداثة ويؤدي فيه الكورس نشيد مباركة لحيث نحن ذاهبون، دون الحديث عن من أين أتينا. رغم أنني لم أخالط الرجلين كما خالطهما العسكري فقد أحسستُ أنا أيضاً بشيء ضاعَ في داخلي. أجد نفسي دوماً مع المنكسرين الذين جرّبوا أن يحلموا وعاشوا المأساة الصغيرة وغير المنتهية لرؤية أحلامهم تتحوّل إلى كوابيس. هم الذين يعلِّمونني المفردات البسيطة لرعب الحياة، وأنها حين لا تهبُك السعادة تعوّضك بعمق فهمها على أكمل وجه. وأنا أعانقهما ونتبادل ذلك الكلام المعتاد في هذه الحالات: إن أتيتَ إلى الرباط. إن احتجت لشيء. نبقى على اتصال. كنت كمَن يودِّع فصيلة في طور الانقراض، ولم يتبقَّ منها إلا بعض العينات، هنا وهناك، أولئك الذين حاولوا بالكتب والمسرح والأندية السينمائية أن يغيروا هذا البلد نحو الأفضل وضاعت صيحاتهم في الوادي السحيق. وهما هناك في المستودع، كانا إمكانية مفتوحة أُداري بها ضيقي، أفحِمُ بها أرقي، وأملأ بها الفراغ المَهول من حولي. وأقول بأنهما على مرمى خطوات مني أفتح الباب وأسير بضع خطوات وأجد نفسي وسط التأملات والمسرح والآهات والملح.

عرض عليّ العسكري بأن نتمشى قليلاً. وضعتُ يدي في يديه، سِرْنا، وصمتُه يعبِّر بشكل أرحب عن حزنه الشديد على فراقهما، وعلى غير ما توقّعت قال لي:

- أتعرف بيت المتنبي:

مـمّـا أضـر بـأهـل الـعـشـق أنـهـم
هـووا ومـا عـرفـوا الـدنـيـا ومـا فـطـنـوا

- لا

فقال بعد صمت طويل:

- الحب هو أهمّ حكاية يعيشها الإنسان في حياته. كلّ الأشياء الأخرى النجاح، المال، الجاه، الحظوة وحتى الحرب أمور تافهة. أهم ما يقع لنا في حياتنا يحدُث حين نحب ونتعذّب.

لم أجِد ما أقوله وحتى إنْ كان لديّ ما أقوله، فسيُبقيه، حياء قائم بيننا، حبيسَ دواخلي:

- أتعرف لماذا الحب خطير في حياة الإنسان؟

تمتمتُ وأنا أفكِّر في مفعول دم المسيح الذي شربه:

- لا

- لأنّ من يُحب، يقوم بحركة ضدّ ما فطر عليه كون كلّ شيء فيه ينفصل ويبتعد ويتناثر. لا شيء يكتمل في الكون إلّا حين ينأى عن شيء آخر. بالحبّ يسعى المُحب للاتصال مع محبوبه يريد رتق ما انفتق. لذا تجيّش الحياة كلّ قواها، وتحاربه بالزمن والناس والتقاليد. الحب هو البطولة الوحيدة في حياتنا. الباقي تفاهات وصخب فارغ.

لا أعرف إنْ كانت هناك امرأة في حياة العسكري، فهو يتصرَّف دوماً بوضوح راهب أنهى الحاجة إلى المرأة بداخله، هذا هو الظاهر، مَن يدري ربما هو أيضاً يتلظى في عذاب قصّة حبّ ما. ألم يقُل ابن قتيبة في قضية المرأة فالكل «ضارب فيها بسهم إمّا حلال أو

حرام»؟! عدنا أدراجنا إلى الدار. التأم الصدع في صدر العسكري، ولم يقُل كلمة أخرى ونحن نتمشى، لكن حين اتخذنا مكانينا في السرير. قال بسخرية:

- إننا نعيش في مدينة جميلة ولا نحسّ بذلك. أسمعت الخبير؟

ابتسمتُ بدوري وقلت له:

- الانطباعات عن المدن كالانطباعات عن النساء تكون دوماً غير موفّقة.

قال كأنه لم يسمَع ما قلت:

- هو لا يعرف أنّ لوبيات العقار تطارد آخر أشجارها وطيورها، وأنها صارت تشكِّل الأغلبية والمعارضة في المجلس البلدي، وحين تتخاصَم ظاهرياً وتنشر البيانات ضدّ بعضها يكون سبب الخلاف الحقيقي هو تصميم تجزئة، أو عدد طبقات عمارة، أو عرض طريق. الكلّ فرح في النهاية لأنّ نصيبه سيصله كاملاً. قريباً سيستفيق الناس على أنَّ تلك المدينة الغارقة وسط غابات زيتون صارت ذكرى مريرة فقط.

أضفتُ بصوت خافت:

- أعتقد أنّ كلّ المدن تقريباً تعيش هذا الزواج المشؤوم بين العقار والسياسة.

تنهد وقال:

- إنّ أيدي التعمير في ربوع الوطن مضرَّجة بدماء الديمقراطية. هو أحد سفّاحيها الكبار. كيف تكون عندنا ديمقراطية في حواشي هائلة من بناء عشوائي يصنعه تواطؤ مقدّم وقائد؟ كيف نبني للمستقبل ونحن نضع مدناً كاملة لا يمكن لشاحنة إطفاء ولا سيارة إسعاف ولا مركبة شرطة أن تصلها، ولا نغرس فيها وردة واحدة، والرقّة الوحيدة

التي يمكنك أن تراها فيها هي وشمٌ في ذراع أو صدر، ودبوس ذهبي مغروس في أنف أو لسان، وسيوف تستريح في الظلال قبل أن تذهب لغزو الأماكن المحظوظة في المدينة. وحين تلد لنا شباناً يستعجلون الحصول على حوريات الجنة نندهش. لا يغتال التعمير عندنا الديمقراطية فقط، بل يخلق الإرهاب أيضاً ويحضنه ويُعطيه مبرراته.

ولأمازحه وأخفِّف بعض الشيء من حماسه قلت له:

- ألا ترى أننا ننتقد كثيراً ونسود واقعاً ليس بهذا السوء الأسود على أية حال؟

- نعم. إننا نرى ما لا يراه الموكب الفرح، ولأننا نطلّ قليلاً على الخلاء الذي يوجد وراء الواجهة.

وأكملتُ وباستفزاز واضح:

- ولأننا عاجزون.

ضحك تلك الضحكة الساخرة والنائية:

- الكل عاجز يعتاش من الريع. ألم ترَ زعماء يحوّلون، كأكياس البطاطا، بين هذا الموقف وذاك؟ ألم ترَ كيف صار مفكّرون يبرِّرون ما لا يبرَّر، ويجعلون للعبث السطحية والارتجال عمقاً ويتبارون في تأويله؟ هذا الوطن صَنَعَه العجز والخوف بالإضافة إلى الدين وسنوات الجفاف.

توقَّف وبنبرة مختلفة:

- اسمع حين سمعت وزير الداخلية، الوزير الأعظم، بعد نكبته وانتقاله إلى باريس يتلعثم في الحديث ولا يقول فكرة واحدة عميقة عن بلد حكَمه لعقود، وقارنت ذلك بالصورة التي بنيناها له في

أذهاننا، يومها أدركتُ أننا نصنع بعجزنا وطمعنا الهالات والسلط الكبيرة ونتلذَّذ بعد ذلك بالتشكّي منها.

واصلت لعبة مماحكته:

- ألا ترى بأننا، أنا وأنت، نُكثر من التعليقات، بل نفرط فيها؟

ردَّ، وضحكٌ يائس يخالط كلامه:

- نعم. لأننا مغاربة، ودون أن نعرف ونتعلم نصدر أحكاماً، ألسنا خبراء في السياسة، والاقتصاد، والعلاقات الدولية، والفن، وكرة القدم؟ ألا نعرف ما يُحاك في المكاتب المغلقة، وما تجيش به الصدور؟ نحن المغاربة، يا أخي، آلة رهيبة لإصدار الأحكام والتظاهر بمعرفة كلّ شيء. ونحن.

ثم توقف، كأنه تذكر شيئاً، وقال لي:

- هل شربت الدواء؟ هذا هو المهم الآن.

- ليس بعد.

- اشربه. اشربه. تصبح على خير.

اسيقظت بعد الظهر بذهن مبلَّد كسماء وبمفاصل متصلبة. أكلتُ بلا شهية، وبشكلٍ آليّ خرجت. أخذت تاكسي نقلني إلى حيّ الرشاد، قلتُ له أنزلني قرب المسجد. في المرات السابقة سمعتُ أذاناً قريباً، وعرفتُ أنّ دار المحتال بجنبه. جلستُ أمام الباب في الطوار المقابل. حتى لو لم يَرَني هو، هي ستراني وستعرف بأنني لم أقبل، ولم أستسلم. سترى بأنني معذّب ومريض وتُبقيني المهدئات وحدها متماسكاً، وإلا خلعتُ ثيابي وسرتُ عارياً في الحارات. أنا هنا بضعفي ويأسي وحاجتي لها. وسيعرف هو بأنني قرَّرتُ أن أرابط أمام داره حتى ينهار أحدنا. لن أهاجمه ولن أكلِّمه حتى، سأترك

لخيانته شرف الكلام. «**أظنّ أنني سأظلّ كما أنا بعد كلّ شيء من أجلك وبفضلك. أسألك الغفران بإخلاص عن كلّ ما سبّبته لك من أذى، لكن لا تتألمي لوحدك، فأنا ما زلتُ قادراً على التألم معك، لأنني لستُ بعيداً عنك**» قال طه لسوزان. أراها تبكي وتندب حظَّها. أراها تضع يدها فوق فمها لتوقف تماوياتها الحزين. أراها أسيرة، مغتصبة، تتعذّب هي أيضاً في دارٍ لا تجدُ فيها نفسها أراها حين تراني تبكي. لقد شاءَ قدرنا، ومنذ البداية، بأن ينصب بيننا جداراً بعلوّ متر ونصف، وها هو ينصب بيننا محتالاً وباباً وجداراً آخر أكثر علواً. لم أسمع منها كلمة واحدة، كنت أؤجل ذلك إلى خلوتي بها، ولد حبّنا وهو يجرّ معه حواجز كثيرة، ولد وهو ينكر ذاته، لأنه لم يعرف ما سيفعله بنفسه.

ليالي الباشا

4- العميان والفيل

لم أعُد أحسّ بأنني صالح لمُجالسة حضرته. ولم تعُد لي الرغبة في ذلك، أعرف أنني سأتعذّب هناك، وفي هذا السنّ الذي تكون فيه للإنسان مشاريع كبيرة، وأوهام أكبر أيضاً أحسّ بأنني شخْتُ، ووصلتُ إلى تخوم الحياة، ولم أعُد قادراً على طرد ذبابة من أرنبة أنفي. جاءت سيارة الدار الكبيرة لتأخذني، ولم تجدني لأنني كنت مرابطاً هناك. وفي مساء اليوم الموالي، جاء عندي صدقي الصغير، كنت على أهبّة الذهاب إلى ثغر الجهاد ضدّ الخيانة. تأسّف لما وقع لي وأكّد لي بأنّ الإخوة كلهم قرَّروا مقاطعة الحقير، وأنّ الحاج فرح أنهى ارتباط الدار به، وأخبَرَه بأنْ لا تطأ رجله عتبة البوابة الكبيرة مَرّة أخرى. رغم ما قاله كنت أحسّ بأنّ شيئاً هائلاً انكسر بيني وبين العالم، ولم أعُد الشخص نفسه، وأحسّ بالرماد من حولي كأنني الناجي الوحيد من حريق أتى على كلّ شيء. بلبَلَت برودتي صدقي، فاعتقَد بأنني أتعامل معه هكذا لأنه هو مَن أشار عليّ بالاستعانة بالمُحتال. قال لي:

- معذرة. اقترحته لأنه يعرف المكان، وقلتُ بإمكانه أن يساعدك، لكن الأمور اتَّخذت منحى لا يمكن تخيّله.

- لا عليك. أنا لا أحمِّلك مسؤولية ما وقع.

ولأغيِّر دفّة الحديث سألته:

- جالستم حضرته؟

- نعم.

- كيف كانت الجلسة؟

- عادية، سمعنا الموسيقى وتحدّث عن حبه لمصر.

لم أضِفْ كلمة أخرى. أجابني بالأجوبة الباردة المقتضبة نفسها التي كنت أراوغه بها كأننا تبادلنا الدَّورين. أخبرني وهو يهمّ بتوديعي بأنّ سيارة الدار ستأتي في تمام العاشرة. لم أجد في نفسي عناد مقاومة الدعوة، فلبست البدلة لأول مرة منذ وقوع النكبة. امتدت يدي بجزع مَن يقيس نبض عزيز يحتضر إلى الجيب الداخلي وصدرت عني «أوف» منفسة حين عثرت على خصلة الشعر والمحفظة الجلدية التي بها ورقة إيزابيل.

دخل حضرته كالعادة بخطى نمر. كان الحاج فرح يحدِّثنا عن كارثة كوننا شعب لا يقرأ ثم سكت فجأة، وسمعناه يفتح الباب وبعد لحظات قال لنا حضرته:

- تفضلوا. تفضلوا. ليلتكم سعيدة.

وطلب من الحاج أن يُسمعه «**من غير ليه**» لمحمد عبد الوهاب، لا أعرف لماذا أحسستُ بأنّ حضرته اختار الأغنية من أجلي أنا فقط. هي رسالة منه إليَّ، فكلمات الأغنية تجاوزت السطح اللاهي

للحياة، ونزلت إلى القعر المُظلم الذي يحوي السرّ الأعظم للوجود: لماذا نحن هنا؟ ومن أين أتينا وإلى أين نسير؟ وأليست حياتنا سوى:

مشاوير. مشاوير. مرسومة لخطاوينا
نمشيها في غربة ليالينا.

وأنّ ما نقوم به في هذه الحياة ليس سوى برق خاطف سرعان ما يستعيده الظلام الثخين. لا حسابات تنجح مع الحياة، ولا رهانات أيضاً. نقرّر وبكثب ما سيقع بعيداً عنّا ونأخذ من نواصينا لنعيشه كما هو، كما كتب حرفياً بمداد القساوة والدموع:

حتى في عزّ عذابي بحبك.

ومن أين يمكن أن نشحذَ معنى حياتنا وضياعنا بين أسئلة لا أجوبة لها، وسط كلّ هذا الليل والضياع والسير بلا هدى في صحراء لا حدود لها؟! لا نملك إلّا أن نحبّ، لأنه الأداة الوحيدة التي بإمكاننا أن نصنع منها شيئاً يبقى ويقاوم. بالحبّ نهبُ روحاً لحياة يفتك بها الضجر ونهبُ معنى لخرق وجود ممزَّق ومتناثر:

وأنا من غيرك.. كل حياتي تضيع.. تضيع معانيها.

غير أنّ الحب هشّ ومهدَّد، ولا يمكنه أن يهِبَنا إلّا أماناً يحوم حوله الخوف. الحب عاجز عن حماية نفسه لهذا حين نحبّ نتعذّب:

خايف طيور الحب تهجر عشه.
وترحل بعيد
خايف على بحر الدفى
ليلة الشتا
يصبح جليد.

كأنّ حضرته أراد أن يقول لي بأنّ الحياة هي ما عشته وأعيشه فهي: «سكة عذاب فيها أحباب»، لكنني وأقولها بمرارة لا تكاد تفصح عن نفسها: لو أراد الباشا أن يُنهي معاناتي بكلمة واحدة لَفَعَل. كلمة واحدة ويردّ لي المحتال صفية وهو صاغر، وكلّ هذه التأملات حول الوجود التي يقولها لي على لسان محمد عبد الوهاب كاذبة. بيده أن يُنهي عذابي إنْ أراد. لكنه لم يفعل لأنني وفي تراتبية علاقته معنا أوجد تحت المحتال. سيغضب عليه لأسابيع أو لشهور، ثم سيجد له مخرجاً ليعفو عنه، ويُعيده إلى الدار كأنّ شيئاً لم يكُن. يكاد المحتال يكون ابن الدار، أمّا أنا فلا شيء. اقتضى سياق ما أن أكون هنا، وحين سينتهي لن يدعوني أحد ولن يلتفت لي أحد. آنذاك سأعيش ما عاشه كُثُر اعتقدوا أنه لا غنى عنهم وحين انتهى أمرهم صار عسس البوابة الكبيرة الذين كانوا يحيّونهم بإجلال كبير يقولون لهم: «مَن أنتم»؟

انتبهت لحضرته وهو يقول:

- قلت مرة لمحمد عبد الوهاب حين تقف أمام المرآة وترى نفسك هل ترى شهرتك ونجوميتك وإنجازاتك وصوتك الدافئ؟ أجابني: لا لا لا أرى أيّ شيء. هذا يخصّ الآخرين، هم الذين يرون فيّ هذه الأشياء، أمّا أنا فأرى أثر النوم علي، وهل ذقني في حاجة إلى حلاقة. أرى في الإنسان البسيط الذي عليه أن يواجه يومَه ويرتِّب أشغاله ومواعيده. وبعد صمت أضاف: بداخلي نار تلتهم بشراسة كلّ ما أنجزته وتُنهيه ولا تترك لديّ إلّا طاقة التفكير في ما سأنجزه لأعطيها ما تأكل.

ثم قال حضرته للحاج بأن يُسمعنا أغنية «الحراز» من إنشاد

الحسين التولالي. وعرفتُ بما لا يَدَع الشك، بأنَّ الليلة أعدَّت خصيصاً لي. فحضرته يعرف بأنني صرتُ أرابط أمام دار المحتال كما كان يرابط المحبّ في الأغنية، وهو يحاول أن يبتكر الحيلة بعد الحيلة للتلاعب بالحراز الذي يحرس المحبوبة، لكن كلّ ألاعيبه مكشوفة. لم أعرف هل عليّ أن أفرح أو أحزن لهذا الاهتمام، ولهذا الحرص على تمرير إشارات لي في دار يكون لكلّ شيء يحدُث فيها معنى. وحتى إذا لم يكن فسيتكلَّف مَن يتحلقون حولها كالذباب بإيجاده حتى في التفاهات. حضرته يعرف كلّ ما وقع لي، ويعرف الانهيار العصبي الذي أصبتُ به، أو ربما هو يعرف حتى أسماء الدواء الذي آخذه، ويعرف بأنني أتماسك بصعوبة، وأنني أكابر لكي لا أستسلم، وأنني اخترت أن أقاوم المحتال بسلاح لم يخطر له على بال إطلاقاً. لعلّه انتظر مني أشياء كثيرة، وخمَّن بأنني سأقدِمُ على حماقة ما، لكنني خيّبت توقعاته وأتيته من حيث لا يحتسب. على جريمته أن تبقى قريبة منه فهي لن تُدفن ولن تدارى، ولن تحجب، إنها هناك على مبعدة أمتار منه قابعة تنتظر أن يتحرّك شيء ما بداخله. حتى الصخر يئنّ ويتوجَّع، وقطرة الماء المهيضة تُحدث فيه خدشاً لا نراه إلّا بعد ملايين السنين حين ينشق ويتهاوى. سأحفر بداخله بأناة وصبر حتى أعثر على ذلك الشيء الذي يجعل الجبابرة وعتاة المجرمين يبكون ويندمون.

سمعنا طَرقاً متلاحقاً على الباب ودخل أحدهم وقال بفزعٍ شديد:

- سيدي الحاج، حضرة الباشا يدعوكم حالاً

شلّتنا المفاجأة وأحسستُ بشعر رأسي يقف. أمسكني صدقي من يدي. كانت يده ترتجف. سمعنا حركة واصطفاقاً للباب أعقبه

هدوء رتعت فيه أنفاسنا المتلاحقة. لدقائق بقينا نتفرّس في هَوْل ما سمعنا. هل هناك شخص آخر يدعى الباشا؟ مَن كان يحدثنا؟ وهل الكلام موجّه للحاج أم لحضرته؟ سمعت صدقي بمكر ظاهر وشجاعة بيِّنة يقول:

- حضرتك، أريد أن أسألك؟

لم يُجبه أحد فكرَّر ما قال، ثم قام متعثّراً، وبحث في الجهة التي كان يأتينا منها الصوت ولم يجِد شيئاً، تلمَّس ميكرفوناً فوق طاولة ووراءه كرسي، وقال لنا بصوت مختنق وحانق فيه أيضاً حدّة من عثر أخيراً على جواب لكلّ تساؤلاته:

- لا شيء أيها الأصدقاء حضرته كان يكلمنا من مكان آخر، صلته معنا هي ميكرفون فقط، يبدو أننا كنّا ضحية خدعة كبيرة.

كنت عاجزاً عن التفكير، يكفيني ما بي، ولو كان الدواء بجانبي لأفرَغته كله في جوفي. سمعتُ قراءة القرآن وسمعت حركات عصبية لأرجلٍ تخبط الأرض. وأحسستُ بأننا على وشكِ رؤية القيامة. فها هي إحدى علامتها الكبرى تقع أمام أعيننا. فتح الباب ودخل أحدهم وقال لنا بأن حضرة الباشا يعتذر لنا لقد دعاه طارئ ما لإنهاء الجلسة وعلينا أن نخرج الآن. سارعنا للخروج كأنه أعطانا طوق نجاة. لم نركب السيارة أنا وصدقي. سرنا على أرجلنا، وما أن ابتعدنا عن البوابة الكبيرة حتى اعتصر يدي وقال لي بلهفة شديدة:

- كنت أحسّ بأن هناك أمراً غريباً.

لم يعُد لتحفّظي في الحديث معه من مبرر. فقلت له:

- أنا أيضاً كنت أحسّ بذلك.

- لم نكن نُجالس الباشا كنا نجالس صوته فقط. هو في بيت

نومه مع حريمه أو ربما هو في القاهرة ويخاطبنا كأنه معنا. يا لها من مسرحية مضحكة.

واعتصر يدي كأنه يحتمي بها من رَوْع ما اكتشفه:

- ونجلس كأننا تلاميذ في قسمٍ بأرواح مشدودة لأدنى نأمة تصدر عنا. صوت، يا أخي، مجرد صوت كان يُبقينا كأصنام مشدوهة.

ولأنّ ما بي كان أكبر من هذه اللعبة التي لا مجد فيها، لأنها انطلَت على عميان لا حول لهم ولا قوة، فقد حاولت أن أخفف من روعه:

- ماذا غنموا من ذلك؟ أرى أنّ تضليل عميان حصاد بئيس في النهاية.

- نعم. نعم، لكن لا بد من أن يكون لذلك هدف ما.

- لا ترهق نفسك بالتساؤل. الأمر أشبه بأولئك الرؤساء الراقدين في غيبوبة، ومع ذلك يرسلون التهنئات، ويعطون التعليمات، ويتابعون بحرص ما يجري وهم يتبوّلون ويتبرّزون في ثيابهم، هناك آلة ما تحتاج إلى حضور صورة وتتكفل هي بالباقي.

- لم أفهم.

- أنا لا أفسّر لك ما وقع. هناك دوماً الظاهر في الأمور وهناك الباطن. لقد اختار حضرته أن يخاطب أناساً عميانَ، وأوهمهم بأنه موجود ووجد لذّة في ذلك. للنجاح في التحايل على الآخرين نشوة خاصة، لكن المسرحيات، ومهما كانت مُتقَنَة لا بدّ من وجود ثلمة ما تفضحها.

استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً وخفَّت قبضته على يدي وقال:

- تذكّرت ما قرأته عند أفلاطون، ما وقع لنا أشبَه بما وقع

لأهل كهفه الذين كانوا مقيّدين بأغلال، أرجلهم وأعناقهم، وهم في مواجهة جدار وخلفهم نار متأجِّجة، فلا يرون من أنفسهم ومن جيرانهم غير الظلال التي تُلقيها النار على الجدار المواجِه لهم. وإن أطلق سراح أحدهم وعانى آلاماً حادة وضايقه الوهج، فسينبهر إلى الحدّ الذي يعجز فيه عن رؤية الأشياء، فما كان يراه من قبل وهمٌ باطل. ولو عاد الرجل إلى أصحابه، وأخبرهم بما رأى فسيسخرون منه وأنه لم يصعد لفوق إلا ليفسد عليهم أبصارهم وحياتهم.

قلت وقد أعجبني استحضاره لهذه النظرية:

- أحسنت يا صديقي، محكوم علينا أن نعيش تحت أغلال العمى، ولا نرى من العالم إلّا أباطيله وأوهامه وظلاله. وحين نكتشف الحقيقة، نروع ونهرع للعودة للأمان الخادع الذي كنا نعيش فيه سابقاً

- أحسستُ بالتعب وبالحاجة إلى الدواء. استأذنتُ صدقي في العودة إلى البيت فقال لي:

- لا تتركني. يمكن أن أجنّ هذه الليلة.

التمعَت في ذهني فكرة ماكرة. شددته من يده، وكلّما أحسستُ بسيارة قادمة أشرت لها، لعلها تكون تاكسي، وقفت واحدة فطلبت منها أن تنقلنا إلى حيّ الرشاد. أجلسته إلى جانبي في الطوار وقضينا الليل كله نستعيد ما جرى، ونعيد حرثه وفي كلّ مرة نبذر فيه أسئلة جديدة. سمعتُ نافذة تُفتح وتُغلق، وعرفت بأنّ المحتال أخبر بأننا نجلس قبالة داره. وها هو يتعفّن في عذاب الإحساس بأن خيانته تجلس قبالته، وأذان الفجر يرتفع في المسجد القريب. انسحبنا من المكان يشدّ أحدنا بيَد الآخر، ونفرد ريشنا لبرودة الصباح.

حكيتُ للعسكري ما وقَع فضحك، وقال بأنه ومنذ البداية لم يكُن متحمِّساً لذلك التهريج الذي فرضوه عليّ. فطقوسهم بالية وترقيعهم لحقب تاريخية في مشهد واحد مضحك جداً. فلا يمكن للباشا الصغير، ومهما حاول، أن يكون في الآن نفسه الباشا بوزكري والباشا عبد السلام. ثم قال لي بأنّ ما وقع لنا يُشبه حكاية العميان مع الفيل. فمَن أمسك الرجل اعتقد أنها سارية، ومَن وضع يده على الأذن ظنّ أنها مروحة، ومَن لامس الناب حسب أنه رمح، ومَن اتكأ على بطنه اعتقد أنه جدار، ومَن تلاعب بذيله قال بأنه حبل. كلّ مَن أمسك بشيء منه اعتقد أنّ الفيل هو ذلك الجزء منه، بينما الفيل هو تركيب كامل لكلّ ما لامسوه. ولو امتلكوا حكمة تجميع آرائهم لبنوا له في أذهانهم صورة دقيقة.

في أعماق نفسي يقبع تفسيرٌ لما وقع. لم أقُله لا لصدقي ولا للعسكري ولا حتى لنفسي. تفسير واضح ومقنِعٌ تجمَّع لدي من تجميع بعض الإشارات. ولا أعرف كيف أنّ صدقي، وقد جالس حضرته أكثر مني، لم يهتدِ له؟ لكن، علي أن أغلق فمي، فمعركتي في جبهة أخرى، ولا يهمني أن أكون قد جالست ميكرفوناً أو كرسياً فارغاً أو أسطوانة أغانٍ أو فيلاً

شيء من الجنون

انتبهتُ إلى أنني، ومنذ ما يزيد عن شهر، لم أذهب إلى العمل فحرصتُ على أن أصحو باكراً. رغم الصعوبة التي أجدُها في استجماع قواي. كنتُ هناك حوالى الساعة العاشرة صباحاً. جلستُ وكأنني أقتعد شوكاً. أعرف بأنني هذا الصباح أقوم، في البلدية، بالدور الذي يؤدّيه حجرٌ سقط في بركة راكدة. سيبحثون عن محنتي في تقاسيم وجهي، وسيقيسون كرب أنفاسي وهي تصرف كمدخنة مختنقة دخان ما يحترق بالداخل، وسيستعيدون التفاصيل التي سيمنحونها الكثير من خيالاتهم ومن حاجتهم لما يكسر الضجر الذي يفتكُ بهم. لم يقَع شيء مهم في المدّة التي غبت فيها، ولن يقع إن غبت سنة، أو قرناً كاملاً. ولحُسن حظّ الموظفين، فهم لا يفتحون الباب بداخلهم لأسئلة وجودية كثيرة من قبيل: ماذا نفعل هنا؟ وما هو العمل الذي نقوم به؟ وما الفرق بيننا وبين الطاولات والكراسي البئيسة؟ لو فعلوا ذلك، لو فتحوا على أنفسهم جهنم لماذا؟ وكيف؟ لعرفت البلدية سلسلة من الانتحارات المتوالية.

بعد تناول وجبة الغذاء، كنت على أهبّة شرب الدواء والنوم

حتى العصر، وبعدها آخذ تاكسي إلى مكان اعتصامي السلمي. فهمتُ بأنّ عليّ أن أفسد عليه نومه بالأساس، وخصوصاً أن أفسد إمكانية قيام علاقة حميمية مع صفية. لن يهنأ بنومه وهو يعرف بأنني بالقُرب منه، ولا ليل لي. لن يمدّ يده لها، وهو يعرف بأنّ مَن خانه على بُعد أمتار منه يتعذَّب وينتظر أن يصحو الإنسان بداخله. أتعمَّد، وحين تخلو الحارة، بأن أذهب وأقف تحت نوافذ داره. أخبط الريدو بعكازي وأخبط الأرض عدد الأيام التي قضيتها أمام داره. وفي كلّ يوم جديد أزيد خبطة. لا حكمة من وراء ذلك ولا سرّ. أفعله لأفتِّت أعصابه. هو ماكر وذكي وسيحاول أن يجد تفسيراً لذلك، ولأنه لا يوجد، فإنه سيُرهق نفسه وهو يهيم في الاحتمالات الكثيرة، وسيتلقى قلبه الدقات كأنها شحم ذائب يقطر فوقه. لا شيء ينقذك من نفسك إنْ ارتكبت جريمة، لا القوة، ولا تواطؤ الناس، ولا حتى تخاذل الضحية في المطالبة بحقها، وفي قلوب العتاة والجبابرة هناك دوماً انكسارٌ ما يتراءى من حين إلى حين في نظراتهم الحزينة، ويُدارونه بالكحول والتديّن الزائف وبالصدقات المرائية. سأراهن بصبر كبير على أنه ليس جداراً، وأنّ قلبه ليس قطعة رخام. سمعتُ ضحكته المستهزئة لأوّل مرة، في اليوم الذي خبطت فيه الريدو وأرضية الزليج المحاذية لداره، وفرحت لقد أمسك بالطعم. هو الآن يسخر مني، لكنني سأجرجره من عمق الضحك حتى شاطئ البكاء المرير. يكفيني ردّ فعله هذا. يكفيني أنه يعرف بأنني لم أستسلم وسأقاومه حتى آخر نفس. سأختبر معدنه وصلابته مثلما اختبر قمبيز ملك الفرس، في تاريخ هيرودوت، بسميتاك ملك المصريين. أرغمه على الجلوس مع غيره من النبلاء المصريين في مكان يقعُ في أحد أطراف المدينة لرؤية مشهد صُمِّم خصيصاً

لإذلاله. فقد تعمَّد الفُرس أن يُلبِسوا ابنته لباس العبودية، وأرسلوها حاملة إبريقاً لجلب الماء وبصُحبتها فتيات أخريات يرتدين الزيّ نفسه وجميعهن من الأسر النبيلة، وكانت الفتيات يبكين بمرارة، وهنَّ تعبُرن المكان الذي جلس فيه أباؤهن لمشاهدتهن، ولقد بكى الآباء مُر البكاء لرؤية ما حلّ بالفتيات من مَهانة وذُل، لكن بسميتاك لم يُجارِهم، إذ أطرق برأسه إلى الأرض بصمت بعد أن ألقى نظرة عجلى على المشهد. وبعد أن غادرت الفتيات المكان، جيء بابن الملك بصُحبة ألفي شاب في مثل سنِّه، والحبال حول رقابهم واللجام في أفواههم، وهم في طريقهم إلى الإعدام تنفيذاً لحكم القاضي الملكي بإعدام عشرة من النبلاء المصريين مقابل كلّ قتيل فوق ظهر تلك السفينة التي تعرَّضت لهجوم المصريين. شاهدهم بسميتاك يمرّون بالقرب منه. وعرف بأن ابنه في طريقه إلى الموت، إلّا أنه استمرّ مُطرِقاً برأسه مثلما فعل لدى رؤيته ابنته، بالرغم من استمرار المصريين الآخرين الجالسين بالقرب منه بالبكاء والنحيب وإظهار علامات الحزن والكرب. وبعد أن عبر الفتيان صادف أن مرَّ شيخ كبير بالقرب من المكان حيث كان بسميتاك يجلس. وكان هذا الرجل أحد أصدقاء الملك في السابق، ومن بين الذين يجلسون إلى مائدته، لكنّه جُرِّد من ثروته، ولم يعُد لديه سوى أن يتسوّل من الجنود، وحالما رآه انفجر باكياً، وناداه باسمه، وشرع يضرب رأسه حزناً وأسى. في النهاية تأتي دوماً القشة التي تقصم ظهر البعير، وسينهار باكياً ومتضرّعاً لي لأغفر له خيانته مثلما انهار بسميتاك بعد تجلُّد بطولي. والدواء في يدي، عرض عليّ العسكري بأن نخرج للنزهة في جنان عين أسردون. ورغم أن هذا الترف لم يعُد صالحاً لي، فقد قبلت. كان لديه مفتاح بستان في ملك أحد أصدقائه يخلو

فيه بنفسه من حين إلى حين. ولم يأتِ بيده فارغة، فقد كان يحمل حقيبة تصطكّ فيها قناني معبأة بدم المسيح. وفهمتُ بأنه ومنذ أن فقدنا الخبير ومساعده خسر جلسة الشرب الرائقة تلك التي يتبادل فيها الأفكار والتجارب ورؤية مشاهد مسرحية.

جلسنا فوق دثار، وأخرجَ قنانيه ووضعَ بعض المملحات وشغَّل راديو صغير جاء به أيضاً بحث طويلاً عن محطة فيها أغاني، ولم يجدها إلّا بعد تطواف في العالم. وقال لي بتأفُّف:

- كم أكره ثرثرة الإذاعات حول الأمراض والحياة الزوجية وكيفية التعامل مع الأطفال وفضائل الأعشاب ومشاكل الشباب. وتلك الاتصالات الغبية لأناسٍ في حاجة إلى سماع أصواتهم، وأولئك المحلِّلون النفسيون والاجتماعيون الذين ومن جملة واحدة لمتَّصل معذَّب يفهمون تعقيد الحياة ويعطون الحلول الناجعة لأعطابها. كم يبدو العالم في المحطات الإذاعية بسيطاً وساذجاً وبالإمكان حلّ مشاكله بالثرثرة فقط؟!

ابتسمتُ وأنا أحسّ بأنني في حاجة إلى إغفاءة قصيرة، تمدَّدتُ وأنا أسمع العسكري يفتح أول قنينة، وهو يقول:

- أهلاً بالمعارك.

حين استفقتُ لم أكن متأكداً من شيء، لا المكان الذي أنا فيه، ولا الزمن، ولا المدَّة التي نمتُ فيها. ولزمني أن أستجمع ببطء شديد عناصر نزهة فيها مسحة حزن كبيرة. انتبه العسكري للحركة التي دبَّت في مفاصلي فقال بلسان متثاقل جرت فوقه كؤوس كثيرة:

- سامحني، يا أخي، لم أساعدك كما كان يتوجَّب عليَّ أن أفعل.

ودون أن أعرف الدافع الذي جعله يقدِّم لي هذا الاعتراف السخيّ، قلت له:

- لا عليك، يا أخي.

- لا هذا الأمر يعذِّبني. لم يكن بوسعك أن تفعل شَيئاً، وأتفهم جلوسك أمام داره كمتسوِّل يستجدي بإلحاحه وصبره صدقة.

ثم أضاف بسخرية مرة:

- ماذا يفيدك الجلوس تحت نافذة توصِل لك أصوات مضاجعتها؟!

أجبتُه بامتعاض متعالٍ:

- لن تفهم ذلك، والأمور بخواتمها.

ضحك تلك الضحكة الغريبة، واليائسة، والنائية. وقال لي بنبرة ساخرة:

- إياك أن تكون من أصحاب الردّ في الزمان والمكان المناسبين.

لذتُ بالصمت، ففهِمَ بأنّ مزاحه لم يرُقني. فصمتَ هو أيضاً لمدة طويلة.

ثم قال بنبرة جدية:

- علينا أن نقدِّم شكاية لوكيل الملك وأن نجرجره في المحاكم ونفضحه في الصحافة. وعلينا أن نستعين بوالدها وبكلِّ مَن حضر عشاء الخطوبة.

فقلتُ بأسى:

- هي يتيمة والدها جندي استشهد في حرب الصحراء.

فقال بحرقة غريبة:

- من؟

- والدها.

- أعِد. أعِد. ما قلته.

- والدها شهيد.

فقال بصوت أقرب للصراخ:

- هل رأيت حديقة أمام بيتهم؟

- أجننت؟

صمت كأنه فطِنَ لبلاهة سؤال أعمى عمّا رآه. ولاذَ بصمت ثقيل، ثم نهض، كما يفعل دوماً حين يغضب وبدأ يطوف من حولي، وهو يقول: كانوا ثلاثة من هناك. من آيت بوگماز سعيد وعسو وخلا، استشهدوا كلهم. عسو هو صانع حديقة الصحراء، أهو والد البنت؟!. خادمة. يا ربي، خادمة وأسيرة. هكذا نجازي أبناء الشهداء. كنت أراقب هذيانه بقلق وخوف. أعرف أنّ حوارنا حرَّك ذكريات مؤلمة بداخله، وأنه لن يستعيد هدوءه إلّا بعد ساعات. عشتُ معه هذه الأزمات حين عاد من الصحراء، وكنت أسمع في عزّ الليل صراعه، وتجذيفه وسط أمواج كوابيس مخيفة. كان يصرخ وينتحب يتلوى، وحين يستفيق يتجمَّع على نفسه كمحارة خلفها جزر مباغت، ويبقى هكذا حتى الصباح مقاوماً العودة للنوم لأنها مجرَّد عودة للعذاب.

جلس وأتى بسرعة غريبة على ما بقي من خمر في قنانيه. يفرغ الكأس في جوفه ويملأها بسرعة ليفرّغها من جديد. لم يشرب أبداً بهذه الطريقة الحمقاء كأن الصحراء التي ذكرت على لسانه أعدته بعطشها. سحبَني من يدي وخرجنا من البستان لم يطوِ الدثار كعادته،

ولم يحمِل الحقيبة التي يرتِّب فيها عدته، ولم ينتبه للمذياع، فحملته. خرجنا إلى الطريق واعترض تاكسي. أنزلني قرب الدار، وقال لي بأنه سيعود وواصل الطريق في التاكسي نفسه إلى وجهة معلومة.

لم أجد ما أفعله في الدار، وقررتُ الذهاب إلى حي الرشاد. هناك روعت وأنا أسمع حشداً من الناس متحلقين يتهامسون، قال لي أحدهم بأن رجلاً أعرج هجم على حسن أوشن وكسَرَ بابه ولو لم تأتي الشرطة وتعتقله لكان قد قتله. تهاويتُ إلى الأرض. لم أحسّ في حياتي بالضياع مثلما أحسستُ في تلك اللحظة. سكران، نعم، كان سكرانَ مترنّحاً يزدحم الكلام في فمه. ألم ترَ كيف عامل الشرطة، كأنه موظف سامٍ له حصانة، وطلب منهم بأن لا يمسّوه ولا يضعوا القيد في يده؟! هو أخ هذا الأعمى الذي يجلس كل يوم أمام الدار. يُقال بأن حسن خانه، وأخذ له زوجته. أتلوى في الأرض وهم يثرثرون فوق رأسي بصلافة من يتكلم فوق نفاية. تحاملتُ على نفسي، وحاولت الوقوف. هي الآن زوجة حسن. يُقال بأنه أتى بأهلها، وكتب عليها ودعا الجيران لوليمة. يعذِّب نفسه فقط، عائلة مجانين، ماذا ينفعه الجلوس أمام الدار؟! لا لا سيحاكم بتهمة السُّكر العلني والهجوم على مسكن الغير وإحداث أضرار به، وربما ستُضاف له تهمة إهانة موظف أثناء أدائه لعمله، ألم تسمعه يقول للشرطة: «لو عرفت أنكم ستؤدون عملكم لما هاجمته». مجانين لا غير، كأنها المرأة الوحيدة في هذا العالم. يخبط الباب وهو يصيح: «اخرُج أيها النذل، يا حقير»، هي زوجته نعم. كتب عليها. حسن يعرف جيداً ما يقوم به، ولن يغلباه أبداً. ينطحان رأسيهما بالحائط فقط. من أعماق لوعتي وضياعي، استنفرت هياجاً غافياً بداخلي.

تراءى لي الشيخ إبراهيم في فيلم «**شيء من الخوف**»، وهو يقود أهل القرية وراءه نحو دار عتريس الذي تزوج فؤادة زواجاً باطلاً وبشهود مزورين، وقلت لنفسي أولاً: «زواج حسن من صفية باطل» ثم كرَّرته بشكل خافت. وكما تدور رحى الغرانيت لتصنع شرراً، ولَّد ترديد الجملة في صدري حاجة عارمة إلى الصراخ. دفعته للحظة ثم أطلقت صراخاً حاداً ووحشياً: «زواج حسن من صفية باطل» وسرتُ وأنا أردِّد ذلك. تبعني بعض الأطفال في البداية وأعانوني في ترديد الجملة ثم تفرقوا من حولي. كنت أسمع الناس يضحكون ويقولون «الله يستر»، وحين تعثَّرت في حفرة وسقطت وأنا أنطق اسم صفية انهمرتُ باكياً.

هذيانات مغربية

3- باب الأولياء الصالحين

1/ لحمانهم وألبانهم حرام وفروج نسائهم حلال

كان عبد الله بن ياسين شديد الورع في المطعم والمشرب فكان طول إقامته فيهم لا يأكل شيئاً من لحمانهم، ولا يشرب من ألبانهم، فإن أموالهم كانت غير طيبة لشدّة جهلهم، فكان يتصيد ويتعيش من لحوم الصيد، وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوَّج كلّ شهر عدداً من نسائهم ويطلقهن، ولا يسمع بامرأة جميلة إلّا خطبها.

الأنيس المطرب

ابن أبي زرع

2/ تركة الولي

حين أدرك الموت أبا يعزى آل نور، ألحَّ في طلب ابنه الفاجر، العاق، الذي ابتعد عنه. وحين جيء به تفل في فمه. وفهم كلّ مَن

حضر الواقعة بأنه يعهد له بأمور الزاوية الكبيرة والغنية من بعده، كانت التفلة وصية وإرثاً.

المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى
أبو القاسم الصومعي

3/ هل هي الدنيا حقاً؟

سمعت عبد الرحمن بن موسى يقول: ربما شوهدت في بيت أبي زكرياء (عاش ومات أعزباً) جارية تخدمه وتطحن له، فسئل عن ذلك فيقول: هي الدنيا تركتها.

التشوف لرجال التصوف
ابن الزيات التادلي

4/ ولي في النعيم والبلاد في مجاعة

كان الشيخ بلقاسم بن محمد الزعري ذا وفر في الدنيا وتوسعة من غنم وبقر وإبل وأكثر ماله الغنم. ولا يأكل إلّا ممّا تأكل النفساء مثل بركوكش بالحليب والسمن في الفطور والثريد بالمرق في وسط النهار والكسكسو باللحم والإبزار في الليل حتى إنّ ثديه يسيل مثل ثدي المرأة.

يتيمة العقود الوسطى
محمد بن عبد الكريم العبدوني

5/ الولي الإله

قلت له ذات يوم: إني إخاف من الله تعالى من أمور فعلتها، فقال لي: ما هي؟ فذكرتُ له ما حصل.
فقال لي رضي الله عنه: لا تخَف من هذه الأشياء، ولكن أكبر

الكبائر في حقّك أن تمرّ عليك ساعة ولا أكون في خاطرك فهذه هي المعصية التي تضرّك في دينك ودنياك.

الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ
أحمد بن المبارك

ومن كلامه رضي الله عنه (أحمد بن محمد التيميكيدتشي) وهو أعظم كرامة قال: والله لا يرى الناس اليوم من الخير إلّا ما يأتيهم على يدي، ولو سعوا كلّ السعي، وضربوا مغارب الأرض ومشارقها، لا يرزقون إلا ما جاءهم على يدي.

المعسول ج14،
محمد المختار السوسي

6/ مباركة أو الحرب

طمع مولاي رشيد في مال الشيخ علي بن عبد الرحمن الدراوي مؤسس زاوية تمدجوت، وتعدى ذلك بأن أمر عامله على تادلا بأن يأمر الشيخ ببعث أَمَة فاتنة اسمها مباركة للبلاط أو يستصحبها معه. ردَّ الشيخ على هذا الطلب «لمّا طلب المال أعطيناه، لكن على مباركة تقوم المعاركة».

دوحة البستان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمن
الزبادي المنالي

7/ انتهازية

كان سيدي محمد بن عبد الرحمن يحسب مالَ مريده سيدي محمد ماله، فلا يحتشم فيه حضراً ولا سفراً. فكان إذا احتاج إلى آنية وغيرها ذكرها له لا لغيره، فيأتيه بها وإذا كانوا في زيارة لم

يستصحب سيدي عبد الرحمن زاداً. وإذا حضر وقت الأكل يقول له: يا سيدي محمد هات الطعام نأكل، ويقول له: أعطِ فلاناً وفلاناً. وكان يقول: مال سيدي محمد بن عبد الله حلال لأنه لا وارث لوالديه غيره. اذ لم يكن له أخ أو أخت.

الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس
بن عيشون الشراط

8/ بركة مدمرة

أخذ (القائد إبراهيم) بمخنقهم (آيت سري الذين سرقوا بعضَ متاع أم السلطان)، وجعل يقتلهم في كلّ شعب ووادي، ويجمع رؤوسهم حتى كانت كالروابي العظيمة، وتسنم معهم الجبل وجعل يلتقطهم في كلّ شعبة ويأخذهم في كلّ هضبة، ويستخرجُهم من مخبئات ذلك الجبل حتى شفى غرضه منهم. واستنزلهم من صياصيهم. وكان في ذلك تمام ذاكرتهم، حتى ما بقي منهم الأعمار يتخشخشون في جوار غيرهم من البربر. ولم تقُم لهم كلمة. وكل ذلك من حسنات أم السلطان وبركة زيارتها لمولاي عبد المجيد.

زهرة البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان
محمد بن العياشي المكناسي

9/ غواية مربكة

ذهب بي (ابن يخلف الأندلسي) والدي، رحمه الله إلى زيارة سيدي علي ورزق، وأنا إذ ذاك شاب، وكنت صبيح الوجه، فوجدناه بباب كهف من كهوف الخميس والناس مجتمعون عليه، فلما رآني أخذني معه إلى قعر الكهف بحيث لا يرانا أحد من الناس، ثم أرسلني

وجعل يذهب ويرجع ويتكلم بكلام لم أفقهه، وبقي كذلك ساعة، ثم أخرجني، فوجدت أبي ينتظرني وهو في غاية الضيق والضجر من فعله ذلك بي. فلمّا أشرفت عليه، أخذ بيدي وأفردني عن الناس وسألني عن شأني فأخبرته بذلك، فسري عنه واستراح. انتهى.

الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس
بن عيشون الشراط

10/ الشيخ والمريد

وكنت أعرف سيدي أبا بكر الطرابلسي المكنى عند أهل فاس أبو بكر بوفلاسي، وجدته بمدينة فاس حين عرفتها وقت دخول المسلمين البريجة، وكان من المجاذيب الكبار غائباً عن حسّه أبداً. وقد شربتُ يوماً ما بولهِ لشدة تصديقي بولايته. وكنت أعرف ولي الله تعالى سيد العربي البقال. وكنت ذات يوم مسافراً إلى القبيلة الحيانية وهو بحانوت بين السواري واقفاً إلّا أنه في غاية السكر، والناس مجتمعون عليه، ولا يتكلم، إلا هو، فرآني آتٍ نحوه، فناداني حتى دنوتُ منه فضمَّني إلى صدره، وجعل لسانه في فمي، وقال: مص، مص، مص.

مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي

11/ شهوة السلطة

كتب محمد بن سليمان الجازولي صاحب: **دليل الخيرات**، وهو طالب في جدران الحجرة التي كان يسكن فيها بفاس: الموت. الموت. الموت. ثم أدركه وسواس المهدوية، وأرادَ أن يكون صاحب الوقت، فاعتزل الناس قرابة أربعة عشر سنة حتى صار بإمكانه اجتراح كرامات. وحين ماتَ خاض مريده عمرو المغيطي المعروف

بالسياف، الذي دخل بزوجة وبنت الشيخ، حروبه من أجل الدنيا مدعياً الانتقام للشيخ الذي قتل مسموماً. وكان يحارب وهو يحمل تابوتاً فيه جثمان الشيخ في مقدِّمة جيشه. وحين قتل المغيطي نقل الأشراف الجثمان إلى مراكش. خافوا أن يثور عليهم أحد، فيفعل ما فعل عمرو وقيل إن الحامل لهم على نقله، أنه ذكر لهم أن تحته كنزاً فتعلَّلوا للحفر بقصد نقله إلى بلادهم، لم ترتح عظام الشيخ الذي مجَّد الموت وهابه واحتفى به فقد طاردته الحياة الحقودة حتى وهو في التراب وحولت عظامه إلى سلاح في أيدي المتحاربين.

عن: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي
محمد الصغير الأفراني

12/ زوجة الشيخ بين يدي المريد

وجدت زوجة أحد شيوخ مولاي العربي الدرقاوي بين يديه فقال: كنت آخر ليلة أذكر الله تعالى بضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف - نفع الله به - اذ سمعت مُنادياً ينادي باضطرار كبير. فمددتُ يدي إليه وجمعته إليّ، وذلك وقت ندائه، ولم أدرِ هل هو امرأة أو رجل. إلّا أني عرفتُ الجهة التي نادى منها، ولم أعرف عينه، ثم أنه لـمّا لم يظهر لي بعينه كذبت نفسي. ثم اشتغلت بتوبيخها، فإذا بامرأة بين يدي صبيحة ذلك اليوم من الجهة التي عرفت وهي من حوز الولي الصالح أبو محمد الزروالي - نفع الله به - فقلت له: كيف أنت؟ فقالت: كأني معلقة في الهواء، ولم ندرِ كيف جرى لي حتى كنت ههنا بين يديك. وقد علمت ما نزل بها قبل أن تأتيني بنحو إحدى عشر سنة، إذ كان زوجها من أشياخي.

مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي

13/ السياسة فضول

لفت أنظار السلطان المولى إسماعيل الشيخ محمد بن عبد العزيز بن موسى شيخ زاوية تناغملت ممّا اجتمع حوله من أتباع ومريدين. فأرغمه على تبرئة ساحته من الخوض في أمور السياسة، فأصدر الشيخ إشهاداً عدلياً يثبت فيه أن ما «بينهم وبين الفضول ما بين السماء والأرض».

إشهاد عدلي/ أحمد عمالك

14/ الولي واللصوصية

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي صاحب التصرف يمدّ يده إلى جيب مَن شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر. وسمعته رضي الله عنه يقول: الفرق بين أخذ الولي صاحب التصرف متاع الناس، وبين أخذ السارق واللص له، الحجاب وعدمه، فالولي مشاهد لربه عزّ وجل مأمور من قبله بالأخذ، قال تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ (الكهف: 82)

قال رضي الله عنه: ولقد دخل سيدي منصور القطب إلى مولانا إدريس، نفعنا الله به، فوجد سيدي أبا يعزى بن أبي زياد البكاري يزور، فأخذ بلغته وخرج.

الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ
أحمد بن المبارك

15/ إطعام طبقي

كانت له (أبو عمر بن أحمد القسطلي) همة رفيعة في إطعام

الطعام، فلا يدخل أحد زاويته إلا بادر الخدام له بإحضار الطعام على قدر طبقته، فسائر الناس يأكلون خبز الشعير، وما وجد من الفاكهة معها، وفي الصبح الدشيش، وفي المساء الكسكس. ومَن هو أعلى مرتبة يأكل خبز البر، وخلاصة التمر والعسل، واللحم والثريد والدجاج. ومَن هو أعلى قدراً من الطبقتين، يقرِّبون له الحسو المتَّخذ من لباب خبز خالص، وفصوص البيض، صفوها بالقرفة، والزعفران ولحم الضأن المطبوخ بالمري واللفت السلجم وأنواع الفواكه التي لا توجد في خزائن الملوك.

دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب
من مشايخ القرن العاشر
محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني

16/ المريد والكلب

وقال أيضا (محمد بن سليمان الجازولي) رضي الله عنه: في الكلب عشر خصال محمودة ينبغي أن تكون في المريد الصادق، أولهما: لا ينام من الليل إلّا قليلاً، وذلك من علامة المحبين. والثانية لا يشتكي من حرٍّ وبرد، وذلك من علامة الصابرين. والثالثة إذا مات لم يترك بعده ما يورث عنه، وذلك من علامة الزاهدين. والرابعة لا يغضب ولا يحقد، وذلك من علامات المؤمنين. والخامسة لا يخزن خزيناً، ولا يتحمل عويناً، وذلك من علامة الموقنين، والسادسة إذا أعطى شيئاً أكله وقنع وذلك من علامة القانعين، والسابعة ليس له موضع معلوم يأوي إليه، وذلك من علامة السائحين، والثامنة أي موضع وجد نام فيه، وذلك من علامة الراضين، والتاسعة إذا عرف مولاه لم ينكره، وإن ضربه وجوّعه،

وذلك من علامة العارفين. والعاشرة لا يزال جائعاً وذلك من علامة الصالحين.

ممتع الأسماع في الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع
محمد مهدي الفاسي

17/ رؤيا عبد الله العتيقي

ثم قال (الرسول) يا بلال نادِ أهل الوسائل. قال: فنادى بأعلى صوته يا أهل الوسائل. قال، فإذا بقوم مُقبلين لا يُحصي عددهم إلّا الله الذي خلقهم، قال: وتقدَّم بهم رجل ربع القد منتصف الشيب، وهو سيدي محمد بن ناصر رضي الله تعالى عنه، يعني أبا سيدي أحمد بن ناصر رضي الله تعالى عنهما. وهذا القوم فيهم رجال ونساء وصبيان. فلمّا وصلوا بين يديه ﷺ، سلّموا وتقدموا ابن ناصر المذكور رضي الله تعالى عنه. فقال له ﷺ: مرحباً مرحباً يا ابن ناصر. أنت وذريتك ومَن دخل في حزبك ومَن أحبك سواء صلى أم لم يصل. وقال يا ابن ناصر، قال له نعم يا رسول الله صلى الله عليك، قال له نبشِّرك يا ابن ناصر ببشارة عظيمة، قال له: أفِدْني يا رسول الله صلى الله عليك، قال له: يا ابن ناصر كلّ من دخل سلسلتكم هذه يدخل الجنة إن شاء الله تعالى، بلا حساب ولا عقاب. قال له شيخنا: زدني يا رسول الله؟ قال له: يا ابن ناصر، كلّ مَن رأى من رآك إلى عشرين أصلاً، حرَّم الله جسده من النار. وهكذا كان الخبر يا سادتي ويا إخواني، من غير زيادة ولا نقصان. والحمد لله الذي أدخلنا في هذه السلسلة المباركة. ومن سمع بهذه الرؤيا، ولم يتحرك قلبه.

فاشهدوا عليه بأنّ الإيمان فارغ من قلبه بلا شكّ ولا خلاف، والسلام.

الذرة الجليلة في مناقب الخليفة 2015
عبد الله الخليفي
منشورات وزارة الأوقاف ضمن مجهوداتها
لتجديد الحقل الديني

18/ صلاة الغائب على جني

على أن التادلي أيضاً ذكر أنّ الشيخ التاودي ابن سودة أخبر بموت شمهروش (ملك الجن). ونادى بذلك وخرج بالناس للمصلى، وصلى عليه صلاة الغائب من غير أن يروا جنازة وأنّ التادلي أخبره بعض من حضر تلك الصلاة.

فهرسة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

19/ مهادنة المخزن

وكان من عادته (الشيخ الحراق) إذا اجتمع مع أحد من أمراء وقته تلطف له وتأدب بين يديه، وربما كشف رأسه وخلع النعل وهو عارف بمساغ ذلك، والناس يعترضون على ذلك، وهو أدرى وأبصر. قد سمع منه بعض العوام يقول للقائد محمد أعشاش قائد تطوان: أنت القطب.

تاريخ تطوان
محمد داود

20/ طريق الجنة اكسبريس

إلى أن ذكرا ولياً من أولياء الله الكبراء ممَّن فازوا برؤية النبي

ﷺ يقظة. يُقال له الفقير محمد واعزيز التزنيتي. فقال الشيخ للفقير علي بن إدريس: ماذا يقول لك محمد بابا واعزيز - وهما يتحدثان بينهما - قال له إنه يقول لي أتريد دارك في الجنة. فقلت له: وهل الذي همّني غيرها. فقال: إنّ الجنة في زمننا هذا سهلة. فقال مَن توضّأ وصلى ركعتين، ثم يقول: اللهم إني أتوسّل إليك بوجه سيدي أحمد بن محمد، ومن أقراه، ومن قرأ عليه أن ترزقني داري في الجنة، فإنْ لم يدخلها فليحاسبني بين يدي الله عز وجل.

المعسول. ج6،

محمد المختار السوسي

21/ مشهد من الواقعية السحرية

وقد أخبرني أهل تامصلوحت أنّ الشيخ تغيَّر على أولاده مرة، وحلف ليرحلن، فلما خرج الشيخ راحلاً إلى وادي نفيس ليبرّ يمينه، ارتحل الحمام فوق رأسه، كأنه سحابة على رأسه، ولم يبقَ حمام بتامصلوحت. فلما رأى أهل القرية ذلك حملوا صبيانهم ونساءهم والتحقوا بالشيخ، وقالوا له: والله لا رَجِعْنا إلى ديارنا إلا إذا رجعت معنا، فما عُذرنا وفي هذا الطير معتبر. وسمعت مَن يذكر أصل حكاية ارتحال الحمام معه، وتظليله فوق رأسه يَقيه حرّ الشمس وزاد فيها، أنه قيل له: يا سيدي إن هذا الحمام قد تبعك، وترك فراخه، فقال القائل أو غيره: ناد فيه مَن له فراخ، فليرجع، ولا يصحبنا إلّا المتجرد، فنادى بها، فإذا بها تتعازل، فرجع بعضها، وهو ذو الفرخ، وبقي بعضها وهو المتجرّد.

الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام

العباس بن ابن إبراهيم

يمكنك أن تسمي هذا الفصل: **الخديعة الكبرى أو القصاص.**

حين أخرج لنا حرّاس السجن العسكري حضنته وبكيت بحرقة. كلم الوالد، وحين انتبه لانتحابي، نهرني قائلاً:

- إياك أن تعتقد بأنني فعلتُ ذلك من أجلك. حين ستقرأ الشذرات التي كتبتها ستفهم.

كان لقاء مليئاً بالكآبة، لم يعرف والدي ما يقوله فيه، وبقي صامتاً. لقد مزّقته حدَّة الرزايا المتوالية التي حاقت بولديه، ومن صمته اليائس يبدو أنه لا يفهم كيف يضيفان إلى أسى العجز حماقات الجنون، لا شكّ أنه يتعذّب، وهو يبيع ويشتري في الأسواق البعيدة، حين يتذكَّر الحطام الذي ألنا إليه، ولا يملك إلا أن يستغفر الله ويطلب لنا الهداية. ولا شكّ أنّ الوالدة تحارب الآن بجداول يكتبها لها مشعوذون وببخور وبنذور هذه العين الشريرة التي سلطت على ولديها ويلات متصل بعضها ببعض. أعرف أنها تبكي كثيراً حين لا أكون في الدار، وتحاول بكلّ ما أوتيه قلب الأم من قدرة على المقاومة أن تنقذ شيئاً ما من هذا الغرق الكبير. أقول لنفسي وأنا

أعنفها: ها أنت ترين بأنّ مكرك السيئ حاقَ بأهلك فقط. أتصرف في الدار بانطواء المذنب الذي يقوم بأدنى شيء يمكن أن يثير الانتباه له. أتصرَّف بذلك الحذر والاقتصاد الشديد في الحركات الذي يؤدّي به قط هجومه الليلي على أكل في مطبخ، وأحاول بأن لا أكون مرئياً لهم ولا أثير انتباههم.

كان غياب العسكري بالنسبة لي أشبَه بسقوط في العدم، يحدث هذا دائماً. لا نعرف أهمية بعض الناس في حياتنا إلى حين يبتعدون ويتركون لنا اختلالات وخصاصاً مهرولاً، لا يملك مفاتيح ملئه إلّا هم. أهم بأن أناديه، أسمع حركة ويخيَّل إليّ بأنها صادرة عنه. أسمع كلاماً في الدار وأقول هو، ثم أنتبه لنفسي وأتركها تنقع في حداد فقدانه. لا يبتعد من نحبّ عنا فقط إنه يأخذ معه طمأنينتنا وإحساسنا بالأمان، ويأخذ معه أيضاً أرواح الأشياء المحيطة التي تصرخ هي أيضاً بلوعة فقدانه. كم صارت الحجرة التي أقتسمها معه غريبة ومُوحشة بلا أنفاسه وتعاليقه وتقلبه في الفراش؟!. كم أحبه.

حين عدت لرؤيته وحدي وبقيت صامتاً أمامه كطفل ارتكب خطأ، وينتظر العقوبة، أمسكني من كتفي وقال لي:

- لا أحبّ هذا الحزن في وجهك، قلت لك لم أفعل ذلك من أجلك.

قربني له بصمت حنون:

- كان لديّ صديق هناك في الصحراء من آيت بوگماز حاول أن يواجه الصحراء بحديقة صغيرة، غير أنه استشهد في هجوم غادِر

للأعداء. يومها تركنا حديقته تموت. فكرت في أنني سأخونه للمرة الثانية إن لم أفعل شيئاً.

ربَتَ على كتفي:

- لن تفهم يا محمد. لن تفهم، الأمر أشبه بما يقع في الروايات من صدف عجيبة. لا أعرف بأن البنت بنته فعلاً، لكنني قمتُ بذلك من أجلهم كلهم عسو وخلا وسعيد والآخرين، هي بنتهم كلهم. أولئك الذين لا يذكرهم أحد الآن، ولم نبن لهم نصباً تذكارياً واحداً نخلد فيه أسماءهم. وبصوتٍ على حافة البكاء واصل قائلاً:

- كيف. كيف لا تقتلك المرارة؟!

وأنا أودّعه شدّني من يدي وقال لي:

- أنت محظوظ لأنك تعيش تجربة حبّ كبيرة رغم ما فيها من حماقة.

ومضى يجرجر رجليه كما يفعل دائماً حين يبتعد.

عدتُ من السجن مباشرة إلى مكاني قبالة دار المحتال. لا شكّ أنني خيَّبت ظنه حين اعتقد بأن اعتقال أخي سيردعني. هو واهم جداً. سأشدِّد عليه الخناق أكثر من أيّ وقت مضى. سألتصق به كالعلق، وكلَّما زفر سيسحبني معه إلى الداخل كدخان كريه. سأخنقه ولن أترك له دقيقة واحدة لالتقاط أنفاسه. تجاهلني في البداية وسخر مني، ولم يعُد له إلّا أن يحاربني قبل أن ينهزم. هذا ما قال غاندي، إرادة لا يمكن ترويضها تنتصر دوماً على قوة غاشمة. أشتري قنينة ماء معدني وسندويتشاً وأجلس كصخرة. أستعيد طفولتي بين الجنان مع جدي، أستعيد كلّ الآلام التي عشتها منذ أن عرفت بأنني مهدَّد بالعمى. أفكِّر في ما حدث لي مع صفية. أفكِّر في الحياة والموت، وقدرة الإنسان على اقتراف الفظاعات في حقّ أخيه الإنسان. أفكِّر

في لا شيء. وأتلهى أحياناً بتخيّلها وهي تفتعل سبباً لفتح النافذة واستراق النظر، وأخمّن عذابه وارتيابه وهو يقفل الباب من ورائه بالساروت، ويخزن الساروت في جيبه ويُبقي يده قريبة منه، بإمكانها أن تختلس الساروت وتفتح الباب، وتأتي عندي لتأخذني من يدي ونهرب معاً. أخمن قلقه وعدم ركونه واطمئنانه لأيّ شيء من حوله. وكلما ابتعدت عنه لحاجة ما في حجرة أخرى أو في المطبخ أو المرحاض ناداها بجزع وهرع متعثّراً في أثاث البيت لإمساكها بين يديه. إنه يتعذّب أكثر مني. يتعذّب حين يحسّ بأنه يُمسكها معه غصباً عنها، يتعذّب حين تعرض عنه، وتدفعه بيدها ويحس بأنها تحتقره. كيف تقبل بنت بصفاء قطرة ماء الخيانة التي رأتها بأمّ عينيها؟! كيف تأمنه وهي رأته يمزّق قلب صديقه؟ كيف تسلّم نفسها له، وهي ترى جريمته على بعد أمتار منهما؟

2

أحسستُ بيدٍ قاسية تسحبني من قفاي وتسحلني لعشرات الأمتار، ثم تنهال عليّ أرجل بالركل بعنفٍ وحشي. حاولتُ أن أعترض الضرب بيدي بلا فائدة وانتهيت إلى أن تجمّعت على نفسي أخفيت على الخصوص وجهي. وحين اعتقدوا بأنهم أعطوني الدرس الذي أستحقه قال لي أحدهم بصوت أجشّ كأنه خارج من كهف:

- هذه آخر مرة نراك فيها هنا يا كلب.

وبصقوا عليّ وانسحبوا، لم أصرخ، لم أستنجد لقد اختاروا منتصف الليل، وانقطاع الرجل ليقوموا بمهمتهم الحقيرة. حبوتُ ثم وقفتُ وعدتُ إلى مكاني. ها هو قد بدأ في محاربتي، ولا يفصله إلّا القليل عن التسليم والانهزام، ها هو يلجأ إلى الوسائل المنحطة لأنه خائف مثل الدولة حين تسلّط قواتها على محتجين سلميين. الضرب من تحت الحزام سلاح الخائف الذي يعرف بأنّ الحق ليس في صفّه. كان ظهري يوجعني، وأحسستُ بأنّ ضلوعي كسرت. ومسحت دماً سال من فمي وأنفي، لكنني لن أخاف ولن أترك المكان ولو قتلوني. القضية بيني وبينه صراع إرادات.

هي لمن يراها بشكلٍ سطحي جنون خالص، لكنها ولمَن تعمَّق فيها أكثر فهي تعكس الرحلة الطويلة والشاقة والمتعثرة للحقّ بين الناس منذ أن بدأ الصراع بين أبناء آدم. الحق ضعيف ويسهل التحايل عليه، ويسهل اغتصابه وَلَيّ عنقه، وهو في يد الأقوياء سوط يجلدون به الضعفاء، لكن الحق لا يكون حقاً إلّا حين يكون سلاحاً في وجه المظلوم لتحدي الظالم. لستُ أول مَن سَلب منه شيء عزيز في هذا العالم. لست أول ضعيف يُداس، ولن أكون الأخير، ولست أول من قاوم، ووقف في وجه العاصفة، وانتصر في النهاية. انتصر على خوفه وعلى نظرة الآخر التحقيرية له. لست أول من ضُرب ونكِّل به ووقف، ومَن انتزعت جذوره لكنه نما من جديد، ومَن قيل له قضي الأمر، واستمات حتى أبان بأنْ لا شيء انتهى، وأن المعركة متواصلة. في الغد. وباستثناء الآلام التي لا يراها أحد، تبينت أن أضرار الهجوم كانت بسيطة.

3

جاء عندي صدقي الصغير مروعاً، بحث عني في الدار فقالو له بأنْ يبحث عني هنا في حي الرشاد وأمام دار المحتال. جلس بجانبي مضطرباً يريد أن يقول شيئاً ويتراجع، قلت له:

- ما بك؟

فأجاب بصوت مذعور وخافت:

- أتعرف مَن كنا نجالس؟

- لا

صمت قليلاً ثم غالَب خوفه وقال فيما يشبه الهمهمة:

- الحاج فرح. الحاج فرح.

قلت له بلا مبالاة مدهشة:

- وكيف عرفت ذلك؟

فردَّ بصوت مرتجف:

- أفرط في الشرب اليوم وكان يحدثنا بصوت حضرته، ثم انطلق يسبّ بصوته هو ويبكي ويتفجَّع على مصيره بعد الباشا الصغير.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

- يا لها من مسرحية متقنة.

وبالهدوء والوقار نفسهما الذي تعاملت به معه منذ مجيئه قلت له:

- هل أنت متأكّد من الأمر؟

فأجاب بسرعة:

- نعم. نعم.

- لماذا لا يكون حضرته، وعندما أفرط في الشرب، ارتأى تقليد صوت الحاج فرح.

فصاح مستنكراً:

- لا لا والله العظيم. كنا نجالس الحاج فرح فقط لا وجود للباشا إلّا في خيالنا، لا شيء، يا أخي، سوى الحاشية هي مَن تتلاعب بنا.

وكأنه انتبه إلى البرودة التي أحدّثه بها وهو يغلي وأعصابه في الحضيض. صاح بي:

- ما بك؟ أنا على وشك أن أجنّ وأنت كقطعة ثلج تتفلسف.

ولأهون عليه الأمر وأخفف من اضطرابه قلت له بنبرة قاسية:

- أتعرف سبب ذلك؟

فصاح:

- طبعاً لا لا أعرف.

فقلت له وكأنني أصدر حكماً بِضِعَة فهمه وذكائه:

- لأنني كنت أعرف بأننا نجالس الحاج فرح فقط.

- لا تقل لي ذلك، لا لا كيف عرفت؟

تركته يتخبَّط في عذاب حيرته لبعض الوقت يخبط فخذيه ويلطم وجهه ثم قلت له:

- حين كنا نتحدث عن طه حسين ناداني بعاشور الصغير وحضرته لا يعرفني ولم يسبق لي أن كلمته. ثم ألم تسمع بلازمة: أفهمت؟ تتسلل من حين إلى حين لكلامه؟ منذئذٍ بدأتُ أشك، وحين وقع ما وقع في المرة الأخيرة التي حضرت فيها معكم تحوَّل شكي إلى يقين.

بقي صامتاً وذاهلاً، ولا شك أنه يبحث الآن في دوامة ذاكرته عن إشارات مرَّت أمامه ولم ينتبه لها. ويبدو أنه لم يخرج من نزوله للماضي بطائل، فقد قال لي بصوت يائس على حافة البكاء:

- لكن لماذا يفعل ذلك بنا؟

- لا أعرف. ربما الأمر يحتاج إلى محلل نفسي، ما وقع لنا أشبه بفيلم مرعب لهيتشكوك كنت قد رأيته قبل إصابتي بالعاهة لصاحب نزل بقيت أمه المتوفاة تعيش بداخله، وتدفعه لقتل كلّ الفتيات اللواتي يأتين للنزل ورميهن في بحيرة. داخل الحاج يتصارع، ربما، الباشا الصغير والخادم الوضيع الذي كتب عليه أن يعيش عمراً كاملاً في الظل.

هو لا يعرف تلك الحكاية القاسية والمثيرة للاشمئزاز، والتي يتداولها بعض مَن لهم صلة ما بالدار الكبيرة. ولا يخوضون فيها إلّا بجهد خارق يتحدّون فيه خوفهم ويتأكّدون بأن لا أحد من حولهم يسمعهم. فالباشا بوزكري وحين قرَّر أن يُوكِل لعبد صغير يكبُر طه بقليل مهمة حراسته واللعب معه وملازمته أمر بإخصاء فرح الصغير، وحضر بنفسه ذلك المشهد الوحشي. لا يمكنه أن يضع حفيده في يد شهوة يمكن أن تشتعل في أيّ لحظة وتعبَث به، لا يمكنه أن يأمن تلك البهيمية الغامضة حين تفصح عن نفسها، لا يمكنه أن يرتاح إلّا حين يقتل الغريزة في جسد الصبي لتبقى الآلة فقط، الآلة الصمّاء

التي تؤدي ما عليها بإتقان، ولا شيء يفتنها أو يرسل نداء منها، لا شيء فيها يتفجَّع أو يصبو أو يتشهى، لا شيء فيها سوى الطاعة العمياء الخالصة، والدائمة.

لم يعرف فرح في حياته الطويلة إلّا الباشا الصغير، كان يرى العالم من خلاله، يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويغضب لغضبه، ويضجر لضجره، إنه الظلّ والافتراض والصدى. لا نهاره نهار، ولا ليله ليل. إنه مثل ذلك البغل الذي، ومنذ يفاعته شدّ بحبال إلى رحى في قبو وصارَ يديرها طيلة النهار، ولم يعرف من حياته إلّا الحجر الثقيل والحبال والخشبة التي تصلها. ولفرطِ ما دار، فإنه لو خيِّر بين حقل مزهر وقبو عذابه لاختار القبو لأنه لم يعرف غيره. ولو لم يعُد الناس في حاجة إلى الرحى، لأخرجها البغل من خياله، وطفقَ يدور من حولها. لم يعُد الباشا شخصاً يتعهّده فرح، ويلبي طلباته ويحرص على أدقّ تفاصيل حياته، إنه كائن يتَّحد به ويرى ويفكِّر ويتخيل ويحلم من خلاله، إنه اتحاد اليد بالأداة، والغيم بالمطر، والحديد بالصدأ. مات فرح في اليوم الذي اختاره فيه الباشا بوزكري وولد الخادم الذي، وحين يريد أن يتلذّذ بكونه شيئاً آخر، فإنّ خياله لا ينتج إلّا الباشا الصغير في رغباته وآرائه وطقوسه. سيتعذَّب صدقي الصغير هذا الذي يضرب الآن كفاً بكف بالقُرب مني ويهذي، وربما سيجنّ قريباً. سيؤدي من سلامته العقلية والنفسية ما يؤديه مَن يدخلون الدور الكبيرة، فيُخْصَون، هم أيضاً، رمزياً. ويُسحَقون وهم يرون أحداثاً تجري أمامهم أكبر وأعقد من طاقاتهم على الفهم. لو لم يقيِّد لي القدر خطباً أعظم من بؤس الحاج فرح وحاجته إلى ملء لياليه الباردة بسهرات مع عميان فرحين، لكنتُ الآن، أنا أيضاً، أتعذب بما اكتشفته، فللحظوة دوماً ثمن فادح.

تذكرت شيئاً آخر فقلت له:

- أسمعت وقع خطوات حضرته حين كان يدخل؟

ودون أن أنتظر جواباً منه، تابعت:

- لا طبعاً. وكنت أقول في نفسي في كلّ مرة يأتي فيها بأنه يدخل بخطى نمر.

فصرخ:

- نعم. نعم. لا نسمعه حين يدخل.

وبهدوء جارح لهذا العذاب الذي يعيشه قلت له كاستنتاج أخير:

- اسمعْ يا صديقي العزيز. نحن ضحايا أنفسنا. ألمْ يعرض علينا وبكلّ وضوح الدخول في مسرحية وأداء دور معين وقبلنا ذلك، بل إننا قبلنا حتى الثياب التي تلائم الدور وتخلَّيْنا عن أسمائنا.. لا أفهم لماذا تتشكّى الآن بعد تعاقد واضح، نستفيد فيه من مزايا عديدة ونؤدي فيه ما علينا؟! لقد تلاعب الحاج فرح بعاشور الصغير، أما أنا محمد الغافقي فلا أهتمّ للأمر.

وكأنما أسقط في يده وأدرك بأن استثارته غبية جداً، قال لي بعد صمت طويل:

- كانت مسرحية متقنة حتى أنني، وأنا أحد الممثلين فيها، صدّقتها.

ثم انفجر ضاحكاً وهو يضرب كفاً بكفّ:

- أنت ذكي جداً يا عاشور الصغير.

وحين ودَّعني وأحسست به يبتعد قلت له بلؤم واضح:

- ربما ستكتشف في قادم الأيام، وكما يقع في الدمى الروسية

أنَّ من تُجالسه ليس الحاج فرح، بل شخص آخر، نحن عميان، يا صدقي الصغير، عميان، أتعرف معنى ذلك؟!

وأجابني وهو يسير:

- أعرف. أعرف لذا يفعلون بنا الأفاعيل ويتسلّون بنا.

4

دعيتُ بواسطة استدعاء مقتضب إلى مفوضية الشرطة. توصَّلت به في تمام العاشرة والنصف وكنت هناك في الحادية عشر. انتظرتُ نصف ساعة فوق كرسي خشبي هزيل، تكدَّست فيه مع أناس آخرين. بقينا صامتين، كل واحد منا يتستَّر على ذعره. لم يحدِّدوا موضوع الاستدعاء ليتركوك فريسة للأفكار السوداء، وليجعلوك حين تمثُل أمامهم تقف بوجه شاحبٍ ومتشنج لا يعرف من أين تأتيه الضربة القاصمة. تطوّع أحدهم، حين نودي علي، وأدخلني إلى مكتب وأجلسني فوق كرسي خشبي آخر. وبعد صمت طويل سمعت صوتاً غليظاً ولاذعاً يقول لي وكأنه ينهرني:

- أنت محمد الغافقي؟

- نعم.

- توصّل السيد وكيل جلالة الملك بشكاية من السيد حسن أوشن يتهمك فيها بأنك تتربص به وتترصّده أمام داره لتلحق به الأذى. لقد استمعنا للسيد حسن أوشن ودوّنا أقواله في محضر رسمي. لديه طلب واحد هو أن تبتعد عن داره.

ابتسمتُ. كنت أتوقع هذا منه وأعددتُ له العدة منذ اليوم الذي

قررتُ فيه أن أرابط أمام منزله. قلت وأنا أتصنع البراءة:

- لا سبب يدعوني لإلحاق الأذى بالسيد حسن، ولا مشكل بيننا سيدي.

- وهجوم أخيك على داره؟

- لا علم لي سيدي بالسبب الذي دعاه لذلك.

رتَّب أوراقاً أمامه وقال لي بضيقٍ واضح:

- اسمك، واسم والدك، وأمك، ومهنتك، وعنوانك؟

عرفتُ بأنه قرر كتابة محضر رسمي. تشبَّثت بما قلته له. وجواباً على سؤاله عن المبرر الذي يجعلني أقعد أمام داره هو، والمدينة واسعة جداً، أجبتُه بأنني أعاني من ضيق في التنفُّس ولا أحس بالراحة إلّا هناك. انفجر ضاحكاً، ثم قطع ضحكه فجأة وقال لي:

- أتسخر مني؟

- لا لا حاشا.

ثم وكأنه قرَّر هو أيضاً أن يمازحني فقال بصوت خافت وكأنه يفشي سراً:

- المدينة كلها تعرف ما جرى بينكما إلّا الشرطة.. تصوّر التردّي المهني الذي انحدرنا له!

بحثتُ عن كلمات أجيبه بها، ولم أجدها كأنه صبَّ على رأسي ثلجاً، وطمس ليس فقط الأفكار، بل اللغة. أعرف بأنَّ ما قلته له غريب لا يصدق، لكن الحكاية كلها غريبة من بدايتها إلى هذه اللحظة التي أنا جالس فيها أمامه. ولن يضرّها في شيء أن أضيف لها مسحة سريالية، وأجعل للهواء الأقرب للفساء الذي يتعفَّن أمام دار المحتال مفعولاً طبياً. أنقذني من نفسي حين قال ليردعني، وهو يقدِّم لي جائزة مفرحة:

- الرجل يتعذب. وبكى طويلاً في الكرسي الذي أنتَ جالس عليه. قال لي بأنه لم يعُد ينام ويكاد لا يقرب الأكل.

رسمتُ على وجهي مسحة خالية من التعبير، كأنّ ما قاله لا يعنيني، فأنا لست مسؤولاً عن آلام البشرية وعذابها في النوم والأكل. وحافظتُ على ذلك الحياد المتماسك الذي صمَدَ في وجه ضربة إشعاري بالذنب التي تلقيتها.

قلتُ له لنُنهي أمر بهار معاناته التي أراد أن يخفِّف بها جفاف المحضر:

- أنا رجل أعمى مسكين ومسالم جداً، لا أفكر ولا أقدِر على إلحاق الأذى بأحد، ومن حقّي أن أتفجّع على حظي العاثر كما أحبّ وفي المكان الذي أختاره.

وأنا أقف لأنسحب من مكتبه قال لي وكأنه يقوم، من بعيد، بتلويحة تعاطف:

- كان من المفروض إِن تكون أنت المشتكي، ولغرابة ما صرنا نعيشه صرتَ مشتكى به؟

كدتُ أن أقول له بقسوة ظاهرة: «الأنكى من ذلك أن تتحدث عن عذاباته، وتتناسى أنه نحرني من الوريد إلى الوريد وأشعل حرائق هائلة بداخلي» وآثرتُ الصمت.

وأنا أخرج. قال لي وهو يتذكّر واجبه المهني نحوي:

- سنرسل محضر الاستماع للسيد الوكيل وسيقرر حفظ الشكاية في الغالب لأنها لا تستند إلّا إلى تهيؤات.. ولو أنك تُزعجه بجلستك تلك.

5

كنت محموماً، ورغم أنني لبست ثياباً قطنية فقد كنت أرتعد من البرد. أخرجتُ بيدٍ مرتعشة علبة خصلة الشعر وأخرجت ورقة إيزابيل. لم تكن دلالتها واضحة ودقيقة مثلما هي اليوم: حتى لو ابتعدَت عنك حبيبتك كما يبتعد الطائر، ويحلِّق في السماء البعيدة، فعليك أن تصبر وتنتظر. ما طار طائر إلّا بمثل ما طار وقع. الأرض حقودة، وهي مثل هذا الخط الأفقي البارد في الورقة، تتمدَّد في إغفاءة صبورة، كل شيء تعب في السماء، وسقط فهو لها، كل شيء جاع أو هزّه الحنين لعشه فهو لها، كل شيء أراد أن يستريح من تعب مواجهة الريح ومبارزة الغمام فهو لها. تتمدَّد الأرض بكسلٍ واضح في ورقة إيزابيل، ولِمَ لا تفعل ذلك وقد زرعت في السماء الجاذبية اللئيمة وهي تسوق لها كلّ يوم من تعب ومن يئس ومن خذل هناك في السماء، ومن لم يعُد يجد متعة ولا فائدة في الطيران؟!

ألاعب خصلة الشعر في يدي لعلّها تراها من شقٍّ ما في النافذة. كما يلاعب بهلوان شرارة نار ليخلق منها لهباً عظيماً. ليست مجرّد لعبة، إنها في يدي فكرة تقول بأنني ما زلتُ أحبها، وأتعذَّب من أجلها، وها أنا أجنّ من أجلها، بل إنني دفعتُ أخي للقيام بغارة

حمقاء لافتكاكها، أخي الذي حكم عليه بأربعة أشهر نافذة بسببها. لماذا تبقى صامتة هكذا؟ لماذا لا تصرخ محتجّة، وتضرب جدران الدار بيدها؟ لماذا لا تقاوم هي أيضاً هذه الخيانة التي خرَبت داراً كاملة؟ لماذا لا تصدح بتماوايتها الحزين فتنير لي، أنا الأعمى، لأرى النار التي تضطرم في قلبها؟ يا إلهي، لماذا هي صامتة، هكذا، ونحن نتصارع عليها كجوهرة براقة لكنها بلا روح؟

قمتُ غاضباً، وقد تملَّكني ذلك الضيق الفتاك الذي يصغر فيه العالم، ويضيق جداً حتى أنه لا يعود يسَع زفرة حارَّة تخرج من صدر مكروب. تحسستُ طريقي إلى المكان الذي قدرت، لأول مرة، بأنه تحت النافذة التي فيها حجرة نومه، وبدأتُ أخبط الأرض بالعكاز وأنا أحصي عدد الضربات. أحسستُ بالنافذة تفتح بقوة. ولم أعبأ لذلك. ثم التمعَ نور خاطف بداخلي، وما يشبه الهزة الأرضيَة ترجّني وتجعل مشاعري تفيض خارج ذاتي، وذلك الشيء الثقيل الذي هوى عليَّ يجرف أذني، ويستقر في كتفي ويسحبني معه إلى الأرض. وأنا أتلاشى سمعتُ صراخاً وبكاء وشيئاً يسقط بجانبي ويحشرج حشرجة الموت. بذلت جهداً خارقاً لأحرِّك يدي حتى لامست يده كانت خائرة تماماً. أعدتها إليّ ببطء وهي تتمرَّغ في دماء حارة، لا أعرف هل هي دماؤه أم دمائي، أم هما معاً؟ وفي النزع الأخير، وكل شيء يتلاشى تدريجياً أمامي، وأنا أدخل نفق الإغماء أو الموت، تذكَّرت فقط صوت هاملت وهو يقول لهوراشيو: إنه زمن الجنون الكبير والعمى الهائل، يا صديقي.

بني مَلال - الخرواع
25 أكتوبر 2015

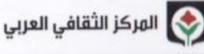
عبد الكريم جويطي

المغاربة

«رجلان في عِراك دامٍ، يوشك أحدهما بأن يجهَز على الآخر بضربة هراوة. أحدهما سيقتل في النهاية، يظهر ذلك من شراستهما، والعصف الكامن في جسديهما المندفعين والمتوثّبين، ثم ليس هناك مَن يفضّ الخصام الضاري بينهما. هراوتان في الهواء تأخذان نفساً عميقاً وقاتلاً من الجاذبية لتهويان بقوة وحسم. هناك جلالٌ ما في هذا العراك الخرافي. بعد حين سيسفح دم، وسيخرّ جسد إلى الأرض، لكن ماذا سيفعل المنتصر بنصره؟ فالأرض من حولهما هضاب جرداء، متفحّمة، وغاضبة، وأرجلهما تغوص تدريجياً في الرمال. يتعاركان وهما لا يدركان بأنّ العدو الحقيقي يتمثّل في الرمل الذي يستدرجهما إلى حتفها. أيّ عمى أصابهما؟ ألا يحتاج أحدهما إلى الآخر في هذه الأرض الجحيمية التي تتّسع بفداحة لهما ولسلالتهما من بعدهما؟! في حمى الهجوم المتبادَل بينهما، والعاطفة العنيفة التي تزيّن لأحدهما فكرة أنّ العالم سيكون أفضل من دون أحدهما، وفي اللحظة التي كان فيها كل شيء ممكناً: يقتل أحدهما، يُقتلان معاً، يخرّان جريحين نازفين بدون إمكانية إسعاف. كان هناك شيء واحد يقف رابط الجأش بينهما محترساً من إشراقة تعقُّل تنبثق بداخلهما فيتوقفان: إنها الجريمة في كمال وحشيتها وقداستها منذ أن دفع رُهاب المزاحمة قابيل لقتل أخيه هابيل. في خلفية لوحة غويا: «عراك بالهراوات» تتجمّع نذر عاصفة، ستقتلع كلّ شيء من جذوره وتطوح به بعيداً. ما أغبى الإنسان! ما أغبى الإنسان!».

لوحة الغلاف للفنان فرنسيسكو غويا

ISBN 978-9953-68-814-5
9 789953 688145



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com